المورد ٤

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية

المجلد السادس عشر ـ العدد الرابع ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م



عدد خاص

غزو الفرنجة للأراضي العربية

"الحروب الصليبية"



المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الجمهورية العراقية

المجلد السادس عشر

شتاء ١٩٨٧

العدد الرابع

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكة بهنام

- **عنوان المجلة :** دار الشؤون الثقافية العامة ـ الاعظمية ـ ص . ب ٤٠٣٢ بغداد ـ الجمهورية العراقية .

- لا تعاد المواد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

غزو الفرنجة
والتماثلات التاريخية المعاصرة

لم يكن التفكيرُ بإصدارِ عددٍ خاصٍّ عن غزو الفرنجة للأراضي العربيّة ، المصطلحُ عليه بالحروب الصّليبية في كتابات الشّرق والغرب ، إلاّ انسجاماً مع المهمّة التي نهضتْ وما تزال تنهض بها مجلّةُ « المورد » كمجلّةٍ متخصصةٍ بالتّراث . هذه المهمّة التي لم تكن عنايتُها بالتراث لتقلَّ عن عنايتها بالمعاصر . ونعني بالمعاصر : التّماثلات التي تبرز خلالَ السّيرورة التاريخيّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة للامَّة .

ومن هنا فإنّ موضوعةَ غزو الفرنجة للأراضي العربية ، لم تفرضْها حقيقةٌ عانت منها الامّـة كثيراً ، وتُـركتْ نهْباً لمناهج المستشـرقين ومؤرِّخي الفـرنجة أنفسهم ، ومَنْ تـابعهم ـ للأسف ـ من المؤرِّخين العرب في رؤاهم وتقديراتهم للغزو ومبرِّراته وحسب . . بل فرضتْها المماثلةُ التاريخية المعاصرة التي تُعاني منها الامَّة العربية اليومَ . ونعني بهذا : إذا كانت الامَّة العربية قد تعرَّضتْ لغزو من غربها (غزو الفرنجة) ومِنْ شرقها (غـزو المغول) . . فـإنّها تتعرَّض في تاريخها المعاصر لغزوٍ جديدٍ مماثلٍ : الصهيونية العالمية ومن يقف معها من قوىً امبريالية وذات مصالح في تدمير الامَّة العربيةٍ وتمزقها : أرضاً وشعباً وتُراثاً ووجوداً . . من الغرب . والخمينيّة ومن يقف معها أيضاً لذات الأهداف من الشرق .

إنّ كلّ هذا يفرض علينا إعادةَ قراءة الأحداث ، والتبصُّر بالتجربة ، ليس من أجل فهمها وتحليلها وإدراك المخاطر المحدقة بالمصير العربيّ وحسب . بل ومن أجل وَعْي عوامل القوّة في الامَّة التي استطاعت بها ، رغمَ المعاناة والمرارة والتضحيات الجسام ، أن تصدَّ الغزاةَ وتفكَّ « الكمَّاشةَ » التي أُريد بها الاطباقُ عليهـا من الغرب والشـرق . . فتخرج مضـرَّجةً بالدماء ، ولكنْ سليمةً مُعافاةً كمن تطهَّر بالنار وامْتُحن بالتجربة .

ومن المتماثلات في التجربة هذه أيضاً : مثلما تستَّر الغزاة الفرنجة بالصليب لتحشيد مشاعر الحقد والكراهية ونزعة المغامرة وارتكاب أبشع الجرائم باسم الصليب وتحرير الأراضي المقدّسة !؟ والصليب منهم بَراءٌ . .

ومثلما تستَّر المغولُ الغزاة بالدين واتَّخذوه رداءً لقهر وتدمير بلاد العرب والاسلام . . والاسلامُ منهم بَراءٌ . . نجد الخمينيّة ، اليومَ ، وحليفتها الصهيونية تتستَّران بأقنعةٍ مماثلةٍ لاحتلال وسلب الأراضي العربية ووضع السيف في رقاب العرب والمسلمين . . . ولكنْ مثلما انفضح أمرُ الغزاة الفرنجة والمغول لبشاعة الجرائم التي ارتكبوها ، ونزعة الاحتلال والنهب التي اتّصفوا بها . . انفضح أمرُ الصهاينة والخمينيين كغزاةٍ قتلةٍ مخرِّبين محتلِّين . . فالغزاةُ كلُّهم ، ومهما اختلفت أسماؤهم وألوانهم لهم الطبيعة نفسها : قتلٌ ، ونهبٌ ، وتدميرٌ ، وانتهاكٌ للحرية والكرامة والسيادة .

ومثلما وقف البطَلان : صلاح الدين الأيوبيُّ في وجه الغزاة الفرنجة ، والظاهرُ بيبرس في وجه الغزاة المغول . . بقوَّةٍ وصلابةٍ وبطولةٍ حيث هزموهم شرَّ هزيمةٍ ، كانت فيها نهايتهم . . يقف اليومَ القائدُالبطلُ صدَّام حسين في وجه الغزاة الخمينيين وحلفائهم الصهاينة . . ليحميَ الديارَ والذمارَ ويحفظ للعراق والامَّة العربية كرامتها وعزَّتها .

إنَّ عبر التجربة هذه ودروسها أكثرُ من أن تُعدَّ لمن كان له عقلٌ يعي وضميرٌ يتَّعظ . . لكنَّ الخونةَ والمتردِّدين والجبناءَ ومن باعوا ضمائرَهم لأعداء الامَّة وقتلة أطفالها ومحتلِّي أراضيها بثمنٍ بخسٍ ، لا يتَّعظون بدرسٍ ولا يحفظون لشيءٍ ذِمَّةً ، وبالتالي فلن ينالوا سوى لعنة الله والتاريخ والناس أجمعين .

لقد حرصنا ، جهد المستطاع أن نضع حقيقة الغزو هذا (غزو الفرنجة) في المصطلح الصريح ، معنىً ومبنىً ، لعلْمنا أنّ مصطلح الحروب الصليبية الذي وضعه الغزاة ومؤرِّخو الفرنجة أنفسهم ، ليس إلاّ محاولةً لطمس المحتوى الحقيقي لهذه الحروب الاستعمارية ، كما هو الهدفُ نفسه حين احتشد الغزاة باسم الصليب ، كما يحتشد الغزاة الخمينيون اليوم ضدَّ العراق والامَّة العربية باسم الاسلامِ . . والصليبُ . . والاسلامُ بريءٌ من الطرفين .

بَقِيَ ان أقول أخيراً : إنّ مجلّة « المَوْرد » التي سرَّني وشرَّفني والاخوة الاساتذة الأفاضل أعضاء الهيأة الاستشارية الذين بذلوا جهدهم بصدقٍ ومحبَّةٍ . . أن أحملها أمانةً طيلةَ ثلاث سنوات ، يسرُّني أن أُرجع الأمانةَ الى من هو أكثر منّي علماً وفضلاً وقرباً . . وظهراً قويّاً . . ! أُستاذنا العلاَّمة الفاضل عبدالحميد العلوجي الذي هو الأب الحقيقيُّ بحقٍّ للمورد . حيث ولدتْ وترعرعتْ وشبَّتْ واستوتْ في أحضانه وتحت رعايته ومباشرته لها بالعين والعقل والقلب طيلةَ أربعةَ عشر عاماً . .

والله وليُّ التوفيق .

طراد الكبيسي

الحروب الصليبية

دوافعها وبواعثها الممهدة

الدكتور صالح العابد
كلية الآداب / جامعة بغداد

يرتبط تعبير (الحروب الصليبية) منذ قرون في أذهان الناس والباحثين بغيظ ديني متطرف وتعصب اعمى اسفرا عن فظائع تفوق التصور ، وكانا سبباً لسفك دماء مئات الالاف من البشر . فقد رافق الحملات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر وحشية متناهية شملت حتى المسيحيين الشرقيين ، من مظاهرها تقطيع الأوصال « قامت بعض فصائل الصليبيين بتقطيع اللحم البشري الى شرائح طُبخت وأُكلت . . . أحراق الاحياء . . الاغتصاب والذبح . . . . حتى أصبحت هذه الفظائع مظاهر لازمت الحملات الصليبية »[1] . وعلى نحو عام ، يمكن تحديد قَدْر المدى الزمني للحركة الصليبية بين عامي ١٠٩٥و ١٢٩١ ، أي بين الدعوة الى الحملة الاولى على الشرق ، وطرد الصليبيين من آخر معاقلهم في بلاد الشام : عكا ، قامت خلالها ثمان حملات كبرى : أربع منها اتجهت الى الشام هي : الاولى والثانية والثالثة والسادسة ، واثنتان الى مصر هي : الخامسة والسابعة ، وواحدة احتلت القسطنطينية هي الرابعة ، والثانية نزلت بتونس ، وعدد لايحصىٰ من الحملات الصغيرة « ولم تخل سنة واحدة من سيل المسلحين المتدفق الى الشرق »[2] . بل ان المؤرخين يعدون هذه الحروب قد استمرت بعد التاريخ الذي حددناه لنهايتها ، فالصراع بين العثمانيين واوربا هو جزء متمم لها ، استمر بعنفوان بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر .[3] واسفرت عن تلك الحملات نتائج غاية في الاهمية « يمكن تشبيهها باستعمار اميركا واستيلاء بريطانيا على الهند » .[4] وسميت هذه الحروب ، الصليبية ، لأن من شاركوا فيها كانوا يخيطون على البستهم عند الصدر علامة الصليب من قماش أحمر رمزاً « لتحرير الارض المقدسة من ايدي الكفار »[5]! وكان قسم من المؤرخين يعدون الحملات الصليبية فصلاً من فصول الصراع بين العالمين الاسلامي والمسيحي . الفصل الأول منها بدأ عام ٦٣٢م واستمر أربعة قرون ونصفاً ، أي حتى اندلاع تلك الحروب (١٠٩٦ ـ ١٢٩١) التي هي في تصورهم رد فعل أوربا المسيحية على التوسع الاسلامي ، وبذلك فانها تؤلف الفصل الثاني . ويبدأ الثالث بانهيار المشروع الصليبي وانطلاق الاسلام مجدداً بـ (١٢٧٠ ـ ١٦٨٣) ، وفي خلاله سقطت القسطنطينية في ١٤٥٣ ، وحوصرت فينا في ١٦٨٣ . أما الفصل الرابع ، فيبدأ منذ ١٦٨٣ ، وفيه شهد العالم الاسلامي تراجعاً كبيراً أمام التطور الاوربي ، وتحولت خلاله الدولة العثمانية الى (رجل اوربا المريض) واحتُلت أجزاء مختلفة من العالم الاسلامي .[6]

فما الأسباب التي أدت الى ذلك الصراع الفريد من حيث الأبعاد والزمن بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ؟

وما الدور الذي أدته الكنيسة ، مركز النظام الاقطاعي ، في اشعال أواره ؟ ان القاء الضوء على ذلك يتيح لنا فهم المقدمات والمنابع العميقة للحروب العدوانية التي خاضها الفرسان الاوربيون في المشرق العربي .

بعيداً عن التصور الساذج بان تلك الحروب انطلقت اساساً بسبب الاوضاع في المشرق خلال القرن الحادي عشر نتيجة الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى ، وما عاناه الحجاج الاوربيون من عنت عند مسيرتهم الى الارض المقدسة ، فانها انبعثت عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي سادت اوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة الامبراطور البيزنطي . ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها عملياً وعلى أوسع نطاق.

شهد القرن الحادي عشر توطيد النظام الاقطاعي وتبلوره ، وسادت مؤسساته أرجاء اوربا الغربية لاسيما فرنسا والمانيا وانكلترا ، وفي الوقت ذاته ، أخذت المدن تظهر وتتنامى ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وتترسخ تدريجياً فاتحة الطريق لظهور مدن جديدة .[٧] ولم يقتصر ازدياد النمو التجاري على الريف والمدن في كل بلد أوربي فحسب ، بل امتد الى نطاق اوسع ، بين بعض أجزاء أوربا الغربية ، لاسيما جنوب فرنسا والمدن الايطالية ، ومناطق حوض البحر المتوسط ، ورافق ذلك ، بطبيعة الحال ، تراجع الاقتصاد المحلي Economic Localism الذي كان أبرز سمات الاقتصاد الغربي . فقد كانت (الاقطاعية) هي وحدة الانتاج المركزية مكتفية ذاتياً بما تنتجه Production for subsistence وليس للمتاجرة .[٨] وتلقائياً ، دخلت النقود حياة المجتمع الاقطاعي[٩] لتنازع اسلوب التعامل السائد عن طريق المقايضة وتسديد التعهدات الاقطاعية عيناً .[١٠] وقد ادى التوسع المتزايد في استخدام النقود الى تغيير في مستوى حاجات الطبقتين الرئيستين وهما : السادة الاقطاعيون والفرسان النبلاء ، والفلاحون الاقنان فقد كان الاقطاعيون يكتفون بالواردات العينية وأعمال (السخرة) من الاقنان ، ولكن مع ظهور المدن ونمو التجارة ، تعاظمت حاجاتهم وصاروا اكثر طلباً والحاحاً ، وأدخلوا فريضة المدفوعات النقدية عوضاً عن الضرائب العينية ، الأمر الذي كان مرهقاً الى أقصى حد فيما يتصل بالفلاحين الذين ازدادوا انحداراً ، في أغلبهم ، الى هاوية الفقر المدقع .[١١]

وكانت الحروب الداخلية المستمرة بين الامراء الاقطاعيين التي عمت معظم أنحاء غرب اوربا في القرنين العاشر والحادي عشر ، عاملاً مهماً في تدهور احوال الريف ، واستشراء الفوضى بسبب فقدان الدولة القوية .[١٢] وزاد من تدهور الوضع سوء المواسم الزراعية بسبب ضروب الكوارث الطبيعية ، فعمت المجاعات أرجاء الريف والجأت الناس الى أكل الحشائش والاعشاب لاسيما في اواخر القرن الحادي عشر ، اي في ذلك الزمن العصيب الذي سماه المؤرخون المعاصرون « السنوات السبع العجاف » وهو الوقت الذي سبق قيام الحروب الصليبية مباشرة .[١٣] ويتحدث هؤلاء المؤرخون عن العوز الذي عم الغرب بسبب القحط والكوارث الطبيعية والاوبئة الفتاكة .

واذا اضفنا الى ذلك غارات عصابات الفرسان المستمرة ، يمكننا ان نفسر ظاهرة نزوح أعداد كبيرة من الفلاحين المعدمين من قراهم باحثين عن الخلاص الى المدن ، مما أدى الى تطور اجتماعي خطير .[١٤] وكان من نتائجه اشتداد مظاهر التقشف والزهد الديني ، وانتشار الخرافات والاعتقاد بالقوى الغيبية والنظرة الى الظواهر الطبيعية وكأنها علامات تدل على القوى الخارقة[١٥] . ان نزعة اشتداد الهوس الديني وروح النسك التي سادت الفئات المتدنية من المجتمع مهمة جداً لفهم أحد أهم أسباب الحروب الصليبية ، فهي تفسر في كثير من النواحي استعداد عامة الناس لفكرة « المأثرة الدينية » .[١٦]

ان تعاظم الميول الدينية في الريف ، كان نتيجة لظروف حياة الاقنان التي لاتطاق ، ضاعف منها التزاماتهم المرهقة تجاه سادتهم ، حتى بلغت حياتهم درجة لاتوصف من التعاسة .[١٧] فمع كل العوز الذي كان يسحقهم ، كان السيد يستوفي مايعادل ثلثي انتاج القن في المانيا مثلاً .[١٨] وسيطر على الفلاح شعور ، بسبب الجهل العام ، ان بلاياه الاجتماعية والطبيعية ماهي الا عقاب من السماء بسبب

خطايا مجهولة ، ومن هنا انبثقت المشاعر الغامضة بأنه « لايمكن التخلص من العذاب الدائم الا بطلب الرحمة من الرب عن طريق إجتراح مأثرة بطولية ، بالمعنى الديني ، للتكفير عن الذنوب لأجل غفران الخطايا من نوع الاستشهاد باسم الايمان » .[١٩] وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد والسعي الى كسر سلاسل القنانة والانفلات من براثن العوز في ذهن الفلاح ، انعكاساً مشوهاً ، وتحول الى رغبة عارمة في اجتراح مأثرة دينية .

وفيما يتعلق بطبقة الاسياد ، فان الاوضاع الاقتصادية المتدهورة مست مصالحهم على نحو مباشر . فالنظام الاقطاعي ارتبط بالارض ، وبقدر مايكون الاقطاع كبيراً ، بقدر ماتكون مكانة النبيل سامية في المجتمع . وفي ظل هذا النظام ، كانت المشكلة الكبرى التي يمكن ان تواجه النبيل هو عدم وجود اقطاع أو ارض له مما يجعله عديم الاهمية مسلوب النفوذ .[٢٠] والامر الذي عمق المشكلة ، ان قواعد الارث في المجتمع الاقطاعي ، انتقال الاقطاعية (fief ـ عصب النظام) الى الابن الاكبر ، بموجب قاعدة (حق البكورة Primogeniture) عند وفاة الاقطاعي ، حفاظاً على الوحدة الانتاجية للاقطاعية من التجزئة .[٢١] وبذلك لايرث بقية الابناء سوى الاموال المنقولة كالخيول والاسلحة والالبسة . وكانت النتيجة ، ظهور عدد كبير من الفرسان المحرومين من الأرض ،[٢٢] وهو أمر ممقوت في السائد من المجتمع ، ولهذا كان امتلاك عقار حلم مثل هؤلاء . ومن الطبيعي ان يلجأوا الى العنف المسلح ، وأصبح القتال حرفة لهم لاصلاح اوضاعهم مبتعدين كلياً عن كل مايمت الى مؤسسة الفروسية من قيم[٢٣] ؛ اذ عمدوا أفراداً وعصابات الى التجوال في الاراضي المجاورة والبعيدة ، يهاجمون القرى وينهبون ماتقع عليه ايديهم ، وكثيراً ماكانت ترافق ذلك اجراءات غاية في القسوة ، ومن ذلك ذبح الاسرى الذين لايملكون مايفتدون به أنفسهم « وأصبح منظراً مألوفاً في فرنسا والمانيا رؤية قرى تغلفها السنة النار والدخان » .[٢٤] وشملت عمليات عصابات الفرسان قطع الطرق وسلب المسافرين . وتجرأت بعض تلك العصابات على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ، وكانت الممتلكات الدنية لدى الكنائس والاديرة « الطعم الاكثر اغراءً »[٢٥] .

لقد عانى من هذه الغزوات وعمليات النهب الفلاحون والتجار والمسافرون[٢٦] ، ولكن ضرراً اكبر تعرضت له عقارات الكنائس والأديرة ، مما بث القلق في أوساط الفئات العليا من المجتمع الاقطاعي وأجبرها على البحث عن مخرج من المصاعب الناشئة : بوار المواسم الزراعية ، المجاعات ، الأوبئة ، فرار الاقنان وتمرداتهم ، الى جانب لصوصية الفرسان المعدمين والنزاعات بين الاقطاعيين الكبار وتكتلاتهم . ولهذا ساد القلق وعدم الاستقرار الحياة الاجتماعية على نحو شامل ، وكان الناس ينزلون ببعضهم أفدح المصائب بعمليات القتل والنهب ، وبلغ الشر بأوجهه المختلفة أقصى الحدود .[٢٧] .

وكانت مصلحة المجتمع الاقطاعي السائد ان يبحث عن سبيل يثبت ويوطد دعائم النظام القائم بان يعثر على طريق لحل المشكلات القائمة المهددة ، ويتيح للاقطاعيين وسيلة تلبي حاجتهم الى امتلاك الاراضي والثروات ، ويخلص الاسياد الكبار من عصابات الفرسان ، والفرسان من مصير من لاأرض لهم . وقد أخذت الكنيسة ، اكبر المؤسسات الاقطاعية وأقواها ، على عاتقها مهمة تخليص الطبقة العليا ، والمحافظة على النظام القائم .[٢٨]

وكانت الكنيسة « اكبر مالكة اراضي في اوربا » آنذاك أعظم مؤسسات العصر الاقطاعي ، تمتلك مساحات شاسعة من الاراضي معفاة من الضرائب[٢٩] ، وتجبى الاموال المختلفة ، وأصبح رجال الدين اشبه بالاقطاعيين ، لهم اقطاعاتهم وجندهم الخاص ، وفوق كل ذلك ، مثلت الكنيسة الحصن الروحي للطبقة الارستقراطية عامة[٣٠] وعندما أخذ الاقنان في القرنين العاشر والحادي عشر يتمردون أو يلوذون بالفرار ، وعندما اشتدت الحروب بين امراء الاقطاع وتزايدت غارات الفرسان المعدمين مسببة الاضرار بممتلكات الكنيسة ، وهددت بالكوارث الانتاج الاقتصادي للنظام الاقطاعي ، شعر كبار رجال الدين بضرورة توطيد مواقع الكنيسة المادية والمعنوية وتحسين

تنظيمها وزيادة قواها ورفع مكانتها عن طريق تقوية السلطة البابوية[٣١] ، ومنع تدخلات السلطات العلمانية في شؤون الكنيسة وتوحيد أوربا دينياً تحت زعامة روما .[٣٢] وبادرت الأديرة ، أقوى المؤسسات الكنسية من الناحية الاقتصادية والتنظيمية ، الى اجراء اصلاحات مهمة وتحويرات مختلفة هدفها العام توطيد مواقع الكنيسة ورفع مكانتها . ويبرز في هذا المجال دور رجال ديركلوني Cluny في برغندي بفرنسا[٣٣] ، ولهذا عرفت الحركة الاصلاحية باسم (الحركة الكلونية) ، وكان هدفها المركزي اعادة البابوية الى سطوتها القديمة وتحقيق اشراف مركزي على الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسي وتدعيمه وربط اطرافه بالمركز العام في روما .[٣٤] ومن بين الاصلاحات التي قامت بها الحركة السعي الى تقليص العمليات الحربية باصدار ماعرف بـ (الهدنة الربانية Truce of God) يمنع فيها الاقتتال من مساء الخميس حتى صباح الاثنين وأيام الاعياد والصيام .[٣٥] ان هذا الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب التي يقوم بها صغار الفرسان ولانهاء النزاعات المسلحة بين الاقطاعيين لم يكن له مفعول بيّن . فكان على الكنيسة ان تجد سبلاً اخرى تصون المالكين الكبار من اعتداءات (من لا أرض لهم) ، وتروي ظمأ الفرسان الى العقار والثروة . ومما لاشك فيه ان عملية البحث هذه كانت أساساً عملية عفوية اشترك فيها الاقطاعيون والفرسان . وفي كل حالة ، منفردة ، كانوا يتوخوّن تحقيق اهدافهم القريبة دون التفكير في القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعي والسياسي . ومع ذلك ، كانت اعمالهم التي تمليها اعتبارات آنية تهيء الطريق المؤدي الى ايجاد حل القضية التي تهم الاقطاعيين جميعاً « وهنا عاد دور كبير الى البابوية التي كانت تعزز مواقعها تدريجياً »[٣٦] ، وكانت « الدعوة الى الحروب الصليبية واجهة الحركة التي تهدف الى السيادة العليا للبابوية » .[٣٧]

وثمة عامل آخر أدى دوراً كبيراً في توجيه الغرب الى الشرق العربي هو ظاهرة الحج الى الاراضي المقدسة ، هذه الظاهرة التي انتشرت بقوة هائلة خلال القرن الحادي عشر .[٣٨]

كان الحج معروفاً منذ القرن الرابع ، ولكنه كان فردياً في الاغلب ، واذا خرجت جماعة للحج فان عدد أفرادها لايتجاوز غالباً بضعة أشخاص .[٣٩] لقد كانت الرغبة في زيارة الاماكن المقدسة المنبثة في اماكن مختلفة من غرب أوربا احدى سمات العصور الوسطى وغايتها غفران الذنوب ، ولكن (اورشليم) في فلسطين كانت المكان الأقدس ، حيث ساد الاعتقاد بان زيارتها تمحو كل الخطايا ليولد المرء مجدداً ، ولهذا كان (الحاج) يحتفظ بالرداء الذي يدخل فيه الى اورشليم « ليتكفن به عند وفاته ، وبذلك يضمن دخولاً فورياً الى الجنة »[٤٠] . ومن مراجعة لسجلات العصور الوسطى على مايذكر المؤرخ وارن أولت ، يظهر قيام تحرك ست رحلات حج الى القدس في القرن الثامن واثنتى عشرة رحلة في التاسع وست عشرة في القرن العاشر ، ولكن القرن الحادي عشر شهد انطلاق ظاهرة كثرة الحجاج إذ تحركت سبع عشرة رحلة ، ضمت احداها اكثر من احد عشر الف شخص معظمهم من رجال الدين والفرسان انطلقت من جنوب المانيا في عام ١٠٦٥[٤١] . وعلى خلاف رحلات الحج السابقة ، ضمت رحلات القرن الحادي عشر عدداً كبيراً من الرجال المسلحين ، فكانت منطلقاً لتجربة « التصدي بالسلاح الذي مهد لفكرة تخليص الاماكن المقدسة بقوة السيف » .[٤٢] ومن الجدير بالملاحظة ، ان هذه الموجة رافقها انتشار توزيع (دليل الحج للاراضي المقدسة) على نطاق واسع ، ومن الطريف ان بعض تلك الكتب والخرائط حددت طبقاً لزعمها : « بدقة موضع استقرار سفينة نوح وسرير الرجل المشلول بل البقعة التي قذف اليها الحوت النبي يونس » ! وتحولت اهرام مصر في كتب وخرائط الدلالة هذه الى « مخازن يوسف السبعة للغلال أيام سني السنوات العجاف[٤٣] » !

ومن الطبيعي ان زيادة حركة الحج في القرن الحادي عشر كانت متطابقة مع حركة الانتعاش الديني الذي عبر عن نفسه ببناء الكاتدرائيات الضخمة وحركة كلوني الاصلاحية التي كانت تشجع الاندفاع الى الحج بالوسائل كافة ، ومنها

تشييد الفنادق على جوانب الطرق للحجاج وقيام ادلاء لتنظيم مسيرتهم ، وساعد ذلك ان دخول هنغاريا الى المسيحية في مطلع القرن الحادي عشر قد فتح الطريق البري عبر اوربا الى الشام .(٤٤)

ان حركة الحج قد مهدت للحروب الصليبية المجال فكرياً وعملياً ، فقد اسهمت في تعاظم الميول الدينية ونزعة الزهد ، وعرفت الاوربيين على الطرق الى الشرق وعلى الوضع في البلدان الشرقية واججت تعطش الاقطاعيين الى امتلاك الاراضي البعيدة الغنية .(٤٥)

ولم يكن الحج هو الظاهرة الوحيدة التي مهدت للحروب الصليبية ، فالموقف في اسبانيا نتيجة اشتداد الصراع بين الاسبان والعرب كان تمهيداً آخر لها . فقد اشترك بعض الفرسان الفرنسيين في ذلك الصراع الذي عرف باسم (حروب الاسترداد Reconquista) .(٤٦) . ففي معركة برباسترو Barbastro (١٠٤٦) اشترك عدد كبير من الفرسان الفرنسيين من دوقيتي اكوتين وتولوز على رأسهم الدوق غليوم اكوتين Guillaums of Aquitain الى جانب الاسبان .(٤٧) واستمر عبور الفرنسيين جبال البرنس لاسيما بعد تدهور وسقوط الخلافة الاموية في قرطبة عام ١٠٣١ . وحينما استولى ملك قشتالة الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ ، كان جيشه يضم الى جانب الفرنسيين الفرسان الالمان أيضاً . وكان لسقوط هذا المعقل الاسلامي دوي هائل أجج روح الحماسة الدينية في اوربا الغربية . ولكن تمكن العرب من ايقاف زخم الاندفاع الصليبي مؤقتاً بالانتصار العظيم الذي حققه زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين على القوات الاسبانية في معركة الزلاقة الشهيرة (تشرين الاول ١٠٨٦) .(٤٨) ولكن صدى ذلك الانتصار كان حافزاً لمواصلة الصراع ، فتشكلت في فرنسا بعد سنة واحدة وحدات اقطاعية قوية على رأسها دوق برغندي هوغ الاول Hugues وكونت تولوز ريمون دي سانجيل ، أحد أبرز قادة الفصائل الصليبية في الحملة الاولى ، لادارتها .(٤٩)

لم يغب ذلك الصراع عن أذهان قادة الكنيسة الرومانية ، فقد استحث رجال كلوني الفرسان الفرنسيين والالمان بما يملكون من وسائل على الاشتراك في تلك الحرب ، وبارك البابا حملات الاسبان ومن يشترك معهم لمحاربة المسلمين ، اذ رأت البابوية فيها وسيلة لرفع مكانتها من ناحية ، والتخلص من الفرسان بتوجيه طاقاتهم الى الخارج لحرب الاعداء :

« ان واجب المقاتل المسيحي ان يحارب ضد اعداء البابوية والكنيسة » ، هكذا كان نداء البابا .(٥٠) واحيط المشاركون في الحملات الاسبانية بها لة « الاستشهاد من اجل الدين والايمان » لانها حرب مقدسة ، واعلنت الكنيسة غفران خطايا كل من يذهب الى اسبانيا « للقتال من اجل الصليب » ، واكثر من هذا ، سمح البابا غريغوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) للفرسان بحق امتلاك الاراضي التي ستنتزع من المسلمين بشرط اعترافهم بالسلطة العليا للبابا على الاراضي المستولى عليها .(٥١) وبهذا فان حروب الفرسان الفرنسيين في اسبانيا كانت بمثابة (حروب صليبية) قبل انطلاق الحملات الى الشرق ، من حيث المضمون والشعارات ، ومقدمة استهلالية للحملة الصليبية الاولى .

ولم تكن اسبانيا وحدها هي التي اجتذبت الفرسان الاقطاعيين ، فمنذ الربع الاول من القرن الحادي عشر ، أخذ اخلاف الفايكنك الاسكندنافيين (من النورمان الشماليين) الذين سبق لهم ان احتلوا نورمانديا في اوائل القرن العاشر(٥٢) ، يندفعون الى مناطق ايطاليا الجنوبية ، وبعد صراع ضار بين العرب وبيزنطة أسسوا هناك عدة امارات اقطاعية . وما بين سنتي ١٠٦١ و١٠٧٢ استولى النورمانديون على صقلية من العرب .(٥٣) وفي ١٠٦٦ غزوا انكلترا ، وفي سنة ١٠٧٣ ، انشأ المغامر النورماندي روسل دي بايل Roussez de Bayle ، امارة اقطاعية في وسط اسيا الصغرى لم تدم طويلاً ولكنها كانت الانموذج الذي قامت على غراره الامارة النورمانية في الشام بعد مرور ربع قرن .(٥٤)

لقد باركت البابوية انتصارات النورمانديين واستغلتها في اهدافها السياسية ، وفي كل هذا يتبدى بجلاء الخط السياسي للبابوية وقوامه تنظيم عدوان الفرسان في اطراف

أوربا الغربية وحوض البحر المتوسط . ولم يقتصر تأييد روما لحملات الفرسان فقط ، بل ساندت المدن الايطالية التجارية : بيزا وامالفي وجنوة . ففي عام ١٠٨٧ عندما اقتحم اسطول متحد لهذه المدن ميناء المهدية في تونس وأوقع فيه الخراب ، بارك البابا ذلك الهجوم ، وأرسل اليهم راية القديس بطرس غافرا لهم خطاياهم .[٥٥]

وهكذا نجد ان خيوط الحركة الصليبية قد تشابكت مع سياسة الاصلاح الديني التي تصدرتها الحركة الكلونية لترسيخ مكانة البابوية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر بدءاً بالبابا ليو التاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) [٥٦] ومروراً بالبابا غريغوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) الذي سعىٰ الى توطيد سلطته لا على الكنائس فقط، بل على الحكام الزمنيين ايضا ، معلناً في رسالته الشهيرة (أمر البابا) انه يحق للكرسي الرسولي تعيين وعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة، وان كل سلطة لن تكون شرعية الا بقدر ماتحظىٰ بتأييد رأس الكنيسة «ممثل العلي الأعلىٰ على الارض».[٥٧] ومع ان هذه السياسة جوبهت بمعارضة عدد من الملوك، وحصل أول اصطدام مسلح بين أنصارها وانصار الامبراطور الالماني هنري الرابع، لكن الصراع استمر بنجاح متقطع في صالح روما في عهد خلفاء ذلك البابا.[٥٨] حتى وصلت البابوية أعلىٰ درجات سلطتها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.[٥٩]

ان سعى البابوية الى انشاء ثيوقراطية شاملة في اوربا دليل على المكانة التي وصلت اليها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الحادي عشر ومركزها القيادي روما. وكانت فكرة انهاء استقلال الكنيسة الشرقية الارثذوكسية التي انفصلت عن كنيسة روما في ١٠٥٤، جزءاً أساسياً من منهج البابوية لمد سيطرتها على اراضي بيزنطة. ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الدقة، ظهرت الخطوط الاولىٰ من مشروع الحملات الصليبية على الشرق[٦٠] التي مهد لها ما تعرضت له الامبراطورية البيزنطية من اخطار خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ليتيح الفرصة المنشودة للبابا للظهور في صورة الزعيم الأعلىٰ للمسيحية بدمج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واستعادة الاراضي المقدسة في فلسطين.[٦١]

شكل تقدم السلاجقة الى مشارف آسيا الصغرىٰ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، بعد أن فرضوا سيطرتهم على أجزاء واسعة من المشرق، وما اتصفوا به من نزعة قتالية، خطراً على الامبراطورية البيزنطية مهدداً لكيانها.[٦٢] وفي عهد ثاني سلاطينهم ألب أرسلان أسد الدين أبو شجاع (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢)، اقتحم السلاجقة آسيا الصغرىٰ وهدفهم الاستيلاء على اراضي الدولة البيزنطية بدلاً من مجرد اغارات محدودة،[٦٣] فاستولوا على آني وقارص، قلب ارمينيا البيزنطية والخط الدفاعي الأول عن الامبراطورية عام ١٠٦٥، واخضعوا كبادوكيا ووصلوا بعد عامين الى قيصرية.[٦٤] وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ ـ ١٠٧١) ان يوقف الزحف السلجوقي، فتقدم على رأس جيش ضخم قدر بـ ٣٠٠٫٠٠٠ رجل، معظمه من المرتزقة، لحسم الموقف. وفي ١٩ آب ١٠٧١، دارت رحى معركة هائلة شمالي بحيرة وان قريباً من قلعة مانزكرت، انسحقت خلالها زهرة الجيش البيزنطي تحت سنابك خيول فرسان السلطان الب ارسلان، ووقع الامبراطور رومانوس في الأسر.[٦٥]

كانت معركة مانزكرت من الحوادث الكبرىٰ في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، اذ شلت قوى الامبراطورية البيزنطية عسكرياً واقتصادياً بفقدانها ممتلكاتها الغنية في آسيا الصغرىٰ ومهدت لاستيلاء السلاجقة عليها، واخذت بيزنطة تتطلع الى الغرب الكاثوليكي لانقاذها من الخطر.[٦٦] وقد حاول البابا غريغوري السابع استغلال مصاعب بيزنطة لتحقيق هدفه في اعادة ربط الكنيسة الارثذوكسية بروما وادراج بيزنطة بالقوة في فلك التأثير البابوي وامتلاك ثرواتها. ويعلق المؤرخ فشر على موقف البابا بقوله: «ظل احتواء الكنيسة الشرقية حلم البابوات، وهو في جوهره يعبر عن طموح سياسي واقتصادي أدى فيا بعد الى قيام الحملة الصليبية الرابعة بالاستيلاء على القسطنطينية».[٦٧] واتخذ البابا من طلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨) النجدة، وتعهده بازالة اسباب الخلاف

بين الكنيستين، منطلقا للدعوة الى تنظيم حملة عسكرية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية المسيحيين من السلاجقة المسلمين. ولكن هذا البابا لم يستطع ان يحقق مقاصده، ذلك ان الصراع الذي اندلع ضد الامبراطور الالماني صرف انتباهه عن بيزنطة.[٦٨] ولكن الاستعدادات التي قام بها غريغوري السابع لشن حرب كبيرة «لحماية بيزنطة» كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التي تكاملت فيما بعد في عهد أقرب خلفائه البابا اوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) لأجل تنظيم حملات الغزو للشرق. وهنا ساعدت الأوضاع التي قامت في المشرق العربي في العقد الأخير من القرن الحادي عشر على وضع الخطة موضع التنفيذ. فقد تداعت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه في ١٠٩٢، وانقسمت خمسة كيانات متنافسة، الى جانب عدد من الامارات المحلية الصغيرة المتناحرة.[٦٩] فهيأ التفتت والانقسام الكبير الذي كانت تعاني منه هذه المنطقة، على قيام الهجمة الصليبية ونجاحها.[٧٠]

ومن الجدير بالذكر هنا ان المسألة التي استندت اليها البابوية في تحريض الاوربيين على الاشتراك في مشروع الحملات على الشرق وهي: «تعديات السلاجقة على المسيحيين»، يمكن تصنيفها ضمن مجال الدعاية «لكي تسهم الاشاعة عن الخطر الذي يشكله المسلمون على الاماكن المقدسة في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب، وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينتشر من روما البابوية»[٧١] وقد اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبرير تلك الحملات «مختلف الاساطير عن الملاحقات والمطاردات التي قام بها السلاجقة ضد المسيحيين في البلدان الشرقية والحجاج المتجهين الى القدس»[٧٢]. وانساق وراءهم عدد من المؤرخين فرأوا ان ذلك هو السبب الجوهري للحملات الصليبية. وهذا يعني انهم، رغبة منهم في تفسير منشأ الحرب، نقلوا مركز ثقل الاحداث التي استتبعت الحروب الصليبية، الى الشرق. ويعلق البروفسور زابوروف على ذلك بالقول: «ان هذا التفسير للاحداث لايتطابق البتة مع الوقائع التي قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون، فان السلاجقة لم يكونوا يتصفون اطلاقاً بالتعصب الديني الاعمى. حقاً ان فتوحاتهم رافقها هلاك الناس وآلامهم كما رافقها الدمار، اي رافقها كل مايرافق اية حرب كانت. ولكن هذا لم يكن له البتة أية علاقة بالدين المسيحي. فحيال ذوي الاديان الاخرى، انتهج السلاجقة تلك السياسة الوفية التي استقرت منذ زمن الفتوحات العربية. ذلك ان المسيحيين، شأنهم شأن اليهود، هم بموجب تعاليم الاسلام مؤمنون من أهل الكتاب ... لهم حرية ممارسة طقوسهم .. بل انهم كانوا يشغلون المناصب المختلفة في الدولة الاسلامية. وقد واصل السلاجقة تقليد التساهل هذا ولم يفرضوا اية عقبات جدية في وجه المسيحيين تعيقهم في شؤونهم الدينية ... وفضلاً عن ذلك، عنى الفتح السلجوقي بالنسبة لذوي العقائد المسيحية في اسيا الصغرى (الارثذوكس، المونوفستيين، النسطوريين، الغريغوريين وغيرهم، نوعاً من خير ونعمة، اذ تخلصوا من مظالم البيزنطيين الدينية والضرائبية. وهكذا على نحو مطابق تماماً، يوضح الاوضاع المؤرخ الارمني متي الزهاوي (ت ١١٤٤) وميخائيل السرياني (ت ١١٩٦) والمؤلف المجهول لكتاب (تاريخ بطاركة الاسكندرية) وغير ذلك من كتب المؤلفين المسيحيين الشرقيين ... ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين في ظل حكم السلاجقة، وعن العقبات التي أقاموها في وجه الحجاج، هي بقدر كبير اختلاقات غير صحيحة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين أحدث عهداً الينا»[٧٣]

لقد أصبح الرأي السائد في اوربا الغربية في العقد الاخير من القرن الحادي عشر صالحاً لتحقيق «حلم البابوية» باستغلال الوضع القائم للعلاقات الدولية لتبلغ هدفها بتأسيس دولة ثيوقراطية عالمية. فالجو العام في الغرب ازداد تفاقماً، ومصاعب الفلاحين في غضون «السنوات السبع العجاف» بلغت الذروة، والاستياء عم الفئات الدنيا من المجتمع الاقطاعي سنة بعد اخرى، وكان الفرسان (المعدمون) ينهبون ويسلبون بجموح متزايد، وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة أقوى على الاسياد الكنسيين

والدنيويين ، في مثل هذا الوضع تسلم البابا اوربان الثاني في آذار ١٠٩٥ نداء بالاستغاثة من الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨) يطلب فيه المساعدة العسكرية من الغرب .[٧٤] وقد وردت نصوص مختلفة لرسالة الامبراطور ، ولكنها ركزت بجملتها على « وحشية الاتراك » و « الخطر الداهم المهدد للمسيحية »[٧٥] وحركت هذه الرسالة البابا على انتهاز الفرصة بالاستجابة الفورية لها .[٧٦]

توجه البابا الى فرنسا وقد اختمر لديه منهج واسع لتوحيد الفرسان وتحريكهم الى الشرق تحت شعار مساعدة بيزنطة و « تخليص قبر السيد المسيح » وقام بزيارة الاديرة الكلونية ، وكان سابقاً رئيساً لدير كلوني ، فاجرى محادثات اولية مع كبار رجالها بصدد التحضير للحرب المقبلة .

واجتمع خلال جولته بشخصيتين مهمتين : اسقف مدينة بوي اديماريدي مونتيل Ademar de Montiel الذي اصبح فيما بعد القائد الروحي للحملة الاولى على انه ممثل البابا ،[٧٧] والثاني ، ريموند الرابع كونت تولوز ، اكبر اقطاعيي جنوب فرنسا ، الذي عُدَّ احد اهم القادة العسكريين للحملة المقبلة وان لم يعين رسمياً قائداً لها .[٧٨]

استقطبت جولة البابا في فرنسا الاهتمام من الاوساط كافة ، ولهذا حينما اعلنت الدعوة الى عقد المجمع الديني في مدينة كلير مونت لمناقشة المسائل الكنسية المختلفة ، توافد الى هذه المدينة آلاف من رجال الدين والفرسان وعدد كبير من النبلاء الاقطاعيين وأتباعهم ، الى جانب عدد هائل من عامة الناس .[٧٩]

استغرق عقد المجمع اسبوعاً (١٨ ـ ٢٥ تشرين الثاني ١٠٩٥) وبحثت فيه موضوعات مختلفة تتعلق بالكنيسة ورجال الدين ، ومنها تحريم (السيمونية) اي المتاجرة بالمناصب الدينية ، وتأكيد مراعاة قاعدة العزوبية Celibacy لكونها مطابقة للانصراف الى العبادة وهجر مغريات الحياة ، والهدنة الربانية وغيرها .[٨٠]

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية ، القى البابا اوربان الثاني في ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥ ، خطاباً حماسياً امام حشد كبير تجمع في السهل الواقع جوار المدينة ، تميز باسلوب بلاغي جذاب وعُدَّ نداءً للحروب الصليبية وصارت الخطبة « بسبب نتائجها واحدة من أشهر الخطب في التاريخ الاوربي »[٨١] .

دعا البابا في خطابه الى حمل السلاح ضد الذين « عاثوا في الديار المسيحية سلباً وحرقاً وقتلاً . . . ودمروا دور الله واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الامتداد . . . » وحاول البابا ان يصور الحرب على انها تهدف الى « استعادة القبر المقدس » ووعد المشتركين بغفران الخطايا والجرائم « والثواب الابدي في دار الخلود » ! ليس هذا فحسب ، بل ان من يشارك في الحرب سيحصل على منافع مادية محسوسة « ان الارض التي تعيشون فيها الان المحصورة بين البحار والجبال لهي أضيق من ان تستوعبكم ، لهذا فانتم تقتلون بعضكم بعضاً وتخوضون الحروب وتسببون لانفسكم الكوارث والنكبات والجراح المميتة . . . أما هناك ، في الشرق ، فان الارض تسيل عسلاً ولبناً . . . سيروا في الدرب المؤدي الى القبر المقدس . . . فالقدس هي محور الكون ومنطقة خصب وعطاء . . . انها جنة ثانية . . . انتزعوا هذه الارض لأنفسكم . . . ان من لهم الحزن والفقر هنا سيكون لهم الفرح والغنى هناك . . . ابعدوا الهواجس المثبطة عن افكاركم ، فلا خوف على اموالكم وعوائلكم لانها تحت حماية الكنيسة . . . »[٨٢] . لقد كان البابا يعرف جيداً من يخاطبهم ويتعامل معهم ، فهؤلاء الفرسان المرتزقة لم تكن الغبطة الابدية في الجنة السماوية تكفيهم ، فقد كانوا يتحرقون لامتلاك العقارات والاموال ، ولهذا كان على البابا ان يوجه الى الشرق تطلعات هؤلاء الفرسان المعدمين ، فقد هيأ لهم ضالتهم المنشودة : « الثروة والمغامرة واظهار التقوى ، فما الذي يطمح اليه المرء اكثر من هذا ؟ »[٨٣]

ولد خطاب البابا اوربان الثاني نتائج فورية مباشرة « لم يسبق ان حققها أي نداء آخر سجله التاريخ »[٨٤] وانطلقت الى عنان السماء هتافات مدوية « هذه هي مشيئة الله Deus LOVOLT التي أصبحت شعار الحملة المتوجهة الى الشرق ، فحدد لها منتصف آب ١٠٩٦ على ان تكون القسطنطينية

نقطة التحشد والانطلاق . (٨٥)

ولم يكتف البابا بما حققه في كلير مونت ، وانما أخذ يتنقل بين المدن الفرنسية داعياً الى الحرب ، وارسل مبعوثين الى جنوة وبيزا حيث رحب كبار رجالها بالفرصة لما سيتحقق لهم من أرباح تجارية كبيرة ، وشاركت سفن المدينتين الحربية فيما بعد بنقل القوات والمؤن والسلاح وحصار الموانىء السورية . (٨٦) « ومما له دلالته ، ان تمويل قيادة الحملة الاولى جاء كله تقريباً من الايطاليين » . (٨٧)

لقد استجاب الى دعوة الحرب خليط عجيب من الناس وصفهم المؤرخ روبنسون قائلاً : « المؤمنون بثواب الآخرة ، الخياليون والمغامرون طلباً للكسب والثراء ، النبلاء والتجار الذين يبحثون عن مجال جديد للاستثمار ، الشذاذ الذين وجدوا ضالتهم للتخلي عن مسؤولياتهم ، والاقنان للتحرر من عبودية الارض ، والمجرمون هرباً مما اقترفت ايديهم »(٨٨) . ووصف مؤرخ آخر اعتماداً على مدوني الاخبار المعاصرين بعض من اشترك في الحملات بقوله : « رعاع الغرب riffraff هو افضل وصف لأمثال هؤلاء : جرذان أرصفة تحميل السفن ، لصوص البر ، وقراصنة البحر ، المتسولون ، الدجالون المشعوذون ، المغامرون ، السجناء المطلق سراحهم ticket-of-Leave الهاربون من العدالة ، المجرمون السابقون وحثالات اوربا »(٨٩) .

عاد البابا اوربان الثاني بعد جولة في فرنسا الى ايطاليا في نهاية سنة ١٠٩٥ ، بعد ان ضمن نجاح مشروعه . وتهيأت حملتان الى الشرق ، الاولى عرفت (بحملة الفقراء) بقيادة بطرس الناسك ووالتر المفلس ، تحركت في نيسان ١٠٩٦ ، وعاثت في شرق اوربا والقسطنطينية واسيا الصغرى فساداً ، اذ ارتكب رجالها ضد المسيحيين في المناطق التي مروا بها الاهوال والمباذل ، وانتهت بكارثة قبل ان تصل الى الديار المقدسة . (٩٠) وتحركت الثانية التي عرفت بحملة الامراء أو الحملة النظامية في آب ١٠٩٦ ، وهي التي وصلت الى القدس في حزيران ١٠٩٩ ودخلت المدينة بعد حصار قصير، راسمة طريقها من اوربا الى فلسطين بالدماء . وقامت في المدينة المقدسة بانزال احدى افظع المجازر في التاريخ البشري . (٩١) ولا نرى في هذا وذاك علاقة وثقى بأي دين سماوي ، ومما يؤكد ذلك ، ان الغزاة لم يفرقوا بين دين وآخر حينما قاموا بمجازرهم والنكبات التي الحقوها بالمسلمين والمسيحيين الشرقيين . ومما له دلالته ان مدوني الاخبار المعاصرين من المسيحيين العرب كميخائيل السوري والمؤرخ المجهول سجلوا ، كما يقول الباحث سميل : « فقرات تشهد على ان اللغة المشتركة والجنس المشترك اللذين اشتركا فيهما مع المسلمين ، شكلا رابطاً أقوى من العقيدة المسيحية التي اشتركا فيها مع الافرنج » . (٩١)

الهوامش

(١) لتفاصيل أقوال شهود عيان رافقوا الحملة الاولى ، راجع : Norman Daniel the Arabs and Med. Europe, (London, 2 nd. ed., 1979) pp. 127-138.

(2) James Harvey Robinson, An Introduction to the History of Westerm Europe (Boston, 1907) P. 187.

(٣) عن الحروب الصليبية بين العثمانيين والاوربيين ، انظر : Stanford J. Shaw, History of the Ottoman Empire, vol. I: Empire of the Gazis (Combridge, 1976) pp. 33-4,50-4,70-3.

(4) Robinson, p. 187.

(٥) يجب ان نذكر ان مصطلح (الحرب الصليبية) لم يستخدم من معاصري تلك الوقائع ، ففي العصور الوسطى كان يشار الى هذه الحرب بتسميات اخرى منها : الارتحال ، التجوال ، الحملة ، الطريق الى الارض المقدسة ، السير على درب الرب . وظهر مصطلح (الحرب الصليبية) أول مرة في بداءة الربع الاخير من القرن السابع عشر ، حينما استخدمه المؤرخ الفرنسي لويس ممبور ، مسمياً بحثه (تاريخ الحروب الصليبية) سنة ١٦٧٥ . وفي المانيا ، يعود التعبير الى ليسنغ . ينظر ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : الياس شاهين (موسكو ، ١٩٨٦) ص ١٣ - ١٤ .

(6) Warren O. Ault, Europe in the Middle Ages (Boston, 1946), pp. 332 —3.

(٧) عن ظهور المدن في مطلع القرن الحادي عشر ونموها ، راجع : Robinson, pp. 237-49; Ault, pp.363-96;

Mark Bloch, Feudal Society, trans. from the French by: L. A. Manyon (London, 1961) pp. 353-5.

(٨) انظر : J. Strayer and D. Munro, The Middle Ages 395-1500 (New York, 1942), pp. 120-1; Ault, pp. 364-5.

(٩) حول هذا الموضوع ، راجع : Bloch, pp. 65-9

(10) Strayer and Munro, p. 121.

(١١) انظر : زابوروف ، ص ١٤ ـ ١٥ .
(١٢) انظر Bloch, pp. 408-10
(١٣) حول سوء الاوضاع الاقتصادية وانتشار المجاعات ، انظر : زابوروف ، ص ١٥ ـ١٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (القاهرة ، ١٩٨٢) ص ٣٦ ، انتوني ويست ، الحروب الصليبية ، ترجمة : شكري محمود نديم (بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٨ .
(١٤) انظر : زابوروف ، ص١٥ ـ ١٦ ، W. Thompson, The Middle Ages (New York, 1931) vol. 1, pp. 427-8.
(١٥) انظر : Bloch, pp. 72-8, 81-7
(١٦) انظر : زابوردف ، ص ١٦ .
(١٧) انظر : Bloch, pp.260-74, Robinson, pp. 234 —6.
(١٨) انظر : Cambridge Medieval History, (New York) vol. 2, pp.722-3.
(١٩) زابوردف ، ص١٧ .
(٢٠) عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٤٣ .
(٢١) انظر : Bloch, pp 163-75; Robinson, pp. 107-8; Strayer and Munro, p. 118.
(٢٢) هذا هو السبب في شيوع بعض الالقاب المتطابقة مع وضع هؤلاء الحقيقي (كالعدم) و (المفلس) ! .
(٢٣) عن الفروسية ونظامها ، انظر : د . عبد القادر اليوسف ، العصور الوسطى الاوربية ٤٧٦ ـ ١٥٠٠ (بيروت ١٩٦٧) ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ Bloch, pp. 312-19
(٢٤) انظر : Ibid., p. 296-9
(٢٥) زابوروف ، ص ١٨ .
(٢٦) للتفاصيل ، انظر : Bloch, pp. 298-9
(٢٧) زاوروف ، ص ١٨ ـ ١٩ .
(٢٨) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٩ .
(٢٩) انظر Henry Pirenne, A History of Europe form the invasions to the xiv Century (London, 1936) pp. 59-60.
(٣٠) انظر : اليوسف ، العصور الوسطى ، ص ١٣٧ ؛ Robinson, pp. 44-55,201 Bloch, pp. 346-52.
(٣١) عانت البابوية ، بسبب عوامل متشابكة ، منها الحروب الاهلية وغارات الجرمان والنورمان ، سلسلة من الانتكاسات منذ القرن التاسع حتى منتصف القرن الحادي عشر ، وانفسح المجال خلال تلك الحقبة لتدخل السلطات العلمانية في تعيين البابوات ، قبل ان يصر البابا ليو التاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) على مبدأ الانتخاب ، وانفسح المجال لظهور (الكورية الرومانية The Romon Curia) وهو الجهاز الاعلى الذي يضم الكرادلة ويساعد البابا في ادارة شؤون الكنيسة . وعن طريق هذا الاجراء واجراءات اخرى ، بلغت البابوية أوج عظمتها وسطوتها في نهاية القرن الحادي عشر والقرنين الثاني عشر والثالث عشر .
من أفضل الدراسات عن تطور البابوية في العصور الوسطى :
G. Barraclough, Medieval Papacy (1968).
(٣٢) انظر : اليوسف ، العصور الوسطى ، ص ١٣٨ ، F. Ganshof, Feudalism, Trans. by: Grierson (London, 1964) pp. 215- 21.
(٣٣) تأسس هذا الدير الشهير عام ٩١٠ من قبل وليم دوق اكوتين ، وسرعان ماانتشر نفوذه بحيث اصبح اكبر الاديرة الفرنسية وتوزعت فروعه على مختلف الارجاء وبلغت اكثر من ٣٠٠ ديرا تابعاً للمركز ، واصبح اقوى منظمة في انحاء فرنسا . انظر : Alut, PP. 316-18.
(٣٤) انظر : اليوسف ، العصور الوسطى ، ص١٤٨ ـ ١٥٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٢٤ ، Pirenne , pp. 166-17
(٣٥) راجع : Bloch, pp. 412-20; Ganshof, pp. 218-19, Robinson, p. 118.
(٣٦) انظر زابوروف ، ص ٢٠ .
(37) Ault, p. 331.
(٣٨) اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٠ ـ٤١ .
(٣٩) عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٢٤ .
(40) Ault , p. 331.
(41) Ibid., pp. 331-2.
(42) Watt, p. 50.
(43) Ault, p. 332.
(44) Ibid.
(٤٥) زابوروف ، ص ٢٤ .
(٤٦) بعد الفتح العربي لاسبانيا انسحب بعض نبلاء القوط الى المناطق الجبلية في شمال غرب اسبانيا حيث تأسست مملكة استريا Asturias ؛ بجهود الفونسو الاول (٧٣٩ ـ ٧٥٧) الذي استغل الفوضى التي اعقبت سقوط الدولة الأموية في (٧٥٠) وقيام الخلافة العباسية ، فثبت اسس دولته الصغيرة التي سعى خلفاؤه الى توسيعها على حساب جيرانهم العرب . ومن هنا يمكن الاشارة الى بذرة حركة الاسترداد ومنطلقها انظر Watt, pp. 80-7.
(47) Ibid., pp. 50.1.
(٤٨) انظر : محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٦) ص ١٨ ، Watt, p. 46
(٤٩) زابوروف ، ص ٢٤ .
(50) Watt, pp. 50—2.
(٥١) زابوروف ، ص ٢٦ .
(٥٢) ولهذا عرفوا ايضاً باسم النورمانديين .
(٥٣) للتفاصيل راجع : السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس (بيروت ، ١٩٦٩) ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .
(٥٤) انظر : زابوروف ، ص ٢٥ .
(٥٥) انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، Watt, P. 51.
(56) Watt, p. 50.
(٥٧) انظر : زابوروف ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن دور البابا غريغوري السابع وصراعه مع الامبراطور الروماني راجع : اليوسف ، العصور الوسطى ، ص ١٥١ ـ ١٥٥) .
(59) Encyclopaedia Britannica (Chicago, 15 th ed.) vol. 13, pp. 957-8.
(٦٠) انظر زابوروف ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، Watt, p. 52; H. A. L. Fisher, A History of Europc (London, rep., 1945), pp. 221-4.

(٦١) انظر عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٦٢) Cambridge Medevial History (N. Y., 1924), voul. lv, pp. 302-4.

(٦٣) في عهد مؤسس دولة السلاجقة طغرل بك اخترقت قوات سلجوقية آسيا الصغرى واجتاحت قارص في ١٠٥٢ وهاجمت ارمينيا في ١٠٥٤ وكبادوكيا وملطية في ١٠٥٧ وتوغلت بعض تلك القوات حتى سيواس عام ١٠٥٩ . ولكن تلك الغارات لم تكن تستهدف اقامة كيان ثابت داخل الاراضي البيزنطية . انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٨٥ ـ ٨٨ .

(٦٤) انظر : المصدر نفسه ، ص ٨٨ ؛ اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢١ .

(٦٥) انظر : Fisher, p. 220; A. vasiliev, A Hisrory of the Byzantine Empire (Madison, 1964), vol. 2.p. 355,

أطلق السلطان الظافر سراح اسيره رومانوس الذي واجه تمرداً ناجحاً على سلطته واضطر الى الاستسلام فسمل رجال الامبراطور الجديد ميخائيل السابع عينيه .

(٦٦) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٢ .

(67) Fisher, pp. 222-4.

(٦٨) للتفاصيل انظر : زابوروف ، ص ٣٠ ـ ٣٢ .

(٦٩) للتفاصيل انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٣ ـ ١٢٤ .

(70) Daniel, p. 127.

(٧١) زابوروف ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ ـ ٣٦ ، وانظر عن بطلان مايدعيه المؤرخون الغربيون من الاضطهاد الاسلامي للحجاج المسيحيين : عاشور ، الحركة الصليبية . ص ٣٠ ـ ٣٣ .

(٧٤) انظر : Watt, p. 52; Robinson, p. 188, Ault, p. 335.

(75) Daniel, p. 126.

(76) Ault, p. 335; Setton, 2, pp 226— 7.

(77) Camb. Med. His., vol. 5, p. 273.

(78) Ibid.

(٧٩) انظر : زابوروف ، ص ٤١ ـ ٤٣ ، Ault, p. 335

(٨٠) انظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٤ .

(٨١) دونت من الخطبة اربع صيغ تتشابه في المحتوى وان اختلفت في بعض التفاصيل الشكلية انظر : Ault, pp 335-6.

(٨٢) ينظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ ، زابوروف ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ، Ault, pp. 335-7; Bloch, pp. 295-6; Robinson, pp 188-90.

(83) Bloch, p. 296.

(84) Robinson, p. 188.

(٨٥) اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٨٦) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص١٣٧ حبشي، ص ٣٤ .

(87) Ault, p. 334.

(88) Robinson, p. 189.

(89) Quoted in: Ault, p. 337.

(٩٠) عن الفظائع التي ارتكبها هؤلاء في المناطق المسيحية في اوربا واسيا الصغرى ، انظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٥٠ ـ ٥٧ ، Ault, pp. 337-8

(٩١) للتفاصيل انظر : Ibid., 344-5, p. Pernoud, the Crusades, trans. by: Mc Leod (London, 1962) pp. 88-90.

(٩٢) مقتبس من : ر . سي . سميل ، الحروب الصليبية ، ترجمة : سامي هاشم (بيروت ، ١٩٨٢) ص ٥٢ .

* * *

معركة حطين

دراسة تاريخية عسكرية

(كانت النبال متطايرة في الهواء تطير طيران العصافير محرقة بحرارتها ، وماء السيوف [أي الدماء] جامد في وسط المعركة ، يغطي الأرض كمياه المطر) .

ـ مكسيموس مونروند ـ

تاريخ حرب الصليب ج ٢ ص ٨٥

عبد الجبار محمود السامرائي

عضو اتحاد المؤرخين العرب

في ظلام القرون الوسطى ، جعل راهب فرنسي يطوف أرجاء اوربا على ظهر حمار هزيل وهو حافي القدمين ، وكان يرتدي ثوباً خلقاً ويحمل صليباً كبيراً على عاتقه ويخطب في العامة والدهماء فيبكيهم ويذكي نار حقدهم على العرب . كان يبكي حتى تبتل لحيته ، وتتقاطر الدموع من أطرافها وكان يقول للناس : (إنّ قبر المسيح يدنسه العرب ولا بد من تخليصه من بين أيديهم)[١] . . (تقدموا الى البيت المقدس . . . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدرّ سمناً وعسلاً . . . انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق)[٢] .

وأخذت حملة الصليبيين الاولى تجتاز اوربا حتى وصلت الى القسطنطينية وعبرت المضيق الى آسيا ، وانساب فرسان الصليبيين ميممين شطر سورية وفلسطين ، وكان كل شيء في الشرق العربي في ذلك الوقت يمهد السبيل أمام الغزاة . فكانت الدولة الفاطمية بمصر في أواخر القرن الحادي عشر قد وصلت الى أقصى درجات الانحلال والفوضى ، وكانت الخصومة مضطرمة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية في القاهرة ، وأصبحت الامارات الاسلامية المستقلة في سورية وفلسطين متنافسة متناحرة دون عضد قوي يعصمها وقت الخطر الداهم .

ولما ظهر الصليبيون أمام أسوار القدس في أوائل حزيران ١٠٩٩ م أرسلت اليها مصر الفاطمية جيشاً وولت عليها أميراً من قبلها . ودهم العدو المدينة ، وضرب عليها حصاراً شديداً استمر أربعين يوماً كان العرب طوال أيامها يدفعون الغزاة من فوق أسوارها . لكن العدو استطاع آخر الأمر ، بعد رمي شديد بالمجانيق ، ان يقتحم المدينة . وقتل الصليبيون من أهلها العرب عشرات الالوف . وأرسلوا

شكل رقم ١



للبابا يفخرون ويقولون : (ان خيلنا تخوض في دم المسلمين الى ركبها) . لقد كانت محنة مروعة للعالم العربي بأسره .

وأنشأ الصليبيون كما أشار البابا (اوربان الثاني) دولة لاتينية في الأرض العربية المقدسة ؛ « لكي نسهر على بيت المقدس ونرقب وثبات العرب في الشرق والجنوب » .

وجاء صلاح الدين الأيوبي ، ونهضت مصر في عهده الميمون نهضة رائعة قوية . وكانت فورة العرب وصحوتهم على يديه تنذر باجتياح الدولة اللاتينية التي أنشأها الصليبيون في أرض العروبة ، فلا غرو ان هرع أعظم ملوك أوربا لاتقاء الخطر الداهم ، خطر المارد العربي المنطلق من عقاله . وجاءت اوربا بقضّها وقضيضها . . . جاءت يدفعها استعمار بغيض تقنّع بقناع الدين والنسك . جاءت اوربا بخيلها ورجالها يقودها ملوك وامراء وفرسان وساسة ورهبان لم يتفقوا مرة واحدة في بلادهم على أمر ، ولكنهم اتفقوا للمرة الاولى على اغتصاب وطن العرب ، وكانت حجتهم - وما أكثر ما احتجوا به - انهم انما جاءوا يخلصون قبر المسيح وجدثه من ربقة الاسلام !

واخذ المهيجون من الرهبان والقساوسة يحثون الناس ويستنفرونهم . وخطب البابا اوربان الثاني في كليرمونت يقول للناس : (اذا انتصرتم فبركة السماء وممالك آسيا نصيبكم) !

وخطب (الراهب سان برنار) وكان خطيبا مصقعا مفوها في حفل حضره ملك فرنسا في مدينة فزلاي في عام ١١٤٦ م يقول : (أسرعوا الى سلاحكم . وليدفعكم الغضب الشريف الى المعركة

واستمرت موجة الدعاية والاستنفار سنوات حتى تجمع في ثغور فرنسا الجنوبية خلق كثيرون ، فهذا « ريتشارد - قلب الأسد - ملك انجلترا بجيشه ، وذاك أمير سكسونيا بفرسانه ، وتجمع فرسان آخرون ومغامرون كثيرون استقلوا عن الملوك والامراء ، وكوّنوا لأنفسهم فرقاً خاصة تعمل لحسابهم ، فهؤلاء فرسان المعبد واولئك فرسان القديس يوحنا وهؤلاء فرسان الهوسبتالية(٣) ، وهكذا . تماما كعصابات السلب والنهب والقرصنة ، لكل منها اسمها وزعيمها .

وأقلعت السفن بين الصلوات والدعوات والترانيم تحمل هذا وذاك ، ورسم القوم ، كما طلب منهم البابا ، صليب المسيح على كل درع وكل سيف وكل شراع ، كما رسموه على أعلامهم وملابسهم ومعداتهم . لقد جاءت اوربا في مسوح الرهبان لتغتصب أرض العرب .

وهب العرب يدافعون عن وطنهم ، الرسل تتحرك بأقصى سرعة مستطاعة بين بغداد والقاهرة ودمشق ومكة وفاس والموصل ، من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي . وأخذت جيوش العرب تزحف من كل مكان في أقطارهم للتجمع حول دمشق تحت قيادة موحدة عقد لواءها الناصر صلاح الدين ، وكان قد خرج من أرض الكنانة لملاقاة الطامعين المستعمرين المغتصبين الذين جاءوا الى الأرض العربية المقدسة متنكرين في رداء الكهنوت[٤] . .

تقدير الموقف

كان الصليبيون قد قسموا فلسطين الى دويلات وامارات . منها ما كان يمتد على شاطىء البحر المتوسط ومنها ما كان في داخل البلاد . فكانت لهم مثلا علاوة على مملكة بيت المقدس ، امارات في صور وعكا وصيدا وعسقلان وانطاكية وطرابلس والكرك وطبرية . وجعلوا لحظة وصولهم يحصنون دويلاتهم ضد هجمات العرب التي لم تنقطع مطلقا من يوم دخولهم الأرض العربية . وقد أنشأ الصليبيون القلاع الشامخة والحصون المنيعة التي ما زالت أنقاضها باقية في كثير من جهات سورية ولبنان وفلسطين حتى اليوم .

وكان أول ما قام به صلاح الدين استعدادا للمعركة الفاصلة مع العدو ، هو وضعه لنظام دقيق يكفل جعل العدو تحت المراقبة باستمرار . فأنشأ شبكة من المواقع متتالية بعضها خلف بعض ، كان الاتصال بينها يتم بوساطة مجموعة من الجياد السريعة القوية بحيث كانت الأنباء تصله من أطراف البلاد مرتين كل اسبوع حتى من أبعد جهات سورية . وكانت هناك شبكة اخرى خلاف شبكة البريد العادية التي كانت الخيل عمدتها ، ألا وهي شبكة الحمام الزاجل ، وكان الحمام ينقل الرسائل من محطة الى اخرى بسرعة عجيبة حقا .

ورأى صلاح الدين ان الصليبيين كانت شوكتهم قوية ، وانهم ان اجتمعوا عليه فانه لن يتمكن من القضاء عليهم بسهولة . وكان تقدير الموقف[*] الذي قام به ينتهي الى ان المعركة الفاصلة يجب ألّا تبدأ مع العدو إلا بعد استعداد دقيق . فأرسل الرسل الى جميع أنحاء الوطن العربي يطلب ان تجتمع جيوش العرب في جنوب سورية في صيف ١١٨٧ م . وكان صلاح الدين في ذلك الوقت يجمع قوات سورية في حلب ودمشق حتى اجتمع له من أهلها جيش كثير ضمّه الى جيشه الزاحف من ضفاف النيل .

ولم ينتظر صلاح الدين اكتمال تجمع قواته ليضرب ضربته ، ولكنه آثر ان يشغل العدو في كل مكان بقوات صغيرة قوية حتى لا تتجمع قواته في مكان واحد فتقوى شوكته ، وأمر اسطوله المصري فجعل يضرب ثغور الصليبيين ويقطع خطوط مواصلاتهم البحرية مع اوربا فيحرق سفنهم او يأسر رجالهم او يستولي على تجارتهم . بل لقد أرسل الى ملك المغرب رسالة مؤثرة يرجوه فيها ان يقطع باسطول المغرب العربي الطريق على سفن العدو المتجهة شرقا ليخفف الضغط عن اخوانه عرب المشرق .

وأخذ صلاح الدين يصقل سيفه ويجرب جهازه العسكري الذي جمعه من كل أقطار المشرق العربي على وجه التقريب ، ورأى ان يقوم باغارات محددة الغرض منها :

١ ـ مضايقة العدو وبعثرة قواته .

٢ ـ مداومة الحصول على المبادأة والاحتفاظ بها وحرمان العدو منها .

٣ ـ شحذ همة الرجال واكسابهم المهارة الحربية والخبرة وتعويدهم على القتال باسلوب العدو وتدريبهم على القتال بالمعدات الحديثة ضد عدو مجهز تجهيزا عاليا .

٤ - جمع المعلومات عن العدو بمداومة الاتصال به .

ولقد أدرك صلاح الدين بفكره الثاقب ان جيوش الغزاة انما جاءت من بلاد باردة الجو ، اذ كان معظمهم من الألمان والنمسويين واللومبارد والايطاليين والفرنسيين والانجليز . وهؤلاء جميعا أقوام لم يعتادوا جو المشرق العربي الشديد الحرارة صيفا . فقرر ان يكون اشتباكه الرئيسي بهم في حمّارة القيظ عندما يأخذ الحر والعطش بتلابيب المقاتلين والخيل .

وكانت اولى معاركه الصغرى لسبر غور العدو وامتحان قوة جيشه العربي عند (عسقلان) . وكان معه من القوات جيش صغير لا يزيد عن ٢٦٠٠ مقاتل ، كان معظمهم عربا سودانيين . وكان لجيش الصليبيين في عسقلان (٣٧٥) فارسا مدرعا من النبلاء يقودهم فارس خطير الشأن هو (ريجنالند) = [أرناط] أمير صيدا . وكان معه أيضا عدد كبير من فرسان المعبد المشهورين بالرغبة في القتال .

في عسقلان ، قام الصليبيون بمباغتة جيش صلاح الدين الصغير ، وتمكن فرسانهم المدرعون من احداث خسائر كبيرة به ، واضطر صلاح الدين الى الانسحاب وهو يقاتل قتالا تراجعيا قوات تفوق جيشه إعدادا وتدريبا . ورأى انه خسر المعركة فانسحب بعيدا عن ميدانها ، وارتد بنظام الى داخل حدود مصر .

كان صلاح الدين قد تعلم من تلك المعركة درسا ؛ ان جنوده كانوا في حاجة الى مران شاق وتدريب طويل . وان العرب بأسلحتهم التقليدية لا يصلحون لقتال الفرسان المدرعين من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وانهم لا يعلمون شيئا عن معدات الحصار ومهاجمة القلاع والحصون .

ولم ييأس صلاح الدين ، فقد أرسل الى أخيه (توران شاه) ـ وكان قد أمّره على دمشق ـ يطلب منه مهاجمة العدو وعدم اعطائه أي وقت للراحة . وفعلا التحمت (قوات حماة) بالعدو وانتصرت عليه وأسرت منه عددا كبيرا . ووصل صلاح الدين الى دمشق وبقي بها طيلة فصل الشتاء .

ورأى الناصر صلاح الدين ضرورة تأمين معابر الاردن حتى يضمن وجود خطوط اقتراب[٦] سليمة بين مصر وسورية . وكانت هناك على نهر الاردن مخاضة اسمها مخاضة يعقوب او « مخاضة الأحزان » ، وكان أحد ملوك الصليبيين قد أنشأ عندها حصنا . ولقد دمرت القوات العربية ذلك الحصن واحتلت المعبر كما احتلت قوة اخرى معبرا آخر أهم بكثير هو جسر الصنبيرة .

وأراد ملك القدس ان يسرع الى نجدة زميله فأسرع بجيشه عن طريق (صفد) ، ولكن صلاح الدين اعترض طريقه واشتبك به عند (مرج عيون) وشتت شمل جيشه ، وأسر عددا كبيرا من كبار القوم ، كان من بينهم قائد فرسان المعبد ، وقائد فرسان الداوية (الهوسبتالية) وأمير طرابلس ، المسمى (ريموند) ، وأمير الرملة (بلدوين) وأمير طبرية ، وغيرهم . ولقد افتدى بولدوين نفسه فأطلق صلاح الدين سراحه . وعاد صلاح الدين الى القاهرة في أوائل سنة ١١٨١ ليستعد للمعركة الفاصلة[٧] .

وصف طبيعة أرض المعركة

تتصف المنطقة التي دارت في ميدانها رحى معركة حطين ، بوجه عام ، بأنها منطقة جبلية تكثر بها الأخوار العميقة والوديان والأخاديد ، ويحدها من الشرق نهر الاردن الذي يجري في اخدود ضيق منخفض ، وتنحدر اليه من الجبال روافد كثيرة سريعة الجريان منها اليرموك والجالوت .

وفي شمالي المنطقة الشرقي بحيرة طبرية ، والمنطقة باردة كثيرة المطر شتاء بحيث تملأ الأنهار والأخاديد بالمياه . ولكنها في الصيف شديدة الحرارة قليلة الماء فتنعدم المياه في الوديان والروافد ، ولا تتواجد إلا في الآبار او العيون ،

وهذه لا توجد عادة إلا في المدن او القرى التي يحتلها العرب

وتقع مدينة (صفورية) التي تجمع بها الصليبيون يوم حطين في وسط المنطقة تقريبا . ولم تكن المدينة محصنة فيما خلا برج على تل قريب كان يطل على المنطقة كلها حتى بحيرة طبرية وجبال الجليل . وفي شمالي المدينة يمتدّ سهل رملي يجري به بعرض المنطقة . فسلك الطريق ما بين عكا وطبرية ، وهو سهل خال من الماء تماما . وكان معسكر صلاح الدين شمال المنطقة عند قرية حطين في مكان تحيط به غابات الزيتون وأشجار الفاكهة . وفي شمال تلك القرية ، توجد عين ماء جارية تصب مياهها في وادي حمام وهو اخدود عميق ينحدر نحو البحيرة ، وبالقرب من القرية يقع تل عظيم مخروطي الشكل اسمه (قرن حطين) ، وله شهرة تاريخية ، ويرتفع عن مستوى السهل المحيط به بارتفاع قدره ستمائة قدم ، وهذا التل يشرف على المنطقة كلها .

اما المسافة بين حطين - حيث معسكر العرب - وصفورية ، حيث معسكر الصليبيين ، فعشرة اميال ليست فيها قطرة ماء واحدة !

ومن العجيب ان الموضع الذي اختاره صلاح الدين لمعسكره كان من الخطورة بمكان ، اذ انه كان مشرفاً على سهل واسع في حين كانت الارض خلفه ممتلئة بالاخاديد العميقة والجروف الراسية الحادة . وكان كل هذا يشكل خطراً جسيماً جداً للجيش في حالة اضطراره للانسحاب .

والطريف ايضاً ، ان قادة الصليبيين - وكان فيهم بعض اساطين الحرب - كانوا على جهل تام بموقف صلاح الدين بل لقد كان الطريق الذي اختاروه لتقدمهم اسوأ الطرق على الاطلاق ، وكان هناك طريق افضل ، كثير الماء يهدد مؤخرة جيش صلاح الدين ، وقد يرغمهم على الانسحاب ، ولكنهم كانوا يجهلونه ![8]

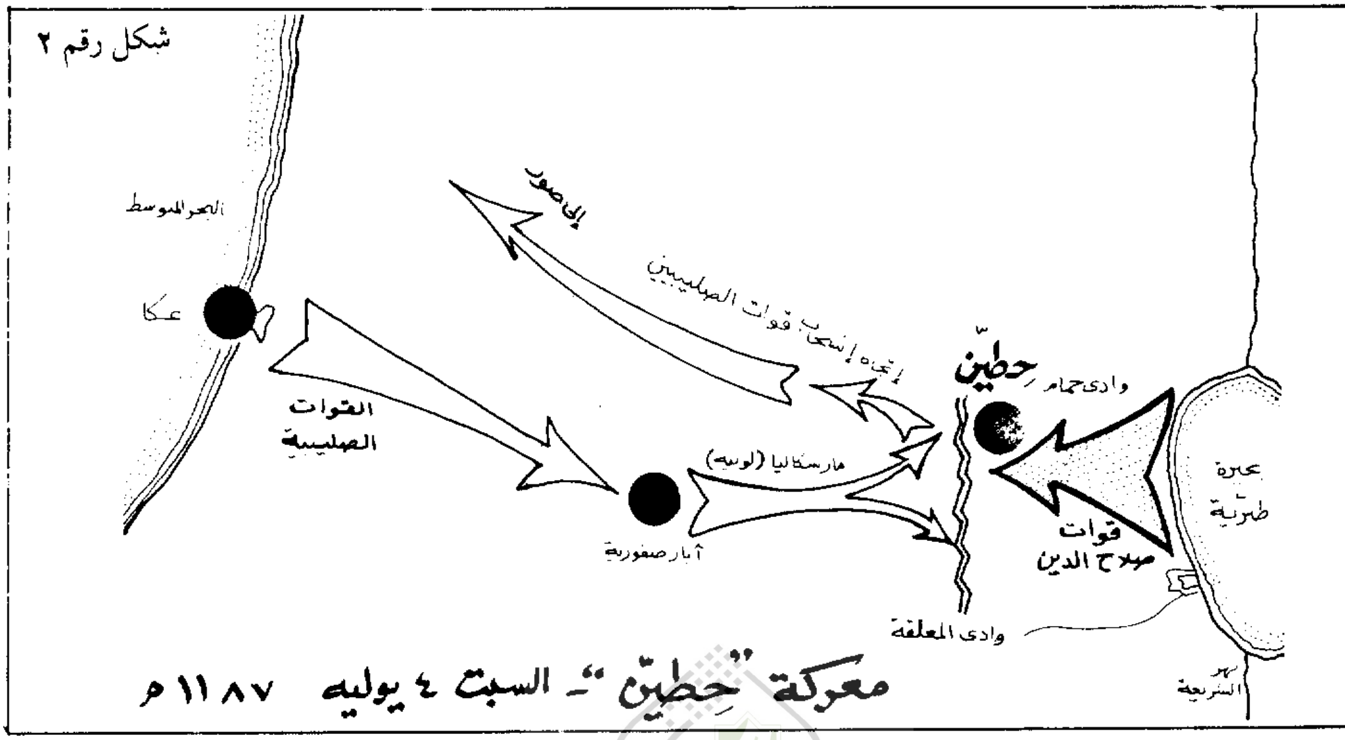
الاستطلاع بالقوة

لم يقدم العرب على خوض المعركة إلا بعد ان علموا ما يريدون علمه عن الأرض والعدو ، فقد أرسل العرب ليلة الأول من مايس (مايو) من عام ١١٨٧ م مفرزة استطلاع بقيادة (مظفر الدين) قائد خيل الجزيرة الذي لقبه الفرنجة (الذئب الأزرق) . وقد بلغ مجموع هذه المفرزة سبعة آلاف خيّال[9] .

انطلقت هذه المفرزة من (بانياس) وعبرت (الاردن) ليلا ومرت تحت أسوار (طبرية) وتوجهت باتجاه (الناصرة - صفورية - عكا) ، فمرت بـ (كفر سبت ولوبية وترعان) وتجولت في منطقة (حطين) الى ان وصلت الى منابع مياه (صفورية) . وقد اعترض المفرزة (جيرارد) بمجموعة من مائة وخمسين فارسا مع مجموعة من المشاة المتطوعين وكان ان احتدم القتال في (عين كريون) التي تبعد ستة كيلومترات جنوب (كفر كنه) وكانت نتيجة المعركة قطع رؤوس جميع الفرسان عدا ثلاثة هربوا[10] .

وتعود دوريات الاستطلاع التي أمر بدفعها صلاح الدين ، لتفيد بأن طلائع القوات الصليبية بقيادة (ريموند) قد تجاوزتها ووصلت الى وادي (المعلقة) - على مسافة ثلاثة أميال من بحيرة (طبرية) - بعد ان شرعت في حفر خنادقها على الميول الأمامية لتل (قرون حطين) - والذي يرتفع ٣١٦ مترا فوق سطح البحر ، وتحتها مباشرة تقع قرية حطين . أما قلب الجيش الصليبي ، فقد اجبر على التوقف جنوبي حطين ، بعد ان عجزت مؤخرته عن اللحاق بالمقدمة والقلب بسبب عنف المقاومة التي أبدتها المفارز الأمامية لجيش صلاح الدين على امتداد الطريق .

تناهت هذه الأنباء الى القائد صلاح الدين بينما كان يقوم بالاشراف على مواقع قواته التي كان قد زودها بسبعين جملا محملة بالسلاح ، حتى يأخذ منها من تخلو جعبته من النشاب أثناء القتال ، وترتفع معنويات الجيش العربي ، وقد عبر الناصر صلاح الدين عن ارتياحه بقوله : (جاءنا ما نريد)[11] .



التهيؤ للمعركة

في ظهيرة يوم ٣ تموز (يوليو) ١١٨٧ م ، وصل القسم الأكبر من جيش الفرنج قرية (ترعان) وقرية (لوبية) بعد ان اجتاز المقدمة لها ، ففاجأتها الكمائن العربية على جوانب الطريق وأوقفتها عن التقدم في أرض خالية من الماء[١٢] .

لقد حاول الفرنج في هجومهم هذا ان ينفذوا الخطط التي رسموها لأنفسهم ، ويقطعوا الطريق على صلاح الدين وجيشه . ويستولوا على ينابيع المياه ، فكان من أمرهم أنهم كلما تقدموا خطوة ؛ وقعوا تحت نيران العرب ، فلم يثبتوا ، وتحيط فرق ببعض فرقهم وتسوقها الى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى[١٣] .

وإذن . . فقد كان هدف القوات الصليبية الرئيسي شطر القوات العربية الى شطرين ثم الحيلولة بينها وبين الماء ثم القضاء عليها بعد تخليص الملكة ومدينة طبرية[١٤] .

ولذلك ، سلك الصليبيون طريقا كان مرسوما بالانطلاق من (صفورية) حتى (ترعان) ثم (لوبية) ثم السير على الطريق الروماني القديم من شمالي (كفر سبت) حتى (الأقحوانة) ، وهكذا يحتلون منابع الماء ويقطعون طريق مواصلات العرب . ولكنهم ، بعد اصطدامهم بالكمائن العربية المنتشرة بين ترعان ولوبية (لم يقدروا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين)[١٥] .

وازاء هذا ، طلب بعض المارونات من الملك (غي) اصدار الأوامر الى الجيش بالاسراع ، وان يشق طريقه الى البحيرة ، غير ان الملك (غي) قرر التوقف بعد ان اشتد تأثره لماحلّ برجاله من التعب والارهاق[١٦] كما ان (ريموند) اقترح على الملك (غي) محاولة التملص من الكمائن ، (والوصول بالجيش الى نهر الاردن او بحيرة طبرية وإلا فالجيش هالك)[١٧] .

وهكذا تجمع المراجع التاريخية على ان الفرنجة أُجبروا على تغيير هدفهم الاستراتيجي ، وهو شطر القوات العربية وقطع خطوط مواصلاتها والحيلولة بينها وبين الماء وتدميرها ،

الى هدف آني ملح وهو الوصول الى الماء بأية طريقة[١٨] . ولما رأى (ريموند) قائد مقدمة جيش الصليبيين ما وصل اليه حال قواته صرخ بحرقة قائلا : (. . يا الهي ، سيدي الرب ، لقد انتهت الحرب ، نحن في عداد الأموات ، لقد اندثرت المملكة)[١٩] .

ومن جهة اخرى ، يقول العماد الكاتب الأصفهاني واصفا حال القائد الفذ صلاح الدين وجنده بقوله :

(وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب[٢٠] ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، وان ما فرقه من النشاب أربعمائة حمل ، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشابه) . . . (وأما عساكرنا ، فانها اجترأت ، ومن كل ما يعوق برئت ، فهذا لسنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا شهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ومنتظر التبكير ، وهذا تاج للسعادة وهذا راجٍ للشهادة)[٢١] .

قوات الطرفين

١ ـ القوات العربية :

كانت القوات الضاربة لجيوش صلاح الدين مقسمة الى فرق ، تنسب كل منها الى أحد القادة العظام :

أ ـ الفرقة الأسدية : تحت قيادة أسد الدين شيركوه .

ب ـ الفرقة الصلاحية : بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي .

جـ ـ الفرقة النورية : بقيادة نور الدين محمود .

وكان صلاح الدين قد قسم قواته الى لواءات يقود كل منها أمير ، ثم كتائب يقودها امراء أصغر ، كل منها من مائة فارس ، ثم طبلخانات (٤٠ ـ ٧٠) فارسا ـ وهي تعادل السرية حاليا ـ فجند الحلقة (٤٠) فارسا ـ وهو الفصيل ـ ، وأخيرا امراء « العشراوات » وكل منها عشرة ، وهي ما يعرف حاليا بالرهط ، بالاصطلاح العسكري المعاصر .

وعشية معركة حطين ، قام صلاح الدين باستعراض قواته التي بلغت نحو (٢٥ ألفا) منهم (١٢) ألف فارس ومثلهم من المشاة ، وقد رتب جيشه للمعركة على النحو التالي :

أ ـ الميمنة : بقيادة (تقي الدين عمر) ابن أخ صلاح الدين .

ب ـ الميسرة : بقيادة (مظفر الدين كوكبري) .

جـ ـ القلب : بقيادة صلاح الدين نفسه[٢٢] .

٢ ـ القوات الصليبية :

كانت جيوش الصليبيين التي حشدت للقتال عشية معركة حطين ، تتألف من ٥٠ ـ ٧٠ ألفا من الفرسان والمشاة ، بينما قسمت الى :

أ ـ المقدمة : بقيادة (ريموند) ، وجنود طرابلس والجليل .

ب ـ القلب : بقيادة الملك (غي) ومعه بطريرك عكا ، حاملا خشبة الصليب[٢٣] .

جـ ـ المؤخرة : بقيادة (أرناط) ، وكانت تتألف من فرسان (الداوية)[٢٤] والاستبارية[٢٥] .

ومن الجدير بالذكر ان العسكر الصليبي كان يتفوق في العد والعُدّة على العسكر الأيوبي ، وكان المقاتل الصليبي محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه ، وكان الفارس منهم يحمل من الأقنعة ما يجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهدده هو السقوط من على ظهر الفرس[٢٦] .

خطة صلاح الدين

اجتمع صلاح الدين الأيوبي بقيادته العامة (أركان حربه) في « عشترى » ، كان المجلس يتألف من الملك العادل ـ شقيق صلاح الدين ـ وأولاد عمومته ، والقاضي

الفاضل ، والعماد الكاتب مؤرخ حروب الناصر صلاح الدين ، وبهاء الدين بن شداد قاضي الجيش . استمع صلاح الدين في هذا المؤتمر الى أساليب المواجهة المقترحة ، والتي كانت تتركز على مسلكين :

١ - **المسلك الأول :**

تجنب المواجهة المباشرة ، واتباع اسلوب الاغارات المتكررة على حصون العدو ومدنه بهدف إضعاف مقاومته أولا قبل الهجوم عليه وضربه الضربة القاضية ، وكان هذا المقترح يمثل رأي غالبية المجلس .

٢ - **المسلك الثاني :**

وكان يقضي بالدخول فورا في معركة فاصلة حتى لا تتزعزع ثقة الجند بصلاح الدين[٢٧] وكان هذا يمثل رأي الأقلية .

وهنا عرض صلاح الدين رأيه وقراره حيث قال : (الرأي عندي ان نلقى بجمع المسلمين جمع الفرنج ، فان الامور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد)[٢٨] .

وبعبارة اخرى : عزم صلاح الدين على اقتحام فلسطين والمناطق الساحلية على أساس المبادرة بالهجوم (التعرّض) . وعليه ، اقترح صلاح الدين ان تتقدم قوّاته لتحتل الأراضي الواقعة غربي بحيرة طبرية ، بحيث يستند ظهرها الى البحيرة ، وفي ذات الوقت يحول دون الصليبيين وبين البحيرة وينابيع المياه حولها ، وبذلك يحكم حصار طبرية بهدف اجتذاب الصليبيين واستدراجهم الى حيث يريد ، ليتمكن من مقاتلتهم في معركة مكشوفة ، وعلى أرض خالية من موارد الاعاشة والحياة ، عدا حرارة الشمس المحرقة والرمال والحصى[٢٩] .

ان المتقصّي لأغلب المراجع ، يستطيع ان يتبين الخطة الاستراتيجية العربية كما يلي :

١ - **القيادة وتوزيع القوات :**

يقول (رينيه كروسيه) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : تقرر ان يكون صلاح الدين القائد العام للجيوش العربية بأسرها ، المصرية والسورية والعراقية ، وقد فرضت طبيعة الأقاليم تكوّن الجيش العربي من محورين هما :

أ - المحور الجنوبي (المصري) : بقيادة العادل برا وبحرا .

ب - المحور الشمالي (السوري - العراقي والجيش المصري) : بقيادة الأفضل ، وقد رافقه صلاح الدين[٣٠] .

٢ - **توزيع الأهداف :**

قسم صلاح الدين الأهداف على الجيشين في المحورين أعلاه الى محورين :

أ - المحور الجنوبي : وهو من واجب الجيش القادم من مصر ، ويقوم بالهجوم على العدو برا وبحرا ، فان دخل الجيش البري من جهة « العريش » فسيلتقي بالاسطول المصري في ميناء (عسقلان) قرب « يافا » ، وبذلك تعزل مدينة « القدس » عن البحر[٣١] .

ب - المحور الشمالي : وهو من واجب الجيش السوري - العراقي والجيش المصري ، ويقوم بالهجوم على العدو من منطقة طبرية ، ويقوم بمعركة فاصلة في (حطين) ثم يطارد العدو ليستولي على (عكا) ، وليشطر دولة العدو الى شطرين ، ثم يقوم بالتوجه الى الشمال ليحرر باقي الموانىء بين عكا وبيروت ، ثم يعود المحور الشمالي ليلتقي بالمحور الجنوبي في عسقلان ، كيما تتوجه كل الجيوش لمحاصرة القدس[٣٢] وتحريرها .

ويمكن اجمال تفصيلات الخطة التي نفذها صلاح الدين الأيوبي بحذافيرها في الآتي :

١ - **التحرك من عشترى الى الصنبرة :**

في يوم ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١١٧٨ تحرك



معركة حطين ، في الصورة صلاح الدين يواجه الملك غي ، ملك القدس الصليبي ، رسمت هذه الصورة بعد حوالي [illegible] سنة من المعركة الصورة ، مأخوذة من مخطوطة محفوظة في جامعة كامبردج (انكلترا) .

شكل رقم ٣

صلاح الدين بجيشه من معسكره في (تل عشترى) في أشد فصول السنة حرا . وعبر الاردن ، وعسكر في (الصنبرة)[٣٣] في منطقة الاقحوانة[٣٤] (ثم أصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة ، بعزم الصيال[٣٥] وعز الصيانة ، وأحاط ببحيرة طبرية بحرة المحيط ، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط ، وبرزت الأرض في قشب أثوابها[٣٦] وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ، ورست سفن المضارب على تلك الأثباج[٣٧] .

هذا ما قاله العماد الكاتب[٣٨] أما ابن الأثير فيقول : (وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته ، وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية)[٣٩] .

ويقول الدكتور أحمد بيلي : (وعبر ـ أي صلاح الدين ـ يوم السبت نهر الاردن جنوبي بحيرة طبرية ، وانما اختار هذه الجهة لما كان بينه وبين صاحبها من الرابطة ، وأقام جنده الليلة الاولى هذه ، عند الاقحوانة)[٤٠] .

٢ ـ الاستطلاع :

خطط صلاح الدين لاستطلاع منطقة حطين وكفر سبت ولوبية ، وهي ما يفصل بين جيشه وجيش العدو من الأرض ، بين طبرية وعكا . وحدد على جوانب الطريق قرب لوبية مواضع الكمائن ، وقد نفذت مرحلة الاستطلاع بمجملها ، لا سيما توجيه قوات الملك الأفضل ووصولها[٤١] .

٣ ـ الاستدراج بالمناوشات :

يقول العماد : (والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ، ويشرف عليهم ، ويراميهم وينكي فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم[٤٢] وعاينوا مقام صارعهم في سوقهم الى مصارعهم . وفزعوا مما فيه وقعوا ، وجبنوا عما له تشجعوا[٤٣] (ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا ، وعبوا وعبوا ، ودبوا حتى يذبوا ، وشبوا النار ، ولبوا الثار ، وقدموا للنزول بالدار البِدار ، وذلك في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ، بما سبق به حكمه ، وسر حين أحاط بمسيرهم علمه) . . . (قد حصل المطلوب وكمل المخطوب . وجاءنا ما نريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العتيد ، واذا صحت كسرتهم وقتلت واسرت اسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ، ولا عن فتحها وازع)[٤٤] .

أما ابن الأثير ، فيقول عن استدراج الصليبيين بالمناوشات : (فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم)[٤٥] .

يتبين لنا من هذه المراجع ان صلاح الدين قد قرر ونفذ ارسال مفارز قوية من معسكره للتحرش بجيش الفرنج المرابط في صفورية اضافة الى هجومه على طبرية ، فكان يقصد بذلك استدراج العدو الى الأرض التي يريد[٤٦] .

٤ ـ سبق العدو ونصب الكمائن :

وضع صلاح الدين في خطته التكتيكية لمعركة حطين احتمال تحرك الفرنج من صفورية بعد هذه التحرشات وتوجههم لقتاله ، فان أقدموا على ذلك حرّك صلاح الدين جيشه من الصنبرة وسبق جيش الفرنج الى منطقة لوبية واحتل مواضع الكمائن بعد ان يكون جنود صلاح الدين[٤٧] قد أفنوا ما هنالك من ماء الصهاريج[٤٨] .

٥ ـ تحقيق المفاجأة بالكمائن :

تقرر ان تقوم الكمائن العربية بمفاجأة جيش الفرنج وهو في ترتيب المسير وترغمه على الوقوف والقتال بدون ماء وقت الظهيرة ، في أشد فصول السنة حرا . فعند وصول الفرنج مواضع الكمائن في طريقهم الى الجيش العربي ، وقد تركوا الآبار العذبة وراءهم ودخلوا التلال الجرداء اللافحة (الجبل ترعان) الذي يبعد (٢٠ ميلا) عن بحيرة طبريا . وبعد تنفيذ هذا الجزء من الخطة سيرغم العدو على تغيير خططه ، واتخاذ وضع في غير صالحه للاخلال بتوازنه ويضطره الى اجراء تغيير شامل في ترتيب قواته للمعركة ، وبذلك تتاح الفرصة للاجهاز عليه إما بالهلاك عطشا او التسليم وتربح المعركة[٤٩] .

وتنفيذاً لهذه الخطة ، قاد صلاح الدين جيوشه يوم الجمعة ٢٦ حزيران (يونيو) ١١٧٨ في اتجاه البحيرة ، لتقوم باحتلال الأراضي الغربية لها ، وحيث أراد صلاح الدين بالضبط . . أمام (أرض القتل)[٥٠] .

خطة الصليبيين

ازاء هذا الخطر الذي هدد بحيرة طبرية وينابيع المياه من حولها ، اجتمع المجلس الحربي للجيوش الصليبية في عكا ، حيث اتفق (ريموند) ـ حاكم طرابلس ـ والملك (غي) وحزبه ، وأعلنا استعدادهما للقتال ، بعد ان استقر رأيهما على الانتقال بقواتها البرية الى (صفورية) ـ قرب عكا[٥١] .

يقول « ج. ف. س. فوللر » في كتابه (المعارك الحاسمة في العالم الغربي) الجزء الأول ـ الصفحة

(٤٢٥) : في ٢ تموز (يوليو) دخل « ريموند » على الملك « غي » وقال له : (يجب التمسك بالعدول عن السفر الى طبرية ، لأن سقوطها أهون بكثير من ضياع المملكة . فبيننا وبينها لا يوجد إلا عين ماء واحدة صغيرة ، وهي لا تكفي لأي جيش مهما كان صغيرا ، وحالما تغادر هذا المكان سوف يزعجك المسلمون ويرغمونك على الوقوف ، فاذا هاجمتهم لجأوا الى التلال ، حيث لا يمكنك مطاردتهم ، واذا أُرغمت أنت على التوقف ، ماذا سيعمل جنودك وخيولك بدون ماء ؟ وان كثيرا منهم سيموتون من العطش ، وفي اليوم التالي سيقومون بتطويقك)[٥٢] .

وقد وافق الملك (غي) على هذا الرأي وتم القرار على إلغاء الزحف الى طبرية[٥٣] ولكن « جيرارد » دخل سرا على الملك في خيمته عند منتصف الليل ، وكان يكره « ريموند » وقال له : (سيدي لا تصدق ما قاله ريموند ، لأنه خائن ويريد إذلالك) . وقد نجح في اقناعه بتغيير رأيه ، وذلك لأن الملك لم يستطع مخالفة من ساعد على تنصيبه ملكا ، وهكذا تم القرار على الحركة الى صفورية[٥٤] وكان الصليبيون وقتذاك حيال احدى خطتين هما :

١ - **الخطة الدفاعية** :

وخلاصتها ، الاجتماع في صفورية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم اذا شاء ، وتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء في البادية ما بين طبرية وصفورية ، وطوله خمسة عشر ميلا ، والواضح ان هذا الرأي - وصاحبه ريموند - لم تشبه شائبة من الريب او الخديعة في الظاهر ، فقد قال به ريموند وهو عالم ان طبرية ستذهب الى صلاح الدين ، وان الحكمة تتطلب الانتظار حتى يزحف العرب . ومالت الأغلبية الى الأخذ بهذا الرأي[٥٥] .

٢ - **الخطة الهجومية** :

طرح هذه الخطة « أرناط » و « جيرارد » مقدم (الداوية) . وخلاصتها ، ان يتقدم الصليبيون من صفورية لمقابلة صلاح الدين ، وحجتهم في ذلك ان رأي « ريموند » فاسد لعدم اخلاصه للفكرة الصليبية[٥٦] ومما قاله (أرناط) الى (ريموند) في صدد خطته : (قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك في انك تريدهم وتميل اليهم ، وقولك انهم كثيرون ، فان النار لا يضرها كثرة الحطب[٥٧] ويقول في نفس المعنى (ابن كثير) في البداية والنهاية .

اعترض البرنس صاحب الكرك على ريموند ، فقال له : (لا شك في انك تحب المسلمين وتخوفنا بكثرتهم وسترى غِب ما أقول لك)[٥٨] .

أما الخطة التكتيكية الصليبية ، فتتلخص في هذين المسلكين :

١ - المسلك الأول :

الحركة من صفورية على الطريق الاستراتيجي الذي كان بين ميناء عكا وصفورية ، والاعتماد على صهاريج الماء الموجودة في قرية (ترعان) وقرية (لوبية) و(حطين) لسد حاجة الجيش من الماء منها[٥٩] .

٢ - المسلك الثاني :

مواصلة السير على الطريق الذي يؤدي الى نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية ، وذلك لقطع خط مواصلات جيش صلاح الدين وحصره في هذه المنطقة ، والقضاء عليه ، خصوصا بعد ان علموا انه ترك الاقحوانة الى طبرية ، ثم تخليص مدينة طبرية ، وانقاذ الملكة وأولادها المحصورين في قلعتها ، وما دروا ان جند صلاح الدين أضرموا النار في طبرية فأصبحت رمادا تذروه الرياح[٦٠] .

المعركة الفاصلة

مع الخيوط الاولى لفجر يوم السبت الرابع من تموز (يوليو) ١١٧٨ م ، اشتعل القتال بين الفريقين ، عندما التحمت فرسان صلاح الدين مع فرسان الملك (غي) في مشهد رهيب يخطف الأبصار ، ويستولي على أشد القلوب

ثباتا ، وقد اختلطت الخيل بالأجساد والسيوف والرماح والدماء ، بينما انعقدت سحب الغبار فوق أرض المعركة ، أما الأرض ، فقد غطتها جثث القتلى والجرحى .

في البداية . . حاول فرسان الصليبيين اختراق صفوف خصومهم والتقدم نحو بحيرة طبرية وينابيع المياه بوادي حمام حول قرية حطين ، وهنا تقدم الناصر صلاح الدين على رأس فرقة القلب وقام بتحطيم محاولات الصليبيين ، بعد ان أحدث بين صفوفهم ارتباكا خطيرا ، في حين نجح في عزل مؤخرتهم عن بقية الجيش ، وفي ذات الوقت ، أمر صلاح الدين فرقة الزراقين[11] فأشعلوا هشيم الحشائش بالنار التي تأججت تحت أقدام حوافر الخيل ، لتحدث هياجا شديدا بين صفوف الصليبيين . وهكذا اجتمع قيظ الحر اللافح ، وشمس تموز الحارة مع العطش والنار والدخان لتدور الدائرة على جيش الملك (غي) الذي عانى جنوده الأمرّين من ضربات فرسان المسلمين الذين تابعوا الهجوم في روح معنوية عظيمة ، وقد ارتفعت صيحاتهم الهائلة . وعندما رأى (ريموند) شدة القتال وحرج موقف قواته ، قاد هجمة مستميتة على ميمنة وميسرة جيش صلاح الدين في وقت واحد ، وهنا تجلت عبقرية القائدين المسلمين (تقي الدين عمر) و(مظفر الدين كوكبري) اللذين أفسحا له طريقا للتقدم بين فرقتيهما ، فاخترق (ريموند) صفوف المسلمين ، وهو يحسب ذلك نصرا . وهنا اغلقت عليه دائرة الحصار ، حيث أبلى القائد (كوكبري) بلاء حسنا (والذي لو لم يكن له إلا واقعة حطين لكفته) ، ولم يجد (ريموند) سبيلا للخلاص سوى محاولة الافلات والهرب الى (صور) ومنها الى قاعدته في طرابلس ، بعد ان تكبدت قواته خسائر فادحة ، الأمر الذي أضعف صفوف الصليبيين ، فلحق به (بورل) ـ قائد الاسبتارية ـ و (باليان) ـ أمير بيت جريل ـ و (رينولد) ـ أمير صيدا ـ وغيرهم .

أما صلاح الدين ، فقد قاد هجمة بارعة على الصليبيين ، أبادت قسما كبيرا منهم ، وبذلك أدرك الملك (غي) انه لا نجاة له إلا بالقتال حتى الموت ، فحمل على جيوش صلاح الدين حملة مستميتة ، أحبطتها صلابة قوات صلاح الدين ، بعد ان أحاطت قواته بجيوش الملك الصليبي إحاطة السوار بالمعصم ، وهنا قام (غي) بمحاولته الأخيرة ، حين صعد بقواته الى تل حطين محاولا اتخاذ مواقع لجيشه في هذا المكان المرتفع انتظارا لوصول نجدات لن تأتي !

وفي هذه الأثناء ، أمر القائد صلاح الدين قواته بملاحقة الملك (غي) وجيشه ، وذلك بالصعود الى قمة (تل حطين) حيث دار هناك قتال دامٍ رهيب ، انتهى في نهاية ذلك اليوم المشهود بسقوط خيمة الملك الصليبي ، واستيلاء قوات صلاح الدين عليها ، وهنا نزل الصليبيون من التل المرتفع رافعين أيديهم بالتسليم بعد ان القوا أسلحتهم ، حيث تم أسرهم عن بكرة أبيهم ، وعلى رأسهم مليكهم (غي) .

كانت الشمس قد بدأت تجر ذيولها نحو الغروب ، وسرح القائد المنتصر صلاح الدين ببصره في ميدان المعركة الذي اصطبغت رماله باللون الأحمر من كثرة ما اريق فوقها من دماء ، لقد كانت الهزيمة التي أصابت جيوش الصليبيين ساحقة حقا ، وتنساب دموع الفرح من عيني الناصر صلاح الدين ، ويسجد على الرمال يصلي شكرا لله على هذا النصر العظيم .

وسيق الأسرى أمام الناصر صلاح الدين بالآلاف ، كان على رأسهم الملك (غي) واوك حاكم جبيل ، وابن الهنفري وابن حاكم الاسكندرونة ، وحاكم مرقية وارناط حاكم الكرك وجيرارد مقدم الفرسان الداوية ، وجماعات من فرسان الداوية والاستبارية الشهيرة ، كانت جموع الأسرى من الكثرة حتى ان حبال الخيام لم تكن كافية لقيد

وثاقهم جميعا ، ويروي لنا العماد الكاتب ـ المؤرخ الحربي لمعركة حطين ـ انه رأى في حبل واحد أربعين أسيرا من الصليبيين يقودهم فارس عربي . وفي موقع آخر ، رأى مائتي أسير يحميهم حارس واحد[٦٢] .

ويقدر المؤرخون خسائر الصليبيين في معركة حطين بثلاثين ألفا من القتلى ومثلهم من الأسرى (فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسرى ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتلى) على قول (أبي شامة) .

لقد أطلق القائد الفرنسي (نابليون بونابرت) مقولته الشهيرة بعد هذه المعركة بنحو ستمائة عام ، (ويل للمغلوب) ![٦٣] .

المطاردة

بعد الانتصار تقوم القوات بالمطاردة ومن ثم تنفيذ سائر المراحل[٦٤] لاستثمار الظفر . فبعد حين قرر القائد المظفر صلاح الدين التقدم فورا دون ابطاء للاستيلاء على الساحل الفلسطيني لتصفية الوجود الصليبي الدخيل والضرب بيد من حديد على الحديد وهو لا يزال ساخنا ، بعد ان فقد الصليبيون جميع قادتهم بين قتيل وجريح وأسير، كما أضحت القلاع الصليبية القوية خلوا من المقاتلين الذين قضى عليهم فوق رمال حطين ، بعيدا عن منابع المياه في بحيرة طبرية .

وحين نتابع خطوات الناصر صلاح الدين ـ بعد حطين مباشرة ـ سنكتشف انه قام بتطبيق رائع ودقيق لنظريات الحرب الخاطفة التي طبقها (جورديان) قائد سلاح المدرعات الألماني بعده بسبعمائة عام في الحرب العالمية الثانية[٦٥] .

ففي مساء الرابع من تموز ، وما ان انقشع غبار المعركة ، قام القائد صلاح الدين بتفقد مسرح القتال ليحصي مخلفات المعركة من قتلى وأسرى وجرحى وغنائم .

وما ان أشرقت شمس الخامس من تموز ، حتى قاد صلاح الدين احدى فرقه ، في وثبة خاطفة ، استولى بها على قلعة (طبرية) الحصينة ، لترسل اليه الأميرة (أشيف) ـ حاكمة المدينة ـ تطلب الأمان لها ولحاميتها ، فأجابها الى طلبها .

وفي الثامن من تموز ، قاد صلاح الدين جيشه ميمما صوب التحصينات الساحلية لما لها من أهمية استراتيجية عظمى في حماية مملكة بيت المقدس ، وذلك بعد ان استقر رأيه على الاستيلاء عليها جميعا ، لمنع أية نجدات بحرية قد تأتي اليها بحرا من اوربا ، الى جانب عزمه على تأمين خطوط مواصلاته بين ممتلكاته في مصر والشام ، لهذا أصدر أوامره الى أخيه الملك العادل في مصر بالزحف فورا صوب جنوب غربي فلسطين ، بينما توجه على رأس قواته الظافرة صوب عكا لأحكام طرفي الكماشة على بيت المقدس من اتجاهي الشمال والجنوب[٦٦] .

الدروس المستنبطة

١ ـ القائد والمعنويات :

لكل حرب سماتها المميزة ، كما ان لكل قائد صفاته الخاصة ، فالمعركة تشبه بحرا مائجا مليئا بالصخور والنتوءات ، وهنا تصبح مهمة القائد القيام بتوجيه سفينته وسط هذا الظلام الدامس ، والأمواج المتلاطمة ، ففي تلك اللحظات الحرجة التي يفتقر فيها القائد الى المعطيات الموضوعية لا بد له من الاعتماد على صفاته وكفاءته الشخصية .

وتعتبر الشجاعة ـ في المرتبة الاولى ـ من أهم الفضائل الحربية للقائد ، وبخاصة في ذلك العصر الذي عاش فيه صلاح الدين ، الذي علم جنوده كيف يموتون ، ضاربا لهم المثل الأعلى ، كان يعلم ان عيون الجند تتركز عليه في ساعات الخطر ، وعندها كان يمارس هيبته وهدوءه وسيطرته على نفسه لتنتقل كالعدوى سريعة الانتشار الى جنوده ، اننا نعني هنا الشجاعة المعنوية لا البدنية ، انها شجاعة اتخاذ

القرارات الحاسمة ، والنهوض بالمسؤوليات والتحلي بضبط النفس .

لقد علَّم القائد صلاح الدين جنوده في معركة حطين ـ كيف يحافظون على تشكيلاتهم المنظمة تحت وطأة الهجمات العنيفة والمدمرة لفرسان الصليبيين المتفوقين عددا وعدة ، كما عرف جيش صلاح الدين كيف يقاوم أكثر الأوضاع العسكرية حرجا ، وكيف يحترم الجنود قادتهم ويثقون بهم ـ وذلك على الرغم من انهاك قواهم البدنية ـ بعد ان أقنعهم قائدهم الأعلى بأن كافة الجهود والتضحيات التي يبذلونها خلال القتال انما هي وسيلة للنصر ، وليست على الاطلاق لعنة كتبت على راياته[٦٧] .

لقد كان لوجود صلاح الدين في قلب المعركة ، من أهم العوامل التي دفعت بالمقاتلين الى الاستبسال والاستماتة في القتال ، خاصة وانه كان اذا ما وجد ضعفا في جماعة من أجناده ، كان يتقدم الى الساحة ويصيح مكررا : (كذب الشيطان) فيعيد الثقة الى النفوس ويذكرهم بأن الهزيمة من الشيطان ، وان المعركة انما هي جهاد في سبيل الله ومضِيٌّ فيه حتى النهاية[٦٨] .

ومن الأدلة على ذلك ما ذكره الملك الأفضل (نور الدين) عن والده صلاح الدين قال : (كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف . . فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي : هزمناهم . . فالتفت اليَّ والدي فقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ـ يعني خيمة الملك)[٦٩] .

ان ما نريد ان نلفت النظر اليه ، ان الناصر صلاح الدين كان يدرك تمام الادراك أهمية مبدأ المعنويات لقواته ، وأثرها في احراز النصر ، حيث لا تزال الحالة النفسية للجنود أثناء القتال وقبله تمثل الهدف الرئيسي للأطراف المتصارعة ، فلا يمكن لأي جيش مهما بلغت قوته ان يكسب المعركة ويهزم عدوّه دون ان يتحلى جنود هذا الجيش بالروح المعنوية العالية ، وبذلك خط القائد صلاح الدين بيده السطر الأول والأخير في وثيقة النصر قبل ان تبدأ المعركة[٧٠] .

٢ ـ الحصول على المعلومات :

تمثل المعلومات التي يجمعها القائد عن جيش الخصم العصب الرئيسي للمعركة ، فقد قام صلاح الدين بدفع دوريات الاستطلاع ـ قبيل المعركة ـ نحو جيش الملك (غي) ، لتعود اليه بمعلومات ثمينة لا غنى عنها عن تشكيلات جيوش الصليبيين ومواقعها وتسليحها ، ليعمد على الفور الى دفع مفارزه المتقدمة ـ خفيفة الحركة ـ والتي قامت بدورها بمضايقة جيوش الصليبيين أشد المضايقة أثناء تقدمها في الصحراء المكشوفة القاحلة من قواعدها في (عكا) الى (صفورية) ووادي (المعلقة) ، وايقاع الخسائر بأفرادها . . . الى جانب فصل مؤخرته عن القلب والمقدمة ، وكان من جراء هذه الأعمال التي سبقت القتال ذاته ، اضطرار الملك (غي) الى التوقف جنوبي حطين في انتظار ان تلحق به المؤخرة التي وجدت نفسها في موقف عسكري لا تحسد عليه ، وذلك بفضل شجاعة فرسان المفارز الأمامية لجيش الناصر صلاح الدين[٧١] او ما يمكن ان تسمى بالاصطلاح العسكري المعاصر (مفارز الاستطلاع العميق) والتي تعتبر من أهم واجبات ومهمات عناصر الاستخبارات الميدانية .

٣ ـ الشؤون الادارية :

كان الجندي في جيوش صلاح الدين يعتمد بالدرجة الاولى على ما يحمله معه من مواد غذائية بسيطة ، اضافة الى ما كان يستولي عليه من مؤن العدو المهزوم والمؤن المخزونة التي كان يعثر عليها داخل المدن والحصون المفتوحة . أما الحملات الكبيرة ـ ومنها معركة حطين ـ فكانت ترافقها قافلة كبيرة للتموين تحوي كل ما يحتاج اليه الجند ، على انه لم ترد تفصيلات كثيرة توضح كيفية توزيع تلك الأرزاق والمؤن

على الجيش . والظاهر انه كانت هناك جماعة خاصة تقوم بتوزيع تلك المؤن والأرزاق على القادة وامراء الجيوش ليقوم كل قائد بتوزيع تلك المؤن على امراء جيشه ، ثم يقوم كل أمير بدوره بتوزيعها على الجنود التابعين له . هذا بالاضافة الى وجود أماكن خاصة كانت تملأ كل واحدة منها بمادة من المواد الحربية بعد ان يعين مواضعها ، ليقصدها الجندي عند الحاجة ، او عند نفاذ مؤونته . وقد حدث في معركة حطين ان عينّ صلاح الدين سبعين موضعا ملأها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها[٧٢] .

وفي عشية معركة حطين ، بقي صلاح الدين طوال تلك الساعات الحاسمة وسط جنوده ومع قادته ، يرتب شؤونهم الادارية ، بينما ـ على الجانب الآخر ـ باتت قوات الصليبيين ليلة عصيبة قبيل المعركة ، وقد طوت جنودهم الحيرة والعطش لقلة الماء وانعدام الطعام والنوم[٧٣] مما يدل على غياب الشؤون الادارية وتنسيقها لديهم .

٤ ـ المباداة :

عندما قام صلاح الدين بتقدير الموقف من وجهة النظر العسكرية (عشية المعركة) كان قراره الذي أعلنه في المجلس الحربي الذي عقده في (عشترى) : (ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع) مؤيدا رأيه بأن (المبادرة بالهجوم على العدو تجعله منقادا لرغباتنا ، وتجعل مصائب الحرب على رأس العدو) ، أي فرض ارادتنا نحن على العدو ، وهو مبدأ ثبتت صحته منذ فجر التاريخ ، وحتى يومنا هذا . . وعلى ذلك قاد صلاح الدين جيشه لمقابلة جيوش الصليبيين في معركة فاصلة عند تل حطين ، واضعا في اعتباره العمل على مفاجأة العدو الذي انخفضت معنويات جنوده الذين عانوا الأمرين من عنف ضربات قوات صلاح الدين في أرض قتل منتخبة بعناية ودقة ، حيث استدرج القائد المحنّك قوات الغزاة وحال بينهم وبين منابع المياه العذبة في بحيرة طبرية وروافد نهر الاردن ، ليقوم بعدئذ بسحقها والقضاء عليها ، وهذا ما حدث بالفعل[٧٤] .

٥ ـ الحرب خدعة :

لقد عبر صلاح الدين في معركة حطين أصدق تعبير عن المبدأ القائل : (الحرب خدعة) ، فقد دبر صلاح الدين خدعة رهيبة دوخت الصليبيين ، وقلبت اتزان جيشهم رأسا على عقب ، وأنهت المعركة لصالحه تماما ، وذلك عندما فصل خيالة العدو عن مشاته ، حيث أباح لميمنة الجيش وميسرته ـ اللتين كان يقودهما تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبري ـ ان تفسحا (فرجة) = (ثغرة) نفذ منها (ريموند) بقواته ، وهو يحسب انه اخترق صفوف صلاح الدين ، وأصبح من النصر المحقق قاب قوسين أو أدنى ، لكنه يفاجأ باغلاق دائرة الحصار عليه ، وتتعرض قواته الى الضرب والتمزيق ، مما أجبره على الهرب بمن تبقى من قواته الى (صور) في حالة يرثى لها ، لتتبعه بقية قوات الملك (غي) الذي وقع أسيرا بعد قليل في أيدي صلاح الدين[٧٥] .

وبعد زهاء ثمانمائة سنة ، تأتي الحربان العالمية الاولى والثانية لتؤكدا صحة هذا المبدأ وهو فصل المشاة عن المدرعات . فقد استمر العرب في معركة حطين اضافة الى ازعاج عدوهم وارباكه ، في الالتحام مع خيالته في الأمام مع الالتحام القاصم مع القوة الصليبية الرئيسة الراجلة مما وسع الفجوة بين مشاة العدو وخيالته فكانت خطأة تعبوية قاتلة اقترفها الغزاة الصليبيون[٧٦] حيث ان مشاتهم بدأت تتراجع نحو الجبل تاركة سلاح الفرسان الثقيل ، ولذلك فان تشكيل الجبهة الصليبية قد تحطم بانقطاع الاتصال بين الفرسان والمشاة[٧٧] وهذا ما يمكن ان يسمى بالاصطلاح العسكري المعاصر بـ (الحركة الافراجية) ، وكان القائد الخالد خالد بن الوليد صاحب هذه الحركة . فالحركة الافراجية التي قام بها صلاح الدين في حطين ، تذكرنا بحركة خالد بن الوليد الافراجية في اليرموك ، حين

أفرج عن فرسان الروم مفسحا لهم المجال للهرب بغية عزل مشاتهم ثم ضرب هؤلاء المشاة .

وكرر العرب هذا التكتيك نفسه ضد المغول في معركة عين جالوت الفاصلة[٧٨] .

٦ - الحشد :

عندما قرّ قرار القائد المظفر صلاح الدين على تصفية الاحتلال الصليبي للأراضي المقدسة ، وقبيل معركة حطين ، مباشرة ، قام بتطبيق مبدأ (الحشد) ، ذلك المبدأ الذي يتوقف على التقدير الصائب للقائد العام ، فقام ـ قبيل بدء العمليات الحربية بشهرين ـ باستنفار القوات في مصر ومن ديار بكر ومن الجزيرة ودمشق وسائر جهات الشام ، متيحا لتلك القوات الفرصة الكافية للتحرك الطويل من أطراف المملكة المترامية الأطراف الى قرب مكان الصدام المتوقع ، حتى تتمكن من القتال في ظروف مناسبة .

وتنفيذا للحشد ، فقد أرسل صلاح الدين في طلب الجيوش من سوريا وحلب والجزيرة العربية وديار بكر ، مستنفرا الجند للجهاد ، بعد ان قام بتهيئة الرأي العام الاسلامي للحرب الوشيكة . وكانت أولى القوات المستنفرة للحشد ، القوات البرية المصرية التي سارعت تحت قيادة الملك العادل الذي قام من مصر على طريق (ايلة) ليلتقي بصلاح الدين قرب (الكرك) في أيار (مايو) ١١٧٨ م وفي ذلك الوقت ، أبحر الاسطول المصري في ١٥ سفينة تحت قيادة الأمير لؤلؤ من الاسكندرية ميمما شطر سواحل الشام الشمالية[٧٩] .

٧ - مستوى الخطة :

ان الخطة التي اتبعها صلاح الدين تعتبر من أبدع الخطط العربية . ومن الواضح انه كان مستعدا لها ، فهو قد هاجم مستعمرة هامة من مستعمرات الصليبيين وأطبق عليها وهددها بالهجوم بدون أن يحاول احتلالها ، اذ انه لو احتلها لما وقعت معركة حطين ، بل انه سمح لهذه المستعمرة ان تصمد ، وأظهر انه ضعيف أمامها ، وهذه مناورة بارعة ، مما دفع الصليبيين دفعا الى الزحف لانقاذها وتأهب لاستقبالهم في المكان المناسب . كما انه وضع نفسه في مكان يشجع العدو على الزحف نحوه ، وبذلك أرغمه على ترك حصونه وخوض المعركة[٨٠] .

وكان صلاح الدين من مواقعه في حطين يعلم تحركات العدو وكأنه ساحر ينظر اليها في بلورته ، وكان بالرغم من قوة جيشه الكبيرة يرى ان الوقت مناسب لاستدراج العدو الى مصيدة هائلة يكون فيها هلاكه المحتم ، وكان تقديره للموقف ولا شك يسير على حسب الخطوط التالية :

١ - الجو الصيفي شديد الحرارة ، لا يناسب الصليبيين رجالا او خيلا .

٢ - وادي طوران ليست فيه قطرة ماء .

٣ - معابر الاردن قوية والحراسة عليها ستمنع عبور العدوّ الى ما خلف قواتنا .

٤ - القساوسة من فرسان المعبد والاسبتارية سيرغمون ملوك الصليبيين على التقدم نتيجة الهوس الديني ، وسيكون تقدمهم عبر ذلك الوادي المهلك في حمّارة القيظ .

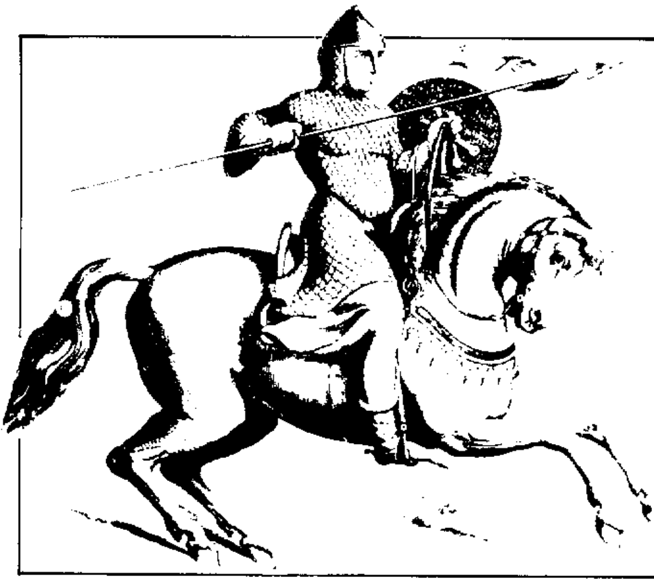
٥ - التمسك بالمرتفعات وتركهم يتقدمون في وادي ظلال الموت .

٦ - عندما يكونون في أشد حالات العطش والانهاك ننقض عليهم من أعالي الجبال ونعمل فيهم السيف والنبال .

٧ - اننا نطبق خطة الدفاع الهجومي ولن نرتكب الخطأ الذي يقع فيه العدو[٨١] .

أما خطة الصليبيين ، فقد أدت الى هزيمتهم المنكرة لأنها تضمنت خطأين قاتلين هما :

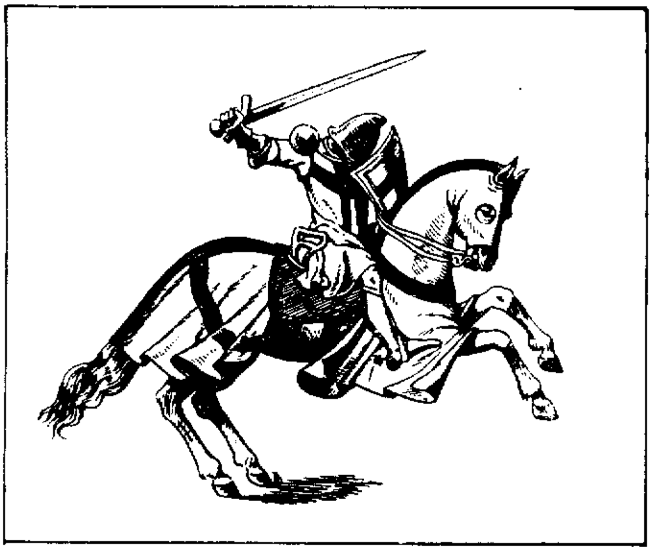
١ - تقدمهم نحو الشمال في أشد شهور السنة حرارة عبر وادي طوران ، وهو سهل قاحل خالٍ من الماء ، على



شكل رقم ٤

حين كان بامكانهم التقدم من صفورية لقطع خطوط انسحاب صلاح الدين عبر الأردن واحتلال معابر النهر نفسها . وفي تلك الحالة كان التقدم يجري في مناطق كثيرة العيون والآبار ، وكان خط التقدم الأمثل لا بد ان يكون الى مدينة (الفولة) ثم الى مدينة (كوكبة) ، ثم الى النهر نفسه ، ومن ثم يصبحون خلف قوات صلاح الدين بعد احتلال معابر الاردن ، وكان بعض امراء الصليبيين وقادتهم يرون ذلك ، ولكن اشتداد التنافس بينهم حال دون وصولهم الى الرأي الصحيح[٨٢] .

٢ ـ كانت المبادأة بيد صلاح الدين ، وكان جيشه أكثر عددا وأعز نفرا بعد ان انضمت قوات حلب والموصل الى قوات النيل . وكان على الصليبيين والأمر كذلك ان يلجأوا الى الدفاع لا الى الهجوم . ولو انهم احتلوا موقعا دفاعيا قويا وانتظروا هجوم صلاح الدين فيه فربما كانت النتيجة مختلفة غاية الاختلاف ، ولكن الذي حدث ان فرسان المعبد من القساوسة والرهبان أرغموا ملك الصليبيين على التقدم والهجوم ، فتقدم بالجيش عبر الوادي المُهلك في حرارة القيظ ، فكانوا



شكل رقم ٥

كالدب[٨٣] الجاهل الذي أهلك صاحبه بعد ان قاده الى التهلكة .

أما تقدير الموقف من وجهة نظر الصليبيين فكان عجيبا حقا . فكان الغرض هو تدمير قوات صلاح الدين في حطين بعد الهجوم في اتجاهها ومنع تقدم جيش الخصم الى فلسطين ، وكانت حجتهم في عدم التحرك الى وادي الاردن ـ حيث الماء الوفير ـ انهم لم يكونوا متأكدين من عدم حماية صلاح الدين لمعابر النهر ، فقد كانت عادته دائما ان يحمي تلك المعابر بقوات كبيرة وان يضع قوات اخرى للمراقبة في النقط الاستراتيجية الهامة . وكان قادتهم ، علاوة على هذا ، يرون عدم تجزئة الجيش بارسال قوات منهم الى وادي الاردن لتهديد مؤخرة جيش صلاح الدين . اذ ان ذلك سيؤدي حتما الى اضعاف قواتهم الرئيسة التي ستقوم بالهجوم في اتجاه حطين وسيؤدي الى دحرها . ومن ثم يصبح الباب مفتوحا أمام صلاح الدين ليتسرب منه الى فلسطين بأسرها .

لقد بنى الصليبيون على الخطأ نظرية تمسكوا بها فكان في ذلك حتفهم ، وكان الخطأ هو : الهجوم في

اتجاه حطين بكامل قواتهم ، على حين ان واقع الحال كان يتطلب إما الدفاع البحت لمنع تقدم صلاح الدين الى فلسطين ، او التقدم بكامل قواتهم عبر الاردن والدوران خلف قوات الخصم وفرض المعركة في المكان والزمان الملائمين ، ولقد قال (ريموند) أمير طبرية مؤيدا لهذا الرأي قوله المشهور : (خير لنا ان تسقط طبرية وأن يأسر العدو زوجتي وكل ما أملك من أن نفقد البلاد كلها ، فمن المؤكد ان تسقط البلاد بأسرها اذا تقدمتهم في ذلك الاتجاه) .

وقد دمغ فرسان المعبد ذلك القول بالخيانة ، فهم في حال فرقتهم وتعصبهم الديني لم يكونوا مستعدين لسماع النصح من جندي يعلم كيف يقدر الموقف العسكري تقديرا صحيحا(٨٤) وقديما قيل (اذا جاءت المنايا تاهت الأبصار) .

٨ ـ المناورة :

المناورة عمل عظيم مبتكر لا يخضع ولا يعتمد على حسابات سابقة أجراها الآخرون ، وهي بذلك تمثل قمة التفكير العسكري المتقن لامور الحرب ، وبأقل الخسائر(٨٥) وغاية المناورة الأساسية هي الحصول على حالة فقدان التوازن للقوات المعادية بحيث يصيبها الارتباك نتيجة لذلك ، وتصبح بموقف ليس في صالحها(٨٦) وهذا ما فعله صلاح الدين مع الصليبيين عندما تحرك بقوات مصر نحو فلسطين ، وكان يعلم ان قوات العدو قد تجمعت على الحدود لتمنعه من التقدم الى داخل البلاد ، ولكنه دار حول قواتهم بحركة استراتيجية بارعة . فقد عبر صحراء سيناء بقواته حتى رأس خليج العقبة ، ومن هناك تقدم بها شمالا عن طريق وادي عرابة باحثا عن العدو في طريقه ، وكان أمير الكرك الصليبي يراقب تحركاته بدقة دون ان يحرك ساكنا لقتاله او لقطع الطريق عليه . انه لم يجرؤ على ذلك ، ودخل صلاح الدين بجيشه المصري الى دمشق في منتصف حزيران ١١٨٢ م . ومن دمشق باشر سلسلة من الغزوات الى داخل فلسطين بالطريقة التي نسميها في الحرب الحديثة : الاستطلاع بقوة القتال(٨٧) .

الخاتمة

ليست معركة حطين من معارك التاريخ الفاصلة ، أي انها ليست من تلك المعارك التي يتوقف عندها مجرى التاريخ ليتحول في اتجاه آخر ، فهي مثلا ليست كمعركة تور [= بلاط الشهداء] ـ بواتييه ـ التي توقف عندها الامتداد العربي في اوربا ، وليست كمعركة (شالون) التي هزم فيها (الهون) وتوقف غزوهم لاوربا وانحسرت بعد ذلك موجة الغزو . و (حطين) ليست كمعركة (عين جالوت) التي دمرت فيها جيوش العرب بقيادة (بيبرس) و(قُطز) جحافل الغزو المغولي الأصفر الذي اندفع من أواسط آسيا ليدمر مدنيات الشرق والغرب ، ولكن حطين مع ذلك كانت أروع معارك العرب في العصور الوسطى على الاطلاق ، فقد كانت المعركة الوحيدة على وجه التقريب التي تجمعت فيها جيوش الشام ومصر والعراق .

وكانت حطين أيضا المعركة الاولى التي واجه فيها العرب جيوش أوربا مجتمعة ، فكان فيهم الانجليز والفرنسيون والايطاليون والنمسويون واللمبارد والسكسون والألمان وغيرهم .

وكانت حطين علاوة على ذلك معركة فاصلة من الناحية المحلية ، فقد أسدلت الستار نهائيا على مطامع اوربا في الأرض العربية المقدسة ، وخذل المستعمرون الذين جاءوا عبر البحر من اوربا تحدوهم المطامع في اغتصاب أرض العرب تحت شعار الدين والنسك ، وان حجتهم قد انكشفت واصبحت غير ذات موضوع ، وان أملهم في البقاء وهم وسراب ، وانه لا بد لهم ذات يوم ان يحملوا عصيهم على كواهلهم ويرحلوا .

وختمت حطين على مصير البيت المقدس نهائيا ، اذ

ان العرب المسلمين لم ينسوا ان (بيت المقدس) هو احدى القبلتين وثاني الحرمين ، ولم ينس المسيحيون منهم ان تلك المدينة وما حولها هي قدس الأقداس بالنسبة اليهم ، ففيها كنيسة القيامة ، وفيها الجبل المقدس ، وفيها الناصرة ، حيث عمل عيسى بن مريم نجارا في شبابه ، وفيها البحيرة المقدسة بحر الجليل[٨٨] ، وبقيت بيت المقدس في أيدي العرب ، مسلمين ومسيحيين ، حتى تمكن الغزاة الصهاينة من تدنيسها في عام ١٩٦٧ .

ولعله من الطريف ان (قرن حطين) لم يكن إلا التل الذي كان السيد المسيح يعلم فيه تلاميذه دروسه عن السلام والرحمة ، ولكن بعدما يقرب من اثني عشر قرنا من الزمان جاء الفرنج اليه بالسيف عدوانا واغتصابا على أرض غيرهم ، فلم يكن هناك مناص من إخراجهم عنه بالسيف قوة وقهرا[٨٩] على يد الناصر صلاح الدين .

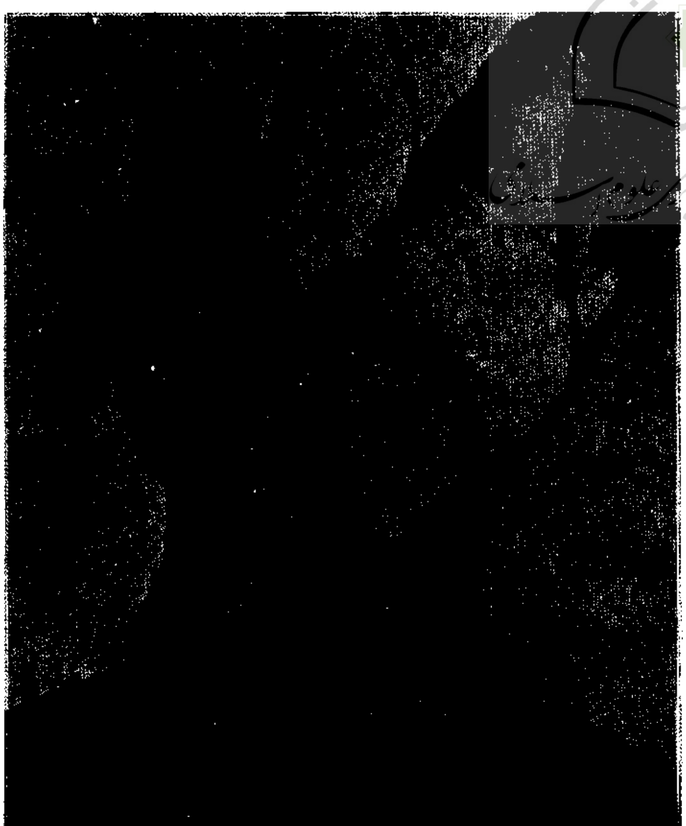
والواقع ان معركة حطين كانت أعظم من مجرد نصر حربي بالنسبة للامة العربية ، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرا بنجاح الامة في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى[٩٠] تلك الحركة التي كانت تتلفع برداء الدين ، وتبغي في حقيقة الأمر الاستحواذ على خيرات المشرق العربي ، والهيمنة عليه . وبعبارة اخرى : ان الغرب الاوربي أراد بواسطة حرب الصليب تصدير أزماته الاقتصادية الى العالم العربي ، كيما يكون بوسعه حل معضلاته ومشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخانقة ، تحت مظلة وجود عدو خارجي ، يجب ان تنصب الجهود باتجاهه . وهذا الفصل التراجيدي نراه يتكرر اليوم مجددا ولكن بالعمامة الخمينية بدل الصليب .

معركة حطين



شكل رقم ٦

صلاح الدين الايوبي



شكل رقم ٧

الهوامش

(١) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ٥ .

(٢) محمد عمارة : معارك العرب ضد الغزاة ص ٢١ والراهب هو البابا (اربان الثاني) .

(٣) يسميهم مؤرخو العرب باسم (فرسان الداوية) .

(٤) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ٥ ـ ٨ .

(٥) تقدير الموقف : عملية استنتاج منطقية يدرس فيها القائد جميع الظروف التي تؤثر على الموقف العسكري ويصل الى قرار كمسلك مفتوح يجب اتخاذه لكي ينجز مهمته .

ـ انظر : محمد فتحي أمين : قاموس المصطلحات العسكرية ص ٧٥ تسلسل ٢٥٠ .

(٦) خطوط الاقتراب : تلك الخطوط التي اذا سلكتها الجيوش (المتفرقة ميدنيا) اقتربت بعضها من بعض والتقت في هدفها المشترك .

(٧) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ١١ ـ ١٥ .

(٨) اللواء محمود محمد السرساوي : من روائع التاريخ العسكري العربي ـ يوم حطين ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٩) ابراهيم مصطفى المحمود : حطين ص ٨٠ .

(١٠) نفس المصدر .

(١١) صلاح الدين في معركة حطين : المرجع السابق ص ٦٠ و٦٢ .

(١٢) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨١ .

(١٣) د. أحمد بيلي : حياة صلاح الدين الأيوبي ص ١٥٩ .

(١٤) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٢ .

(١٥) محمد فريد ابو حديد (صلاح الدين وعصره) ص ١٣٤ .

(١٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٢ .

(١٧) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٧٣٨ ترجمة د. الباز العريني .

(١٨) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٣ .

(١٩) نفس المصدر . نقلا عن كتاب (صلاح الدين) لستانلي بول .

(٢٠) الطلب : تعني الأمير الذي يقود مئتي فارس . واستعمل هذا اللفظ في مصر والشام أيام صلاح الدين الأيوبي .

(٢١) العماد الأصفهاني : الفتح والبرق ـ الوارد بكتاب الروضتين ٢/٧٨ ـ ٧٩ .

(٢٢) محمد فيصل عبدالمنعم : صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٠ .

٢٣ ـ الفتح القسي ص ٨٤ .

(٢٤) الداوية : يميل بعض المؤرخين الى رد نشوء الفروسية الى عوائد قديمة عند الجرمان . بينما يرى الآخرون كالدكتور فيليب حتي (انها زحفت اولا على تربة سورية ومنها انتقلت الى البلدان الاوربية) وفرسان الداوية هم انفسهم الفرسان المعبديون او الهيكليون - The Templars Les Templiers وكان شعار هؤلاء طيلسانا أبيض عليه صليب أحمر . وقد تأسس أول بيت لهم في بيت المقدس في عمارة تنسب الى هيكل (معبد) النبي سليمان بن داود فنسبوا اليه ، وقد أنشأ هذه الطائفة من الفرسان في سنة ١١١٨ م جماعة من الفرسان الفرنسيين الذين قدموا الى بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى ، وكان رئيسهم (هيو بايان) وكان الغرض من انشائها ارشاد الحجاج النصارى وحمايتهم .

(٢٥) الاسبتارية : وهم فرسان القديس حنا : The Knights Hospitallers - Les Hospitaliers ويرجع تأسيس هذه الهيأة الى ما قبل الحروب الصليبية . فقد ولدت عندما طلب جماعة من تجار مدينة أمالفي الايطالية من الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ١٠٤٨ م ان يسمح لهم باقامة دير وبيمارستان (مستشفى) ببيت المقدس ليكون مأوى لحجاج النصارى للاقامة فيه والعلاج في أثناء زيارتهم بيت المقدس . وقد كان واجب الاسبتارية الأصلي اسعاف المرضى ومساعدة زوار الأراضي المقدسة ، وبعد استيلاء الصليبيين على القدس تحول الاسبتارية الى هيأة من الفرسان المحاربين . وكان شعارهم طيلسانا أسود عليه صليب .

ـ انظر : الحروب الصليبية ـ لانتوني ويست ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢٦) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٢٩٣ .

(٢٧) صلاح الدين في معركة حطين ـ مجلة (الدفاع العربي) العدد السادس ـ آذار (مارس) ١٩٧٩ ص ٦١ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ـ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

(٢٩) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦١ .

(٣٠) ابن الأثير : نفس المصدر ص ٢٣٩ + العماد الأصفهاني : الفتح القسي ص ٥٩ .

(٣١) مفلح علي : حطين ـ ص ٤٧ .

(٣٢) مفلح علي : حطين ص ٤٧ .

(٣٣) الصنبرة : (مقابل عقبة فيق بينها وبين طبرية ثلاثة أميال) معجم البلدان ٣/٤١٩ .

(٣٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ص ٢٤٠ .

(٣٥) الصيّال : الذي يسطو ويستطيل على خصمه .

(٣٦) قشب أثوابها : أي جديدها ، وسلاح قشيب مجلو .

(٣٧) الأثباج : جمع ثبج وهو وسط الشيء ومعظمه .

(٣٨) العماد الكاتب : الفتح القسي ص ٧٢ .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ص ٢٤٠ .

(٤٠) د. أحمد بيلي : حياة صلاح الدين الأيوبي ص ٥٧ .

(٤١) ابراهيم مصطفى المحمود : حطين ـ المجلة العسكرية ص ٧٦ عدد كانون الثاني وشباط ١٩٧٥ .

(٤٢) أي لكتب عليهم الموت ، يعني العماد الكاتب قول الله تعالى : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ .

(٤٣) الفتح القسي ص ٧٤ طبعة عام ١٩٦٥ .

(٤٤) الفتح القسي ص ٧٧ .

(٤٥) الكامل في التاريخ ص ١٤١ .

(٤٦) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٦ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٤٨) محمد فريد ابو حديد : صلاح الدين وعصره ص ٣٤ .

(٤٩) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٧ + مفلح علي : حطين ص ٦٧ .

(٥٠) صلاح الدين في معركة حطين ـ المرجع السابق ص ٦١ .

(٥١) صلاح الدين في معركة حطين : المصدر السابق ص ٦١ .

(٥٢) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٧ .

(٥٣) الدكتورعبداللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ١٧ .

(٥٤) مفلح علي : حطين ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٥٥) الدكتور نظير حسان السعداوي : التاريخ الحربي في عهد صلاح الدين ص ١٧٩ .

(٥٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٧٨ .

(٥٧) عقد الجمان ص ٣٣ ، كما يذكر المحمود ص ٧٨ .

(٥٨) البداية والنهاية ص ٣٢٠ .

(٥٩) ابراهيم المحمود ص ٧٩ .

(٦٠) نفس المصدر السابق .

(٦١) الزراقون : حملة المزاريق جمع مزراق ، عمود من الخشب المجوف من القصب ، وفيه سنان يشبه الرمح المجوف ، وبداخله سهم مهلك ، وهذا الرمح يمكن ان يطعن به او يزرق به ، وهو من أسلحة القتال الفعالة في ذلك الزمان .

(٦٢) صلاح الدين في حطين : ص ٦٢ .

(٦٣) نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٤) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٧٥ .

(٦٥) صلاح الدين في معركة حطين : نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٦) نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٧) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٤ .

(٦٨) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٢٩٥ .

(٦٩) الكامل ١١/٥٣٦ ، مفرج الكروب ٢/١٩١ .

(٧٠) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٧١) نفس المصدر ص ٦٥ .

(٧٢) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٧٣) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٧٤) صلاح الدين في معركة حطين ـ مجلة الدفاع العربي ص ٦٥ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٧٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٤ .

(٧٧) المارشال ويفل : حطين (ترجمة محمد عطية) المجلة العسكرية السورية ـ العدد الثالث ـ تشرين الأول ١٩٥٥ ص ١٥ .

(٧٨) عمر كحالة : سيف الله خالد بن الوليد ص ٢٦١ (محاضرة القائممقام أركان حرب أحمد بك اللحام) الملحقة بالكتاب . وقارن : شكري محمود نديم ، حرب فلسطين ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، وانظر : ياسين سويد : معارك خالد بن الوليد ص ٣٢٧ .

(٧٩) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٨٠) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٩١ .

(٨١) اللواء السرساوي : نفس المصدر ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٨٢) اللواء السرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ .

(٨٣) اللواء السرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ .

(٨٤) اللواء السرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٨٥) اللواء الركن حارث لطفي الوفي : فن المناورة ص ٩ .

(٨٦)المدخل الى السوق والجغرافيا العسكرية ص ٨٦ .

(٨٧) اللواء السرساوي : نفس المصدر ص ١٥ .

وللمزيد من التفاصيل عن المناورة وفن المناورة يمكن الرجوع الى كتاب اللواء الركن حارث لطفي الوفي الصادر عام ١٩٨٤ عن مديرية التطوير القتالي ـ وزارة الدفاع ـ بغداد .

(٨٨) اللواء السرساوي ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٨٩) نفس المصدر ص ٤٣ .

(٩٠) د. سعيد عبدالفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٩٢ .

أ ـ المصادر :

١ ـ ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ـ الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ هـ .

٢ ـ ابن كثير :

البداية والنهاية في التاريخ ـ الطبعة الاولى ١٩٣٢ ـ مطبعة السعادة/مصر .

٣ ـ ابن واصل :

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . (تحقيق جمال الدين الشيال) ـ القاهرة/١٩٥٧ .

٤ ـ العماد الكاتب الأصفهاني :
الفتح القسي في الفتح القدسي . طبعة عام ١٩٦٥ نشر الدار القومية/القاهرة .

ب ـ المراجع الحديثة :

١ ـ ابراهيم مصطفى المحمود :
حطين ، المجلة العسكرية ـ العدد ٦ و٧ السنة ٢٥ شباط ١٩٧٥/دمشق .

٢ ـ د. أحمد بيلي :
حياة صلاح الدين الأيوبي ـ الطبعة الثانية/١٩٢٦ ـ المطبعة الرحمانية ـ بمصر .

٣ ـ دريد عبدالقادر نوري :
سياسة صلاح الدين الأيوبي ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد/١٩٧٦ .

٤ ـ صبحي عبدالحميد :
معارك العرب الحاسمة . الطبعة الثالثة/١٩٨٦ ـ الناشر/الدار العربية للموسوعات .

٥ ـ د. عبداللطيف حمزة :
أدب الحروب الصليبية ـ الطبعة الاولى/١٩٤٨ ـ نشر دار الفكر العربي .

٦ ـ محمد كرد علي :
خطط الشام ج ١ دمشق/١٩٢٥ .

٧ ـ محمد فريد أبو حديد :
صلاح الدين وعصره ـ القهرة/١٩٢٧ .

٨ ـ محمد عمارة :
معارك العرب ضد الغزاة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت/١٩٧٢ .

٩ ـ اللواء محمود محمد السرساوي :
من روائع التاريخ العسكري العربي ـ يوم حطين . سلسلة (اخترنا للجندي) ـ العدد (٢٩) مطابع الدار القومية/القاهرة .

١٠ ـ د. سعيد عبدالفتاح عاشور :
الناصر صلاح الدين . سلسلة (أعلام العرب ـ العدد ٤١) ـ القاهرة .

١١ ـ د. نظير حسان سعداوي :
التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ـ مطبعة مكتبة النهضة المصرية/القاهرة/١٩٥٧ .

١٢ ـ ياسين سويد :
معارك خالد بن الوليد ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت/١٩٧٣ .

١٣ ـ العقيد مفلح علي :
حطين ـ (سلسلة من التاريخ الحربي للامة العربي ـ ج ٢ طبع/١٩٥٩) .

١٤ ـ العميد محمد فيصل عبدالمنعم :
صلاح الدين في معركة حطين . مجلة (الدفاع العربي) ـ العدد السادس/١٩٧٩ .

جـ ـ الكتب المترجمة :

١ ـ ستيفن رونسيمان :
تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ (ترجمة د. الباز العريني) طبعة دار الثقافة ـ سنة ١٩٦٩ .

٢ ـ انتوني ويست :
الحروب الصليبية (ترجمة شكري محمود نديم) . الناشر ـ شركة النبراس ـ بغداد/١٩٦٧ .

٣ ـ المارشال ويفل :
حطين (ترجمة محمد عطية) . المجلة العسكرية/العدد الثالث/١٩٥٥ دمشق .

جيش صلاح الدين

د. محسن محمد حسين
كلية التربية / جامعة بغداد

المعروف ان الدولة الايوبية قد قامت على انقاض الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة النورية الزنكية في الشام واطراف العراق . الا انها تأثرت في مجال نظمها الحربية بشكل مباشر او غير مباشر . بما كان معمولا به في الدولة الزنكية نظراً الى ان الايوبيين الاوائل قد نشأوا في كنف عمادالدين زنكي ، كما نشأ الرعيل الثاني من بني ايوب من صلاح الدين واخوته وبني عمومته في كنف نورالدين ابن زنكي .

ولهذا فان البحث عن التشكيلات العسكرية وادارتها والاسلحة والمعدات التي استعملها جيش صلاح الدين لم تكن الا استمرارا لما كان موجوداً من قبل ، مع بعض الاضافات التي استحدثت بفعل حالة الاحتراب المستمر مع الصليبيين ، وبفعل منطق التطور . اما بالنسبة للمؤثرات المصرية (الفاطمية) على الجيش الذي استحدثه صلاح الدين فكانت ملحوظة اكثر ، كما اثبتت ذلك مصادر العصر ، بل نكاد نزعم ان تسنم صلاح الدين لحكم مصر لم يكن بمثابة انقلاب سياسي فحسب ، بل كان انقلاباً في المجالات العسكرية كذلك ، سواء أكان ذلك في العناصر التي ابعدها صلاح الدين عن تشكيلات جيشه ، او العناصر الجديدة التي اعتمد عليها في تكوين جيش دولته الفتي .

وفي هذا البحث نحاول ان نعالج جملة مسائل تخص هذا الجيش ، سواء في التغييرات التي استحدثها فيه ، او ما ثبته فيه من امور ، مثل التموين والتعبئة العسكرية وكذلك في المؤسسات المتعلقة بامور البريد، والاستخبارات ووضع الكمائن ، وكذلك المتعلقة بمجلس حرب الجيش وخطط القتال في جيش صلاح الدين .

اولا : تشكيل نواة الجيش الايوبي :

كان نور الدين محمود ، صاحب الشام ، قد بعث قائد جيشه اسدالدين شيركوه الى مصر على رأس قوة عسكرية في ثلاث حملات متتالية للحيلولة دون وقوع مصر تحت السيطرة الصليبية . وكان عدد فرسانه يزداد في كل حملة عما سبقتها ، حتى بلغ في الحملة الثالثة (والاخيرة) ثمانية الاف فارس[1] . الا ان المصادر لم تشر الى عدد الجنود المشاة الذين صاحبوا الحملة ، على الرغم من ان عدد المشاة كان اكبر من عدد الفرسان ، في كافة جيوش تلك الفترة . وقد ذكرت بعض المصادر المتأخرة ان جيش شيركو كان في «سبعين الفاً ما بين فارس وراجل[2]» ، وان صح هذا القول فان عدد المشاة يكون ضخما .

هذا وقد خلف اسدالدين شيركو ، الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد ، بعد وفاته ، فرقته الخاصة التي سميت باسم «الفرقة الاسدية» وقد اضطلعت هذه الفرقة بدور واضح في تنصيب صلاح الدين وزيرا ، خلفا لعمه ، وكان عدد افرادها لا يقل عن خمسمائة فارس[3] ، وشكلوا نواة الجيش الايوبي في مصر ، وظهرت فرقة ثانية على مسرح الاحداث عرفت باسم «الفرقة الصلاحية» وكان افرادها من خواص صلاح الدين ، يقودهم الامير ابو الهيجاء السمين الهذباني . وقد قامت هاتان الفرقتان بدور بارز في تاريخ

الجيش الايوبي ، وانجبتا امراء وقادة كبار .

وكما هو متوقع ، فقد قام صلاح الدين ، بعد ان قضى على الجيش الفاطمي ، باحلال عناصر جديدة محل عناصر ذلك الجيش ، فقد ذكر ذلك مؤرخ مصر الكبير المقريزي[٧] وابن اياس[٨] .

واعتمد اسد الدين شيركو وصلاح الدين على العرب كذلك في تشكيل القوة العسكرية الايوبية ، ويذكر ان شيركو حين اضطر الى الالتجاء الى الجيزة ، خلال صراعه مع الصليبيين استمال العرب القاطنين هناك ولاسيما «الاشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون وغيرهم»[٩] ويبدو ان العرب انضموا الى الجيش الايوبي بصفة جنود نظاميين ، ففي العرض العسكري الذي اقيم يوم ٨ محرم ٥٦٧ هـ/ ١١ ايلول ١١٧١ م ، اي اثر قطع الخطبة الفاطمية ، وقبيل وفاة الخليفة العاضد الفاطمي بيومين ، اشترك في العرض (العرب الجذاميون)[١٠] ، وكانت عدتهم - عددهم - سبعة الاف فارس ، في بداية التحاقهم بالجيش ، ثم انخفض عددهم في المراحل التالية . وكذلك انضمت جماعات من المغاربة الى الجيش الايوبي ، والراجح انهم انضموا اليه بصفتهم جنوداً متطوعين «غير نظاميين» ، تطوعوا بدافع الجهاد . فعن وجود المغاربة في صفوف هذا الجيش ذكر الرحالة المغربي (ابن جبير) الذي زار مصر والشام : ان اهل البر والاحسان من الاثرياء والخواتين «النساء النبيلات» كانوا يخصصون جزءاً من ثروتهم لتحرير المغاربة الذين وقعوا في اسر الصليبيين[١١] . واثناء حصار عكا الطويل ، الذي دام حوالي سنتين ، كان المغاربة يديرون شؤون الحمامات الخاصة بالجيش الايوبي[١٢] .

حجم الجيش الايوبي وتطوره :

ذكر المقريزي نقلا عن عبدالرحيم البيساني مستشار صلاح الدين المعروف بـ(القاضي الفاضل) انه جرى في مستهل عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م عرض عسكري اشترك فيه مختلف صنوف الجيش الايوبي ، قديمها وحديثها ، باسلحتها وخيولها وعدتها الحربية . وقد تتابع وصول القوات الى مكان العرض في القاهرة . ومن طريف ما يروى انه قد دُعي لمشاهدة العرض رسل الروم البيزنطيين ورسل الفرنج الصليبيين . وكان عرضا عسكريا ضخماً سارت المواكب فيه موكب اثر موكب ، وطلب بعد طلب[١٣] . والطلب - بلغة الغزو (اي الترك) - كما يقول المقريزي - هو الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة الى سبعين . وقد استمر العرض الى ان انقضى النهار ، ودخل الليل دون ان يكمل عرضهم . وكان عدد الاطلاب المشتركة مائة وسبعين واربعين طلبا ، اضافة الى عدم اشتراك عشرين طلبا كانت غائبة . ويضيف القاضي الفاضل قائلا : وتقدير العدة يناهز اربعة عشر الف فارس اكثرها طواشية[١٤] . والطواشي من كان رزقه سبعمائة الى الف الى مائة وعشرين ديناراً ، وله برك «دواب» الى عشرة رؤوس ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل ، وللطواشي غلام يحمل له سلاحه . اما باقي الجند المشتركين في العرض ، كما ذكر القاضي الفاضل ، فكانوا (قراغلامية)[١٥]

ويبدو من هذا الكلام - الذي يشبه عملية احصائية - ان الجيش الايوبي صار تعداد الخيالة فيه حوالي ستة عشر الف فارس ، الا ان القاضي الفاضل ، ومن ثم المقريزي ، لم يبين لنا عدد الطواشية وعدد القراغلامية الذين كانوا في هذا الجيش ، واكتفى بالقول : ان اكثر ما في الاطلاب كانوا من الطواشية .

وبعد عشر سنوات من التاريخ المذكور ، اي في سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م ، قام السلطان الايوبي بعملية حسابية جديدة لمعرفة قوة جيشه ، وخلال هذه السنوات حصلت تطورات هامة في تاريخ المنطقة - ولاسيما في مصر والشام - واثرت على مكونات وقدرات وحجم هذا الجيش وخبراته ، منها : ارسال حملة الى بلاد اليمن بقيادة شمس الدين توران شاه بن ايوب في رجب ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م[١٦] ، ثم الانزال الصقلي البيزنطي الواسع على ثغر الاسكندرية في نهاية عام ٥٦٩ هـ وبداية ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤[١٧]م ، وثورة بقايا الجيش الفاطمي بقيادة الكنز سنة ٥٧٠ [١٨]هـ ، ثم قيام صلاح الدين بقيادة حملته الاولى على بلاد الشام وفتح بعض مدنها الداخلية ، ثم عودته الى مصر ، وتجريده حملة عسكرية على جنوبي فلسطين ، وهزيمته عند بلدة الرملة[١٩] . كل هذه الاحداث وغيرها ، قد سبب - كما يبدو لنا - في انخفاض عدد جند الجيش الايوبي خلال تلك الفترة ، الا انه سرعان ما عوض هذا النقص ، كما يظهر من الارقام الجديدة التي ذكرها المقريزي ضمن متجددات السنة المذكورة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وقال : ان صلاح الدين قام للنظر في امور جيشه لمعرفة الزيادة والنقصان الحاصلين في

عدد جنده ، واستقرت العدة على ثمانية الاف وستمائة واربعين (٨٦٤٠) فارساً ، بينهم الامراء ، وستة الاف وتسعمائة وستة وسبعون (٦٩٧٦) طواشيا[٢٠] ، اما القراغلامية فكان تعدادهم الفا وخمسمائة وثلاثة وخمسين (١٥٥٣)[٢١] ويصبح المجموع اكثر من سبعة عشر الف مقاتل ، اي اكثر مما كانوا عليه في العرض الاحصائي السابق الذي جرى في سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م ، هذا وقد بلغت نفقات الجيش السنوية (٣٫٦٧٠٫٠٠٠) دينار ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لنفقات جيش في ذلك العصر .

ثانيا : تنظيمات الجيش الايوبي

مركز تحشدات الجيش (دمشق)

كانت بلاد الشام مركزاً للمقاومة ضد الصليبيين المحتلين ، ولاسيما في عهد نورالدين محمود الذي ملك دمشق سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م حين كانت بيد الاتابك مجدالدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين[٢٢] . ولما توجه صلاح الدين الى الشام سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م جعل من دمشق مركزاً للحكم . ولا شك ان موقع هذه المدينة القريب من الاقاليم التي يحتلها الصليبيون وبعد المراكز الاخرى ولاسيما حلب ، اضافة الى متانة اسوار دمشق وتوفر وسائل العيش فيها ولطف هوائها ، كل هذه العوامل جعلت من هذه المدينة مركزاً لا يعوض بالنسبة لصلاح الدين ليقوم بجهوده الرامية لتوحيد الجبهة الاسلامية ، ويتحرك لاسترداد الارض العربية . فمن دمشق انطلقت القوات الايوبية مراراً للاغارة على حصن الكرك المنيع ، والى طبرية وحطين في سنة الفتوح (٥٨٣ هـ-٥٨٤ هـ) والى جهات الشمال نحو انطاكية واعمالها وقلاعها ، والى الجنوب نحو صفد وكوكب وبيسان وغيرها[٢٣] . وكان يعود الى دمشق بقواته حين الانتهاء من عملياته الحربية[٢٤] . وقد يحدث ان يجتمع في هذه المدينة جميع عساكر الجيش الايوبي ، كما حصل في سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م[٢٥] ، وسنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وهذا يعني ان المشرفين على شؤون هذا الجيش قد وفروا المعسكر اللازم الذي يأوي اليه هذا العددالغفيرمن الجنود ، ووفروا في المعسكر ما يحتاجون اليه من الطعام واماكن لراحتهم وراحة دوابهم وغيرها . والواقع ان معسكراً ضخماً كهذا كان موجوداً في دمشق قبل العهد الايوبي بمئات السنين ، وهو معسكر (الجابية) الشهير الذي كان في الاصل ضيعة قريبة من دمشق[٢٦] قبل الاسلام ، ثم تحولت بعد الاسلام الى معسكر من اكبر المعسكرات في بلاد الشام ومركزاً لجندها ، وامتازت الجابية بمناخها الصحي حتى اتخذت مصحاً للجند[٢٧] .

ولعل القلعة كانت ابرز معالم دمشق العسكرية والادارية ، فكان فيها مرافق الدولة من مخازن السلاح والسجن (الزرد خاناه) وبيت المال ودواوين الدول[٢٨] .

وكانت دمشق بمثابة مخزن للاحتياطي من الذخيرة والسلاح[٢٩] ، ومأوى للاسرى الصليبيين[٣٠] نظرا لقربها من ميادين القتال وسهولة ارسالهم اليها وتبادلهم مع الاسرى المسلمين .

ديوان الجيش :

كان هذا الديوان مسؤولا عن الشؤون الخاصة بالجيش ، ويتولى امره احد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة ، شرط ان يكون مسلماً وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة[٣١] . وهذا الديوان كان اشبه بوزارة الدفاع في الوقت الحاضر ، والمتولي عليه مسؤول عن معرفة احوال الاجناد وتسجيل الامور الخاصة بحضورهم وغيابهم واوضاعهم الصحية وموتهم[٣٢] .

والمرجح ان يكون ديوانان للجيش الايوبي ، احدهما خاص بمصر والثاني بالشام ، الا اننا لا نعرف من الذي تولى أمر هذا الديوان في الشام ، اما في مصر فقد تولاه احد النصارى هو «المهذب بن ابي المليح مماتي» منذ اواخر العهد الفاطمي ، واستمر على هذه المهمة ايام صلاح الدين ، بعد ان اعلن ـ مع اسرته ـ عن اسلامه ، وتولاه بعده ابنه (الاسعد) مصنف كتاب «قوانين الدواوين» ، واستمر على تولى مهمته طيلة فترة صلاح الدين وابنه وخليفته في حكم مصر الملك العزيز عماد الدين عثمان ، حين تولى ديوان المال اضافة الى ديوان الجيش[٣٣] .

زي الاجناد :

تحدث مؤرخون عديدون ـ وفي طليعتهم القلقشندي ـ عن مواصفات زي الاجناد في العصر المملوكي في مصر ذلك العصر الذي نضجت فيه واستقرت الكثير من

التقاليد الخاصة بمختلف شؤون الحكم والادارة والكتابة والجيش والمال وغيرها ، والذي يعده المؤرخون استمراراً للعهد الايوبي ، بل انهم يعتبرون هذا العهد حلقة وصل بين العصر السلجوقي والاتابكي من جهة ، والعصر المملوكي من جهة اخرى ، ولاسيما في التقاليد العسكرية ، في حين نرى ان العصر الفاطمي الذي استمر في مصر اكثر من قرنين لم يترك ذلك الاثر في كيان الدولة الايوبية ، ومن ثم المملوكية ، على الرغم من ان الايوبيين كانوا ورثة الفاطميين .

عن زي القادة العسكريين والجنود الايوبيين تحدث القلقشندي وقال : ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية ، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة في عهد عمادالدين زنكي ـ مؤسس اتابكية الموصل وحلب الشهيرة ـ ثم ولده نورالدين محمود بالشام وما معه ، وكان من شأنهم انهم يلبسون الكلوتات[٣٤] الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها ، سواء في ذلك المماليك والامراء وغيرهم[٣٥] .

الا ان تغييراً جرى في غطاء الرأس في بعض الفترات الاتابكية والايوبية ، فسيف الدين غازي بن عمادالدين زنكي ، ثاني اتابكة الموصل (٥٤١ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٤٩ م) استحدث حمل السنجق على رأسه ، وقلده الملوك في ذلك ، والزم الاجناد ان يشدوا السيوف في اوساطهم ، ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب[٣٦] ، وحين ملك صلاح الدين الديار المصرية ، جرى على النهج نفسه او ما قاربه[٣٧] .

واستحدث الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابو بكر بن ايوب ، صاحب دمشق (٦١٥ ـ ٦٢٤ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٢٧) عادة لبس الكلوته الصفراء بلا شاش[٣٨] ، كما ذكر القلقشندي[٣٩] ، فالكلوته في عهد صلاح الدين كانت تلبس وعليها شاش ، الى ان رفعه الملك المعظم المذكور ، واستمر هذا التقليد الى العهد المملوكي حين أمر الملك الاشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون باعادة الشاش على الكلوتة ، كما كانت عليه في عهد صلاح الدين[٤٠] .

وقد استحدث صاحب الموصل المذكور (سيف الدين غازي) تغييرات في لباس الجند وقلده باقي الامراء والمقدمون واعيان الجند ، فكانوا يلبسون الاقبية[٤١] الواسعة والتكلات فوقها ، ثم القباء الاسلامي فوق ذلك ، اي أنهم كانوا يلبسون قباءين تكون اكمام القباء الفوقاني أقصر من اكمام القباء التحتاني واوسع منه[٤٢] . ويشد السيف من جهة اليسار والصولق[٤٣] والكزلك[٤٤] من جهة اليمين ، حسب ما ورد في كتاب القلقشندي[٤٥] .

التموين :

كان التموين يشكل احدى اهم مشاكل تعبئة الجيوش ، نظراً لصعوبة المواصلات ، والاعتماد في حمل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة ، اضافة الى تلف المؤن ، وكذلك لصعوبة الاتصال بالمراكز لتوفير المؤن ، ولهذا فكثيرا ما كانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات ، وتسرع في حسم نتائج المعركة لصالح الطرف الذي اخذ احتياطه الكافي من الزاد والماء . فكان على القائد ان يمون جيشه بالكمية اللازمة التي تكفي المدة التي يقضيها في الطريق الى ميدان المعركة ثم العودة منه ، وان يضع في حسابه استمرار التزود بالمؤن عند الحاجة ، ولا يقطع عنه خط التموين ما استطاع الى ذلك سبيلا . واذا ادركنا ان حالة العطش الشديد التي عانى منها الصليبيون يوم حطين كانت في طليعة اسباب هزيمتهم الشنيعة في ذلك القيظ من شهر تموز ، ادركنا اهمية سلاح الماء في رجحان كفة طرف دون آخر ، ولعل صعوبة تزويد عكا بالمؤن اللازمة كانت اهم اسباب سقوطها بيد الصليبيين بعد صمود طويل دام

سنتين .

وكانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة ، اي في الساقة ، وكانت تسمى بـ«الثقل» . ولكن حدث في بعض الحملات ان وضعوا الثقل في وسط الجيش ، اي بالقرب من قلب العسكر . ويحتمل ان يكون سبب ذلك خشيتهم من استيلاء العدو عليه والظفر به . ففي اواسط جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م «رحل السلطان الى تعبئة لقاء العدو ، ورتب الاطلاب ، وسارت الميمنة اولاً والقلب في الوسط والميسرة في الاخير . . وسار الثقل في وسط العسكر»[٤٦] .

ونجد ان الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم مواد التموين الضرورية في الجراب ـ الصولق ـ المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف . ولدى التهيؤ للسير يتعبأ الجند بنزولهم الى السوق والتزود بالضرورات ، ولعلها لم تتعد الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المجففة وشيء من الحبوب والبقول والاثمار والتمور . فلدى الاستعداد للقيام بنوبة الرملة التي انتهت بهزيمة صلاح الدين سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م يتحدث عمادالدين الكاتب ويقول : نودي في الجنود : «خذوا زاد عشرة ايام اخرى زيادة للاستظهار ، فركبت الى سوق العسكر للابتياع ، وقد أخذ السعر في الارتفاع . . »[٤٧] .

وفي الغزوات التي اعقبت موقعة حطين ، وقيام الجيش الايوبي بالاغارة على الساحل في منطقة امارة طرابلس الصليبية سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م نودي في الجنود : «انا داخلون الى الساحل ، وهو قليل الازواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر»[٤٨] . وحين اشتدت الضائقة على اهل عكا في الحصار الشديد الطويل ، بعث الامير بهاءالدين قراقوش من داخل المدينة يشكو الى السلطان قلة الميرة ، فرتب لهم هذا بطسة «سفينة ضخمة» كبيرة وارسلها ، ولكي يتم دخولها الى عكا بسلام ، وضع على البطسة بعض النصارى من اهل بيروت الذين كانوا قد اسلموا ، لكي يستطيعوا التفاهم مع الاعداء المحاصرين ويموهو عليهم بلغتهم ولبسهم ويذقونهم الحليقة ، وللزيادة في التمويه امرهم السلطان ان يرفعوا الصلبان على سارية البطسة ، ويضعوا الخنازير على سطحها ، وساروا نحو عكا ، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون ، الا انم استطاعوا تمرير الخديعة ، وايهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر[٤٩] ، ومعهم الميرة وهي اربعمائة غرارة قمح وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون اليه[٥٠] .

وقد تكرر ارسال المؤن الى عكا نظراً لطول مدة الحصار ، وكانت تأتيها من مصر ، ذات الثروة الطائلة ، اضافة الى ما كان يرسل اليها من بيروت[٥١] . وابتدع المسلمون من اجل ذلك مختلف السبل المحيلولة دون سقوطها ، ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا ، وكانت صعوبة التموين اهم اسباب ذلك ، كما اسلفنا .

وحدث لبعض المدن التي كانت بيد الصليبيين ، ان سقطت بيد الجيش الايوبي بسبب انقطاع الميرة عنها ، بل ان حصن كوكب المنيع القريب من طبرية ، قد سقط بيد المسلمين حين «اعوز سكانها الملح ! فخرجوا منه اذلة ، وسلموه» الى الجيش الايوبي[٥٢] . رغم ما في هذا السبب من طرافة . ونجد ان الجيش الايوبي كان يلجأ في الحروب الى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه ، ومن ثم اضعافه وتسليمه . كما قام بافساد زرع الصليبيين وكرومهم ، وقطع اشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لاضعاف صاحبها (رينودي شاتيو) المعروف بـ(ارناط) في المصادر العربية[٥٣] . وقام ايضا بحصد غلات العدو . . حتى جف زرعهم[٥٤] .

التعبئة العسكرية :

تعني التعبئة مجموع الاعمال التي يقوم بها الجيش في مجال تحشيد القوات في ميادين المعارك ، وسوقها الى خطوط

القتال ، او تنسيق القوات للرد على هجمات العدو والانتصار عليه[55] ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً وحديثاً ، الا ان اساليبها وصنوف جيشها والالات والمعدات التي يستعملها هي التي تغيرت .

وما يعنينا في التعبئة العسكرية للجيش الايوبي ، هو ما كان عليه يومئذ فعلاً ، دون أن ندخل في تفاصيل الانظمة التي كانت عليها الجيوش العربية الاسلامية في العهود السابقة ، الا اننا نذكر ان ابرز اشكال تنظيم الجيوش هو نظام الصفوف المتراصة ثم نظام الكراديس[56] . اما النظام الذي سار عليه الجيش الايوبي فهو نظام التخميس والذي لم يختلف صلاح الدين عمن سبقه من القادة المعروفين الذين طبقوا هذا النظام من حيث الاساس . ولدى دراستنا تواجهنا مشكلة تحديد نوعية التخميس الايوبي ، او طريقة رص اطراف هذا النظام ـ ولاسيما الجناحين ، الميمنة والميسرة ـ وموقعهما بالنسبة لجذعه (لقلب الجيش) . فالكتب التي اعتمدنا عليها ، والتي صنفت في مجال ترتيب الجيوش ، تذكر عدة انساق سارت عليها الجيوش الاسلامية في العصر الوسيط . والواقع ان تلك الكتب لا تشبع نهم الباحث من الناحية العملية ، اذ هي تتحدث عن قضايا من المحتمل انها لم تحدث في العصر الذي تبحث عنه ، ليس في مجال تنظيم الجيش فحسب ، بل بالنسبة للقضايا العسكرية الاخرى كذلك .

وتنظيم الجيش الايوبي كان على نسق كتائب يشبه ترتيب اعضاء جسم الانسان الرئيسية ، او يشبه الصليب ، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر ، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر او المقدمة ، واليدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة ، ثم الساقين معا في الخلف بمثابة مؤخرة او ساقة الجيش . ومن هذا نرى ان التنظيم على هذا النسق قائم على خمسة اجزاء ، ومنها تسمية الجيش بـ«الخميس»[57] .

ويرى ابن منكلي المصري ان الصفوف كان يتم ترتيبها بثلاثة اشكال ، الفرق بينها هو موقع الجناحين من القلب ، وفيما اذا كانتا تتقدمان على القلب ، او يتقدم القلب على الجناحين ، او كان القلب والجناحان على مستوى واحد في خط مستقيم ، وهو ما يسمى بالصف المستوى ، ويقول ان هذا الصف هو اوثق الصفوف ، ولعله اشهرها ايضاً كما نرى ، وكان ينظم في ستة صفوف ، في كل صف مائة وأحد عشر فارساً . اما الشكل الاخر فيسمى بالصف الهلالي ، وهو خارج الجناحين ، وكانوا يضعون في كل طرف من الجناحين الخارجين كردوسا من الخيل المقوية له .

والشكل الثالث كان على عكس الشكل الهلالي ، ويسمى بالصف المعطوف ، وهو داخل الجناحين ، وكان المسلمون لا يتخذون هذا النوع من الترتيب الا عند الضرورة ، حيث يجعلون اهل البأس والقوة في الميمنة والميسرة ، او يقوون القلب بكردوسين من الخيل ، وكان يراعى في تنظيم الصفوف ان يكون قصار القامة من الرجال قبل اطولهم[58] . وكان ثمة اشكال اخرى لتنظيم الجيش اقل اهمية وشهرة[59] .

ويرى الطرسوسي المعاصر لصلاح الدين ان الجنود المشاة (الرجالة) ينبغي وضعهم «أمام الفارس ليكون له كالحصن المانع» على ان يكون الراجل محمياً بستائر يتخذها امامه تكف عنه شر من يضرب بالسيف او الرمح او يرمى بسهم واقع من الاعداء ، ويجعل بين كل راجلين احد رماة النبال ليرمي اذا لاحت له فرصة في الاعداء ، او تبين له من الجمع اختلاله[60] .

وموضع القائد كان في القلب عادة[61] ، ومعه الاعلام حتى يراه جميع امراء المراتب لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه ، الا انه كان يغير موضعه احياناً ويميل الى احد الجناحين لتقويته ، او لاعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما ، وفي بعض الاحيان كان يتحول الى المقدمة لاثارة حماس الجند ،

وليلقي الرعب في نفوس العدو . وكان صلاح الدين يضع القادة والامراء المعروفين على رأس الجناحين ، اما على رأس المقدمة (الطلائع) فكان يضع اصحاب الخيول : السبق والرمي والخفة في الطراد والمقابلة[٦٢] . ففي (الوقعة العظمى) التي حدثت بمرج عكا في شعبان ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م ، والتي سخرها الصليبيون كل قوتهم بعد هزيمتهم الشنيعة في حطين والقدس وغيرها ، نظم صلاح الدين قواته للمسير ، ووضع في الميمنة ولديه الملك الافضل علي والملك الظافر خضر ثم عسكر الموصل بقيادة ابن البلتكري ، وعسكر ديار بكر بقيادة قطب الدين بن نورالدين صاحب (حصن كيفا) وآمد ، ثم حسام الدين لاشين ابن اخت صلاح الدين ، صاحب نابلس ، وصارم الدين قايماز النجمي ، وجموعاً عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان يقودها جميعاً ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر ، ابرز ابناء الاسرة الايوبية شجاعة وجرأة .

اما الميسرة فكان عليها الامير علي بن احمد المشطوب الهكاري مقدم الاكراد ، والامير مجلي بن مروان ، وجماعة من المهرانية والهكارية ، وبرتقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين كوكبوري بعسكره ، وفي مؤخرة الميسرة كبار الاسدية ، مثل يازكوج وارسلان بغا . وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى الهكاري وجمعه ، اما صلاح الدين فكان يطوف بنفسه على الاطلاب ويحثهم على القتال[٦٣] .

يظهر من ذلك ان العبء الاكبر كان يقع على الجناحين ، بوضع ابرز الامراء على قيادتهما ، في حين ان المقدمة وكذلك القلب لم يكن فيهما احد من القادة الكبار . وقد تكرر هذا الترتيب في شتى معارك هذا الجيش مع إحداث بعض التغيير في هذا الجناح او ذاك[٦٤] . الا ان السلطان كان ـ في كل الحالات ـ يعبىء العسكر ويتفقد الصفوف بنفسه[٦٥] ، ويبقى على اتصال وثيق باجزاء الجيش كلها ومحافظاً على الارتباط بأمراء التعبئة ويشرف على سير المعركة ، ليقدر الموقف اللازم اتخاذه حين تضطرب الصفوف ، ولذلك فانه يستخدم احتياطه في الاماكن الضرورية ، ويكشف قواته لمقاومة العدو[٦٦] .

الاطلاب واصناف الجيش حسب كل صنف :

كان الجيش الايوبي قد عرف نظام الاطلاب ، الذي تحدثنا عنه من قبل ، وهو قائم على اساس تقسيم الجيش الى مجاميع ، كانت بمثابة كتائب يكون على رأس كل مائتي فارس ، او مائة او سبعين فارساً ، امير مقدم[٦٧] . فيقال ان الحملة الفلانية تضم كذا من الاطلاب ، الا اننا لا نستطيع ان نجزم بان الجيش الايوبي اتبع نظام الاطلاب بتلك الدقة التي عرف بها الجيش المصري في عهد المماليك ، رغم ان لفظ الاطلاب يرد كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين[٦٨] وخلفائه . لكنه يرد احيانا وكأن القصد منه هو ترتيب الصفوف دون ان يقصد عدداً معيناً .

وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة مزاياه يتميز بها عن الصنوف الاخرى ، وهذا التميز يظن بنوع السلاح الذي يستعمله والعتاد الذي يتجهز به ، والواجبات الملقاة على عاتقه . ولا يمكن للجيش ان يتحرك بنجاح في العمليات العسكرية ما لم يعمل جميعا بوفاق وتنسيق تامين، ويساعد بعضها البعض الاخر في حالات الاشتباك . وكان هناك صنفان اساسيان في الجيش الايوبي ، اضافة الى الاصناف الجانبية ، وهما :

(أ) صنف الفرسان (الخيالة) ويؤلف هذا الصنف قسماً ملازماً لكل جيش ، ويقوم بأعمال مجيدة ، وهو عصب الجيوش في حروب العصور الوسطى ، وكانت من مهماته الرئيسة : القتال والاستطلاع (او الاستكشاف) نظرا لما تتطلب هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود بالقوت والمؤن . وكانوا يختارون ـ عادة ـ أهل

النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب ، ويتفادون الاشتباك مع العدو حين القيام بمهمة الاستكشاف ، فالهدف من عملهم - في الاساس - هو تقدير قوة العدو ، ومعرفة مواطن الضعف فيه[٦٩] . وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجيء . الا انهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف ، كما يذكر الطرطوسي بقوله : «ولتكن الخياله والابطال من وراء الرجالة . . ينتظرون الحملة فاذا همّوا بها ، فتح لهم باب يحملون منه بالتعاون مع الرجالة»[٧٠] .

اما المزايا التي كان ينبغي ان تكتمل في الفارس ، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والالمام بفن مواجهة العدو ، كفن المصارعة (المنازلة) ومعرفة استعمال الرمح ، وفن الرماية[٧١] . وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والحراب الطويلة ، ويرتدون الزرد والترس والخوذ ، اما خيولهم فمن الراجح انهم كانوا يضعون عليها التجافيف والسروج[٧٢] .

(ب) صنف المشاة (الرجالة) :

وكان يؤلف القسم الاعظم من قوة الجيش ، ويقوم باعباء القتال وتحمل مشقاته ونتائجه . وكانت الاسلحة التي يحملها افراد هذا الصنف اسلحة خفيفة ، لانهم يسيرون على اقدامهم ، فكانوا يستعملون السيف والاقواس والرماح القصيرة . وكان المشاة يقومون باخراج افراد العدو من خنادقهم ويقضون عليه[٧٣] ، ويكلفون بحماية الجيش اثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو ، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد اثناء تنقلها . وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الامامية ، وخلفهم الخيالة والابطال ، كما ذكر الطرسوسي[٧٤] .

(جـ) اما الصنوف الاخرى المساعدة :

فكانت تعرف باسماء الاسلحة والاعتدة التي كانت تستعملها ، والواجبات التي يقوم بها كل صنف ، كصنف المنجنيقيين والدبابين (قائدي الدبابات) والنفاطين وصنف المخابرة وصنف التموين وغيرها .

وقبل التوجه الى ساحة القتال كان القائد يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الاطلاب وسد الثغرات والخروق والتأكد من صلاحية الاسلحة التي يحملها المحارب . فقبيل التوجه الى حطين مثلاً «وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويبّوبه تبويبا ويعبئه بعيدا وقريباً . وقرر لكل امير امرا ولكل مقدام مقاماً ، ولكل موفق موقفا ولكل كمين مكانا . . وعين لكل امير موضعا في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعاً ولا يبرح أحد منه . واخرج الجاليشية[٧٥] الرماة الكماة من كل طلب ؛ وقال : «اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا ، ومواضع اطلابنا ، ومطالع ابطالنا»[٧٦] .

وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال ، وشحذ الهمم ، وكان موضعه قريباً من القائد عادة ، فكل ما يصدر منه من اوامر يبلغه بصوت عال الى عموم الجيش ، ويسمى «الجاووش»[٧٧] . وكان ينادي بالقوم ان يستعدوا ، او ان الحاجة تدعو الامير الفلاني بالانتقال باطلابه لتقديم المساعدة الى الجهة الفلانية اثناء القتال ، بعد ان احدث العدو ثغرة فيها ، او يذكي حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة من مثل «ياللاسلام وعساكر الموحدين»[٧٨] . والملاحظ ان هذه المهمة «مهمة النداء» ظهرت بوضوح بعد سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، اي بعد موقعة حطين ، فلم نعثر من خلال النصوص ، على وجود الجاووش في الجيش قبل التاريخ المذكور[٧٩] . ولعل تفسير ذلك هو ان الجيش الايوبي زاد حجمه فبات من الضروري وجود من يقوم بهذه المهمة لتعميم الاوامر السلطانية على الفرق والاجنحة ، ونرى - ايضا - ان اذكاء حماس المقاتلين أصبح ضرورة اكثر من ذي قبل في الفترات التي لم يعد بوسع الجيش ان يحرز الانتصارات كالسابق ، بعد ان ضعفت لديه

قدرة الاقتحام بعد ان تلاحقت الامدادات الواسعة الى الصليبيين الذين كانوا لايزالون يحتلون بعض المواقع الحصينة في الارض العربية في فلسطين والساحل الشامي .

(د) الفرق الملحقة بالجيش :

١ - الفرقة الهندسية : وكانت تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة بشؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال ، ولاسيما قتال الاسوار والخنادق ، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة ، كالمنجنيق والدبابات والاقواس الثقيلة مثل قوس الزيار والجرخ والقوس المتعددة الاتجاه وقاذفات النفط ، ثم بناء المعسكرات والاسوار ، ولاسيما في الاماكن ذات الميزة العسكرية الحساسة ، وتشييد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفره وحفر الابار وتعيين مواقع ضرب الحصار حول اسوار المدينة المنوي فتحها ، وتهشيم هذه الاسوار وتغيير مجاري الانهار ، وغيرها من الاعمال الهندسية التي كانت ضمن واجبات هذه الفرقة .

فلدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة ايام ، واخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الاسوار ، العثور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور ، نحو باب عمودا وكنيسة صهيون ، فأمر صلاح الدين بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع[٨٠] .

وفي عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م ، ولدى حصار الموصل ، الذي عجز جيش صلاح الدين من احراز نصر عسكري مباشر فيه ، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة اسوار هذه المدينة ، اشار عليه بعض رجاله الى تعطيش المدينة بتحويل مجرى نهر دجلة وعرضت الفكرة على فخرالدين ابن الدهان البغدادي ، مهندس زمانه ، لابداء رأيه ، فقال : «هذا ممكن ولا يتعذر ، ويتيسر ولا يتعسر»[٨١] . وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين الى الخليفة العباسي ، والذي كتبه مستشاره المعروف القاضي الفاضل : «وذكر المهندسون اهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها ، بحيث يبعد مستقى الماء منها ، وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر في تضييق ولا نزال»[٨٢] . الا ان صلاح الدين لم ينفذ المشروع ، ولعل ذلك كان لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت .

٢ - الفرقة الطبية :

ومصاحبة الفرقة الطبية للجيش الى ميدان القتال لمعالجة الجرحى والمرضى كانت امراً ضروريا . وكان الاطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفا متنقلا ، فيه ما يحتاجون اليه من ادوية وادوات ونقالات ، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهور الحيوانات ، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج الى العلاج . والظاهر ان عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون الطبية ، وذلك لكثرة الحاجة اليها ، واغداق المال عليهم بسخاء ، والواقع ان الاهتمام بشؤون الطب وتشجيع القائمين عليها بدأ منذ وقت مبكر من العهد الايوبي ، وقد اولى صلاح الدين الاطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر او البلاط النوري الاتابكي في الشام اهتماماً كبيراً ، ومن هؤلاء الاطباء ابو البيان بن المدور الذي كان له جامكية «مرتب» تصل اليه كل شهر ، وبقي على تلك الحال نحو عشرين سنة . ولابي البيان مصنفات طبية[٨٣] . والطبيب (حكيم الزمان) عبدالمنعم بن عمر الغساني الذي كان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل واعمالها ، وقد استقر في دمشق يعالج مرضاه ، وكان صلاح الدين يجله كثيراً[٨٤] . . ومن اطباء هذا العهد ابو الحسن علي بن ابي عبدالله عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي الدمشقي[٨٥] ، وعفيف الدين بن عبدالقاهر الذي الف كتاباً اهداه الى صلاح الدين . وكان الاطباء يصحبون الجيش في تنقلاته حين تقتضي الضرورة . ويلاحظ ان الاطباء كانوا يستقرون في دمشق بسبب وجود المستشفى النوري

الكبير فيها ، وقد اختيرت دمشق بسبب قربها من ميدان القتال ، فكان جرحى ومرضى الحرب يرسلون اليها بيسر . هذا وكان لصلاح الدين طبيبه الخاص يصحبه في حملاته ، لانه كان يعاني من آلام والتياث مزاج ، وتظهر دمامل في ظهره ، حتى لامه اصحابه على قلة اعتنائه بصحته ، وعدم اخذ قسطٍ من الراحة ، فكان يرد عليهم بقوله : اذا ركبت للجهاد زال عني الالم حتى انزل .

٣ ـ فرقة الموسيقى العسكرية :

بعد ان ينادي الجاووش بالعسكر ان يستعدوا ، تشد الرايات وتبدأ الكوسات[٨٦] بالضرب ، وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية ، او المارشات في الوقت الحاضر ، كجزء من عملية اثارة حماس المقاتلين[٨٧] . وتثبت وقائع التاريخ الايوبي ان الموسيقى العسكرية كان لها شأن كبير في الجيش حتى خصص لها مكان خاص يسمى «الطبلخاناه» اي «مكان الطبل» ، ويذكر المقريزي بهذا الصدد انه بعد ان استقر صلاح الدين في مصر وانتهت الدولة الفاطمية «رتب نوب الطبلخاناه» ونظم شؤونها[٨٨] . ويشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول : «ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الالات» وقد كانت هذه الالات تضرب في اوقات القتال ، وفي بقية الايام «ثلاث مرات في كل يوم»[٨٩] ، وكان الذي ينقر على الطبل يسمى (دبندار) والنافخ في البوق يسمى (منفر) اما الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض ، فكان يسمى «كوسي»[٩٠] .

وكانت العادة ان تضرب على الكوسات لدى قدوم شخصية عسكرية هامة ، وتنشر معها الاعلام والبيارق وتنعر البوقات ، كما حصل ـ مثلا ـ لدى قدوم واستقبال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين[٩١] . كما كان لكل مناسبة ايقاعها الخاص ، تمرن على عزفها العازفون ، وعلى سماعه المقاتلون ، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة الى عدم التوقف عن القتال ، رغم الهزيمة التي لحقت بهم فكان «الكوس يدق ولايفتر» . وكذلك ضربات خاصة ببشائر النصر ، فحين وصل الخبر في شوال ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م بان الاسطول الايوبي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل اكثر من خمسمائة نفرمنهم «سر المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر»[٩٢] .

٤ ـ حملة اعلام الجيش :

وكان ضمن الجيش جماعة مهمتها حمل الراية والحفاظ عليها . والراية او العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة عن جماعة اخرى ، وتتخذ من لون معين . وكان لون راية صلاح الدين اصفر ، وفي وسطه صورة النسر علامة القوة والثقة في النصر . وبين الرايات «راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه ، وتسمى العصابة ، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ، ورايات صفر صغار تسمى السناجق»[٩٣] ، وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان .

ووضع صورة النسر على الراية ينحدر اصله الى عهود قديمة ، إذ وجد مرسوماً على رايات كثير من الدول القديمة[٩٤] . وفي التاريخ الاسلامي نقشه عماد الدين زنكي على النقود ، ثم اتخذه الارتقيون شارة مميزة لهم ، واخذ صلاح الدين هذا التقليد منهم ورسمه على رايته . ولعل صلاح الدين كان مبتكرا في اتخاذ الاصفر لونا لرايته[٩٥] ، وعن الراية الايوبية يتحدث العماد الكاتب لدى فتح الجيش لصيدا سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، ويقول : جاء رسل صاحب صيدا بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها ، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها[٩٦] ، ويقول العماد في مكان آخر «كانت الاعلام السلطانية صفرا»[٩٧] .

هذا وقد ورد وصف الراية الايوبية في مجموعة من

قصائد شعراء ذلك العصر في مناسبات النصر على العدو الصليبي ، ورفع العلم الايوبي . ففي معركة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م ، هنأه جماعة من الشعراء بالفتح ، منهم بهاءالدين ابو الحسن علي الساعاتي (ت . ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م) بقوله :

وما رفعت اعلامك الصفر ساعة
الا أن غدت اكبادها السود ترجف[٩٨]

ومدحه الشاعر الحسن المعروف بـ(العلم الشاتاني) بقصيدة مطلعها :

ارى النصر مقروناً برايتك الصفرا
فسر واملك الدنيا فانت بها احرى[٩٩]

وكانت الراية ـ بوصفها رمزاً للسيادة ـ ترفع في الاماكن الهامة كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية الرئيسة ، وحين يهزم احد الطرفين ، فان اول ما كان يفعله الجانب المنتصر هو نزع راية المهزوم وانزالها ورفع رايته مكانها ، كما فعل المسلمون في الحصون التي حرروها والتي كانت بيد الصليبيين ، او كما فعل الصليبيون في عكا ؛ فحين هزموا المسلمين واخذوا هذه المدينة المهمة «دخل المركيس البلد ومعه اربعة اعلام . . فنصب علماً على القلعة ، وعلماً على مئذنة الجامع ! وعلماً على برج الداوية ، وعلماً على برج القتال ، عوضا عن علم الاسلام الايوبي»[١٠٠] .

ثالثا : المؤسسات الخاصة بادارة شؤون المعارك

١ ـ البريد والاستخبارات والكمائن

تنظيم امور البريد

اقتضت ظروف الحرب ، واشتداد الصراع مع المحتلين الصليبيين وجود مؤسسة تهتم باستطلاع احوال العدو ، ومعرفة مدى قوته من حيث التعبئة وانواع الاسلحة والاعتدة ، ورصد تحركاته . وتهتم كذلك بارسال الاخبار وتسلمها من اطراف البلاد . وكان اولو الامر في الدولة يحرصون على سرية المعلومات وعدم تسرب الانباء الخاصة بالجيش الى الاعداء .

وكان تنظيم امور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض سمي بديوان البريد ، ووضع تحت اشراف بعض الموظفين ، وكلت اليهم ادارة شؤون هذه المؤسسة . وكانت الاخبار ترسل بخيول مقصوصة الاذناب ليكون ذلك علامة تميزها عن غيرها من الخيول . وبقي امر البريد على هذه الحال الى ان جاء بنو زنكي وبنو ايوب ، فانهم اعدوا لذلك النجب[١٠١] المنتخبة ، وما زال الامر كذلك الى ان انقرضت دولتهم وجاءت الدولة التركية[١٠٢] (اي دولة المماليك) .

وكان المتولون على شؤون هذه المؤسسة يرسلون البريدي ليقطع مسافة الى ان يصل الى محطة من المحطات التي وضعت بين اطراف واقاليم البلاد . وكانت (المحطات) تزود بالماء الكافي والزاد والعلف ، ويوفر فيها المكان الخاص ليقيهم برد الشتاء وحر الصيف ، ومن هذه المحطات يستطيع البريديون ان يستبدلوا هجنهم المتعبة باخرى مستريحة ، تعينهم على تأدية واجبهم بأقصر وقت وأيسر سبل[١٠٣] .

ويختار البريدي عادة من اشخاص عرفوا بالكفاءة والامانة والذكاء ومعرفة طبيعة الارض التي يعملون فيها ، نظرا لاهمية العمل الذي انيط تنفيذه اليهم ، لذا قال القلقشندي : ينبغي ان يكون البريدي «قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة ، وان يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعة . . صدوقاً بريئا من الطمع»[١٠٤] .

ويفرد الاوسي الانصاري صفات كثيرة يلزم توفرها في البريدي (في العيون والجواسيس) كأن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، وذا حدس صائب وفراسة تامة ، ليدرك

بوفور عقله وصائب حدسه من احوال العدو ، وبالمشاهدة ما كتمه العدو عن النطق به فيستدل ببعض الامور على بعض . وان يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ، وله دربة بالاسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه اليها ، وعارفا بلسان اهل البلاد التي يتوجه اليها ، ليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو ، على الا يكون من جنس العدو ، فان الجنس يميل الى الجنس بالطبع . واخيرا ان يكون صبورا على ما لعله يصير اليه من العقوبة إذا ظفر به العدو ، حتى لا يخبر باحوال مرسله ، ولا يطلع على وهن فيه وفي عسكره[١٠٥] . ولا شك انه كان من الصعب توفر كل هذه الصفات في رجل المخابرات ، وإذا وجد رجل كهذا ، فلابد ان هذا يعني انه رجل استخبارات مثالي .

والواقع ان بريد واستخبارات الجيش الايوبي اشتهر دائماً بالتفوق[١٠٦] على ما كان عند الصليبيين . ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م بجنوبي فلسطين ، والتي انتهت بهزيمة الجيش الايوبي ، اثبتت احداثها اللاحقة ان هذا الجيش يملك بريداً فعالاً ، استطاع بسرعة تحركه ان يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر ، والتي افادت بمقتل صلاح الدين ، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدوا اعناقهم للانقضاض على الحكم الايوبي في مصر ، وكان ذلك حين ارسل قادة الجيش من الحدود المصرية رسلا على الهجن الى القاهرة ليؤكدوا لكل من سولت له نفسه التمرد على حكمه ، ان القائد صلاح الدين ما زال على قيد الحياة ، وحمل الحمام الزاجل بطائق البشرى بعودته الى القاهرة[١٠٧] .

وبلغت دقة وسرعة مخابرات الجيش الايوبي حداً من الدقة والسرعة ان «اخبار العدو كانت تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح»[١٠٨] ، ولاسيما خلال حصار عكا الطويل . وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين المستأمنين . وتكمن اهمية هؤلاء انهم كانوا يعرفون لغة العدو ، ولا يشك بهم بسبب سحنتهم ومظهرهم . فكانوا يزودون الجيش الايوبي باخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين ، فذات مرة أخبر هؤلاء صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من «كبس العسكر الاسلامي ليلا»[١٠٩] . وكذلك زودوا الجيش بتفاصيل عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي انفقوا عليه الفا وخمسمائة دينار ، والذي اعدوه للهجوم على عكا[١١٠] ، وكذلك زودوا الجيش باخبار الحملة الالمانية[١١١] .

وقد استعمل في البريد في حصار عكا السبل كافة للاتصال بالمحاربين المحاصرين للاطلاع على اوضاعهم الصعبة ، وكذلك لارسال المال اللازم اليهم ، فكان يتصل بهم بوساطة الحمام الطائر والسباحين ، ولعل من اشهر قصص البطولة في البريد الايوبي قصة العوام عيسى الذي اعتاد الدخول الى عكا رغم الحصار الصليبي البحري المضروب حولها ، لايصال توجيهات القائد في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال ، ولدى وصوله الى عكا كانوا يطلقون طائراً لاعلام صلاح الدين بسلامة وصوله . ثم غرق عيسى في ساحل عكا[١١٢] .

٢ ـ اليزك «فرق الاستطلاع» :

اليزك : ومعناه (طلائع الجيش)[١١٣] . وينبغي التمييز بين ما يعنيه اليزك بهذا المعنى وبين (الجاليش) الذي يعني مقدمة القلب في الجيش ، او الطليعة منه . فالجاليش هو الجزء الامامي من مركز القلب ، او قلب الجيش الذي يسير برمته نحو القتال ، اما اليزك فهو جماعة الاستكشاف التي ترسل الى جهة العدو قبل توجه الجيش نحوه والمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات ، وايصال المعلومات العسكرية الآنية الى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة . اذن فبوسعنا ان نقول ان اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها افراد مختصون يكونون تحت الطلب . ليذهبوا ويتعرفوا عن كثب على ما يفعله العدو او

ينوي القيام به .

وكان افراد اليزك يختارون من بين اهل النصح والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب . وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع ، لان الهدف من واجبهم هو «تقدير قوة العدو وكشف مواطن الضعف فيه ، لذلك فانهم كانوا لا يلبسون الدروع او التروس وغيرها من الاثقال التي تعيق حركتهم ، ويختارون الجياد الهادئة السريعة ، الجيدة الحوافر والظهر ، التي لاتتهيج بسهولة»[١١٤] . ويلاحظ ان المؤرخين المعاصرين ، وخاصة ابن شداد ثم العماد الكاتب ، يذكرون لليزك في سياق رواياتهم مهمات كثيرة كان يقوم بها ، وصار ارسال الاخبار احدى تلك المهمات[١١٥] . ولا ادل على اهمية وحظوة اليزك في عهد صلاح الدين وخلفائه حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة من امثال الملك العادل اخي صلاح الدين[١١٦] ، وابنه الاكبر الملك الافضل[١١٧] وكبار امرائه مثل بدرالدين دلدرم الياروقي[١١٨] وعزالدين ابن المقدم[١١٩] وعزالدين جورديك[١٢٠] ، وعلم الدين سليمان ابن جندر[١٢١] وغيرهم . وكان هؤلاء الامراء يقودون اليزك بالتناوب ، فكل منهم له نوبته[١٢٢] .

ومن المهمات التي اوكلت الى اليزك تفقد احوال المدن ، ولاسيما بيت المقدس حين هدده الصليبيون باعادة احتلاله ثانية بعد تحريره في سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، فما كان على الملك العادل الا، ذهب على رأس يزك للاطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية ، في رمضان ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م[١٢٣] ، وكذا ما فعله الامير عزالدين جورديك وجمال الدين فرج حين سارا ليكونا قريبين من (يافا) في صورة يزك ، ويطلعا على حجم القوات الصليبية الموجودة فيها[١٢٤] .

وحدث ان قام اليزك بمهمة الكمين ، كما حدث في طريق يافا ، وقد اوكلت المهمة الى بدر الدين دلدرم ، حين «كمن حول الطريق مع جماعة جيدة ، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة» . وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل ثلاثون نفرا منهم وأسرت جماعة[١٢٥] . وصار اليزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة ، وكاد اليزك في احدى مصادماته ان يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الاسد بعد أن اصابته طعنة ، وحال احد المقاتلين الصليبيين دون اعتقاله حين فداه بنفسه . . وافلت الملك واخفي أثره[١٢٦] . وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الايوبي من هجوم مباغت كان يقوم به الصليبيون ، كما حصل عند انطاكية[١٢٧] .

ان تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي انيط تنفيذها الى اليزك لتدل على مكانة هذا التنظيم العسكري الصغير الفعال ضمن الجيش الايوبي . وهذا يعني ان هذا التنظيم كان يضم في صفوفه بعض خيرة الجنود واشجعهم ، كما رأينا ، وكان حجمه يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها .

٣ . حمام البريد :

من ابرز سبل الاتصال في العصور القديمة والوسطى ، استعمال الحمام الزاجل ، او ما يسمى بالحمام الهوادي لقدرته الفائقة على الاهتداء الى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة[١٢٨] وبسبب هذه القدرة اطلق عليه (الدميري) اسم الشيطانه[١٢٩] في حين وصف القاضي الفاضل هذا الطير بانه «ملائكة الملوك» يشير الى نزوله على الملك من الجو نزول الملائكة على الانبياء من السماء ، مع فرط ما فيه من الامانة ، لا يتوهم من جهتها خيانة[١٣٠] ويضيف صاحب الروضتين الى كلام القاضي الفاضل قوله : «لقد أحسن فيما وصف ، وابدع فيما استنبط وانصف ، وهو بذلك اولى واعرف[١٣١] .

ان هذا النوع من الحمام ، اضافة الى اهتدائه الى وكره ، اشتهر بسرعة طيرانه[١٣٢] وربما اصطيد وغاب عن

موطنه عشر سنين فاكثر ، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه الى وطنه ، حتى يجد فرصة ليطير اليه[١٣٣]، ولهذا بلغت اثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً ، وصل الى سبعمائة دينار ، واحياناً الف دينار ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين دينار[١٣٤].

وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي اوكارها[١٣٥]، وقد عين عليها براجون او حراس برعوا في الاعتناء بشؤونه ، وفي تدريبه واطعامه وراحته ، واطلاقه واستقباله . لكن جرت العادة ان الطائر اذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده ، بل يأخذه الى القائد ، خشية ان يكون في البطاقة سر ، ينبغي عدم اطلاع احد عليه ، حتى ولوكان الوقت غير مناسب ، كأن يكون القائد يتناول طعامه او نائما ، فيترك طعامه او يوقظ من نومه ، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الامور الهامة العاجلة ، فيفك الرسالة بنفسه[١٣٦]، او يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة[١٣٧].

لا نريد الدخول في تفاصيل تاريخ استعمال حمام البطائق في العصور المختلفة ، لكننا نقول انه كان له شأن كبير في مخابرات الامم القديمة ، الا ان المسلمين كانوا اكثر عناية به من سواهم[١٣٨] ورغم اعتناء العباسيين به؟، الا ان المصادر تؤكد ان أتابكة الموصل كانوا اكثر من اولى الحمام اهتمامهم ، وهذا ما يقال بالنسبة لنورالدين محمود ، ثم صلاح الدين ، نظرا لظروف الصراع مع القوى الصليبية التي اقتضت الاهتمام بالبريد الجوي ، وكذلك عرف الحمام الزاجل في مصر الفاطمية[١٣٩].

لقد استعمل الحمام على نطاق واسع في عهد نورالدين محمود منذ توليه حكم الشام وحلب[١٤٠] وفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ـ اي قبل وفاته بسنتين ـ نظم شؤون الحمام على اسس جديدة ، وشدد على الاهتمام بأمره . فكانت لرعايته به وتنظيم مهابطه في انحاء الدولة النورية ، ووريثتها الدولة الايوبية ، وتعيين البراجين وتقاليد كتابة الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام ، وفك وقراءة الرسالة ، كل هذه الامور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الامور ، وكل ما فعله هذا القائد انه زاد في ربط مصر بالشام بواسطة البريد الطائر ، حتى صارت هناك شبكة من المهابط في تلك البلاد ، تمتد من اقصى جنوبي مصر من اسوان الى الصعيد ، وعيذاب على البحر الاحمر الى القاهرة ، ومن القاهرة الى السويس والى بلبيس ، ومنها الى الشام ، ومن بلبيس ايضا الى الصالحية والى قطيا[١٤١] ، ومن قطيا الى الورادة في الطريق الى غزة . اي ان بلبيس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر ، ومثلها كانت غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط الى الخليل والى اللد ، ومنها الى قاقون[١٤٢] ، ثم جنين فصفد فبيسان فاربد فطفس ، ومنها الى الصنمين[١٤٣]. فدمشق ، ومن كل من هذه المراكز[١٤٤] الى قارة[١٤٥] ، ومن الاخيرة الى حمص ، ومنها الى حماه فالمعرة فحلب فالبيرة ، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية[١٤٦] .

ان هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولاشك عدداً كبيراً من الحمام ، وقد قدر في وقت لاحق عدد الحمام الذي كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي الفي طائر[١٤٧] . وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مربحة ، نظراً للاقبال الشديد عليه ، ولاسيما اثناء حصار الصليبيين لعكا . يقول العماد الكاتب : صرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ونخصه بالمدح والثناء ، ونأمره بالاستكثار ، ونطلبها منه مع الليل والنهار ، حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال[١٤٨] ، وكان الجيش يصحب معه حمام الجهة او الجهات التي ينوي الاتصال بها ، او حين كان يبغي طلب المعونة منها ، كما حدث في سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م حين اجتمع الصليبيون وساروا نحو دمشق مع ملكهم ، فاغاروا على اعمالها ونهبوها واسروا وقتلوا وسبوا ، فارسل صلاح الدين ابن اخيه عزالدين فرخشاه في جمع من العسكر

اليهم ، وطلب منه ان يكون على اتصال دائم به عبر جناح الحمام[١٤٩] . وحصل حادث شبيه في وقعة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م ، إذ «وردت بطاقة الطير الى دمشق ، فخرج السلطان فلما وصل الى الكسوة القريبة من دمشق ، الا رؤوس الصليبيين واسراهم قد جيء بها»[١٥٠] .

ولعل ما يؤكد تنظيم البريد الجوي في هذا العهد تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف انحاء البلاد اثناء مرابطته على عكا ، فمما ذكره ابن شداد انه اثناء رمضان ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م ارسل حمام من حلب الى حماه ، ومن حماه الى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود امارة انطاكية الصليبية القريبة من حلب ، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب ، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها الى عكا ، الا ان قوات حلب الاحتياطية استطاعت دحر المعتدين الذين «لم يشعروا الا والسيف قد وقع فيهم ، فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً ، واسر منهم خلق كبير»[١٥١] .

وقد تفنن المشرفون على بريد الجيش الايوبي في اخفاء اسرارهم العسكرية ، لكي لا يطلع عليها العدو حتى انهم استعملوا رموزاً خاصة ، او ما تسمى بالشفرات ـ بلغة هذا العصر ـ تدل على امور متفق عليها مقدماً . فقد ذكر العماد الكاتب ان رجال البريد كانوا «يحملون كتباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب اليهم ويكتبون الينا على اجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور ، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور»[١٥٢] .

٤ ـ **الكمائن** : لعل من اكثر فترات التاريخ الاسلامي نشاطا للكمائن هي فترة الحروب الصليبية ، ولاسيما ايام صلاح الدين ، نظرا لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين المسلمين والمرتكزات الصليبية التي اقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام ، او القريبة منها .

وتعني الكمائن ارسال جريدة[١٥٣] او سرية من المحاربين الفرسان الى جهات العدو ومباغتته والايقاع به في مناوشات محدودة لا تصل الى حد القتال الواسع النطاق ، اي ان العملية كانت تبدأ في السر ، ولهذا كان ينبغي ان تتوفر في رجال الكمين جملة من المواصفات لكي يستطيعوا ان يقوموا بمهمتهم بالصورة المطلوبة .

وقد فصل مصنفو كتب اصول الحرب في ذكر تلك المواصفات ، فمما قاله الاوسي : ان على رجال الكمين ان يكونوا اشجع فرسان العسكر وادربهم بالحرب ، واعرفهم بالتجارب ، فانهم ينفردون عن العسكر ، ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم من أهل العسكر لبعدهم عنهم . . ويكونوا عارفين بامور الحروب ، عالمين باحوال الاماكن الصالحة للاختفاء ، ليتحقق الغرض الذي من اجله ارسل الكمين .[١٥٤] ثم يتحدث هؤلاء المصنفون عن قضايا اخرى[١٥٥] ونوع الجياد التي يضطرون الى استعمالها ، اما الموضع الذي ينصب فيه الكمين فيجب ان يكون خفياً مستتراً ، وأن يكون مما يحتمل الاقامة فيه ، اذا دعت الحاجة الى طول الاقامة ، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاجه الكمين بحسب الامكان»[١٥٦] .

الا ان هذه المواصفات كان من الصعب ايجادها في الكمائن المرسلة احياناً ، على الرغم من ان مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو من العرب الذين شكلوا احتياطاً جيداً في تزويد الجيش الايوبي بالقوات الضرورية في اوقات الحرج لشن الغارات على العدو ، وقد استفاد هذا الجيش فعلاً من هذه الجماعات في مناسبات عديدة ، واكمنهم لقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف امام العدو ، وكذلك لسرعة اندفاعهم ولخفتهم[١٥٧] .

ولعل ابرز حوادث الكمين ما وقع في جمادى الاخرة سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٩٠ م ، حين بلغ صلاح الدين خبر مفاده ان جماعة من افراد العدو يتبسطون ويخرجون من صور

ليصلوا الى جبل تبنين [158] لجمع الحشيش والحطب فرأى ان يضع كميناً كبيراً من الرجال الشجعان ، يتوزعون في الاودية والشعاب ، ويكون عدد رجال الكمين كافياً للقوة الغازية التي خرجت ، وللقوة الاحتياطية التي جاءت في اعقابها لحمايتها . انفذ صلاح الدين الى عسكر تبنين ، وطلب منهم ان يخرج من بين رجال الكمين نفر يسير وذلك لايهام العدو بأنهم قليلو العدد ، ثم يبدأون بالتحرش بتلك الجماعة الصليبية ، وحين يرد عليهم هؤلاء ، يتظاهرون بالفرار ليجروا خلفهم الجماعة الصليبية . واضافة الى هذا بعث صلاح الدين في اثر عسكر عكا وطلب منهم ان يخرجوا وراء عسكر العدو حتى اذا تحرك هؤلاء في نصرة اصحابهم قصدوا خيامهم . وركب هو وجماعة من رجاله وساروا باتجاه المكان الذي سيلجأ اليه رجال الكمين المنهزمين . ورتب صلاح الدين العسكر ثمانية اطلاب ، واختار من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان ، فكون سرية ، وامرهم ان يبرزوا للعدو حسب الخطة المرسومة . ويبدو ان خبر الكمين قد وصل الى العدو ، فاحتاطوا لذلك ، وتعبّوا تعبئة القتال» ثم جرى بين الطرفين قتال حقيقي لان أفراد السرية الايوبية «انفوا عن الانهزام» ولو كأسلوب لخدع العدو «وحملتهم الحمية على مخالفة التعليمات ، واتصلت الحرب بينهم الى نهاية النهار ، وكان القتلى من الفرنج زهاء عشرة انفس ، ومن المسلمين اثنين من اليزك واربعة من رجال الكمين العرب [159] . يقول العماد الكاتب عن هؤلاء الاربعة أنهم «رآهم العدو فعدا وراءهم ، وسار بجمعه ازاءهم ، فلما انتهوا الى الجبل ادركوا ، ولم يقدروا ان يسلكوا ، فقاتلوا حتى قتلوا ، واقبلوا على الله فقبلوا» [160] .

ونجد ان الظروف التي مر بها الجيش الايوبي في تلك الفترة ، وصلاحية ارض الشام ، ولاسيما ارض فلسطين ـ لوجود الاحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين ، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل تلك العمليات العسكرية المحدودة الاثر ، والتي كانت الغاية منها احراج العدو وجعله لا يشعر بالامان ، وهذا الاسلوب في القتال شبيه بما نسميه الان بحرب الانصار ، او المغاوير . لكن الملاحظ ان تفاصيل وضع الكمائن لم تكن تختلف عن تفاصيل الكمائن الاخرى ، بينها كمين شهير سميت احدى معارك الجيش الايوبي باسمه «وقعة الكمين» [161] .

مجلس حرب الجيش الايوبي :

كان من الطبيعي ان يكون ثمة مجلس اعلى في الجيش يقوم بتوجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وادارة شؤون الدولة ، وكان اعضاؤه يشكلون ما يمكن ان يطلق عليه الان اركان الجيش . وفي عهده كان صلاح الدين يرأس الاجتماعات ، وتتكون عضويته من اخوته ، ولاسيما الملك العادل ، واولاده الكبار خاصة الملك الافضل علي والملك الظاهر غازي ، واولاد أخيه مثل تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود الحارمي ، وكبار الامراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل ، وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ ، والمسؤول عن مراسلاته الحربية عماد الدين (العماد) الكاتب الاصفهاني الاديب المؤرخ ، وبهاء الدين قراقوش ، وسيف الدين المشطوب الهكاري ، وقادة آخرين ، مثل ابو الهيجاء الهذباني وعلم الدين سليمان بن جندر ، كما اشترك في عضويته احياناً امير الاسطول حسام الدين لؤلؤ واصحاب المدن والقلاع المعروفين من امثال مظفر الدين كوكبري وشمس الدين ابن المقدم وعز الدين جوديك والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وغيرهم .

وكان لكل من هؤلاء حق ابداء الرأي في صراحة ، ما داموا يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة الدولة وجيشها ، ولكن ـ وكما أثبتت وقائع الحروب ، لم يحدث ـ الا نادرا ـ ان علا صوت احد هؤلاء الاعضاء ، وانفرد بالمناقشات دون الاخرين بغية التأثير على صلاح الدين ، على الرغم من

ظهور بوادر لعصيان اوامره احياناً ، كما سنرى . وكان رأي صلاح الدين هو الغالب على المجلس بصورة عامة . الا ان هذا لا يعني انه كان يستبد برأيه ، والا لما استشارهم وأخذ بآرائهم وملاحظاتهم ، بل نجده يغير موقفه حسب مقتضيات المصلحة . ويلتزم برأيهم ، سواء عن قناعة او للحفاظ على وحدة الموقف . ويلاحظ ان صلاح الدين كان يهتم ، بصورة خاصة ، بمشورة اخيه الملك العادل ، وإذا كان هذا غائباً عن المجلس ارسل في اثره ليعرف رأيه بشأن مسألة خطيرة[١٦١] .

ولعل حرص صلاح الدين على مشورة اخيه في امور الدولة ، ومكاتبته المستمرة له ، ثم انتظاره جوابه قبل الاقدام على تطبيق القرار المتخذ ، كلفه غالياً وفوت عليه فرصاً من المنافع الحاصلة للدولة والجهاد[١٦٣] . وفسر احد المؤرخين نقل الملك العادل من مصر الى حلب سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م بأن صلاح الدين رغب ان يكون اخوه قريبا منه ، لانه لايقطع امراً دون مشورته[١٦٤] . ويبدو للمتابع وكأن هذا القائد قد احل اخاه محل والده الذي كان لرأيه قيمته المميزة لديه ، لكن وفاته المبكر ـ بالنسبة لحكمه الفني ـ حرمه مشورة رجل محنك .

وكان اول اجتماع هام عقده مجلس حربه في ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م حين عزم نورالدين محمود ـ حسب رواية ابن الاثير ومن نقل الخبر عنه ـ التوجه الى مصر لاخراج صلاح الدين منها ، يوم كان نائبا له في حكم مصر . لان صلاح الدين لم يشأ ان يجتمع بنور الدين محمود بالقرب من الكرك ، كما كان مقررا بينهما ، وعاد الى مصر بسبب اختلال الوضع فيها او لخشيته ان يعزله نور الدين إذا تم الاجتماع بينهما . ولما علم ابناء الاسرة الايوبية وانصارهم نوايا نورالدين عقدوا اجتماعا ضم صلاح الدين واباه وخاله وابن اخيه وغيرهم ، وتداولوا للخروج برأي حول الاجراء الذي ينبغي اتخاذه لردع نور الدين من التقدم الى مصر . وطالب ابن اخيه امتشاق السلاح بوجه نور الدين في حين قام والده بتهدئة الخواطر وتصرف بحكمة تثير الاعجاب[١٦٥] .

وعند حصن (بيت الاحزان) اخذ صلاح الدين مشورة قواده حول ما ينبغي فعله تجاه هذا الحصن الذي تحصن فيه العدو وجعلوه مصدر خطر على الجيش الايوبي ، فطلب صلاح الدين منهم هدمه لقاء مائة الف دينار فأبوا . عندها جمع امراء جيشه واخبرهم بالموقف ، فكان رأيهم زيادة المبلغ ، ثم راسل ابن اخيه تقي الدين عمر في حماه وطلب منه ان يبدي رأيه ، فقال : رأيي هو صرف المبلغ على الاجناد ، وحثهم على الجهاد والعمل من أجل تخريب الحصن . فعمل صلاح الدين بتوجيه ابن اخيه ، فكان النصر للجيش الايوبي ، وتم تخريب بيت الاحزان[١٦٦] . ومرة اخرى اجتمع المجلس الاستشاري للتباحث حول ما ينبغي عمله مع الموصل بعد ان ارسل صاحبها الاتابك عز الدين مسعود سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م وفدا من نساء البلاط لوضع حد للقتال بين الطرفين ، الا ان المجلس قرر مواصلة الحصار[١٦٧] .

ولعل من ابرز الجلسات التي عقدها المجلس كان عند اسوار مدينة صور العاصية ، وذلك في شوال ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، حين طلب صلاح الدين مشورة قادة جيشه بعد ان عجز عن فتحها ، فقالوا : هذا بلد حصين . . في البحر ثلاثة ارباعه . . قد احاط به البحر من جانبيه ، وقد قطعوه بخندق في عرضه ، وعمقوه ونزلوا في ارضه . . وكان من احكام الحزم ، تكميل الالات وتتميمها ، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها ، وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها . .[١٦٨] . . بدأ اعضاء المجلس بمناقشة الاراء ، وما ينبغي فعله مع هذه المدينة التي ظلت صامدة امام الجيش الايوبي ، تتحداه الى النهاية . وانقسموا الى فريقين ، فريق يدعو الى الرحيل عن صور لكثرة القتلى والجرحى ، ولانه قد فنيت النفقات وضجر العسكر ، وجاء الشتاء ، فمن

الضروري رفع الحصار على ان يعودوا في الربيع ، اما الفريق الاخر فقد رأى ضرورة الاستمرار في محاصرة صور ومضايقتها حتى تتحرر وظلت المشاورات مستمرة ، ثم رأى صلاح الدين رفع الحصار ، فرحل الجيش الايوبي الى عكا[١٦٩] .

وهكذا كان المجلس يجتمع كلما رأى ضرورة في ذلك ، فقد اجتمع للتشاور بشأن الوقوف بوجه الحملة الالمانية الهائلة التي اكتسحت بلاد الروم « الاناضول » بسرعة ، ووصلت الى ارض انطاكية ، وبدأت بالزحف جنوباً سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م[١٧٠] ، وكذلك اجتمع حين وصل (الكندهري) في جمادى الاخرة في نفس السنة المذكورة[١٧١] ، واجتمع اكثر من مرة اثناء المسير الى جهة عسقلان في ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م[١٧٢] . وحتى لدى مراسلاته مع القادة الصليبيين ، كان يستدعي «ارباب الرأي ويشاورهم في جواب رسالة القوم .[١٧٣] واستشار المجلس بشأن الموقف المتفجر بعد هزيمة الجيش الايوبي في ارسوف[١٧٤] وسقوط عكا المريع ، واتفق الرأي على تخريب مدينة (عسقلان) للحيلولة دون وقوعها في ايدي العدو[١٧٥] ، على الرغم من ان صلاح الدين كان من المعارضين لهذا الرأي[١٧٦] . وعقد المجلس جلسة هامة في ٥٨٨هـ/ حزيران ١١٩١ م حين عزم الصليبيون على قصد بيت المقدس[١٧٧] ، الا انهم لم يستطيعوا تنفيذ ما عزموا عليه بفضل استحكامات المدينة المقدسة .

خطط واساليب القتال :

لا يستطيع اي جيش ان يشتبك مع العدو ويخوض معركة دون ان يكون قد رتب اموره ، بحيث تتوضح معالم الخطوات التي سيتخذها . وينبغي على المحاربين الا يتصرفوا بعشوائية تؤدي الى اضطراب صفوفهم . ولكن كان لروح الجهاد التي امتلأت بها قلوب اكثر المحاربين المسلمين في الجيش الايوبي اثرها الفعال في اندفاعهم نحو قتال العدو ، وكانت لهذه الروح قوة فاقت اثراً قوة التنظيم[١٧٨] .

وكان الهدف الستراتيجي في قتال الجيش الايوبي هو استعادة الاراضي التي احتلها الصليبيون منذ اواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . ومن اجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الاسلامية مختلف السبل وشتى الاساليب ، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو ، او عن طريق اضعافه اقتصادياً[١٧٩] ومعنوياً ، وحصره في نقاط الارتكاز التي تحصن فيها .

وقد اطلق في الاصطلاح الحديث لفظ (الاستراتيجية/Strategy) على فن تحريك القوات ، واختيار مواقعها المناسبة ، قبل الاشتراك في المعركة وبعدها ، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب اهميتها ، واعداد حاجتها التي تكفيها زمناً طويلا ، ومراعاة ذلك حتى في فترات السلام ، اي ان الاستراتيجية تعني فن القيادة العامة في الحرب بأجمعها .

كما اطلق لفظ (التكتيك Tactic) على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة ، وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم او الدفاع ، تبعاً للخطة الموضوعة بمعرفة القيادة العامة . فالتكتيك فن القيادة في ميدان المعركة . والمؤرخون المسلمون اطلقوا على هذين المفهومين لفظ «التعبئة» وقصدوا منه تنظيم الجيوش ، ووصف الكتائب في المعركة او قبلها ، فتعبير (عبأ) يعني «نظم» او حصر القوى الموجودة تحت تصرفه استعدادا للقتال ، وتوفيرا لمستلزماته كلها[١٨٠] . وكذلك نعني بالتكتيك السياسة اليومية القصيرة الامد ، التي تتبع من اجل اضعاف الجانب الاخر ، او للوصول الى اهداف محددة مباشرة . واستمرار هذه الاعمال يتعب العدو ، ويجعله في حالة من القلق والترقب ، فالتكتيكات الناجحة المتواصلة ترعب العدو وتضعفه ، وهذا ما كان يدركه صلاح الدين وقادة جيشه ، ولهذا فان جيشه في الوقت

الذي وضع نصب عينه الهدف الاساس الذي من اجله خاض غمار الحرب الا وهو تحرير كامل الاقاليم التي احتلها الصليبيون ، الا انه واصل استخدام التكتيكات المختلفة ، اضافة الى انه استفاد من نقاط ضعف الصليبيين .

والخطة العسكرية كان يضعها مجلس الحرب الاستشاري ، على الرغم من ان قيادة الجيش المركزية ظلت بيد القائد العام «السلطان» ، والنجاح يكون في الغالب مضموناً ، اذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالعدو ، للاطلاع على قوته ومعرفة خططه إن امكن ، وقد تحل الهزائم بهذا القائد ـ كما يقول اومان ـ اذا فقد ذلك الاتصال(١٨١) . وكان اليزك (الفرقة الاستطلاعية) يقوم بدور اساسي في هذا الصدد ، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو .

ومن الاساليب التي استعملها الجيش الايوبي نجد انفسنا امام جملة من الاعمال والاجراءات التي يمكن ادراجها تحت اسم الاعمال التكتيكية . ومن هذه الاعمال التي قصد منها اضعاف العدو انه اوعز الى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الاردن في موقعة بيت الاحزان التي حدثت سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م(١٨٢) . كما امر بحصد غلاتهم(١٨٣) وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو ، وجعله لا يستفيد من الكروم واخشابها ، ومن الحبوب التي حصدها الجند .(١٨٤) وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة . فيذكر المؤرخ الايوبي ان السلطان سار بمن انتخب من عساكره ، وتوجه بهم الى الكرك في مطلع سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م ، ووصل اليها بعد ايام ، فوجد بها جمعاً عظيماً من الفرنج «فنزلنا قريبا منهم ، فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالفرار ، فاستولينا عليهم فقطعنا اشجارهم ونزعنا زروعهم .(١٨٥) وكذلك فعلوا حين تهيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا الى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك(١٨٦) . ويقول العماد الكاتب ان الفرنج فجعوا بكرمها وزيتونها(١٨٧) .

وكان لتكتيك قطع الماء اثره العميق في اضعاف العدو وهزيمته ، فالمعروف ان سيطرة الجيش الايوبي على منابع الماء يوم حطين كان احد اسباب هزيمة العدو ، كما هو معلوم ، حين «حجز بينهم وبين الماء»(١٨٨) حتى قتلهم العطش ، ولجأ الجيش الى افساد مياه بعض ينابيع القدس سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م للحيلولة دون وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا .(١٨٩) وكان افساد الماء يتم عن طريق القاء الزرنيخ او طرح الجيف(١٩٠) او الفضلات فيه .

ومن الخطط التي اتبعها ، تطبيقه لاسلوب الحرب الخاطفة ومباغتة العدو والانتصار عليه قبل ان يستطيع تجميع قواه ، وقد استعملت هذه الخطة في سنتي ٥٨٣ ـ ٥٨٤ هـ/ ١١٨٧ م ـ ١١٨٨ م اكثر من اي سنة اخرى ، وكان ذلك حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين بل انه اتبع الانتصار بانتصارات لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة اخرى . فاثر فوزه المذكور هجم الجيش الايوبي على التوالي على عكا وصفورية والناصرة وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً . وحين استعصت عليه صور بسبب استحكاماتها ، اضطر الى تركها ، واستأنف فتوحه في البقاع الاخرى وتوجها بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ، ففتح هونين(١٩١) وجبلة اللاذقية وصهيون ، ثم توجه شمالا فاستولى على حصون بكاس والشغر وبرزية ودربساك وبغراس ، المحيطة بامارة انطاكية الصليبية ، ثم اتجه قسم من جيشه مرة اخرى الى الجنوب ، ففتح في اواخر سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م حصن الكرك المتين ، واخيرا فتح صفد وكوكب قبل ان يعود الى دمشق لقدوم فصل الشتاء ، ولاخذ قسط من الراحة .

واعاد صلاح الدين الكرة مع صور ، وعند اسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح القلاع مثل برزية ، وهي

خطة القتال بالتناوب(١٩٢) ، وذلك بأن قسم عسكره الى ثلاثة اقسام ، يقاتل كل قسم منها فترة محددة ، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث(١٩٣) ، ثم العودة الى القسم المستريح . وقد قصد باتباعه لهذا الاسلوب انهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا ، الا ان الاسلوب اصطدم بمتانة اسوار صور ، اضافة الى وضع المدينة الطوبوغرافي .

ونجد ان الجيش الايوبي اتبع خطة شق صفوف الصليبيين ، والايقاع بينهم ، وكسب ود بعض قادتهم في محاولة منه اضعافهم ، فيذكر ابن شداد ان السلطان جلس ذات يوم واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، . . ثم تقرر ان يصالح المركيز مونتفرات صاحب صور الذي انضم اليه بعض اكابر الفرنجة بينهم صاحب صيدا . واشترط صلاح الدين على المركيز المنشق ان يظهر عداواته لبني قومه «وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم»(١٩٤) .

ومن الاجراءات الحكيمة التي لجأ اليها القائد صلاح الدين بصدد اضعاف العدو اقتصادياً ، قيامه بتوطيد علاقاته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الايطالية مثل (بيزا وجنوا والبندقية) . فمنذ ان تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن الى مصر ، وراح يعقد الاتفاقيات مع هذه الدويلات لتبادل السفراء معها ، ومما يؤسف له ان نصوص تلك المعاهدات قد فقدت(١٩٥) .

وبذلك انتفع الجيش الايوبي من ناحيتين :

١ ـ ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري ، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع .

٢ ـ اضعاف تجارة الصليبيين ، ولاسيما اذا عرفنا ان صلاح الدين كان يسيطر على البحر الاحمر . ولا شك ان هذه التجارة ادت الى الاهتمام باعادة بناء الاسطول الايوبي(١٩٦) .

وفي خطاب وجهه صلاح الدين الى الخليفة العباسي سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م قال : «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة «البيازنة» والجنويون ، كل هؤلاء تاره يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون تجارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهونة ، وما منهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لايؤثرون(١٩٧) وهذه العلاقات بين مصر والمدن الايطالية لم تكن بالامر الجديد بل هي استمرار لما كانت عليه في العهد الفاطمي(١٩٨) .

ومما يذكر بصدد خطط الجيش الايوبي الحربية ، انه لجأ في سني صراعه الاخيرة مع العدو الى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة الى مصر ، وكان يطلق عليها اسم (عروس الشام) لحسنها(١٩٩) . وقد لجأ الى هذا الاسلوب المدمر حين عجز عن الدفاع عنها(٢٠٠) ، ولانه خشي ان يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة ـ كما حصل لعكا ـ فيقطعوا بها طريق مصر . ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس ، واستشار اخاه الملك العادل واكابر امرائه في ذلك ، فأقروه على رأيه ، وقال علم الدين سليمان ابن جندر ، احد كبار مستشاريه : هذه يافا قد نزل العدو بها ، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس ، ولا سبيل الى حفظ المدينتين معاً ، فاعمد الى اشرفهما وحصنها(٢٠١) . وهكذا تقرر تخريب عسقلان .

ثم تقرر تخريب حصن الرملة(٢٠٢) ، وحصن النطرون الذي كان من املاك الداوية(٢٠٣) وجزءا من سور يافا(٢٠٤) وغزة(٢٠٥) واللد(٢٠٦) ، والداروم الواقعة في اقصى ساحل الشام الجنوبي(٢٠٧) ، وقد خربها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م(٢٠٨) وخرب حصن يازور(٢٠٩)

بسواحل الرملة من اعمال فلسطين[210] ، وخرب معه بلدة بيت جبرين[211] ، قبيل عقد الصلح مع ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا . **ومما يدخل ضمن خطط الجيش الايوبي الستراتيجية ، تأمينه للطريق الموصل بين الشام ومصر والذي يبلغ طوله حوالي ثلاثين يوماً[212] .**

ويبدو ان صلاح ، الدين ادرك ، وهو في طريقه الى الكرك والشويك عن طريق ايلة[213] منذ أن كان نائباً لنورالدين محمود في مصر ان الضرورة الحربية تقضي بتطهير شبه جزيرة سيناء كلها من الجماعات التي يمكن ان تلعب دوراً تخريبياً معيقاً لسلامة الطريق بينهما ، فطهر الوديان ومعابر الطرق منهم ، ثم رأى ان من الحكمة ان يشيد قلعة في قلب شبه الجزيرة ، والراجح انه بدأ بمشروعه منذ استيلائه على ايله في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠ م . واختار لتلك القلعة ارضاً مرتفعة مخروطية الشكل تقع على نحو ميل الى الشمال الشرقي من عين صدر العزيز ، والموجودة بدرب الشعري الذي يبدأ من السويس الى ايله ، على مسافة ٥٧ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من السويس[214] . كما شيد القلاع والمعاقل واقام الحراس على طول الطريق بين مصر والشام ، فاعاد الامن والسلام الى سيناء . وقد اعتاد الجيش الايوبي ان يسلك هذا الطريق في غدواته وروحاته من والى الشام ، وعبر هذا الطريق جاءته قوافل التموين المتواصلة من مصر مزودة بالعتاد والزاد اثناء جهاده الطويل مع الصليبيين .

واهتم بتحصين مدينتي مصر والقاهرة ، وثغور الديار المصرية ومداخلها ، واهمها الاسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتنيس[215] . وكان صلاح الدين على علم بمدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين ، وكان ما حصل في دمياط حين حاصرها اموري الملك الصليبي براً وبحراً سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م ، جعله يولي هذا الثغر قدراً كافياً من اهتمامه ، فحرص على تحصينه وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الاحمر ، فقد علم صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م ان الصليبيين يحاولون مد نفوذهم الى جهاته ولاسيما حين حاول الامير ارناط انزال سفنه على الاقسام القريبة من امارته في الكرك ، الى جهات خليج العقبة[216] . ولم يكد يتم تركيب قطع السفن التي جلبها هذا الامير الصليبي حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة في عباب الخليج المذكور ، في حين قام البعض بالاغارة على الموانىء المصرية الصغيرة على البحر الاحمر .

اما في داخل مصر ، فلعل اهم التحصينات التي اقامها كانت في مدينة القاهرة التي بدأ بها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م ، غير انه يلاحظ ان ما فعله في تلك السنة لم يتعد احداث التجديدات في سور القاهرة الذي كان بحاجة الى اعمال الصيانة . ويتجلى ذلك من كلمة «عمارة» التي ترد في عبارة ابي شامة التي ينقلها من ابن ابي طي ، معاصر صلاح الدين ، ويقول فيها : «في هذه السنة شرع السلطان في عمارة سور القاهرة ، لانه كان قد تهدم اكثره وصار طريقا لايرد داخلا ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش[217] .

وفي سياق الحديث عن خطط القتال نتكلم عن ارض المعركة لان الارض التي كانت تجري عليها المعارك ، كان لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التي وضعها صلاح الدين مع مستشاريه ، وكانت نتائج المعركة تتوقف احياناً على الارض التي يختارها هذا الجانب او ذاك ، ونجاح القائد يظهر من حسن اختياره المواقع ، بحيث يكون جيشه في موقع حصين يضمن سلامته في حالتي الهجوم والدفاع ، ويضمن سهولة الحصول على المؤن والاعتدة والرجال ، ومن ثم المحاولة لجعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا قدر المستطاع .

والواقع انه لم تكن هناك ارض معينة يلتقي فيها الطرفان بشكل دائم ، بل كانت المعارك تنتقل من ارض الى اخرى ، حتى ليخيل الى من لم يتعرف على طبيعة ارض الشام التي كانت مسرحا لمعارك الجيش الايوبي كافة ان

معارك هذا الجيش كانت مضطربة ، لا تسير على نظام ، ولكن الامر لم يكن كذلك ، بل ان قادة الجيش كانوا على علم بطبيعة الارض التي يحاربون عليها ، لذا طبقوا خططاً مختلفة ، تطلبتها طبيعة الارض في كل منطقة من مناطق هذه البلاد ، فطبقوا خطة في ارض قد لا يطبقونها في اخرى . ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة دائماً ، ولاسيما حينما كان الجانب الصليبي هو الذي يقرر موعد المعركة ويختار مكانها ، او انهم يجلبون معهم الالات الضخمة ، عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الايوبي ، وتضطره الى تغيير خططه واساليبه .

موسم القتال :

كانت الاستعدادات تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع ، اما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة ، ووضع الكمائن وارسال فرق الاستطلاع لمعرفة احوال العدو . واذا نظرنا الى فترات المعارك نلاحظ انها تقع خلال الثمانية او التسعة اشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد ، وتنتهي مع قدوم الشتاء . فعلى سبيل المثال حدثت موقعة حطين في شهر تموز ١١٨٧ م/ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ ، بل ان صلاح الدين وقادة جيشه قد استغلوا اشتداد الحر خير استغلال . وفي نفس هذا الموسم احرز الجيش الايوبي مجموعة انتصاراته الكاسحة في فتوح الساحل ، وتوّجها بفتح بيت المقدس في ايلول ١١٨٧ م/ رجب ٥٨٣ هـ . ويذكر عماد الدين الكاتب ان جميع عمليات الجيش الايوبي العسكرية وفتوحه تمت في فصل الصيف بقوله : «وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل ، انما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره»[٢١٨] . ويقول ابن شداد ، ان السلطان «كان يعطي دستورا في اوائل الشتاء» .[٢١٩]

والملاحظ ان الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع صاحب انطاكية عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م والتي كانت مدتها ثمانية اشهر ، تبدأ من تشرين الاول الى نهاية ايار (مايس)[٢٢٠] ويسوغ العماد الكاتب عقد هذه الهدنة بضجر الجيش ورغبته في الراحة ، وبأن أمد الهدنة سينتهي «قبل ادراك الغلة واوان حصادها»[٢٢١] والظاهر ان العساكر كانوا يعودون الى اوطانهم في الشتاء ، ليس لصعوبة القتال في هذا الموسم ، او لاخذ قسط من الراحة والاستجمام ، فحسب ، بل لان الشتاء هو موسم اعداد الارض للزراعة ، وعلى العاملين في الزراعة ان يكونوا في اراضيهم في هذه الفترة .

وكذلك اذا تابعنا اليوميات الخاصة بتحركات جيش صلاح الدين التي دونها كل من العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما من المؤرخين المعاصرين ، نرى ان القتال ووصول جيوش الاطراف الى الميدان كان يتوقف في فصل الشتاء ، ولكن ما ان ينتهي هذا الفصل القارس والموحل - ولاسيما في بلاد الشام - حتى يدب النشاط في الجيش ، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه ، وتصل الى ميدان القتال قوات الاطراف .[٢٢٢] اما بعد ان ينتهي موسم القتال فتعود العساكر الى بلدانها . فقد اعلن العماد الكاتب انه حين هجم «الشتاء ، وانحرف حريف الخريف . . واشتعلت رؤوس الجبال شيبا للثلج ، وحل الوحل المخيم . . «طلب الامراء من صلاح الدين الاذن بالعودة الى بلادهم للراحة والاستجمام ، فسار صاحب سنجار ، وتلاه صاحب جزيرة ابن عمر ، وبعده ابن صاحب الموصل .[٢٢٣]

ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان (عود العساكر من الجهاد) انه «لما هاجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو ان يضرب مصافاً ، وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها ، أذِنَ السلطان للعساكر الاسلامية في العودة الى بلادها ، لتأخذ نصيبها من الراحة وتجم خيولها الى وقت العمل . . »[٢٢٤] وقد تكررت حوادث

قدوم العساكر الى ساحة المعركة لانجاد الجيش بعد انتهاء الشتاء ، ثم العودة الى اوطانها بمجيء هذا الفصل .[٢٢٥]

الهوامش

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/٣٣٨ . الباهر ١٣٩ .
ابن العديم الحلبي ، الزبدة ، ٢/٣٢٦ .
ويقول الدواداري المصري : صارت «عدة جيش اسدالدين شيركو عشرة الاف فارس شجعان» الدر المطلوب ص : ٣١ . وانظر الذهبي ، دول الاسلام : ٢/٥٦

(٢) ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١١٧ .
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٤/١١١

(٣) ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص : ٤٣٨ . ابن الفرات ، جـ١ ق ٤ ص : ٥٦

(٤) المقريزي ، الخطط (ط . اوفسيت بغداد) ١/٩٤

(٥) بدائع الزهور ، ١/٧٠

(٩) الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٥
المقريزي ، البيان والاعراب ، ص : ٢٢

(١٠) المقريزي ، السلوك ، ١/٤٧ . الخطط (ط . اوفسيت) جـ ١ ق ١ ص ١٦

(١١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٠

(١٢) المقريزي ، السلوك ، ١/٩٤ نقلا عن عبداللطيف البغدادي في كتابه «الافادة والاعتبار»

(١٣) طلب وجمعه (اطلاب) معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق ايضا على قائد المائة وكذلك السبعين . واول استعمال (الطلب) كان بمصر والشام أيام صلاح الدين . انظر : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٤٨ . ومفرج الكروب جـ ٢ ص ٥٩ هامش ٢ .

(١٤) يرد لفظ (طواشي) بمعنى فارس ، كما في ابن الاثير (الكامل ، ١٢/٣٧٩) وابن واصل (مفرج الكروب ٤/٤٩) ويرى (لينبول ـ Lane — Pool, Saladin, p. 154 ان طواشية اصلها طواويس Toassin على قول المؤرخ الصليبي المعروف «وليم الصوري» . والطاووس يعبر عن الرجل الوسيم او (ذو القيافة الكاملة) وكان الطواشية يختارون من فئات راقية ، وصار بعضهم قواداً في الجيش الايوبي . د . سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص : ١١٠

(١٥) المقريزي ، الخطط (طبعة المعهد) جـ ٢ ق ١ ص ١٦ . والقراغلامية تعني بالتركية (ولد اسود) ولعلها كانت تطلق على المجندين الزنوج (السودان) ثم تطورت وصارت تطلق على باقي الفرسان الذين كان مستواهم دون مستوى الطواشي .

(٦) ابن شداد ، النوادر ، ص : ٤٦ .
ابو مخرمة ، تاريخ عدن ، جـ ١ ق ٢ ص : ٣٧ .
ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص : ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(١٧) ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤١٢
ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/١١
النويري ، كتاب الالمام بالاعلام ، جـ ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٥

(١٨) الكامل ١١/٤١٤
النوادر : ٤٧ ـ ٤٨ . المريزي ، الخطط (ط . المعهد الفرنسي) جـ٣ ق ٢ ص : ٢٨٤

(١٩) البنداري ، سنا البرق الشامي : ١/٢٥٧ ـ ٢٦٠
الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص : ٦٩٩ ـ ٧٠٣ . الذهبي ، العبد : ٤/٢١٦ السلوك ، ١ /٦٤ ـ ٦٥

(٢٠) هنا نجد التميز بين الفارس والطواشي .

(٢١) المقريزي ، الخطط (ط . المعهد) جـ ٢ ق ١ ص ١٦ .

(٢٢) الكامل : ١١/١٩٧ .

(٢٣) بهذا الصدد يقول (جان سوفاجيه) ان اتابك السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمة خاصة دائمة ، اذ جعلوها موقعاً حربياً . وانظر كتابه (دمشق الشام) ص : ٣٤

(٢٤) انظر على سبيل المثال : الكامل ١١/٤٥٢ ، ١٢/٦٢
وابن العديم ، زبدة الحلب : جـ٣ الصفحات التالية ٩-٢١ ، ٢٦ ـ ٢٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٢ ـ ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٨ .
ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٥ ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٨

(٢٥) الايوبي ، مضمار الحقائق ، المقريزي ، السلوك ، ١/٨٤

(٢٦) معجم البلدان ، ٣/٩١

(٢٧) دائرة المعارف الاسلامية . ط ١٩٣٣ جـ ٦ ص ٢٣٣ .
وعن اهمية الجابية انظر : الكامل ٢/٥٠٠ ـ ٥٠١ ، ٥٣٥ ، ٥/٥٨٦ وصبح الاعشى ، ١/٣٩٤ .

(٢٨) الحموي ، دمشق في العصر الاموي ، ص ٣٥ .

(٢٩) الكامل : ١١ك٤٨٧

(٣٠) مضمار الحقائق ، ص ٢٩

(٣١) صبح الاعشى : ٣/٤٨٨

(٣٢) ن . م . ص .
(٣٣) وفيات الاعيان : ١/٢١٠
(٣٤) الكلوتات : ضرب من غطاء الرأس «كلاو» كان الامراء يلبسون في مصر وغيرها . انظر : دوزي كتابه «المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب» ص ٨٥ .
(٣٥) صبح الاعشى : ٤/٥ ، ٤/٣٩ .
(٣٦) الكامل : ١١/١٣٨ . المختصر : ٤/٣١ .
(٣٧) صبح الاعشى : ٤/٦
(٣٨) الشاش : قطعة من البز تلف حول طاقية او عرقية او حول الرأس ، وهي كلمة معادلة للعمامة . دوزي ، المعجم المفصل ، ص ١٩٧ - ١٩٩ .
(٣٩) صبح الاعشى : ٤/٥ .
(٤٠) ن . م ص : ٦
(٤١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .
(٤٤) صبح الاعشى : ٤/٤٠ .
(٤٣) الصولق : جراب او كيس من جلد يربط على الجانب الايمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد . المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٨٩ . واللفظ التركي يعني : «الذي في جهة اليسار» ويبدو انهم كانوا يعلقون الكيس على الرقبة من جهة اليمين ليتدلى من جهة اليسار . فـ«صول» يعني «يسار» .
(٤٤) الكزلك : الخنجر و السكين . الديوهجي ، الموصل في العهد الاتابكي ، ص ٧٢ . د . الجميلي دولة الموصل ، ص ٢٥٨ .
(٤٦) ابن شداد ، النوادر (سيرة صلاح الدين) ص ٨٧ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/٢٥٦
(٤٧) سنا البرق الشامي : ١/٢٥٣ الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٧ .
(٤٨) النوادر ، ص ٨٦ .
(٤٩) الفتح القسي : ٤١٧ ، مرآة الزمان ٨/٤٠٤ ، مفرج الكروب ٢/٣٣٠ ، البداية والنهاية ١٢/٣٣٧ .
(٥٠) النوادر : ١٣٥ ، الفتح القسي ٤١٧ ، الروضتين : ٢/١٦٠ - ١٦١ ، مفرج الكروب ٢/٢٢٠ .
(٥١) النوادر : ١١٧ ، الفتح القسي : ٤١٩
(٥٢) الهروي ، التذكرة ، ص ٨٦
(٥٣) مفرج الكروب ٢ك١٨٦ .
(٥٤) الروضتين : ٢/٨
(٥) الزعيم طه الهاشمي ، الجغرافية العسكرية ، ص ٨٣ .
(٥٦) عن نظام الكراديس انظر : مقدمة ابن خلدون . ط الهيئة المصرية ص ١٩٠ - ١٩١ .
(٥٧) الطرسوسي ، مخطوط تبصرة ارباب الالباب ورقة ١٩٠ أ . الفتح القسي ٨٩ ، ١٥٤ . معجم (الافصاح في فقه اللغة) جـ ١ ص ٦١٩ .
(٥٨) د . جهادية القرهغولي ، التنظيمات الادارية والعسكرية ، نقلا عن ابن منكلي (الادلة الرسمية في التعابي الحربية) مخطوط ، ورقة ١٣ - ١٤ .
(٥٩) للمزيد من التفاصيل انظر جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، جـ ١ ص ١٩٩ .
(٦٠) الطرسوسي ، التبصرة ، ورقة ١٩٠ ب .
(٦١) مفرج الكروب ، ٢/٢٩٥ . الحسن بن عبدالله العباسي ، آثار الدول ، ص ١٧٥ .
(٦٢) آثار الدول ، ن . ص . ويرى الطرطوشي ان من الحزم ان تكون حماة الرجال والابطال في القلب ، فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب . . واذا انكسر القلب تمزق الجناحان . أنظر (سراج الملوك) ص : ١٧٥
(٦٣) النوادر ص ١١٠ مفرج الكروب ، ٢/٢٩٥ - ٢٩٦ .
(٦٤) الفتح القسي ٣٠٨ .
(٦٥) ابن منكلي ، التدبيرات السلطانية ، مخطوط ، ورقة ٢٧ .
(٦٦) التذكرة الهروية ، ص ٩٩ .
(٦٧) المقريزي ، الخطط (طبعة المعهد) جـ ٢ ق ١ ص ١٦ .
(٦٨) النوادر ، ص : ٧٦ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٨٥ . الفتح القسي : ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٥ ، على سبيل المثال .
(٦٩) الهرشمي ، تفريج الكروب ، ص : ٥١ .
(٧٠) التبصرة ، ورقة : ١٩١ أ
(٧١) بولياك ، الاقطاعية : ص ٥٤
(٧٢) احسان هندي ، الحياة العسكرية عند العرب ، ص : ١٦٦
(٧٣) طه الهاشمي ، دروس المعلومات الجغرافية ، ص : ١٨
(٧٤) الطرسوس ، التبصرة ، ورقة ١٩١ أ
(٧٥) الجاليشية : الاصل في معناها هو الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر ، ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش او على الطليعة منه . صبح الاعشى ، ٤ك٨
(٨٦) الفتح القسي ، ٦٩ - ٧٠
(٧٧) الجاووش (او الجاويش - الشاويش) لفظ تركي انظر : مفرج الكروب ٢/٢٩٥ هامش ١ والمقريزي ، السلوك ، ١/٨٧٠ هامش ٢ .
(٨٧) النوادر : ١٠٩ مفرج الكروب ، ٢/٢٩٥ ، ٣٢٦
(٧٩) انظر : الفتح القسي : ٢٣٥ . النوادر : ٩٨ ، ١٠٩ ،

١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٩٧ . مفرج الكروب ٢٩٥ .

(٨٠) الكامل : ٥٤٧/١١ . الروضتين : ٩٢/٢ . النجوم الزاهرة : ٣٦/٦ .

(٨١) الروضتين ، ٢/ ٦٢ - ٦٣ .

(٨٢) ن . م ص : مفرج الكروب : ١٦٧/٢ .

(٨٣) ابن ابي صيبعة ، عيون الانباء . جـ ٣ ص ١٩١ .

(٨٤) ن . م ، ٢٥٩/٣ .

(٨٥) ن . م ٢٦٥/٣ .

(٨٦) الكوسات ، صنوج تشبه الترس الصغير يدق باحدهما على الاخر بايقاع مخصوص . صبح الاعشى ٤/ ٦

(٨٧) النوادر : ١٤٩ .

(٨٨) الخطط (ط . الاوفسيت . بغداد) ٢٣٣/٢ .

(٨٩) ن . م ص :

(٩٠) النوادر : ١١٩

(٩٢) ن . م ص : ١٨٣ - ١٨٤

(٩٣) صبح الاعشى : ٤/ ٨

(٦٤) يقول فيليب حتي ان اصل استعماله يعود الى العراقيين السومريين ، كتابه (تاريخ سورية ولبنان) ص ٢٥١ .

(٩٥) يقول د . الباز العريني : ان استعمال الالوان (الرنوك) في الشرق والغرب ساد منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، كتابه (المماليك) ص ٢٢٧ .

(٩٦) الفتح القسي : ص ١٠٣ .

(٩٧) سنا البرق الشامي ، ١/ ٢٥٠ انظر (ديوان القاضي الفاضل) ص ٣٩ .
الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٧ .

(٩٨) مفرج الكروب ، ٢/ ٨٣ - ٨٤ .

(٩٩) سنا البرق ١/ ٢٥٠ وفيات الاعيان ، ٧/ ٢١١ .
الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ص ٦٩٦ .

(١٠٠) النوادر ، ١٧١ الروضتين ، ١٨٨/٢ .

(١٠١) النجب من الابل ، هو القوي منها ، الخفيف السريع . تاج العروس : ٤٧٧/١ .

(١٠٢) العمري ، التعريف ، ص : ١٨٦ - ١٨٧ صبح الاعشى : ١٤/ ٣٧٠ . الاوسي.تفريج الكروب ، ص : ١٤ محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ ٥ ص ١٨ .

١٠٣. د . عطيه مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، ١٣٢

(١٠٤) صبح الاعشى : ١١٦ .

(١٠٥) الاوسي ، تفريج الكروب ، ص : ١٧ .

(١٠٦) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٦٧١
Henry Treece, The Crusades, N. Y. 1962, P. 131

(١٠٧) سنا البرق ، ١/ ٢٦٠ الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٢ ، رنسيمان ، ٦٧٣/٢ نقلاً عن المؤرخ الصليبي «وليم الصوري»

(١٠٨) النوادر ، ص ١٤٨

(١٠٩) ن . م ص : ١٣١

(١١٠) ن . م ص : ١٣١

(١١١) ن . م ص : ١٤٠

(١١٢) ن . م ص : ١٣٥ ، والفتح القسي : ٤٢٣ الروضتين ٢ك١٦٢

(١١٣) ادي شير ، الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٦٠
محمد التونجي ، المعجم الذهبي ، ص ٦١٩ . مفرج الكروب ١/ ٣٨ هامش ٣ .

(١١٤) الهرثمي ، مختصر سياسة الحروب ، ص ٤٨ - ٤٩ . الاوسي ، تفريج الكروب : ٥١ .

(١١٥) النوادر : ١٤٧ ، ٢٣٢ ، الكامل : ١٢/ ٢٩ . الروضتين ٢/ ٢٠١

(١١٦) النوادر ، ١٩٢ .

(١١٧) الكامل : ٦٩/١٢

(١١٨) النوادر : ٢١٢ ، ٢٣٢

(١١٩) الفتح القسي : ٥٤١

(١٢٠) النوادر : ٢١٧ ، ٢٣١

(١٢١) الفتح القسي : ٥٤٢ ، النوادر : ١٨٢

(١٢٢) النوادر : ١٨٢

(١٢٣) ن . م ص : ١٩٢

(١٢٤) ن . م ص : ٢٣١ ، الروضتين : ٢٠٣/٢

(١٢٥) النوادر : ٢١٢ .

(١٢٦) الفتح القسي : ٥٥٢ وانظر النوادر : ١٩٠ الروضتين : ١٩٢/٢

(١٢٧) النوادر : ٩٣

(١٢٨) الجاحظ ، الحيوان ، جـ ٣ ص ٢١٤

(١٢٩) حياة الحيوان ، جـ ١ ص ٢٩٦ .

(١٣٠) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٢١ . السيوطي ، حسن المحاضرة : ١٦٦/٢ .

(١٣١) الروضتين : ن . ص .

(١٣٢) يقول امين الخولي : ان من الحمام ما يقطع ثلاثة الاف فرسخ في يوم واحد (الجندية والسلم ص ٧٢) اي حوالي الف كيلومتر في الساعة ، وهذا غير معقول .

(١٣٣) البستاني ، دائرة المعارف ، مجلد ٧ ص ١٦٨ . امين الخولي ، الجندية والسلم ، ص ٧٢

(١٣٤) صبح الاعشى : ٣٩٠/١٤

(١٣٥) ويذكر ابن فضل الله العمري ان المسافة بين مطار وآخر كانت اربعة فراسخ (التعريف ص ١٨٤) اي حوالي ٣٢ كيلومترا .
(١٣٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١٦٦/٢
(١٣٧) ميخائيل صباغ ، مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام . مجلة (المورد) مجلد (٢) عدد (٣) ص ١٤٤ .
(١٣٨) جري زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ٢٣٣/١
(١٣٩) العمري ، التعريف ، ص : ١٩٦ ، لظاهري ، زبدة كشف ، ص ١١٧ .
د . عطية مشرفة ، نظم الحكم ، ص : ١٣٢ - ١٣٦ .
(١٤٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص : ٣٤٠ - ٣٤١ .
(١٤١) قطيا : قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما . معجم البلدان : ٣٧٤/٤
(١٤٢) قاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة . ٢٩٩/٤ . رحلة بنيامين ص : ٩٥
(١٤٣) اذرعات : بلد في اطراف الشام ، يجاور ارض البلقاء وعمان ، معجم البلدان : ١٣٠/١ .
(١٤٥) قارة : قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهي المنزل الاول من حمص للقاصد الى دمشق . معجم البلدان ٢٩٥/٤
(١٤٦) العمري ، التعريف : ١٩٦ - ١٩٧ . صبح الاعشى : ٣٩٣/١٤ .
(١٤٧) ميخائيل صباغ ، مسابقة البرق . مجلة المورد ، ص ٤٤ جرجي زيدان،تاريخ التحدي الاسلامي ٢٣٣/١ ، احسان هندي ، الحياة العسكرية : ٢١٧ .
١٤٨ - الفتح القسي : ٣٦٠
١٤٩ - الكامل : ١١ / ٤٥٢ - ٤٥٣
١٥٠ - الروضتين ٢ / ٦
١٥١ - النوادر : ١٤٣
(١٥٢) الفتح القسي : ٣٦٠
(١٥٣) الجريدة : تعني اقل العساكر ، وهي قطعة جردت من سائرها ، الثعالبي ، فقه اللغة ، ص : ٣٢٩
(١٥٤) السرية : قطعة اكبر من الجريدة . ن . م ص
(١٥٥) بكتوت الرماح ، السؤال والمنية ، مخطوط ، ص ١٩١ نقلاً د . سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص ٢٢٢
(١٥٦) الاوسي ، تفريج الكروب ، ص ٧١
(١٥٧) النوادر : ١٠٨
(١٥٨) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور . معجم البلدان : ١٤/٢
(١٥٩) النوادر : ١٠١
(١٦٠) الفتح القسي ٢٩٤ . النوادر : ١٠١ الكامل ٣٠/١١ - ٣١ ، الروضتين ١٤١/٢
(١٦١) النوادر : ١٥٠ ، الفتح القسي ٤٤٨ ، الروضتين : ١٨٠/٢ مفرج الكروب : ٣٤٤/٢
عن تفاصيل بعض الكمائن انظر : (١) النوادر : ١٠٨ ، الفتح القسي : ٣٠٦ ، مفرج الكروب ٢٩٤/٢ .
(٢) النوادر : ٢٠٠ ، الفتح القسي ٥٥٩ - ٥٦٠
(٣) النوادر : ١٥١ ، الفتح القسي ٤٤٩ الروضتين ١٨٠/٢ . مفرج الكروب ٢٤٤/٢ وغيرها .
(١٦٢) الروضتين ٥٢/٢ . د . سعداوي ، التاريخ الحربي ص : ١٧٨ .
Lane-Poole, A History de Middle age, p. 196 ¾
(١٦٣) الروضتين : ن . ص .
(١٦٤) ن . م ص . وانظر سعداوي ، جيش مصر ، ص ٣٧ نقلا عن مخطوط (العيني ، جـ١ ق ١ ص٨)
(١٦٥) الكامل : ٣٧٢/١١ - ٣٧٣ . التاريخ الباهر : ١٥٨ - ١٥٩ .
وانظر : الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥١٩ . مفرج الكروب ٢٢١/١ - ٢٢٢
الذهبي ، العبر ، ١٩٥/٤ - ١٩٦
(١٦٦) سنا البرق الشامي ٣٣٣/١ - ٣٣٥ ، الكامل ٤٥٥/١١ - ٤٥٧
الروضتين ١١/٢ - ١٣ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١١ - ٣٠٤
(١٦٧) الكامل ، حوادث ٥٨١ هـ . زبدة الحلب ، ١٨/٣ مفرج الكروب ١٧٠/٢ - ١٧١ .
(١٦٨) الفتح القسي : ١٥٧
(١٦٩) الكامل ٥٥٧/١١ . الروضتين ١٢٠/٢ انظر بحثنا « مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور » المنشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية جامعة الكويت المجلد السابع سنة ١٩٨٧ ص ٢٩ - ٤٣ .
(١٧٠) النوادر : ١٢٦ ، الفتح القسي : ٣٩٣ الروضتين ١٥٥/٢ - ١٥٦ ، مفرج الكروب : ٣٢٤/٢
(١٧١) النوادر : ١٣١ ، الفتح القسي ٤١٣ الروضتين : ١٥٩/٢
(١٧٢) النوادر : ١٧٨ .
(١٧٤) ارسوف : مدينة على ساحل بحر الشمال بين قيساريه ويافا . معجم البلدان : ١٥١/١
(١٧٥) الكامل : ٧١/١٢ - ٧٢
(١٧٦) النوادر : ١٨٦ وانظر مرآة الزمان ٤١٠/٨ ، وفيات

الاعيان ٧/١٩٨ .
(١٧٧) النوادر : ٢١٦ ، الروضتين ٢/١٩٨ - ١٩٩ . مفرج الكروب ٢/٣٨٦ Lane-Poole, Saladin, p. 341. Stevenson, p. 282.
(١٧٨) جورج كاستلان ، تاريخ الجيوش ، ص ٦٧
(١٧٩) محمد خالد ، قصة التعبئة ، ص ٤٥
(١٨٠) عبدالرؤوف عول ، الفن الحربي ، ص ٢٠٦
(١٨١) Oman, A History of The art of war, p. 211
(١٨٢) الايوبي ، مضمار الحقائق : ص : ٣٦ ، السلوك ٧/٦٩ ، سنا البرق الشامي ، ص : ١/٣٣١
(١٨٣) الروضتين ٢/٨
(١٨٤) مفرج الكروب ٢/٨٠
(١٨٥) مضمار الحقاق ، ص ٩٣
(١٨٦) الكامل : ١١/٥٣ . الروضتين ٢/٧٦
(١٨٧) الفتح القسي ، ص . ٦٠
(١٨٨) ن . م ص : ٧٨ ، الروضتين ٢/٧٧
(١٨٩) النوادر : ص ٢١٧ ، الروضتين ٢/١٩٩ مفرج الكروب : ٢/٣٨٩
(١٩٠) اثار الاول : ١٩١
(١٩١) بلدة حصينة تقع الى الشرق من صور . معجم البلدان .
(١٩٢) الكامل : ١١/٥٥٣ - ٥٥٤
(١٩٣) النوادر : ٩٢ ، الفتح القسي ، ٢٤٩ ، الكامل ١٢/١٥ ، الروضتين ٢/١٣١ ، زبدة الحلب ٣/١٠٥ ، مفرج الكروب ٢/٢٦٦
(١٩٤) النوادر : ٢٠٢
وانظر الفتح القسي : ٥٦٠
(١٩٥) Heyd, Histoire de Commerce ..., p.3
جب ، صلاح الدين : ص ١٤٥ - ١٤٦ ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص ٢٢٩
(١٩٦) د . الباز العريني ، الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ص ٧٨
(١٩٧) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢
(١٩٨) د . صابر محمد دياب ، سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٢٣٠
(١٩٩) معجم البلدان ، ٤/١٢٢ . آثار البلاد ، ص ٢٢٢
(٢٠٠) النوادر : ١٨٧ ، الكامل ١٢/٧١ ، الفتح القسي : ٥٥٠ ، الروضتين ٢/١٩٢ ، السلوك ١/١٠٦
(٢٠١) الفتح القسي : ٥٥٠ ، التاريخ المنصوري : ٢٠٧ ، مرآة الزمان : ٨/٤١٠ .
(٢٠٢) النوادر : ١٨٩ ، الفتح القسي : ٥٥١ الكامل : ١٢/٧٢ ، معجم البلدان : ٣/٦٩
(٢٠٣) النوادر : ١٩١ ، الروضتين : ٢/١٩٣ ، وفيات الاعيان : ٧/١٩٩ السلوك : ١/١٠٦ .
(٢٠٤) مراة الزمان مان : ٨/٤١٠
(٢٠٥) شفاء القلوب : ١٧٣
(٢٠٦) النوادر : ١٨٩ ، الفتح القسي : ٥٥١ ، وفيات الاعيان : ٧/١٩٩
(٢٠٧) معجم البلدان : ٢/٤٢٤ . شفاء القلوب : ١٧٣ .
(٢٠٨) الكامل : ١٢/١٣ ، زبدة الحلب : ٣/١٠٤
(٢٠٩) النوادر : ٢٢٨ ، مفرج الكروب : ٢/٤٠٠
(٢١٠) معجم البلدان : ٥/٤٢٥
(٢١١) بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة . معجم البلدان ١/٥١٩
(٢١٢) الروضتين : ٢/٢٨
(٢١٣) ايله : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام (معجم البلدان ١/٢٩٢) وهي ميناء (ايلات) الحالية على خليج العقبة في فلسطين المحتلة .
(٢١٤) انظر د . سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص : ٣٨
(٢١٥) قوانين الدواوين ، ص : ٣٢٥
(٢١٦) الروضتين : ٢/٣٥ ، مفرج الكروب : ٢/١٢٧
(٢١٧) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٨ .
(٢١٨) الروضتين ٢/١٢١
(٢١٩) النوادر ، ١٩
(٢٢٠) هكذا يحدد العماد الكاتب فترة الهدنة بالتقويم الشمسي (الميلادي) وليس (الهجري) الفتح القسي / ٢٦٠) وانظر ايضا (النوادر ٩٤) و(الكامل ٩/١٢) و(الروضتين ٢/١٣٣) .
(٢٢١) الفتح القسي ٣٨٠ - ٣٨٥ ، وانظر النوادر : (١٢١) والروضتين ٢/١٥١
(٢٢٣) الفتح القسي ٤٥٤ . مفرج الكروب ٢/٢٤٦
(٢٢٤) النوادر صفحة :- ١٥٠ - ١٥١ ، الروضتين : ٢/١٨٠
(٢٢٥) انظر على سبيل المثال:النوادر : ٢١١ ، ٢٣٠ . الفتح القسي ٤٧٢ ، ٤٩٥ ، الروضتين : ٢/٢٠٢ .

المصادر

١ ابن ابي اصيبعه الخزرجي ، ابو العباس موفق الدين احمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١١٦٩ م) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، اصدار دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ .
٢ ابن الأثير ، ابو الحسن عزالدين علي ابن ابي الكرم محمد بن

عبدالكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) .
الكامل في التاريخ ، دار صادر ـ بيروت ، بيروت ١٩٦٦ .
٣ نفسه ، الباهر في تاريخ الاتابكي ، تحقيق د . عبدالقادر طليمات . ط القاهرة ١٩٦٣ .
٤ ابن الازرق ، ابو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود (ت ٨٩٦ هـ/ ١١٤٩٠ م) . بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق د . علي سامي النشار ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٧ .
٥ ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٢ م) تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) المطبعة الكبرى الاميرية ، بولاق ، مصر ١٣١١ م
٦ ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٨ .
٧ ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م) . رحلة ابن جبير ، دار صادر ـ بيروت ، بيروت ١٩٦٤ .
٨ ابن خلدون ، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ م) . العبر وديوان المبتدأ والخبر «تاريخ ابن خلدون» دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٦١ .
٩ ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٧ م) . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باعتناء وتصحيح بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤ .
١٠ ابن شداد ، ابو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢ هـ/ ١٣٣٤ م) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د . جمال الدين الشيال طبعة الدار المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ .
١١ ابن العبري ، ابو الفرج غريغوريوس اهرون الملطي (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) . تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ٢ بيروت ١٩٥٨ .
١٢ نفس المؤرخ :
تاريخ الدول السرياني ، صنفه باللغة السريانية ، ترجمه الى اللغة العربية اسحق ارملة السرياني . منشور في مجلة (المشرق) البيروتية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت من السنة ٤٦ لعام ١٩٥٢ الى السنة ٤٩ لعام ١٩٥٥ ، جـ ٤ ، ٥ .
١٣ ابن العديم ، ابو القاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله الحلبي (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م) . زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق د . سامي الدهان . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٤ ـ ١٩٦٧ .
١٤ ابن العماد ، ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مطبعة القدسي ، القاهرة . ط ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م .
١٥ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م) . تاريخ ابن الفرات ، تحقيق (د. حسن محمد الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ١٩٦٧ .
١٦ ابن قاضي شهبة ، ابو الفضل بدرالدين محمد بن تقي الدين بن قاضي شهبة الاسدي الشافعي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) .
الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) تحقيق د . محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ .
١٧ ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) . ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ .
١٨ ابن كثير ، ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي ، الدمشقي (٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م) البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣٢ .
١٩ ابن مماتي ، الاسعد بن الخطير المهذب بن مينا المصري (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) . قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، طبع مصر ١٩٤٣ .
٢٠ ابن منكلي ، محمد الناصر بن محمود بن منكلي المصري (ت ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م) التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، مخطوط مصور بالفوتستات في المجمع العلمي العراقي ، تحت رقم (٦٤٦ ـ سلاح) .
٢١ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م) . مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق د . جمال الدين الشيال . المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧ .
٢٢ ابو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والصلاحية) جـ١ ق١ طبعة القاهرة ١٩٥٦ وجـ١ ق٢ ط ١٩٦٢ .
نفس الكتاب بجزأيه ، مطبعة وادي النيل القاهرة ، ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ م
٢٣ ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن تقي الدين عمر الايوبي ، صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) المختصر في اخبار البشر ، مطبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
٢٤ ابو مخرمة ، ابو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد «القرن العاشر الهجري» ، تاريخ ثغر عدن ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٣٦ .

٢٥ الاوسي الانصاري ، عمر بن ابراهيم (اوائل القرن التاسع / اوائل القرن الخامس عشر الميلادي) . تفريج الكروب في تدبير الحروب ، حققه وترجمه الى الانكليزية د . جورج سكانلون ، منشورات الجامعة الاميركية بالقاهرة ١٩٦١ .
٢٦ الايوبي ، الملك المنصوري محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، صاحب حماه (ت ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) . مضمار الحقائق وسر الحقائق ، تحقيق د . حسن حبشي ، دار الهنا ، طبع عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦٨ .
٢٧ البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي (ت قرن سابع هـ/ ثالث عشر م) . سنا البرق الشامي (تلخيص كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الاصفهاني) تحقيق د . رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ جـ ١ .
٢٨ بنيامين التطيلي ، بنيامين بن يونه الاندلسي (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م) . رحلة بنيامين ، ترجمه من العبرية حداد ، المطبعة الشرقية . بغداد ١٩٥ .
٢٩ الثعالبي ، ابو منصور عبدالله بن محمد (ت ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٦ م) . فقه اللغة وسر العربية ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣٠ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٦٨ م) . الحيوان ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٨ م
٣١ الحموي ، ابو الفضائل محمد بن علي بن العزيزي بن علي مزهر (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦ م) التاريخ المنصور ، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان (نشر بطرسسغريا زنويج» موسكو ، دار النشر للاداب الشرقية ، ١٩٦٠ .
٣٢ الحموي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م) . معجم البلدان ، دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ .
٣٣ الحنبلي ، ابو البركات عزالدين احمد بن ابراهيم بن نصر الله العسقلاني المصري (ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م) . شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ، تحقيق : د . ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٨ .
٣٤ الدميري ، كمال الدين ابو البقاء (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م) . حياة الحيوان الكبرى ، دار الطباعة ، القاهرة ١٢٩٢هـ .
٣٥ الدواداري ، ابو بكر بن عبدالله بن ايبك (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥ م) . الدر المطلوب في اخبار بني ايوب ، تحقيق د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٢ .
٣٦ الذهبي ، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن احمد الدمشقي (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) مختصر تاريخ الاسلام . مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا (قسم ١ ، ٢) تحت رقم ١٦٥٩ ، ١٦٦٠ .
٣٧ الزبيدي ، ابو الفيض محب الدين محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٦ هـ/ ١٧٩١ م) تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٠٦ هـ .
٣٨ سبط بن الجوزي ، ابو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن/ الهند ١٩٥١ ، جـ٨ قسم ١ .
٣٩ السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) . حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، المطبعة الشرقية ١٣٢٦ هـ .
٤٠ الطرسوسي ، مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) (تبصرة ارباب الالباب . .) مخطوط مصور بالميكروفيلم ، نسخة شخصية عن نسخة مكتبة بودليان باكسفورد .
٤١ الطرطوشي ، ابو بكر محمد بن الوليد الفهري المالكي (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦ م) . سراج الملوك . مطبعة بولاق ١٢٨٩ م
٤٢ العباسي ، الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨ م) اثار الاول في ترتيب الدول ، مطبعة بولاق ١٢٩٥ هـ .
٤٣ العليمي المقدسي ، ابو اليمن مجيد الدين عبدالرحمن بن محمد علحنبلي (ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٠ م) . الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م .
٤٤ العماد الكاتب الاصفهاني ، ابو عبدالله محمد بن محمد حامد (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م) . الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٥ .
٤٥ العمري ، شهاب الدين ابو فضل الله العمري (ت ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م) التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة ١٣١٢ م .
٤٦ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م) اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠ .
٤٧ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي بن عبدالله (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) صبح الاعشى في صناعة الانشاء ،

المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧ .
٤٨ المقريزي ، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) . البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، تحقيق د . عبدالمجيد عابدين ، عالم الكتب القاهرة ١٩٦١ .
٤٩ المقريزي . . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ .
٥٠ المقريزي . . المواعظ والاعتبار (الخطط) مطبعة بولاق ١٢٩٤ ، اوفسيت مكتبة المثنى بغداد . نفس الكتاب ، طبعة المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٢ .
٥١ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م) نهاية الارب في فنون الادب . دار الكتب القاهرة ١٩٥٤ .
٥٢ الهرثمي ، ابو سعيد (صاحب الخليفة المأمون العباسي) . مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عبدالرؤوف عون . طبعة المؤسسة العامة للتأليف . القاهرة ، بلا
٥٣ الهروي ، علي بن ابي بكر بن علي (ت٦١١ هـ/ ١٢١٥ م) . التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تحقيق مطيع المرابط . وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٢ .
٥٤ اليافعي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ١٩٧٠

الكتب الحديثة والمترجمة الى اللغة العربية

٥٥ احسان هندي : الحياة العسكرية عند العرب ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ١٩٦٤ .
٥٦ ادي شير : الالفاظ الفارسية المعربة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٨
٥٧ ارنست باركر .
الحروب الصليبية ، ترجمة د . الباز العريني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
امين الخولي ، الجندية والسلم
٥٨ د . الباز العريني كتبه :
الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون) ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .
٥٩ الشرق الاوسط في الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية . لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٣ .
٦٠ المماليك . دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .
٦١ بولياك ، ا . ن
الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة عاطف كرم ، منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٨ .
٦٢ جان سوفاجيه
دمشق الشام . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦ .
٦٣ جب ، السير هاملتون أ . ر .
صلاح الدين الايوبي ، داراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف ايبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ .
٦٤ جرجي زيدان :
تاريخ التمدن الاسلامي . منشورات دار مكتبة الحياة ، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت ١٩٦٧ .
٦٥ جورج كاستلان :
تاريخ الجيوش . ترجمة كمال الدسوقي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .
٦٦ جهادية القرغولي :
التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام ، رسالة دكتوراه ، مطبوعة على الالة الكاتبلا ، القاهرة ١٩٧٤ .
٦٧ دوزي ، رينهارت :
المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة د . اكرم فاضل . دار الحرية للطباعة ، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية ، بغداد ١٩٧١ .
٦٨ د . رشيد الجميلي :
دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنكي ، دار النهضة بيروت ١٩٧٠ .
٦٩ ستيفن رنسيمان
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . الباز العريني ، ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨
٧٠ السرساوي ، اللواء محمود محمد :
يوم حطين من روائع التاريخ العسكري العربي . مطبعة الدار القومية ، القاهرة ، بلا تاريخ
٧١ سعيده الديوهجي :
الموصل في العهد الاتابكي ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٥٨ .
٧٢ سعيد عبدالفتاح عاشور
الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٣
٧٣ نفسه : مصر والشام في عهد الايوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٠
٧٥ طه الهاشمي :
دروس في المعلومات الجغرافية ، مطبعة الشعب ، بغداد

. ١٩٣٦

٧٦ عبدالرؤوف عون :
الفن الحربي في صدر الاسلام ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ .

٧٧ د . عطيه مصطفى مشرفة :
نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، القاهرة ، بلا

٧٨ د . فيليب حتي :
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة د . كمال اليازجي ، مراجعة د . جبرائيل جبور ، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين - بيروت ١٩٥٩ .

٧٩ قدري قلعجي
صلاح الدين الايوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب ، دار الكاتب العربي . بيروت ١٩٦٦ .

٨٠ محمد التونجي
المعجم الذهبي ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ .

٨١ محمد خالد
قصة التعبئة ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٩ .

٨٢ محمد كرد علي
خطط الشام ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٢٥

٨٣ محمد ياسين الحموي
دمشق في العصر الايوبي ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٤٦

٨٤ ميخائيل صباغ (ت ١٨١٦ م)
مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام . رسالة منشورة في مجلة (المورد) البغدادية المجلد ٢ عدد ٣ بغداد ١٩٧٣ .

٨٥ نظير حسان سعداوي :
التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧

٨٦ Hayd W, Histoire de Commerce de Levent ar moyen-Age, Amsterdam, 1959

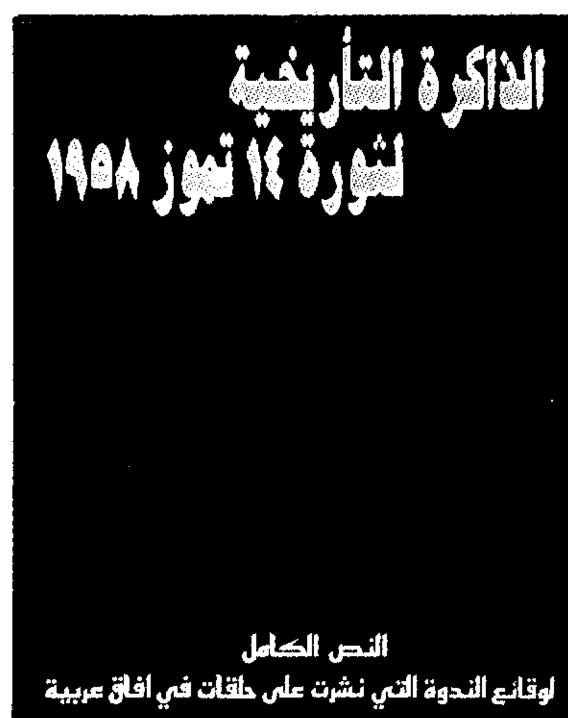
Henry Treece, the Crusades, NY. 1962

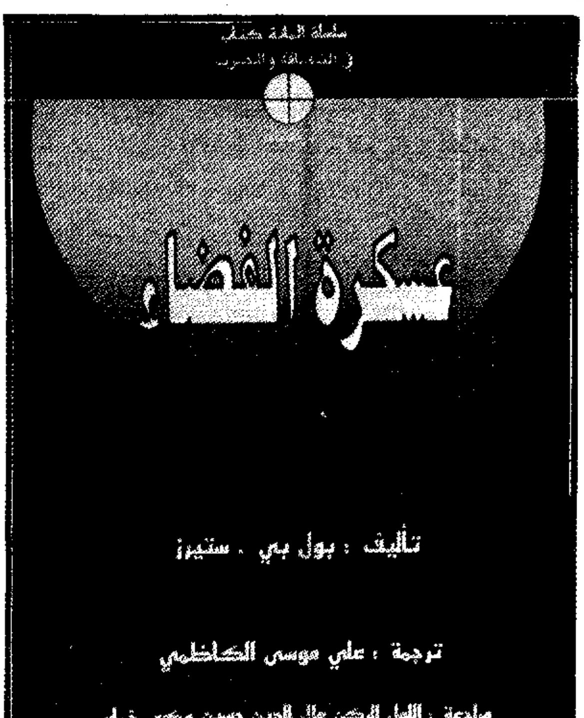
٨٧ Oman, C. W. C., A History de the art of war in the Middle age, N.Y. 1924

٨٨ Lane-Poole, Stanley., A History of middle age, London, 1901

٨٩ Lane-poole, Stanley., Saladin and the fall of the kingdom de Jerusalem, 1962 .

* * *





الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الايوبي

دراسة في معركة حطين

د. دريد عبد القادر نوري
استاذ التاريخ الاسلامي المساعد / جامعة الموصل

تقـديم :

يعتبر صلاح الدين الايوبي[1] من القادة العرب الافذاذ الذين تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز ، اذ على يديه تحققت طموحات شعبه في الوحدة والتحرير ، وكان مفتاح نصره « معركة حطين » تلك المعركة التي انتصر فيها على الغزاة الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م انتصاراً ساحقاً ، عبرت عن حسن مقدرته النسياسية والعسكرية ، كما عبرت عن الروح المعنوية العالية لجنده والصبر الكبير على تحمل المشاق والبعد عن الاهل والاحباب من اجل احراز كامل النصر على الاعداء ، كذلك فأن العقيدة العسكرية والتلاحم بين القائد وشعبه وجنده والخطط العسكرية الجيدة كان لها اثرها الواضح في انجاح هذه المعركة .

ونظراً لاهمية (حطين) في التاريخ ، فقد وقع الاختيار عليها وذلك للاستحضار وتقويم الفكر العسكري العربي الذي كان له الاصالة والتفوق في مجال الفكر العسكري العالمي آنذاك ، وربطه بالفكر العسكري العربي المعاصر للافادة من قيمه بما يخدم اهداف أمتنا المجيدة وطموحاتها المعاصرة في الوحدة والتحرير .

إن مما يجدر ذكره ان وصول صلاح الدين لمركز القيادة وتمكنه من تحقيق نصره على عدوه ، لم يكن بالامر العارض ، وانما جاء نتيجة للبيئة الجيدة التي نشأ فيها ، ولامتلاكه العديد من المؤهلات القيادية اضافة الى مساعدة العديد من الظروف المواتية .

ويمكن القول بأن صلاح الدين قد تربى على ايدي كبار اساتذة عصره اضافة الى تردده على دور العلم ، كما تدرب عملياً على أيدي والده نجم الدين وعمه اسد الدين شيركوه والسلطان نورالدين محمود زنكي الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز على المستوى العسكري وفي مقاومة الغزو الصليبي لبلاد الشام[2] .

ولذلك فلا عجب ان تولي صلاح الدين وفي وقت مبكر العديد من المهام القيادية منها رئاسة شرطة مدينة دمشق سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ثم نائباً لواليها . وتبعاً لذلك كانت مهمة النائب قيادة العساكر والمحافظة على النظام ، وقد نجح صلاح الدين في كل ذلك فأظهر السياسة واحكم الامور[3] ، وفي سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م تولى صلاح الدين منصب رئاسة الوزارة الفاطمية في مصر[4] . فأظهر كفاءة ومقدرة تفوق الوصف تمكن بها من السيطرة على مقاليد الامور بالديار المصرية كان من نتائجها اسقاط الخلافة الفاطمية واعلان الانضمام للخلافة العباسية[5] .

وبعد ان اصبح صلاح الدين اميراً لمصر ونائباً لنورالدين

في حكم البلاد جاءته العديد من الظروف المواتية التي أهلته للقيادة كان من اهمها وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وما اعقبها من تمزق في الجبهة الداخلية ، ذلك التمزق الذي تصدى له صلاح الدين بحزم والذي كسب به محبة الشعب والخلافة العباسية لينتقل بعدها من قيادة مصر الى قيادة جبهة مصر والشام وبلاد الجزيرة بعد ان خاض حروباً داخلية ضد الامراء الاقليميين مدة عشر سنوات تمكن بعدها من تحقيق وحدة قوية وباسلوب فذ تلائم عصره واهدافه .

علماً بأن صلاح الدين خاض في فترة الاعداد لبناء الوحدة من (سنة ٥٧١ ـ ٥٨١ هـ / ١١٧٥ ـ ١١٨٥ م) عدة معارك ضد الغزاة الصليبيين ، غير انها لم تكن حاسمة لان هدفه الاول كان القضاء على الغزاة قضاءاً تاماً . وهذا لا يتيسر قبل اقامة دولة قوية وموحدة ، ومن هنا بدأ فكره العسكري وبعد نظره عندما صمم على توحيد الجيوش وتعبئة القوى الداخلية قبل البدء بمعركة حطين مما سنذكره تباعاً .

الموقف السياسي للجبهة العربية قبل معركة حطين

لقد كانت جبهة بلاد الشام والجزيرة مفككة سياسياً اثر وفاة الامير نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م اذ لم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بأنه يصلح ان يكون خلفاً لنورالدين الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل[٦] كذلك لم يكن بين الاخوين الزنكيين سيف الدين غازي (امير الموصل) وعماد الدين (امير سنجار)[٧] وفاق (وكانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما ابرموه امس في يومهم بنقض)[٨] .

ولذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الاخوين مكانة عمه نورالدين[٩] ، كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الجزيرة والشام محافظة على وحدتها وقوتها خاصة وان الامراء والضباط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فور وفاة سيدهم في تنافس وصاية ابنه الصغير الملك الصالح[١٠] .

وفي هذه الفترة بالذات توسع الخطر الصليبي في بلاد الشام واصبح ذا تأثير كبير في سير الاحداث السياسية في المنطقة ، فقد هاجموا بانياس في آخر شوال سنة ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م وهادنهم اميرها ابن المقدم على أن يؤدي اليهم مبلغاً من الاموال وان يطلق سراح اسراهم[١١] . ومن الواضح فأنه لم يكن بمقدرة الملك الصالح ولا سيف الدين غازي ولا الامراء المحليين ان يهاجموا الخطر الصليبي على انفراد[١٢] خاصة وان الامدادات الاوربية لم تنقطع عن الغزاة في بلاد الشام لذلك اصبح واضحاً ان يتقدم احد امراء نورالدين الاقوياء ليملأ الفراغ ويوحد الكلمة ويجمع الصف .

وقد كان صلاح الدين في هذه الفترة يملك قوة كبيرة من العدد والعدة فهو امير لمصر القوية الواسعة وقائد لعدة فرق عسكرية[١٣] ، ولذلك احس صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي لنورالدين وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نورالدين والهادفة الى توحيد البلاد وتحريرها من الغزاة[١٤] ، خاصة وان بلاد الشام والجزيرة واقعة تحت عدة زعامات وهي بأمس الحاجة الى الوحدة .

فمدينة دمشق (جمع امراؤها على اعطاء القيادة فيها لولد نورالدين الطفل الملك الصالح) تحت وصاية الامير المقدم[١٥] ، اما مدينة الموصل فقد استقل بها الامير سيف الدين غازي ثم تقدم بقواته للسيطرة على المنطقة وقد احتل نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة[١٦] ، وفي حلب تمكن حاكم قلعتها شاذ بخت بالتعاون مع بن المقدم ـ المار ذكره ـ بتدبير مؤامرة نقلوا فيها الملك الصالح من دمشق الى حلب[١٧] ، ثم سيطروا بعدها على وصايته والقوا القبض على كل اعيان البلد من اصدقاء صلاح الدين والمخالفين لسياستهم[١٨] .

ان هذا الاضطراب السياسي في حلب ودمشق وبلاد الشام عموماً ، جاء سبباً ثانياً ـ اضافة الى وفاة نورالدين ـ دفع بصلاح الدين الى التدخل في الامور من أجل حسم الموقف لصالح طموحات الشعب في الوحدة والتحرير ، وقد جاء السبب الثالث ملحاً عندما وصلت الاخبار الى صلاح الدين بأن حاكم دمشق (بن المقدم) عقد صلحاً مع الغزاة الصليبيين وانه اطلق سراح اسراهم خوفاً منهم وحفاظاً على مصالحه الاقليمية الضيقة[١٩] .

لقد اعتبر صلاح الدين مجاهدة الغزاة الصليبيين واجباً جماعياً (Obligation Collective) ولما وجد ان الامراء

الآخرين مشغولون عنه ، كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة ولذلك اعتبر تقدمه نحو الشام واجباره للحكام الآخرين بالانضمام تحت لوائه ، انما هو لخدمة الجهاد في سبيل الله[20] ، ولذلك ابتدأ بتحريك الرأي العام ضد اولئك الامراء الرافضين لسياسته ، واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فأرسل ـ كما مر ـ اول مكاتبة الى الشيخ بن ابي عصرون يطلب منه تنبيه المسلمين لاستنكار اعمال الخيانة والاعمال الانفصالية ، وقد كان آنئذ لعلماء الدين اثر كبير في اثارة عامة المسلمين .

وقد جاء المحفز الاخير لصلاح الدين في التحرك من مصر الى بلاد الشام عندما كاتبه اهالي دمشق في نهاية عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وطلبوا منه بألحاح التوجه اليهم خوفاً من تحركات الصليبيين المشبوهة في المنطقة ودفعاً لتشتت المدينة ووقوعها بيد امراء حلب[21] . مما يدل على ان صلاح الدين اصبح في تلك الفترة مَعْقَداً لطموحات الشعب ومحط انظارهم والمنقذ لهم من الاخطار المهددة لهم في الداخل والخارج .

وفي اوائل سنة ٥٧٠ هـ / النصف الثاني من سنة ١١٧٤ م تجهز صلاح الدين للسفر الى بلاد الشام ليقود من هناك عملياته الوحدوية التحررية ، وقد كان من الطبيعي ان يقع الصدام بين صلاح الدين والامراء الزنكيين ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الامراء الى صلاح الدين بالطريقة التي كان يراها صلاح الدين نفسه وهكذا وقع على كاهل صلاح الدين القيام بحملة اعلامية موسعة لأفهام كل الاطراف المعنية بأهدافه النبيلة) وانه عازم على فتح بيت المقدس وان من لم ينضم اليه فأنه من غير شك سيكون مستعداً للتواطؤ مع عدوه ضده[22] .

اذن كان على صلاح الدين اعادة التسلح الخلقي بين أبناء جيله من خلال (اعلانه للجهاد في سبيل الله) اي انه اخذ يعد الدولة بقادتها وشعبها عن طريق توضيح الاهداف المستقبلية للامة والتي حددها صلاح الدين بالكتاب الذي ارسله للخلافة العباسية عام ٥٧١ هـ اعلمها فيه اسباب تقدمه من مصر الى الشام ومن جملة ماجاء في ذلك الكتاب قوله : (وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وامر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه والا ثبتت عروقه وكانت همم القادرين بالقعود آثمة ، وانا لا نتمكن بمصر منه لبعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة[23] .

وهكذا بيَّن صلاح الدين لمن يهمهم الامر في عصره شعباً ومقاتلين وامراء ان الوحدة لازمة وان من لا ينخرط فيها فأن قتاله واجباً جهادياً كواجب مجاهدة الغزاة وقد ذكر صلاح الدين قوله : (وما كنا بشهادة الله في قتال « للزنكيين » الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطراً في حكمه)[24] .

كما بين صلاح الدين ان هدفه وقبل كل شيء هو وحدة الجيوش المقاتلة وانتمائها لقيادة عسكرية واحدة لخدمة هدف تحرير القدس . وقد جاء على لسان كاتب صلاح الدين القاضي الفاضل اشارة الى ذلك الهدف قوله (ولا نختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها ، ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عزّ عليه ان يكون كثير المشاركين ولا اساءه ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما امور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فأذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة)[25] .

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠ هـ / ٣ ايلول سنة ١١٧٤ م خرج صلاح الدين من مصر بحوالي سبعمائة فارس من عسكره متجهاً نحو مدينة دمشق ، وقد دخلها يوم الثلاثاء نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٥٧٠ هـ / الموافق ٢٨ تشرين الاول سنة ١١٧٤ م بعد ان مر بالعديد من الحصون والقلاع التي انضمت اليه واعلنت استعدادها للتعاون معه[26] .

اما المدن العربية الاخرى في بلاد الشام والجزيرة فلم تقف من صلاح الدين موقف دمشق الايجابي ، وانما تصدت له بشتى الوسائل ، وخاصة مدينة حلب والموصل ، غير ان

صلاح الدين تمكن في النهاية من اجبارها على الدخول في الوحدة سواء كان ذلك بالاسلوب العسكري أم السياسي عن طريق الترغيب أو الترهيب ، ففي سنة ٥٧٠ ـ ٥٧١ هـ / ١١٧٤ ـ ١١٧٥ م دخل صلاح الدين حمص وحماه منتصراً ولم يلق مقاومة تذكر[٢٧] اما حلب والموصل فقد اتفق امراؤها على مقاومة صلاح الدين عسكرياً وتقدموا لحربه ، وقد حدثت معركة بين الطرفين في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ / ١٣ نيسان سنة ١١٧٥ انتصر فيها صلاح الدين على خصومه بعد ان حاول لمرات عديدة مصالحتهم ، واجتهد في ذلك كما ذكر المؤرخ ابن شداد ـ « فما صالحوه ورأوا ان الحرب معه خير وسيلة لنيل مقصودهم »[٢٨]) غير ان آمالهم خابت اذ ولوا مدبرين أمام جند صلاح الدين[٢٩] .

ومما تجدر الاشارة اليه ان صلاح الدين كان يعامل خصومه من العرب معاملة اخوية وانسانية ، ويستخدم معهم كل الاساليب السلمية من اجل عدم اراقة دمائهم للاحتفاظ بها ليوم الفصل مع الغزاة الصليبيين ، فقد كان يراسل امراء حلب والموصل كلاً على انفراد من اجل فك ارتباطهم ، او كان يطمع احدهم بالآخر ، ولما اغلقت ابواب السلام امامه قاتلهم من غير قسوة ثم كان يأمر جنده بعد هزيمة اعدائه « ان لا يتبع مدبر ولا يقذف على جريح ، ثم انه كان يطلق من يقع في أسره منهم »[٣٠] وقد عبّر عن هذه السياسة الحكيمة المؤرخ الفرنسي سيفان بقوله : (كان صلاح الدين يخاف ضرب الموصليين بقسوة لان دمهم واحد ، وقد استخدم الطرق النفسية حتى لا يثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم »[٣١] .

لقد اعتبر صلاح الدين المدن العربية هي الطريق الموصل الى القدس . وعليه فأن قتال حكامها من ذوي الاطماع الاقليمية الضيقة هو من تمام الجهاد في سبيل الله ، ولذلك ألح في طلبها الى ان استسلمت لارادة الوحدة ، وقد تم لصلاح ما اراد سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م عندما قررت معاهدة الصلح مع صلاح الدين والتي اتفق امراء الشام والجزيرة خلالها على ان يكونوا صفاً واحداً ضد الغزاة وان تكون العساكر مجتمعة تحت قيادة صلاح الدين[٣٢] .

الدروس المستنبطة

تبين مما سبق ان لصلاح الدين فكراًسسياسياً واضح المعالم تجلى في سعيه الاكيد من اجل قيام وحدة قوية ومتينة بين القوى العربية والاسلامية في منطقة الشام والجزيرة ، وانه عمل من اجل الوحدة اكثر من عشر سنوات (٥٧٠ ـ ٥٨١ هـ / ١١٧٤ ـ ١١٨٥ م) . وقد تجلت في تلك السياسة الجوانب التالية :

اولاً : التأكيد على وحدة الجيوش المقاتلة .

ثانياً : التأكيد على عقائدية الجيش (العقيدة العسكرية) عن طريق احيائه لمعالم الجهاد في سبيل الله تعالى في نفوس مقاتليه .

ثالثاً : رفض الافكار والاعمال الاقليمية والمصالح الشخصية للامراء .

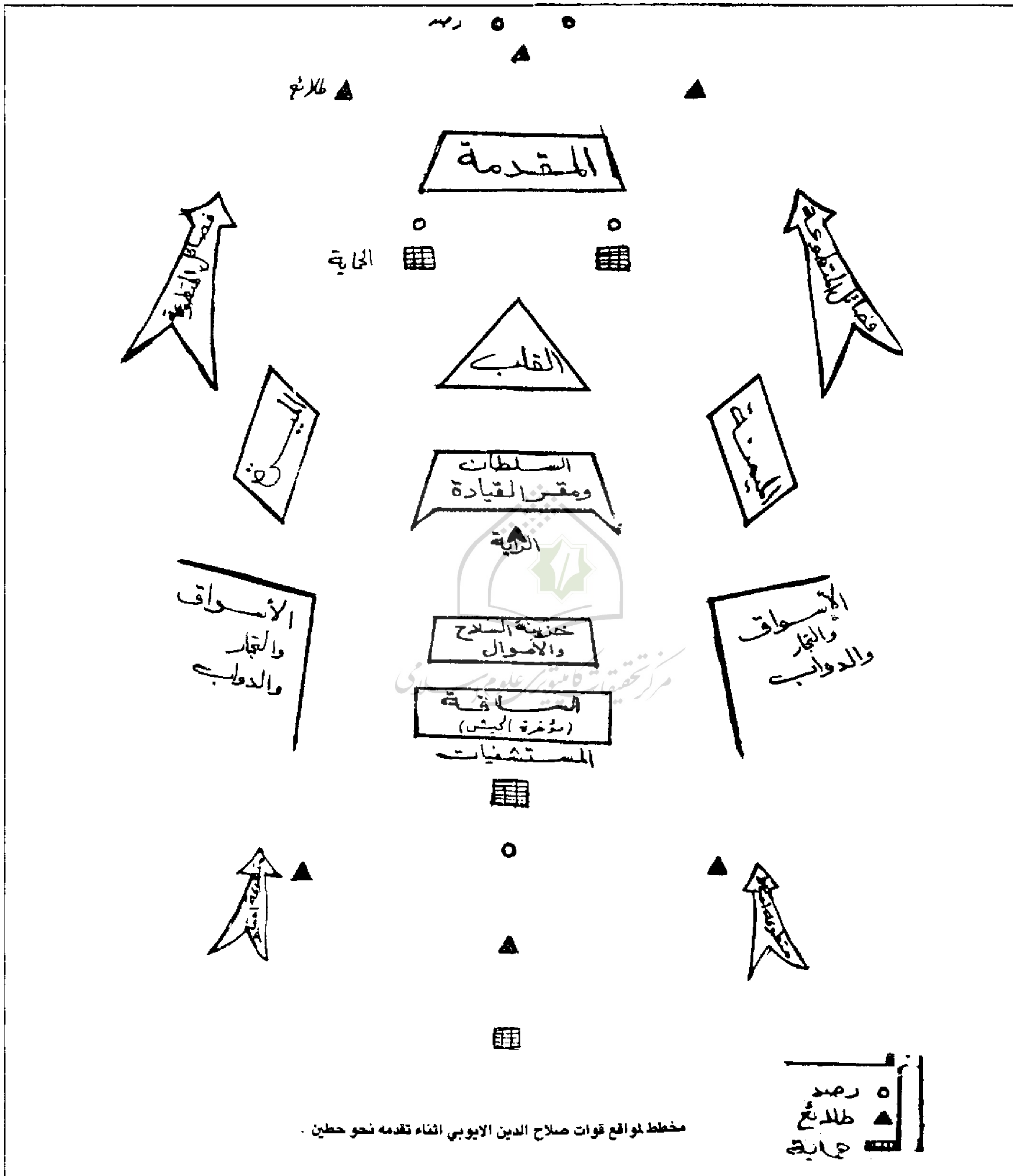
رابعاً : رفض فكرة التعاون مع الغزاة الصليبيين .

خامساً : تعبئة الجبهة الداخلية (حشد القوى) انتظاراً للمعركة القادمة (حطين) .

الموقف العسكري والقوات المستخدمة في المعركة قبيل حطين

اختار صلاح الدين مدينة دمشق لتكون مركزاً لعملياته الجهادية ضد الغزاة الصليبيين وذلك لأهمية هذه المدينة من نواح عديدة فهي كبيرة وواسعة وبامكانها ان تستعد لتلقي المزيد من المقاتلين ، علماً بأن لها اسواراً جيدة وفيها من وسائل العيش ما يكفي لتموين جيشه ، كذلك فأن هذه المدينة ، بشكل عام قريبة من تحصينات العدو ومراكز تجمعه ، اضافة الى توسطها بين العديد من المدن والقلاع العربية ، وعليه فأن امكانية استجماع القوات العربية عند الحاجة يأتي بشكل متناسق سواء كان من ناحية ايصال خبر التعبئة العسكرية ، او من ناحية وصول تلك القوات الى مركز القيادة عند صلاح الدين في دمشق .

ومن الجدير بالذكر فأن مدينة دمشق هي المدينة الاولى التي استقبلته بالترحاب في بلاد الشام ، كذلك فهي محببة الى نفسه من ناحية اهلها واطمئنانه لهم ولكونها محل سكناه الاول اذ فيها دار والده المعروفة بدار العقيقي[٣٣] . واضافة الى غنى هذه المدينة



مخطط لمواقع قوات صلاح الدين الايوبي اثناء تقدمه نحو حطين .

شكل رقم ١

بالمياه والمواد الزراعية ، فهي تحتوي على العديد من المعسكرات الخاصة بتدريب المقاتلين . وقد كانت تلك المعسكرات قديمة ، وكان بعضها خاصاً ، داخل المدينة ، لتدريب القادة والامراء على الفروسية والالعاب الرياضية واقامة المظاهرات العسكرية[٣٤] ، وبعضها كان خارج المدينة وقد وصف اثنين منها ، الرحالة ابن جبير وذكر بانهما يقعان خارج البلدة في جهة الغرب وبأنهما مكسوان خزاً لشدة خضرتهما[٣٥] .

وفي مدينة دمشق هذه كان صلاح الدين يراقب الموقف العسكري ويرصد تحركات العدو الصليبي ، بعد ان كان كل شيء معداً له عند نهاية سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ولم يشأ صلاح الدين ان يكون البادىء بالحرب ، وانما كان ينتظر الفرصة الملائمة للهجوم فربما يندفع لقتال لا يعلم نتائجه وتكون عاقبة الحرب وخيمة ، لذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعاً ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها ، وقد جاءت الفرصة مواتية لصلاح الدين عندما نقض البرنس ارناط (حاكم حصن الكرك الصليبي) المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين والتي تعهد فيها بعدم الاعتداء على المسلمين ، غير انه غدر بقافلة تجارية وسيطر على حمولتها الثقيلة وهي في طريقها من مصر الى بلاد الشام[٣٦] .

وهكذا عمد صلاح الدين ومن مدينة دمشق بأستدعاء العساكر للجهاد المقدس من مصر وحلب والموصل والجزيرة وديار بكر . وقد أتته مسرعة ملبية للدعوة ، وكان تجمعها عند رأس الماء قرب دمشق وكان ذلك في مستهل سنة ٥٨٣ هـ / ١٣ آذار ١١٨٧ م[٣٧] كذلك لما علم الصليبيون باستجماع العساكر الصلاحية ، اصطلحوا واتفقوا فيما بينهم وقرروا منازلة صلاح الدين بعد ان نقضوا العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين[٣٨] ، وهكذا اصبح صلاح الدين في حل من عهوده ، ولم يبق امامه سوى التخطيط لمستقبل علاقته العسكرية مع الصليبيين ، وقبل التطرق الى تلك العلاقة التي شملت الخطط السوقية والتعبوية وسير المعركة لا بد من الاشارة الى قوات صلاح الدين وتنظيمها واسلحتها وصنوفها ليتسنى لنا تقدير الموقف العسكري على أتم وجه .

لقد اعتبر صلاح الدين وبموجب كل المعاهدات التي وقعت مع الامراء العرب والمسلمين هو القائد الاعلى للقوات المسلحة ، وقد خصص صلاح الدين لصناعة العمليات الحربية مجلس شورى ينعقد كلما دعت الضرورة وكان يتكون من عضوية اخيه الملك العادل (ابو بكر) واولاده امراء بعض الفرق العسكرية وامراء مدن الموصل واربل الذين هم قادة لجند تلك المدن ، بالاضافة الى وزيره القاضي الفاضل وسكرتيره الخاص العماد الكاتب الاصفهاني وقاضي الجيش بهاء الدين ابن شداد ، وكان لكل من اولئك الحق في ابداء رأيه وموقفه ، وان كان من المسلم به ان ارادة صلاح الدين كانت هي السيطرة على المجلس باعتباره القائد والمتمتع بالصفات العسكرية الجيدة[٣٩] . ويبدو ان هذا المجلس استشير بمن كان متوفر من اعضائه في موضوع مجابهة الغزاة الصليبيين قبيل حطين فوافق ولذلك امر صلاح الدين بأستدعاء العساكر .

لقد رتب صلاح الدين العساكر التي وصلت اليه قرب دمشق بنفس النظام الذي كانت ترتب به العساكر الاسلامية من قبل وهو ما كان يعرف بـ (نظام التخميس) لانه يتكون من خمسة اقسام (انظر المخطط الملحق) : عسكر المقدمة ، ثم عسكر من ناحية اليمين ويسمى بالميمنة ، ثم عسكر آخر من ناحية الشمال ويسمى الميسرة ، ثم عسكر آخر من وراء العسكر يسمى الساقة (او المؤخرة) ويقف السلطان (قائد الجند) واصحابه والراية في وسط الاقسام الاربعة ، ويسمى موقعه (القلب) . (والتعبية) ان يقف كل قسم في موضعه ، فالميمنة تكون في مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة في مقابلة ميمنة العدو ، اما المؤخرة فتحوي المطبخ وخزينة السلاح والدواليب والاحتياطي من الخيول والعدة[٤٠] . وكان لكل من تلك التشكيلات قائد يسمى المقدم فيقال مثلاً مقدم الميمنة ، اما القلب فبقيادة صلاح الدين .

والجدير بالذكر ان صلاح الدين لم يقتصر موقفه على القلب انما كان يطوف بين صفوف مقاتليه في الميمنة والميسرة يستحثهم على القتال ويعين لهم المواضع المهمة للهجوم عليها او الانسحاب منها ، وكان كل قسم من الاقسام الخمسة يتكون من العديد من الفصائل (الاطلاب) التي كانت تضم امرأ ومائة او مائتين من الجنود[٤١] ، وكان (بين كل جند فرجة ، وطريق ،

ومجال للخيل)[٤٢] .

اما اسلحة القوات العربية الاسلامية التي احتشدت تحت امرة صلاح الدين قبل معركة حطين فكانت تنقسم الى اسلحة فردية واسلحة ثقيلة واسلحة وقاية الجسم وبعض انواع الاسلحة الاخرى المساندة والمدافعة ، وتضم الاولى : السيف والخنجر والرماح والقسي والنبال ، اما الثقيلة من الاسلحة فقد شملت المنجنيق والدبابة[٤٣] ، اما اسلحة وقاية الجسم فقد تمثلت بالترس والدروع والدرق والبيضة والمغفر[٤٤] .

اما مقدار ما استجمع صلاح الدين من قوات عسكرية فقد بلغ تعداده ما يقرب من اثني عشر الف جندي ، يبدو انهم جميعاً اشتركوا في معركة حطين[٤٥] . ويمكن تقدير هذا العدد من الجنود من تتبع ما وصل اليه من المقاتلين من مدن حمص وحماه والموصل وحلب ودمشق واربيل ، ففي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عندما دخل صلاح الدين مدينة دمشق كان فيها ما يقرب من الف جندي[٤٦] انضموا الى السبعمائة جندي الذين جاء بهم صلاح الدين من مصر[٤٧] ـ كما مر ـ وبعد دخول حمص وحماه في الوحدة سنة ٥٧١ هـ انضمت قواتها الى صلاح الدين وكان في حمص ما يقرب من خمسمائة جندي ، بينما كان في حماه ما يقرب من الف جندي[٤٨] وفي سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م اضيف الى قواته حوالي الف فارس حلبي بعد دخول حلب في الوحدة[٤٩] ، اما قوات الموصل والجزيرة فأن ابن الاثير قدرها بحوالي ستة الاف وخمسمائة نقلاً عن سجلات الديوان[٥٠] .

واضافة الى هذه العساكر النظامية فقد تقدمت الى صلاح الدين العديد من الفصائل المتطوعة والتي قدمت عوناً واضحاً لصلاح الدين في عملية انجاح معركة حطين ، وقد ألفت تلك الفصائل من العشائر الكردية والتركمانية والعربية ومن عامة الاتقياء والعلماء ممن دفعتهم الحمية الدينية الى المعركة ، وقد اشار الى ذلك المؤرخ ابن كثير بقوله : « لقد قصده الصالحون والعلماء تطوعاً »[٥١] ومما يجدر ذكره ان قبائل بنو منقذ وقبائل بنو طي[٥٢] كانوا على رأس من شارك في حطين من القبائل العربية ، حين شاركت قبائل الهكارية والسورانية والزرزارية وغيرهم[٥٣] .

وكان هؤلاء المتطوعة لا يدخلون ضمن فصائل الجيش النظامي وانما كانوا يسيرون الى ميمنة او ميسرة الجيش واحياناً يتقدمونه حباً في الاستشهاد وفي العديد من الحالات كان صلاح الدين يستخدمهم في عمل الكمائن او الاستطلاع او ملاحقة مؤخرات قوات العدو[٥٤] .

ومن استقراء مصادر التاريخ نستنتج ان قوات صلاح الدين كانت قبل معركة حطين تحوي العديد من الاصناف والفرق وانها كانت مقسمة الى اطلاب (كتائب) ويكون على رأس كل مائتي او مائة فارس يسمى امير مقدم[٥٥] وكان لكل صنف من الاصناف المقاتلة خواص يتميز بها عن الصنوف الاخرى وخاصة بنوع السلاح والاعتدة التي كان يتجهز بها والواجبات التي يتكلف القيام بها .

وكانت اعلام صلاح الدين التي رفعها جيشه قبل حطين صفراء اللون[٥٦] وكانت الراية الام التي بحوزة صلاح الدين في القلب عليها صورة (طير النسر) دلالة على القوة والثقة بالنصر ، وكان الى جانبها رايات صغار صفر تسمى سناجق ، اضافة الى راية الجاليش(*) التي كانت تتميز بوجود خصلة من الشعر على رأسها[٥٧] ، ومن البديهي فقد كان لكل قسم من اقسام الجيش راية خاصة به تظهر تحرك ذلك القسم ويستدل منها على قوته او ضعفه فللميمنة راية وللميسرة راية وللمقدمة راية وكذلك للفرسان راية وهكذا .

معنويات الجيش :

كانت معنويات جيش صلاح الدين عالية جداً ، اذ كان الجميع يعرف (لماذا يقاتل ؟) ويعرف من يقاتل ، فالجميع يقاتل بعقيدة [٥٨] وهدف ويعرف ان عدوه شرس ومختال استعمل ويستعمل مختلف انواع القسوة تجاه المسلمين واراضيهم ، كما فعل بالقدس وصور وطرابلس وانطاكية حين احتلها من قبل ، كما ان الجميع يعرف ان العدو أجنبي وانه سيطر على بلاد ليس له فيها حق ، واضافة الى كل ذلك فقد كان جيش صلاح الدين مؤمن بأسلامه صادق في تطبيق فرائضه ، وكان الجهاد من احدى تلك الفرائض ، ولذلك كان جند صلاح الدين يندفعون الى ساحة المعركة والى تلبية الجهاد بروح عالية بل كانوا احيانا يستميتون في القتال ويندفعون من دون ان يدفعهم اليه احد ، وقد وصف ابن الاثير هذه الروح العالية لجند صلاح الدين بقوله (كانوا يرونه ديناً واجباً ، فلا يحتاج الى باعث سلطاني ، بل كانوا

يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون)[٥٩] !!

التمويـــــن :

من البديهي ان للتموين اهمية خاصة في ساحة العمليات العسكرية خاصة الحروب القديمة حيث المواصلات الصعبة ويكون الاعتماد في النقل على الحيوانات مما يعرض المؤن الى التلف او الى عدم الافادة منها ، فقد تنتهي بنتيجة سلبية اذا لم ينقل الجيش مؤنه اللازمة من طعام وشراب وبذلك يفقد توازنه ويضطر الى الدخول في معارك مرتجلة مرتبكة تكون نهايتها وخيمة عليه ، وقد حدث مثل هذا الموقف للقوات الصليبية عندما لم يفكر قادتهم بأيصال التموين المستمر وخاصة من المياه لجندهم مما اضعف قوتهم ودفعهم الى الاسراع في خوض معركة حطين من اجل الحصول على الماء ، وقد كان هذا الموقف الارتجالي من احد عوامل نكبة الصليبيين في حطين مما سنذكره تباعاً .

وفي الطرف المقابل كان صلاح الدين يفهم اهدافه ويعرف مسبقاً خططه ومنها الحفاظ على ايصال التموين المستمر ليكون زمام الامور بيده ، وقد كان تفكيره العسكري الثابت هذا معروفاً منذ ساعة خروجه من مصر الى الشام سنة ٥٦٩ هـ ، فقد حدد اهدافه المستقبلية الخاصة بشؤون التموين بقوله : « وانا لا نتمكن بمصر (من مجاهدة الغزاة) لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة . . »[٦٠] .

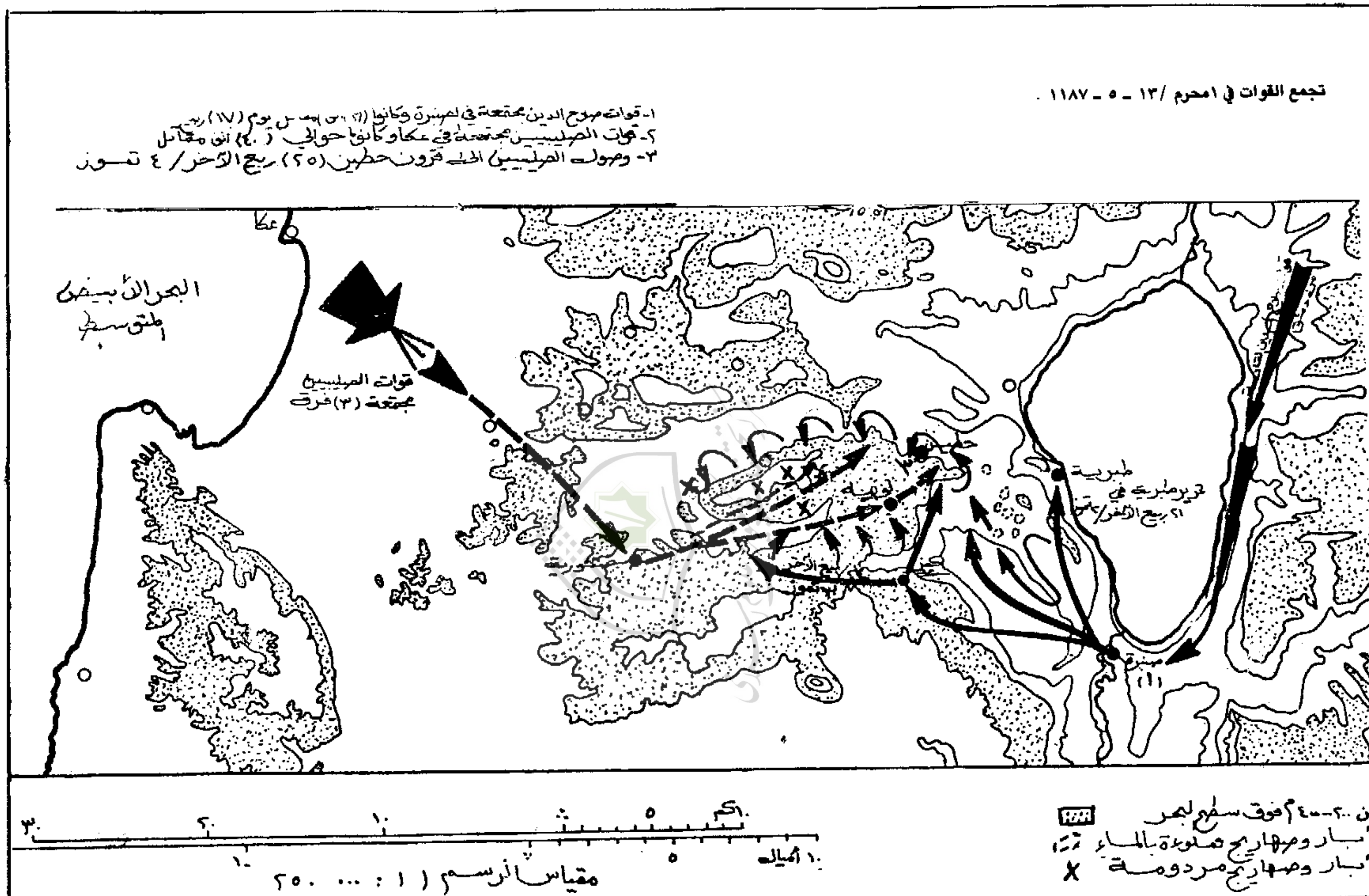
وهكذا فأن من اسباب نجاح القائد العسكري هو تفكيره بجدية بأيصال التموين المستمر لجنده على اتم وجه ، وقد كانت خطة صلاح الاولى هي حرب الغزاة من بلاد الشام وذلك لاستكمال ايصال التموين لجنده من مسافة قريبة ، من المدن والقلاع العربية المجاورة ، مع دفع العدو الى خوض معركة في عمق الاراضي العربية ليتمكن من قطع خطوط امداده كما حدث في حطين عندما استدرج الغزاة الى قرون حطين بعد ان حاصرهم بعيداً عن الماء وقطع عنهم الامدادات من الخلف .

وفي الجانب العملي من ايصال التموين الى جنده ، فقد كان صلاح الدين يأمر بأخذ الاحتياط الكافي من الزاد والماء بما يكفي للمدة المقررة التي يقضيها الجيش في الطريق والى فترة انحسار الموقف العسكري مع الحفاظ على خطوط التموين سالمة ، فينادي في الجنود « خذوا زاد عشرة ايام اخرى زيادة للاستظهار »[٦١] فكان الجند يحملون معهم ازواد المسافات القريبة ثم يستعينون بالتموين المستمر الذي كان يصلهم من معسكراتهم ، وبالذات من قسم الساقة الذي يكون في مؤخرة الجيش وكان يسمى في جيش صلاح الدين بـ (الثقل) واحياناً كان صلاح يأمر بوضع الثقل في وسط المعسكر قرابة القلب اذا كانت مؤخرة الجيش غير مأمونة من العدو[٦٢] .

واضافة الى ما سبق فقد كان يرافق جند صلاح المئات من التجار والباعة ممن كان يدفعهم الامل في حب المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى حسب اختصاصهم وامكانياتهم ، بعد ان كان صلاح الدين قد عبَّأ شعبه من قبل للمشاركة في حملة الجهاد هذه ، اذ يرى المسلمون ـ استناداً الى قول النبي محمد (ص) بأن « افضل الصدقة هي خدمة جند في سبيل الله تعالى »[٦٣] وانها تعادل عمل المجاهد ممن لا يتمكن من المجاهدة[٦٤] .

وقد وصف لنا الرحالة عبداللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩ هـ) سوق صلاح الدين الذي كان يرافق العسكر ، وبيّن عظم قوافل التموين التي كانت ترافق الجند . فقد كان السوق ذا مساحة فسيحة فيه مائة واربعون دكان بيطار ، ودكاكين للطباخين يملك الواحد منهم ما يقرب من ثمانية وعشرين قدراً يسع الواحد منها رأس غنم واحد ، وقد بلغت عدة الدكاكين سبعة الاف دكان من دكاكين المدينة ، وكان من يبيع البز العتيق والجديد[٦٥] .

وأضافة الى ذلك فقد كان يرافق جند صلاح الدين اصحاب الحمامات البسيطة ليستحم الجند فيها ، ويتطهروا ، وذلك لعدم استحباب القتال على الجنابة او الوساخة لفضل المجاهد واحتمال استشهاده فكان الجميع يقاتلون على طهارة ، وقد كانت عدد الحمامات التي رافقت احدى معسكرات صلاح الدين اكثر من الف حمام ، فقد كان يجتمع رجلان او ثلاثة ويحفرون في الارض ذراعين فيطلع الماء ، ثم يأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ، ثم يسترونه بالحطب والحصير ، ويقطعون من البساتين التي حولهم ويحمون الماء في قدور ، حيث تكون عندها الحمام جاهزة للاستعمال[٦٦] .



تجمع القوات في ١ محرم / ١٣ ـ ٥ ـ ١١٨٧ .
٢- قوات الصليبيين مجتمعة في عكا وكانوا حوالي (٤٠) الف مقاتل
٣- وصول الصليبيين الى قرون حطين (٢٥) ربيع الآخر / ٤ تموز
عكا
البحر الأبيض المتوسط
قوات الصليبيين مجتمعة (٣) فرق
طبرية
(١)
من ٢٠٠-٤٠٠م فوق سطح البحر
آبار وصهاريج مملوءة بالماء
آبار وصهاريج مردومة
مقياس الرسم (١ : ٢٥٠٠٠٠)

شكل رقم ٢

اما قوات الصليبيين فقد كانت تسير بشكل عام على نفس التقسيم الذي سارت عليه قوات صلاح الدين قبيل معركة حطين ، فقد كانت تضم ميمنة وميسرة وقلب وتحتوي على المشاة والفرسان ولديهم الكمائن والطلائع والفرق الكثيرة التي تشابه فرق جيش صلاح الدين مع ملاحظة ان الفارس الصليبي كان يختلف عن الفارس العربي ، فالمقاتل الصليبي كان محمياً بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الاقنعة ما يجعل السهم لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهدده هو السقوط من على ظهر الفرس[٦٧] ، وقد كان صلاح الدين يعرف كل ذلك مسبقاً ولذلك كان يأمر جنده والفرسان من العرب بتتبع الفرسان الصليبيين واصطياد خيولهم ليتمكن منهم .

كذلك فأن مجموع ما حشده الصليبيون من قوات في مقابل قوات صلاح الدين قبل معركة حطين بحدود اربعين الفاً[٦٨] وقيل خمسين الفاً[٦٩] وكانت طرق تموينهم مستمرة الى قبل معركة حطين بأيام حيث كانت مدن وقلاع الصليبيين (المدن العربية المحتلة) تمدهم بكل عوامل النصر وتزودهم بمختلف انواع التموين ، علماً بأن كل الدول الاوربية آنذاك كانت تزودهم بالسلاح والمال والمؤن وبخيرة المقاتلين ورجال الدين الذين كانوا يغذونهم بالروح المعنوية ويدفعونهم للقتال بكل حزم وقوة ، باعتبارها حرب دينية ولذلك اصطلح عليها الحروب الصليبية لان من قام بها كان يرفع شارة الصليب على اكتافه .

هكذا اذن رفع كلا الطرفين المتنازعين قبل معركة حطين شعار (الجهاد في سبيل الله) غير ان صلاح الدين وجنده كانوا متمسكين به بشكل اكبر لان معنوياتهم كانت كبيرة ولذلك فعلى اقل تقدير كانت قوات كلا الطرفين متكافئة بالرجال والسلاح والتموين ومختلفة بنوع القيادة وكفاءة المقاتلين وحسن التخطيط العسكري والتدبير .

وعليه يجب التنويه هنا الى ملاحظة هامة : وهي مبالغة العديد من المراجع الاجنبية والعربية وتضخيمها للموارد والطاقات التي حصل عليها صلاح الدين[٧٠] من وحدته ـ المار ذكرها من قبل ـ لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة نظر الغزاة من ناحيتين : اولهما ـ انه يبرر خسارة الصليبيين في حطين امام صلاح الدين وثانيهما ـ انه يقلل من اهمية انتصار صلاح الدين . وفي ذلك تزوير واضح للحقائق التاريخية ونقص بيّن في المادة العلمية .

الخطة التعبوية لتنفيذ المعركة وخطوات سيرها

اما نوعية التضاريس فهي متعرجة فيها الوديان والهضاب والجبال ويصل معدل الارتفاع بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ م فوق سطح البحر ، فنهر الاردن يجري في الغور المحصور بين جبال موآب شرقاً وجبال السامرة غرباً ويهبط بسرعة من بحيرة طبرية الى البحر الميت (١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر) ونظراً لهذا التموج فقد كان الطريق الوحيد الصالح لسير القوافل والعجلات يمتد من دمشق الى طبرية ـ نابلس ـ القدس . ويخترق فرعاً من سلسلة جبال يهوذا ويقطعها بزاوية تبلغ ١٢٠ درجة[٧١] .

أما جبل قرون حطين فهو من جبال الجليل الادنى ، يقع الى الجنوب الشرقي مباشرة من قرية حطين الواقعة غربي مدينة طبرية بانحراف نحو الشمال عند خط عرض ٣٢° وخط طول ٥ ، ٢٧- ٣٤° عن سطح البحر (٣٢٦ م)[٧٢] . ويوجد على هضبة حطين وغربي بحيرة طبرية باتجاه حطين العديد من الابار والينابيع منها نبع طبرية وهو من الينابيع الحارة[٧٣] .

ويبدو من دراسة واقع معركة حطين ان صلاح الدين الايوبي كان عارفاً بطبيعة الارض عالماً باحوالها ولذلك افاد من المناخ والارض في رسم خطته العسكرية التي انتصر فيها على الصليبيين ، اذ تقدم صلاح الدين بقواته المحتشدة قرب دمشق نحو بحيرة طبرية ، ووصل الى قرية (الصنبرة) الواقعة عند منطقة التلال القريبة من بحيرة طبرية وعلى مسافة ثلاثة اميال منها[٧٤] .

ومن منطقة الصنبرة قام صلاح الدين بأستعراض عسكره وارسال العيون والكشافة لجمع المعلومات عن جيش العدو للتأكد من حجمه وتحركاته ، وقد وصلته الاخبار ان اعداءه مجتمعون ومتفقون على منازلته وانهم قدموا من عكا ونزلوا عند صفورية ، وهي ـ كما هو معروف ـ غنية بمياهها ومواردها الغذائية ومراعيها[٧٥] ، وهي بذلك تصلح لان تكون مقراً لتجمعات الصليبيين وتعينهم في الاستمرار على قتال صلاح الدين والصمود بوجهه ، ولذلك فنجاح صلاح الدين في اخراج اعدائه من صفورية يعتبر بحد ذاته نصراً تعبوياً خاصاً ، كذلك فأن

استدراج الصليبيين لصلاح الدين بالهجوم عليهم معناه جعل صلاح الدين يبتعد قليلاً عن خطوط تموينه ويكون عندها عسكره مجهداً فيتمكنوا بعدها من القضاء عليه والعكس بالعكس .

ويبدو ان صلاح الدين كان يعرف مسبقاً خططه ويعي اهدافه وانه كان يسعى لاجبار الصليبيين على الخروج اليه مجتمعين بعيداً عن منطقة صفورية لينزل بهم الضربة الكبيرة ، وعليه ارسل على الفور بعض قواته الى قرابة حطين وتمكن من تسميم وردم كل الآبار والصهاريج الواقعة قبالة جيش العدو ، ولم يبق منها الا ما هو واقع في حفرة قواته[٧٦] كذلك ارسل نصف قواته الى مدينة طبرية لفتحها من اجل تأمين جبهته الخلفية من التفاف قوات العدو على قواته وكذلك لاجبار الصليبيين على مغادرة صفورية والتقدم نحو حطين ، وبذلك يكون قد حقق بعض نتائج خطته ، وقد تمكن جيشه من فتح المدينة دون قلعتها حيث بقت بيد زوجة القائد الصليبي ريموند التي خلفت زوجها في ادارة المدينة ، وقد عاد جند صلاح الدين بعد تحريرهم لمدينة طبرية للالتحاق بصلاح الدين عند حطين .

وهناك كان صلاح الدين مستعداً للمعركة صامداً في محله الذي هيأه لصالح جنده وجعله مصيدة لعدوه ، يسهر الليل كله ـ كما ذكر كاتبه ومرافقه في المعركة الاصفهاني ـ ليعين مواضع القتال لاجناده ، يأمر بملء الجعاب وكناناتها بالنبال ، حتى انه فرق من النشاب اربعمائة حمل ، كما عين سبعين موضعاً ملأها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها[٧٧] . وينتظر تحركات عدوه ، اذ كان يأمل مسيرة قوات لنجدة طبرية وهو بذلك يكون كالذي وضع قطعة جبن لفأرة في مصيدة من اجل اصطيادها .

لقد وصلت استغاثة طبرية للقادة الصليبيين المجتمعين في صفورية وكانوا يشكلون ثلاث فرق وضعت قيادته بيد الامير ريموند حاكم امارة طرابلس الصليبية ، بينما تولى الملك جي لوسينيان[٧٨] قيادة القلب ، اما الامير ارناط حاكم حصن الكرك والفرسان من الصليبيين الرهبان فقد تولوا مؤخرة الجيش وحمايته[٧٩] وقد اجتمعوا على الفور وتدارسوا مستقبل عملياتهم العسكرية ورأى البعض منهم ضرورة التحرك السريع في حرب صلاح والانتقام من جنده ، في حين رأى آخرون منهم ضرورة الصبر في اتخاذ القرار ، غير ان الامير ارناط دافع عن الرأي القائل بضرورة مهاجمة صلاح الدين واتهم انصار الرأي الآخر بالجبن والخيانة وتحقق له ما اراد[٨٠] وبذلك جاءت الخطوة الايجابية الثالثة لصالح صلاح الدين بعد اختياره الموقع الجيد لقواته وردم وتسميم الآبار والصهاريج التي من الممكن ان يستفيد عدوه ، ولذلك فقد سر غاية السرور عندما علم بنبأ تحركات العدو اليه اذ هتف قائلاً : « قد حصل المطلوب . . . وجاءنا ما نريد »[٨١] و « اذا صحت كسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع »[٨٢] وهكذا كان صلاح الدين بحق يعرف مسبقاً خططه ويعي النتائج الايجابية المترتبة عليها .

ان تحرك العدو لملاقاة قوات صلاح الدين معناه محاصرتها بعيداً عن الماء اضافة الى مكابدتها عناء الطريق ، ويكون عندها صلاح الدين مستعداً بقواته للانقضاض على العدو وتدميره ولما تحرك العدو باتجاه حطين ارسل صلاح الدين بعضاً من قواته لتعقب مؤخرته وخاصة من الرماة الكمناء الذين امطروا مؤخرة الجيش الصليبي بالسهام وتمكنوا من قتل عدد كبير من خيولهم وفرسانهم[٨٣] مما دفع بالمؤخرة الى التلاحم قليلاً مع الفرق الاخرى لتزداد حصارها ، علماً بان قوات صلاح الدين كانت تشاغل العدو طوال تلك المدة بهجمات صغيرة من هنا ومن هناك واخيراً وصلت قوات الصليبيين جبل طبرية في منطقة تعرف (باللوبيا) وكان ذلك في صباح يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٣ تموز سنة ١١٨٧ م وكانت هذه المنطقة ارضاً مكشوفة خالية من كل شيء عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال[٨٤] .

وفي موقعهم الجديد عانى الصليبيون كثيراً من العطش ، كما اتعبتهم حرارة الشمس المحرقة والتي أثرت ـ بلا شك ـ على ما كانوا يحملونه من سلاح وخوذات ودروع وكان معظمها من الحديد ، واضافة الى كل ذلك قام بعض مقاتلي صلاح الدين باضرام النار في هشيم الاعشاب المتبقية من حصاد الصيف فتأجج لهيب النار والدخان على العدو مما اوقع اضطراباً آخر في قواتهم وخيولهم[٨٥] ودفعهم وبأرتباك الى تعجيل الاصطدام بقوات صلاح الدين لانقاذ انفسهم من هذا المأزق ، وقد تعجل الامر (ريموند) ابتداءاً فأصطدم ببعض قوات صلاح الدين فأفسح له تقي الدين عمر مجالاً ضيقاً فخرج منه من الحصار

بعض قواته ، ثم لم تلبث قوات صلاح الدين ان التحمت مع بعضها ، وكان ريموند يظن ذلك نصراً وهو مكيدة له اذ حالت القوات العربية بينه وبين فصائل القوات الصليبية الاخرى المحاصرة مما اضطره الى الهرب والعودة الى امارة طرابلس[٨٦] ، ويذكر أنه مات هناك هماً لان اصحابه اتهموه بالخيانة والهرب من ساحة المعركة .

لقد ثبط ريموند هذا من عزائم الصليبيين ، اذ خسروا احد قادة فرقهم مع بعض فرسانه وكان صلاح الدين آنئذ يحكم الحصار على اعدائه ويطبق عليهم من كل جانب ، فقد احاط بهم احاطة الدائرة بقطرها[٨٧] ، فأندفع الصليبيون الى اعلى التل لربما تكون هناك نجاتهم وتمركزوا حول ملكهم جي وخيام قياداتهم المنصوبة هناك ، ثم قرروا الاستبسال في القتال والخروج من طوقهم المحاصرين فيه[٨٨] .

وهكذا نزل الصليبيون مسرعين في نهار السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٤ تموز سنة ١١٨٧ م يحدوهم الامل بالنصر الى قرون حطين . وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً عظيماً بعد ان كان قد احرق تحت اقدام عدوه الاعشاب « فأجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال »[٨٩] .

وقد بقي جيش صلاح الدين وقائده في اقوى عزيمة ورباطة جأش يتباطؤون عن القتال رغم شارات النصر الواضحة وكان صلاح الدين يستثير اصحابه ويراقب الموقف بحزم ويتطلع الى معنويات مقاتليه فيثير فيهم الهمم العالية ويدفعهم الى استمرارية القتال حتى تصفية كل بقايا الصليبيين ، فربما ينقلب النصر الى هزيمة ، وربما يصاب المنتصرون بالغرور فينتكس انتصارهم ، فالملك جي بقي لوحده مع مائة وخمسين فارساً من قواته قرب خيمته الوحيدة وصلاح الدين يأمر بالقتال وينادي بـ « الله اكبر » باعلى وكأن المعركة على اشدها ولم يهدأ له بال حتى سقطت الخيمة وأسر الملك الصليبي[٩٠] (انظر خارطة معركة حطين المرفقة) .

وقد اشاد المؤرخ العربي ابن الاثير بحزم صلاح الدين وعزمه في هذه المعركة وسجل لنا ما شاهده من قصة صلاح الدين وولده البكر الملك الافضل نورالدين الذي كان مرافقاً لوالده صلاح الدين في المعركة .

فذكر ان الافضل كان بجانب والده وسط المعركة ولما شاهد صلاح الدين تقهقر بعض افراد قواته صاح بأعلى صوته « كذب الشيطان . . كذب الشيطان » فعادت قواته بمعنوياتها العالية تهزم العدو ، ولما شاهد الافضل هذا الموقف صاح من فرحته « هزمناهم . . هزمناهم » فالتفت اليه والده صلاح الدين وقال له « اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة »[٩١] يعني خيمة الملك الصليبي جي . وفي اثناء ذلك سقطت الخيمة فترجل صلاح الدين وسجد على الارض شكراً لله تعالى وبكى من فرحه وثبت انتصاره ، وكان من نتائجه قتل عدد كبير من جيش عدوه ، واسر مقدميهم ، وكان منهم الملك جي (جفري) والذي فقد كل فرسانه ، كما اسر البرنس ارناط واخا الملك وابن الهنفري وابن حاكمة طبرية ورؤساء الفرسان من الرهبان وحاكم جبيل ولم ينج الا القومص الذي هرب الى طرابلس اول المعركة ، وقد نال المعتدون : جزاءهم وعامل صلاح الدين الملك جي بالاحسان اكراماً لمركزه[٩٢] .

وهكذا كان لوجود صلاح الدين وابنائه وسط ساحة المعركة وللخطط العسكرية الجيدة والمعنويات العالية التي تحلى بها جند صلاح الدين اثره الواضح في هذا الانتصار ، وعليه فلم تكن الهزيمة التي اصابت الصليبيين نتيجة ضعف او فساد كان فيهم انما كانت قياداتهم ضعيفة ، وقابلهم جيش موحد له قائد محنك هو صلاح الدين[٩٣] انتقلت صفاته ومقدرته الحسنة الى الاوربيين في العصور الوسطى ، وكانت حديث الساعة وقد اضفي عليها بعض اساليب الاسطورة الادبية[٩٤] .

ولذلك ايضاً ، فأن انتصار صلاح الدين هذا ، لم يكن نتيجة لضعف القوات الصليبية ، او لقلة عددهم ، انما للخطة العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها صلاح الدين في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها ، فقد احسن اختيار الارض وزمن وقوعها الذي كان شهر تموز ، اشد اشهر السنة حرارة واقلها ماء في الصهاريج ، اضافة الى انه خيم بعسكره على طبرية ، وبذلك اصبح بقواته حائلاً بين الصليبيين وبين الماء .

لقد دلت معركة حطين ، من دون شك ومبالغة ، ايضاً على مقدرة صلاح الدين العسكرية وحسن قيادته وتخطيطه المحكم والمسبق لها ، وكان وجوده داخل ساحة المعركة يدفع

بالجند الى الاستماتة في القتال اضافة الى ما كانوا يحملونه من معنويات عالية اوجدها فيهم حب الجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد أشاد المؤرخ الانكليزي (روزبلت) بخطة صلاح الدين المحكمة وبقيادته الحكيمة فقال : « لم يكن ثمة نصر كامل او نتائج مثمرة كما حدث في حطين ، ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية »[٩٥] فقد كان صلاح الدين طوال ليلة المعركة ونهارها وسط جنده يثير فيهم الحماس ويعين لهم مواضع القتال ويقرر « لكل امير اميراً ولكل مقدام مقاماً . . ولكل كمين مكاناً ولكل رام مرتمى . . ولكل امير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه »[٩٦] كما كان يحدد مواضع النبال ومواقع الرماة[٩٧] .

كذلك فقد عبر انتصار صلاح الدين في حطين عن الصفات المعنوية والمادية التي تحلى بها القائد وجنده ، فالجميع كان يحارب العدو بعقيدة وكانوا يدخلون المعركة باندفاع مدهش لانهم كانوا يرون في القتال « ديناً وحتماً واجباً » ـ كما مر ـ وكان صلاح الدين باعتراف اعدائه يقاتل ليل نهار بحيث لا يدع لاعدائه وقتاً للأكل والراحة[٩٨] ، وقد اوضح المستشرق هاملتون جب بعض تلك الميزات الاخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته في حطين فقال : « جاءت بفعل امتلاك صلاح الدين لصفات معنوية لا تشترك مع المواهب الستراتيجية الا في القليل ، كان رجلاً يستمد وحيه من مثال اعلى ذي قوة وثبات . . وايمان ديني راسخ الاركان . . وفي سماحة النفس التي لا تعرف المكر والحذر »[٩٩] .

ومن الجدير بالذكر ان انتصار صلاح الدين في حطين لم يكن انتصار معركة فحسب ، وانما كان انتصاراً موفقاً تمكن فيه صلاح الدين من استثماره لصالحه وبشكل محكم . اذ كانت حطين بحق ـ كما ذكر كاتب صلاح الدين الاصفهاني ـ « مفتاح الفتوح الاسلامية »[١٠٠] ، ان صلاح الدين تتبع فلول اعدائه المنهزمين وتعقبهم الى كل مدنهم وتحصيناتهم البعيدة قبل ان يتمكنوا من استجماع قوتهم من جديد وتمكن من تحريرها الواحدة تلو الاخرى ، ففي ٢٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٨ تموز سنة ١١٨٧ م (اي بعد اربعة ايام من معركة حطين) حرر مدينة عكا ثم اتجه بعدها الى كل الحصون الصليبية المجاورة واخيراً توج انتصاراته بتحرير مدينة القدس[١٠١] في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ٢٢ ـ ٩ ـ ١١٨٧ م) مما يدل على حب صلاح الدين للجهاد وصبره عليه وجلده في تحمل المشاق الكبيرة من اجله .

الهوامش

١ . هو يوسف بن ايوب بن مروان بن شادي ينتسب للاسرة الايوبية ، ولد في مدينة تكريت وفي ليلة ولادته حمله معه والده الى الموصل سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م . عاش سبعا وخمسين سنة وتوفي في مدينة دمشق سنة ٥٨٩ هـ : انظر : ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (القاهرة ١٩٦٤) ص ٦ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ (بيروت : ١٩٦٦) : ١٢ / ٩٥ .

٢ . ابوب بكر جلال طه ، صلاح الدين اسد القارتين (بغداد : ١٩٦٧) ص ٢١ ـ ٢٢ .

٣ . انظر : دريد القادر نوري سياسة صلاح الدين الايوبي (بغداد : ١٩٧٦) ص ٠ ـ ٢٢ .

٤ . السابق ص ٨٩ ـ ٩٢ .

٥ . ابن شداد ، النوادر السلطانية (القاهرة : ١٩٦٤) ص ٤٥ ، البغدادي سنا البرق الشامي : ١/١١١/ـ ١١٣ .

٦ . ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨ هـ) : ١٠/٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٩) : ١/٥٥ ـ ٥٦ .

٧ . سيف الدين غازي وعماد الدين : هما ابنا قطب مودود بن زنكي امير الموصل وهما ابنا اخي نورالدين محمود ، توفي الاول سنة ٥٧٦ هـ وتوفي الثاني سنة ٥٩٤ هـ ولمعرفة المزيد عنهم انظر ابن الاثير ، الكامل : ١١/٣٥٥ ، ٣٦٢ ـ ٤٠٦ وج ١٢/١٣٢ .

٨ . ابن الاثير الكامل في التاريخ : ١١/١٦٣ .

٩ . البنداري سنا البرق الشامي : ١/١٥٩ ـ ١٦٠ .

١٠ . جب ، صلاح الدين ص ١٢٢ .

١١ . انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب (بيروت : ١٩٦٨) ١٢/٣ وانظر .

١٢ . Stevenson , The Crusadersin in the East (Cambriddge 1907), p., 213

١٣ . Lanepool, Atlistory of Egypt in the Middle ages (London : 1968) p., 199

١٤ . انظر : دريد سياسة ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

١٥ . انظر ، ابن الاثير ، الكامل : ١١/٤٠٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/٢٠ .

١٦ . السابق : ١١/٤٠٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/١١ ـ ١٢ .

١٧ . للاطلاع على تفاصيل المؤامرة التي وقعت بحلب ـ دريد سياسة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢ .

١٨ . انظر ، ابن العديم السابق : ٣/٩ .

١٩ . دريد سياسة ص ١٢٨ .

٢٠ . Sivan . L'Islam et la Croisade (Paris : 1968)P ., 96 .

٢١ . انظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٦/٢٤ ـ ٢٥ .

٢٢ . البنداري ـ سنا البرق : ١/٦٩ .

٢٣ . القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) : ٨٥/١٣ .
٢٤ . ابو شامه ، الروضتين : ٦٢/٢ .
٢٥ . السابق : ٤٨/٢ .
٢٦ . انظر ابن الاثير ، الكامل : ٤١٧/١١ ، ابن العديم ، الزبده : ٣ : ١٩ ، البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ ـ ١٧٨ .
٢٧ . ارجع بخصوص دخول حمص وحماه في وحدة صلاح الدين : دريد ، سياسة ص ١٥٠ ـ ١٥٤ .
٢٨ . ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٥١ .
٢٩ . بان الاثير الكامل : ٤٢٢/١١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣١/٢ .
٣٠ . ابن كثير البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ .
٣١ . Sivan, L, Islam etal Croisade ideologe et propagande dans Les Reactions, P. 98 .
٣٢ . بخصوص الاتفاق بين صلاح الدين وأمراء الموصل وحلب انظر : ابن شداد ، النوادر ص ٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل : ٤٣١/١١ و٥١٧ ، ابو شامه ، الروضتين : ٦٤/٢ .
٣٣ . ابن الاثير ، الكامل : ٤١٧/١١ .
٣٤ . انظر : ابن اياس ، كتاب تاريخ مصر (القاهرة : ١٣١١ هـ) : ٧٣/١ .
٣٥ . رحلة ابن جبير (بيروت : ١٩٦٤) ص ٢٦١ .
٣٦ . ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٧٤ ـ ٧٥ ، الاصفهاني الفتح القسي ص ١٣ .
٣٧ . انظر : ابو شامه ، الروضتين : ٧٦/٢ .
٣٨ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٢/١١ .
٣٩ . Lane poole, Saladin, P. 260
٤٠ . انظر : الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٨٩ ، ١٥٤ ، نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في ايام صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٠ .
٤١ . المقريزي ، السلوك : ٢٤٨/١ .
٤٢ . ابن جماعة الحموي ، مستند الاجناد في آلات الجهاد (بغداد : ١٩٨٣) ص ٨١ .
٤٣ . انظر : ابن منقذ ، كتاب الاعتبار (الولايات المتحدة : ١٩٣٠) ص ٥٢ .
٤٤ . انظر تعريفات هذه الاسلحة في ملحق التعريفات في نهاية البحث .
٤٥ . ابو شامه ، الروضتين : ٧٦/٢ .
٤٦ . جب صلاح الدين ص ٢٦٦
٤٧ . البنداري ـ سنا البرق : ١٦٦/١ ـ ١٦٧ .
٤٨ . جب ـ السابق ص ١٦٧ .
٤٩ . نفسه ص ١٦٨ .
٥٠ . ابن الاثير ، الكامل : ٤٢٩/١١ .
٥١ . البداية والنهاية (القاهرة : ١٩٣٢) : ٣٢٢/١٢ .
٥٢ . المقريزي ، البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب (القاهرة : ١٩٦١) ص ١٧ .
٥٣ . جب ، صلاح الدين ، ص ١٧٢ .
٥٤ . انظر : سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٩٣/٨ .
٥٥ . المقريزي ، الخطط ، ق ١ : ١٦/٢ .
٥٦ . البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢٥٠/١ .
٥٧ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٣٥/٤ .

(*) الجاليش هو مقدمة القلب او الطليعة منه الذي يسير في رمته للقتال وهو يختلف عن اليزك الذي هو (الطلائع) ـ انظر مخطط مواقع الجيش الصلاحي .
٥٨ . للاطلاع على معنى العقيدة العسكرية واهميتها في المعرفة انظر : محمد جمال الدين محفوظ ، مفاهيم عسكرية ص ٨ ـ ١٠ .
٥٩ . الكامل في التاريخ : ٥٤٧/١١ .
٦٠ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٨٥/١٣ .
٦١ . البنداري ـ سنا البرق الشامي : ٢٥٣/١ .
٦٢ . انظر : ابن شداد ، النوادر ص ٨٧ ، ابن واصل مفرج الكروب : ٢٥٦/٢ .
٦٣ . ابن جماعة الحموي ـ مستند الاحناد في آلات الجهاد ص ٤٦ .
٦٤ . السابق ص ٤٥ .
٦٥ . انظر المقريزي ، السلوك ، ق ١ : ٩٤/١ .
٦٦ . السابق .
٦٧ . Rosebault Saladin prince of Chivalry (London : 1930), P., 185 .
٦٨ . اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (مؤسسة الاعلمي للمطبوعات : ١٩٧٠) : ٣ / ٤٢٤ .
٦٩ . المقريزي السلوك : ٩٢/١ ، العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف : ١٩٦٨) : ٣٢٠/١ .
٧٠ . اشارت بعض المراجع العربية والاجنبية الى ذكر طاقات كبيرة جداً لصلاح الدين قبيل حطين في حين ذكرت وجود ضعف وتمزق بين القوات الصليبية وللاطلاع على تلك الاضطرابات في التحليلات التاريخية والتقديرات انظر : غرايبه ، العرب والترك (دمشق : ١٩٦١) ص ٢٤٥ عاشور الحركة الصليبية : ٧٦٥/٢ ، فيشر تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ١٩٠/١ .
٧١ . شكري محمود نديم ، حرب فلسطين (بغداد : ١٩٦٤) ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
٧٢ . خمار ، موسوعة فلسطين ص ٩٦ .
٧٣ . السابق ص ٦٢ .
٧٤ . انظر : ياقوت الحموي معجم البلدان : ٤٢٥/٣ .
٧٥ . Lanepool, Saladin (London : 1898), PP., 205 — 206 .
٧٦ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٤/١١ .
٧٧ . ابو شامه ، الروضتين : ٧٦/٢ .
٧٨ . الملك جي او جفري : هو الملك جاي لوزجنان ملك بيت المقدس الصليبي ، وقد اطلقت عليه المصادر العربية القديمة التسمية الثانية (الملك جفري) وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ م انظر :
Lane, pool Saladin, P.197 .
٧٩ . رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية (بيروت : ١٩٦٨) : ٧٣٧/٢ .
٨٠ . انظر : ابن الاثير الكامل : ٥٣٣/١١ .
٨١ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٧ .
٨٢ . ابو شامه الروضتين : ٧٦/٢ .
٨٣ . انظر / ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٥/١١ .
٨٤ . السابق : ٥٣٦/١١ .
٨٥ . ابن شداد ، النوادر ، ص ٧٧ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٩٣/٨
٨٦ . انظر : ابو شامه ، الروضتين : ٧٧/٢ .
٨٧ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٥/١١ .
٨٨ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٩ .

٨٩ . ابن الاثير ، الكامل : ١١/٥٣٦ .

٩٠ . انظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢/١٩٠ - ١٩١ ، ابو شامه الروضتين : ٢/٧٨ - ٧٩ .

٩١ . الكامل في التاريخ : ١١/٥٣٦ .

٩٢ . ابن شداد ، النوادر ص ٧٧ - ٧٨ ، المقريزي ، السلوك : ١/٩٣ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٣/٩٣/٩٤ .

٩٣ . انظر : لاهب ، شعلة الاسلام ، ص ١١١ هامش رقم (٣) .

٩٤ . Daniel, Islam and the Weast (Edinburgh, 1966) P. 246 .

٩٥ . Rosebault, Saladin, P.,182 .

٩٦ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٦٩ - ٧٠ .

٩٧ . ابو شامه ، الروضتين : ٢ / ٧٦ .

٩٨ . لاحب ، شعلة الاسلام ، ص ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ .

٩٩ . صلاح الدين الايوبي ص ١٥٠ - ١٥١ .

١٠٠ . انظر : الروضتين : ٢/٧٧ .

١٠١ . للاطلاع على خطوات تحرير صلاح الدين للقدس انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١١/٥٤٧ ، دريد ، سياسة ص ٣٠٦ - ٣١٢ .

اولا : المصادر

١ . الاصفهاني ، عماد الدين ابن عبدالله محمد بن احمد (ت : ٥٩٧ هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي (ليدن : ١٨٨٧) .

٢ . ابن الاثير ، عزالدين ابي الحسن علي بن محمد الشيباني (ت : ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ م ١١ - ١٢ (بيروت : ١٩٦٦) .

٣ . ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن (ت : ٨٧٤) . النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥ - ١٣٥٣ هـ) .

٤ . ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت : ٥٩٧ هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨ هـ) .

٥ . ابن جماعة ، بدرالدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الكناني الحموي (ت : ٧٣٣ هـ) مستند الاجناد في آلات الجهاد وتحقيق اسامة النقشبندي (بغداد : ١٩٨٣) .

٦ . ابن خلدون ، عبدالرحمن (ت : ٨٠٨ هـ) . تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (بيروت : ١٩٦١) .

٧ . ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت : ٦٨٤ هـ) . وفيات الاعيان وابناء الزمان ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة : ١٩٤٩) .

٨ . ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي (ت : ٦١٧ هـ) . مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د . حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) .

٩ . ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت : ٦٣٢ هـ) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د . جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .

١٠ . ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عرم (ت : ٦٦٠ هـ) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت : ١٩٦٨) .

١١ . ابن العماد الحنبلي ، عبدالحي الحنبلي (ت : ١٠٨٩ هـ) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت : دلات) و (طبعة مكتبة القدس : ١٣٥٠ هـ) .

١٢ . ابن قاضي شهبة ، بدرالدين (ت : ٧٧٤ هـ) . الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق د . محمود زاير ، (بيروت : ١٩١٨) .

١٣ . ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزه (ت : ٥٥٥ هـ) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمد روز (القاهرة : ١٩٠٨) .

١٤ . ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤ هـ) . البداية والنهاية (القاهرة : ١٩٣٢) .

١٥ . ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٥٧) .

١٦ . ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن عبدالرحمن (ت : ٦٦٥ هـ) . الروضتين في اخبار الروضتين النورية والصلاحية (القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ) .

١٧ . البنداري ، قوام الدين ابو الفتح علي بن محمد (ت : ٦٤٣ هـ) . سنا البرق الشامي ، وهو مختصر لكتاب (البرق الشامي) للعماد الاصفهاني تحقيق رمضان ششن (بيروت : ١٩٧١) .

١٨ . الحموي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت : ٦٢٦ هـ) . معجم البلدان (بيروت : ١٩٥٧) .

١٩ . سبط ابن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف (ت : ٦٥٤ هـ) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ق ١ ج ٨ (حيدر آباد

الدكن : ١٩٥١) .
٢٠ . العليمي ، عبدالرحمن الجبرتي العمري (ت : ٩٢٧ هـ) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف : ١٩٦٨) .
٢١ . القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ) . صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) .
٢٢ . المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ) .
آ . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : ١٩٣٩) .
ب . البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب (القاهرة : ١٩٦١) .
٢٣ . اليافعي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد (ت : ٧٦٨ هـ) . مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد الدكن : ١٩٧٠) .

ثانياً : ـ المراجع الحديثة :

٢٤ . ابو بكر جلال طه ـ صلاح الدين الايوبي اسد القارتين (بغداد : ١٩٦٧) .
٢٥ . جب ، هاملتون ا . ر صلاح الدين الايوبي تحرير يوسف ايبش (بيروت : ١٩٧٣) .
٢٦ . دريد عبدالقادر نوري . آ . سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد : ١٩٧٦) .
ب . الوطن العربي والغزو الصليبي (جامعة الموصل : ١٩٨٠) .
٢٧ . رنسيمان ، ستيعن المدينة البرنطية ، الحروب الصليبية ـ ترجمة د . صالح احمد العلي (بغداد ١٩٥٦) .
٢٨ . شكري محمود نديم حرب فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ (بغداد : ١٩٦٤) .
٢٩ . عاشور سعيد عبدالفتاح الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٣) .
٣٠ . العربي ، السيد الباز مصر في عصر الايوبين (سلسلة الالف كتاب عدد ٢٦٩) . القاهرة لم يذكر السنة .
٣١ . غرابية ، عبدالكريم العرب والاتراك دراسة لتطور العلاقات بين الامتين خلال الف سنة (دمشق : ١٩٦١) .
٣٢ . فيشر ، هربرت ا . ل . تاريخ اوربا (العصور الوسطى) القسم الاول ، ترجمة محمد مصطفى زيادة وزميله (القاهرة ١٩٦٩) .
٣٣ . قسطنطين عمار . موسوعة فلسطين الجغرافية نشر منظمة التحرير الفلسطينية مركز البحوث (بيروت ١٩٦٩) .
٣٤ . كامب ، هارولد شعلة الاسلام ، ترجمة ، محمود عبدالله (بغداد : ١٩٦٧) .
٣٥ محمد جمال الدين محفوظ مفاهيم عسكرية وقومية (الدار القومية للطباعة ت : ١٩٦٥) .

ثالثاً : ـ المصادر الاجنبية :

36 . Champdor (Albert) : Saladin le puls Purheros de lislam . Editions Albin Micher, Paris, 1956 .
37 . Danied (Norman) : Islam on the West the Making of an Image, Edinburgh, 1966 .
38 . Diercke : Weltstatistik 84/85 (Munchen : 1984) .
39 . Lane Pool (S.) : A History of Egypt in the Middle ages, (London . 1968)
40 . Lane Pool (S.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Khayats (London : 1962) .
41 . Rosebault (C.J) : Saladin Prince of Chivalry (London : 1930)
42 . Sivan (Emmanuel) : L'ISlam et la Croisade I deologie et ProPagand dans les Reactons Muslamanes aux cronsades Paris 1988 .
43 . Stevenson (W.R) : The Crusaders in the East (Cambridge : 1907) .

صلاح الدين الأيوبي والتحدي

مؤامرات الحشيشية الباطنية لاغتيال صلاح الدين

د. فاروق عمر فوزي

كلية الاداب / جامعة بغداد

على سبيل التمهيد :

في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كان العالم العربي - الاسلامي يمر بحالة من الضعف السياسي والتفكك الاداري والانحلال ولقد شجعت هذه الحالة على ظهور حركات سياسية مناهضة للخلافة العباسية وعقيدتها وقيمها سواءً في الداخل او في الخارج وكان الهدف واحداً والمجهود مشتركاً فالحركات الداخلية تسعى الى هدم المجتمع من الداخل وتفتيته مادياً ومعنوياً ، وكان لابد لها ان تتبرقع بالدين لكي تنشط بين الجماهير وتكسبها الى جانبها ثم تستخدمها لضرب الخلافة بكل ماتمثله من قيم اسلامية ومثل عربية لتستبدلها بنظام جديد لايمت الى العروبة او الاسلام بصلة ، ثم يأتي دور العدو الخارجي المتربص لكي ينقض فيجهز على البناء المتداعي والمنخور من الداخل وحينذاك يتحقق الهدف المشترك !!

لقد كانت الحركة الباطنية الاسماعيلية الحشيشية تمثل في تلك الفترة التاريخية الحركة الهدامة من الداخل ، اما العدو الخارجي فكان يتمثل بحملات الفرنج على بلاد الشام ومصر والتي عرفت باسم « الحروب الصليبية » .

واذا جاز لنا المقارنه فإننا نقول بان طبيعة ماجرى على المسرح السياسي من مظاهر وتحركات في العصر العباسي المتأخر يشابه الى حد كبير ماتشهده الان الساحة العربية الاسلامية فاذا كان العراق مركز الخلافة العباسية وكذلك فلسطين واجزاء من بلاد الشام هي الهدف الرئيسي للحركة الحشيشية المتطرفة الهدامة التي نبعت من بلاد فارس ولحملات الفرنج المتسترين بالدين ، فإن نفس هذه الاقاليم هي المستهدفة من قبل الحركة الخمينية المتبرقعة بالدين ومن قبل الصهيونية ربيبة الاستعمار الاوربي الغربي . ولعلنا نشير هنا بأن الحروب التي شنها الفرنج في العصر الوسيط والتي شنتها الصهيونية الامبريالية في العصر الحديث ضد العالم الاسلامي لم تكن وليدة الصدفة او اعتباطية ، بل ان بعض المؤرخين يعد حروب الفرنج اول تجربة من الاستعمار الغربي قامت بها الامم الاوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية واسعه النطاق[1] وان امراء الحملات « الصليبية » حين اندفعوا بسياساتهم التوسعية انما كانوا يستهدفون غايات دنيوية ، وعلى هذا تكون الحركة الصهيونية اخر تجربة افرزتها الامبريالية الغربية لتحقيق خطتها في المشرق العربي . . . وما اشبه الليلة بالبارحة !!

اما الدعوة الحشيشية[2] فهي دعوة اسماعيلية متطرفة ، زعيمها الحسن بن الصباح الفارسي نشأ في قم وانضم الى الاسماعيلية في فترة مبكرة من حياته ثم انشق عن المذهب الاسماعيلي التقليدي ليؤسس مذهباً جديداً (الحشيشية) في بلاد

فارس ولكنه مالبث ان اعلن عن ضرورة نشر المذهب في كل العالم الاسلامي عن طريق تصدير الدعوة الحشيشية . الا ان هذه الدعوة فشلت في الانتشار في العراق مقر الخلافة العباسية وفي اقاليم الخليج العربي . ولكنها تمكنت عن طريق الدعاة الفرس ان تجد موطئ قدم لها في اماكن متفرقة من بلاد الشام وكانت ارتباطات الحشيشية الفارسية قوية في اغلب الأحيان بالحشيشية في بلاد الشام .

اما الفرنج « الصليبيون » فالواقع ان النجاح الذي حققته حملتهم الاولى في اواخر القرن الخامس الهجري لم تدركه اية حملة اخرى جاءت بعدها . اذ انها تمكنت من احتلال الاراضي المقدسة بفلسطين وتأسيس اربعة امارات لاتينية في المشرق العربي . لقد انتهز الفرنج فرصة الفوضى والصراع السياسي في العالم العربي الاسلامي فاحتلوا انطاكية سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م ثم احتلوا القدس سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م . وهنا يشير البروفسور جب[٣] قائلاً : اما ان الحملة الصليبية الاولى مدينة الى حد كبير في نجاحها الى ضعف المقاومة التي لاقتها فحقيقة يقبلها كل المؤرخين . ويزيد المؤرخ ستانلي لين پول الموقف وضوحاً حين يقول : « لو تقدم الزمن قليلاً بحملة الصليبيين الاولى لصدتهم قوة السلاجقة ولو تأخر بهم قليلا لكان من المحتمل ان يلقى بهم عماد الدين زنكي او نور الدين محمود في البحر الذي جاؤوا منه . ولكنها كانت فترة من الفترات السعيدة للاوربيين ان قرروا السير الى الاراضي المقدسة في هذا الوقت بالذات حيث اضطرب النظام في الدولة الاسلامية » .[٤]

لقد كان طبيعياً ان يتعاون الحشيشية مع الفرنج مادام العدو واحد والهدف مشترك ، والواقع ان التعاون بدأ منذ وقت مبكر جداً وبعد وفاة نور الدين محمود مباشرة حيث تصدعت الجبهة في بلاد الشام ومصر ، وكان صلاح الدين الايوبي لايزال في مصر . وقد تقرر ان يقوم اموري ملك بيت المقدس الصليبي وامير صقلية بالهجوم على مصر . وفي الوقت الذي يتقدم صلاح الدين لصد الهجوم يتآمر الاسماعيليه في القاهرة ضد الحكم الايوبي ويطيحون به ليصلوا من جديد عودة الدولة الفاطمية[٥] . وقد اتفق الفرنج والاسماعيلية ان يكون موعد المؤامرة شهر نيسان سنة ١١٧٤م / ٥٦٩هـ لأنه الوقت الذي تكون فيه العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة الا بعضهم[٦] ولكن المؤامرة الاسماعيلية - الفرنجية فشلت بسبب وفاة اموري ملك بيت المقدس وتأخر وصول الاسطول الحربي الصقلي بقيادة تانكرد حتى حزيران من السنة نفسها ، وخرج صلاح الدين منتصراً بعد سحق المؤامرة الثلاثية على حكمه في مصر[٧] .

الا ان التعاون الاسماعيلي - الفرنجي استمر حيث يشير المؤرخ وليم الصوري الى ان زعيم الاسماعيلية (الحشيشية) السورية راشد الدين سنان ارسل سنة ٥٦٩هـ وفداً الى املريك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق تعاون بينهما . واستقبل الوفد بحفاوة في القدس . ولا شك بأن زيارة هذا الوفد تمت قبل وفاة املريك اي قبل مؤامرة القاهرة آنفة الذكر . بل ان بعض المؤرخين المحدثين يرون بأن الاسماعيلية (الحشيشية) في بلاد الشام وفرسان الاسبتارية الفرنج كونوا حلفاً ضد صلاح الدين الايوبي والامراء التابعين له . وان الحشيشية كانت تنشر دعوتها المتطرفة تحت حماية فرسان الاسبتاريه ، مقابل ان يرسل الحشيشية الارهابيين (الفداوية) لاغتيال الأمراء الذين يظهرون عداوة واضحة ضد الاسبتاريه وهذا ماحدث للامير ريموند والامير بوهيمند الرابع اللذين قتلا من قبل الحشيشية بتحريض من الاسبتاريه .[٨]

كما تعاونت الحركة الحشيشية الاسماعيلية مع اليهود ، فقد كان رأس الجالوت وهو زعيم الطائفة اليهودية في المشرق يحث اليهود سراً على التعاون مع الحشيشية ، وقد اشار بنيامين التطيلي الذي زار المنطقة في هذا الوقت بالذات الى وجود حوالي ٤ آلاف يهودي مع الحشيشية السورية يقاتلون معهم ويأتمرون بأمرهم ومنهم علماء في الدين تابعين الى رأس الجالوت .[٩]

واكثر من هذا فان الحشيشية وهي حركة اسماعيلية متطرفة منشقة عن الاسماعيلية التقليدية التي كونت الدولة الفاطمية في مصر لم تتورع عن مساعدة البقية الباقية من الاسماعيلية الذين دبروا المؤامرة سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م آنفه الذكر من اجل القضاء على حكم صلاح الدين الايوبي في سنواته الاولى . فقد جرت مفاوضات سريه بين اقطاب المؤامرة وبين راشد الدين

سنان للتخطيط والتعاون ، فما دام العدو مشتركاً وخطراً فلا بأس من التفاهم ونسيان الماضي والتغاضي على الخلافات السياسية والعقائدية بين الفرقة الاسماعيلية الام والحركة الحشيشية المنشقة عنها[١٠] . !!

محاولات إغتيال صلاح الدين الايوبي :

من المعروف ان الحشيشية الاسماعيلية السورية تفرعت وترعرعت في كنف الحشيشية الفارسية ولهذا فقد تبنت عقيدتها وتعاليمها وعقدتها في كره قيم العروبة وتعاليم الاسلام الصحيح . وحين تسلم راشد الدين سنان زعامة الحشيشية السورية سنة ١١٦٢م / ٥٥٨هـ تجلت نزعته في حب السلطة والزعامة ورغب ان يكون الزعيم الاوحد للحشيشية[١١] . فحاول ان يشق طريقاً مغايراً عن الحشيشية الفارسية واهمل ذكر الزعامة الفارسية ، بل اكثر من ذلك جعل نفسه إلاهاً مقدساً للحشيشية السورية[١٢] . إن ذلك يعني من جملة مايعنيه بأن طموحات راشد الدين سنان كانت من السعة بحيث بات يحلم بالاستيلاء على كل بلاد الشام ثم التوسع بعد ذلك الى الاقاليم المجاورة .

ولكن في هذه الفترة بالذات ظهر صلاح الدين الايوبي على المسرح السياسي في بلاد الشام بطلاً للوحدة الاسلامية وداعية للجهاد المقدس ضد التحريفية الداخلية وضد الغزو الفرنجي الاجنبي ، وهذا دون شك هو ماجعل منه العدو الرئيسي للحشيشية الاسماعيلية وللفرنج على السواء . بالاضافة الى اختلافه مع الامراء الزنكيين في الموصل وحلب الذين كانوا ضد الوحدة بزعامة صلاح الدين الايوبي .

ففي الرسالة التي ارسلها صلاح الدين الايوبي للخليفة العباسي في بغداد سنة ١١٨١م يشير صلاح الدين الى التفاهم بين المحور الثلاثي : الحشيشية والفرنج وبعض الزنكيين ، مؤكداً على دوره كمدافع عن الاسلام ضد الفرنج والحشيشية الزنادقه التحريفيين والامراء الزنكيين الذين لم يتورعوا من التحالف مع الاجنبي الغازي والزنادقه الباطنيين . ويبدو من بعض روايات التاريخ ان الزنكيين اعطوا الحشيشية حرية نشر مذهبهم وسمحوا لهم ببناء مركز للدعوة في حلب . كما وان الحشيشية انفسهم من اجل كسب ود الفرنج والتحالف معهم لمحوا الى احتمال اعتناقهم المسيحية حسب مايرويه المؤرخ وليم الصوري .[١٣]

وفي هذه الفترة بالذات جرت محاولتان لاغتيال صلاح الدين من قبل الحشيشية :

(١) المحاولة الاولى[١٤] وكانت في شهر جمادى الاخرة من سنة ٥٧٠هـ كانون الاول من ١١٧٤م وقد تمت المحاولة حين كان صلاح الدين الايوبي يحاصر حلب . وتتفق الروايات التاريخية مع بعض الاختلاف في النص الى اتفاق سعد الدين كمشتكين اتابك حلب مع راشد الدين سنان على قتل صلاح الدين مقابل اموال وضياع يؤديها الاتابك الى زعيم الحشيشية الارهابية ، وقد استطاعت مجموعة من الفداوية الحشيشية التغلغل في معسكر صلاح الدين ولكن احد الامراء من الجيش الايوبي عرفهم وانفضح امرهم . تقول الرواية التاريخية .[١٥]

« وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان صاحب الاسماعيلية بمصياف وقلاعها وبذل له اموالاً كثيرة ليقتل السلطان فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فعرفهم الامير ناصح الدين خمارتكين وكان مثاغراً لهم لاي شيء جئتهم وكيف تجاسرتم على الوصول فجرحوه جراحات فمات منها رحمه الله »

وقد حدثت مصادمة بين الارهابيين وبعض الجند ذهب ضحيتها بعضهم كما هجم احدهم على صلاح الدين ليقتله ولكنه قتل قبل ان يصل اليه . وقد قتل بقية الحشيشية دون ان يتعرض صلاح الدين الى اي اذى في هذه المحاولة الاثيمة .

ولابد ان نشير هنا ان بعض المصادر لاتشير بالاسم الى اتابك حلب كمشتكين بينما هناك مصادر اخرى تشير اليه شخصياً بل تشير الى امراء حلب بصورة عامة .

(٢) المحاولة الثانية[١٦] وقد تمت في شهر ذي القعدة من سنة ٥٧١هـ مايس ١١٧٦م اثناء محاصرة قلعة عزاز وهي من قلاع حلب المهمة . وكانت هذه المحاولة اكثر خطراً من الاولى حيث استطاع الارهابيون الحشيشية ان يلبسوا الزي العسكري للجند الايوبي وان يتغلغلوا داخل المعسكر وينضموا الى صفوف المقاتلة حتى تواتيهم الفرصة المناسبة لاغتيال صلاح الدين الايوبي .

وقد هاجم الفداوية صلاح الدين وضربه احدهم بسكين على

رأسه ولكن صلاح الدين كان ومنذ المحاولة الاولى على حياته قد اتخذ جملة احتياطات لحماية نفسه فكان :

« لاينزع الزردية عن بدنه ولاصفائح الحديد من على رأسه »

وحين ذهبت الضربة الاولى هباءً ثنى الارهابي بضربة اخرى جرحت صلاح الدين في وجهه حيث سال دمه ولكن صلاح الدين امسكه بقوة من يده حيث ادركه احد القادة وقتله .

ولكن ارهابياً آخراً هاجم صلاح الدين فاعترضه امير آخر وقتله غير انه اصيب بضربة سكين توفى على اثرها . ثم تقدم ارهابي ثالث للقيام بالعمل فقتل دون ذلك . ولما رأى الارهابي الرابع الحالة هرب فلحقه الجند وقتلوه .

لقد اذهلت المحاولة الثانية القادة والجند في معسكر صلاح الدين ، كما وانها تركت اثراً واضحاً في نفسية صلاح الدين . وقد توقف القتال في ذلك اليوم كله بسبب الحادث . واستعرض صلاح الدين جنده واخرج منه كل جندي انكره او لم يعرفه . كما اتخذ احتياطات جديدة وشديدة لحماية نفسه من اية غدرة يقوم بها الحشيشية خاصة وان الحشيشية اثبتت من خلال عملياتها هذه دقة وسرية تنظيماتها بحيث استطاعت ان تتغلغل داخل معسكر صلاح الدين دون ان يكشف امرها . كما وان الارهابيين لم يهاجموا صلاح الدين مرة واحدة فلربما استطاع واحد منهم ان يحقق الهدف دون ان يكشف امر البقية الباقية .[١٧] وبالنظر لأهمية وخطورة هذه المحاولة فان معلوماتنا عنها جيدة حيث تذكرها كل المصادرذات العلاقة ، الا أن المصدر الوحيد الذي يتهم امراء حلب بالتحريض على المؤامرة والاتصال بالحشيشية هو ابن أبي طي الذي يشير ابو شامة اليه في الروضتين ، يقول ابن ابي طي بأن امراء حلب عادوا الى دسائسهم ضد السلطان صلاح الدين وكتبوا للمرة الثانية الى راشد الدين سنان واقنعوه بالمال والوعود باغتيال صلاح الدين .

وكان لابد ان يرد صلاح الدين الايوبي على التحدي فقرر التقدم نحو قلاع الحشيشية في بلاد الشام وتخريبها فحاصرهم واحتل بعضها مثل الكهف والقدموس والعليقه والرصافي ولكن حصن مصياف على الساحل قرب مدينة طرابلس ومركز زعيم الحشيشية راشد الدين سنان استعصى عليه ولم يتمكن من احتلاله حيث انسحب منه بعد اسبوع من الحصار . ويبدو ان خال صلاح الدين الايوبي الذي كان اميراً على حماه المجاورة لبعض حصون الحشيشية لعب دوراً في التوسط بين السلطان صلاح الدين وزعيم الحشيشية سنان من اجل عقد صلح بينهما وانهاء حالة الحرب . تقول بعض الروايات :[١٨]

« ورحل [صلاح الدين] الى بلد الاسماعيلية وحصرهم ثم صالحهم بواسطة خاله محمود بن تكش وسار بعسكره الى مصر . . »

ويبدو ان المبادرة من اجل إيقاف القتال بين صلاح الدين وراشد الدين سنان جاءت من الاخير . فإذا كان الامر كذلك فلماذا قرر سنان الصلح وهو يعلم علم اليقين ان السلطان صلاح الدين هو العقبة الكبيرة في سبيل نشر مذهبه وتحقيق طموحاته السياسية ؟

ثم لماذا قبل السلطان هذا العرض بالصلح ؟

الواقع ان محاولات راشد الدين سنان لاغتيال صلاح الدين لم تكن مدفوعة كليةً من قبل امراء حلب الزنكيين واغرائهم لسنان بالاموال والقلاع ، اي ان سنان لم يكن يعمل أجيراً لدى الزنكيين بل ان هذه الخطة كانت تتفق تماماً مع طموحاته السياسية والتي كان صلاح الدين يحول دون تحقيقها . الا ان فشل محاولتي الاغتيال وحصار صلاح الدين لقلاع الحشيشية وتخريب بعضها وقتله للحشيشية ومصادرته ماشيتهم واموالهم ثم تهديده لمركز زعيم الحشيشية في قلعه مصياف الحصينه . . كل ذلك جعل راشد الدين سنان يبادر الى المطالبة بالصلح .

اما بالنسبة لموقف صلاح الدين فبالرغم من ان بعض الرويات[١٩] تشير الى احداث اسطورية وخوارق قام بها الحشيشية لاجبار صلاح الدين على قبول الصلح ، فالواقع ان الاسباب التي دعت السلطان صلاح الدين للانسحاب من حصار مصياف وقبول الصلح لاتعدو ان تكون حالة من الحالتين او الحالتين معاً :

اولهما ـ بدء هجوم فرنجي جديد على بلاد الاسلام . فقد اخبر ابن المقدم صاحب بعلبك صلاح الدين عن هجوم جديد للفرنج وانه اصطدم بهم واسر اكثر من مائتين منهم بينما قتل مجموعة اخرى .

عند ذلك قرر صلاح الدين العودة الى دمشق وتوفير الجهد والمال والرجال لصد هجوم فرنجي متوقع بدلاً من البقاء امام اسوار مصياف . ويؤكد العماد الاصفهاني ذلك حين يقول[20] :

لولا هذا الحادث [الهجوم الفرنجي] لم يصرف عنها [مصياف] الاحداث

ثانيهما ـ كان الجيش الايوبي قد غنم غنائم كثيرة من معاركه مع الحشيشية وغيرهم خلال تلك السنة وكانوا ميالين الى العودة الى بلدانهم للاستراحة والتمتع بهذه الغنائم مع اهليهم . وحينما طال حصار مصياف زاد الملل لديهم . وتشير رواية تاريخية الى ذلك بقولها ان صلاح الدين الايوبي احس من بعض قادة جيشه « ميلاً الى الانكفاء »[21] فقرر رفع الحصار والعودة الى دمشق وقبول وساطة خاله للصلح بينه وبين سنان .

الا ان المصادر المتيسرة لدينا لاتسعفنا في تبيان طبيعة هذا الصلح او شروطه ولكننا نعرف ان راشد الدين سنان وخلال السبع عشرة سنة التالية لم يتدخل في جهود صلاح الدين او نشاطاته ضد اعدائه من الفرنج (الصليبيين) او من الامراء الزنكيين ، وهكذا استطاع صلاح الدين الايوبي ان يحجم الحشيشية ويوقف نشاطاتها المذهبية والسياسية ويركز جهوده للاستعداد لطرد الافرنج من فلسطين التي توجّت بانتصار حطين في تموز ١١٨٧م / ٥٨٣هـ .

الخاتمة

من الطبيعي ان يتحالف الحشيشية الباطنية مع الفرنج الغزاة المعتدين ومع الامراء الانفصاليين ضد قيادة صلاح الدين الايوبي لأنها تقف على طرفي نقيض من مخططاتهم من اجل تفتيت المجتمع العربي الاسلامي وكل مايمثله من قيم ومثل وإرث حضاري .

إن سيرة صلاح الدين تشير الى حقيقة اساسية هي عدم امكانية الاستغناء عن الزعامة في اي شكل من اشكال التنظيم الاجتماعي ، وفي اي زمان او مكان . والجماهير عبر التاريخ تتطلع في خضم الازمات الى من ينقذها . فإن ازمة حادة تزيد الاهتمام بالقائد وان الامل من ايجاد حل لتلك الازمة مقترن بالامل بظهور قيادة قوية حازمة قادرة على التغلب على الاخطار واجتياز العقبات . وكلما ازدادت الازمة حدّة اشتد التوق الى البطل المنقذ . ولا يستطيع المؤرخون مهما كانت اتجاهاتهم ان يكتبوا التاريخ دون الاعتراف والاقرار بأن بعض الافراد « الابطال » لعبوا في اللحظات الحرجة من تاريخ الامة دوراً حاسماً في التأثير على الحدث التاريخي او اعادة توجيه الموجة التاريخية .

لقد كان صلاح الدين الايوبي واحداً من هذه النماذج القيادية الفذة التي ظهرت على مسرح تاريخنا العربي الاسلامي على ان سر نجاحه المثير لم يكن في المقام الاول قدرته العسكرية او امتلاكه جيوشاً قوية وكبيرة او حنكته السياسيه بقدر ماكانت محاولته الناجحة في استلهام روح الاجداد العرب المسلمين العظام وبعث مثلهم وقيمهم الاخلاقية العليا ووضعها موضع التطبيق على نفسه اولاً وعلى الذين من حوله ثانياً .

لقد ادرك صلاح الدين الايوبي بثاقب بصيرته ان انهيار الكيان السياسي للخلافة وضعف المجتمع العربي الاسلامي الذي ادى الى تغلغل الفرنجة وتأسيسهم اربعة كيانات سياسية في بلاد الشام، من جهة والى نشاط الحركة الحشيشية الباطنية من جهة اخرى ، انما نجم عن الانحطاط في الخلق السياسي والى اهمال المثل والقيم العليا التي يتمسك بها الاجداد في تعاملهم فأوصلت دولتهم الى مصاف الدول القوية المهابة الجانب وجعلت مجتمعهم موحداً مزدهراً . وهكذا فلم يكن امام صلاح الدين غير طريق واحد يوصله الى الوحدة والتحرير هو العودة الى روح الاجداد وبعث قيمهم ومثلهم . لقد حير

صلاح الدين اعداءه بشجاعته وعزمه وتواضعه وانكاره لذاته ، وكرمه وبساطته واخلاصه لمثله العليا وصدقه ووفائه بوعوده حتى لاعدائه ، وبذلك استطاع ان يدعم القوة العسكرية والولاء السياسي بمثل وقيم اخلاقية ومعنوية كانت مثار الدهشة والاعجاب لدى الاعداء قبل الاصدقاء .[٢٢] فلقد ظهر صلاح الدين بمظهر « الفارس الشهم » في الادب الاوربي ولعلنا نشير هنا الى احدى رسائله التي يقول فيها انه لن يسمح بتداول الحروب بين امراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد[٢٣] . وهي رسالة تدل على مدى تقديره للمسؤولية الملقاة على عاتقه وعاتق امراء المسلمين من اجل الوحدة وتحرير الارض المغتصبة من قبل الفرنج الغزاة ، على أن عملية التوحيد لم تكن تتم في اغلب الاحيان بقوة السلاح ، فلو استعمل صلاح الدين القوة العسكرية فقط لما انضم اليه الا جزء يسير من امراء المدن الشاميه والجزرية ولكن هؤلاء الامراء إنضموا اليه من تلقاء انفسهم حين وثقوا به وبخلقه وسياساته ووجدوا فيه « البطل المنقذ » من الاوضاع السياسية المتردية .

ويرى البروفسور جب[٢٤] ان كلمة صغيرة قالها صلاح الدين الايوبي توجز الطبيعة الحقيقية لمآثره وهذه الكلمة هي : « فإنني لو حدث بي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر » . فلقد انتشل صلاح الدين الاسلام في فترة حرجة من الانحطاط الاخلاقي السياسي حين نادى بمثل اخلاقي أعلى طبقه اولاً على نفسه فخلق حافزاً للاتحاد كان كافياً لمواجهة التحدي .

وبعد . . . فإن الاسس الاخلاقية والقيم المعنويه التي تحلى بها صلاح الدين وعمل على نشرها كانت عاملاً من جملة العوامل الرئيسية التي يسرت له سبل تحمل المسؤولية والاضطلاع بالمهمة الكبيرة التي القيت على عاتقه وجعلت منه بالتالي بطلاً منقذاً في نظر الاجيال والتاريخ .

الهوامش والتعليقات

(١) راجع : د . فاروق عمر . تاريخ فلسطين السياسي ، العين ١٩٨٣ ، ص ١٥٥ . وكذلك تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٣ ، (المقدمة)

(٢) راجع : B. Lewis, The Assassins, London, 1967.

(٣) جب مقالته الموسومة « ظهور صلاح الدين ١١٦٩ - ١١٨٩ » في الجزء الاول من كتاب « الحروب الصليبية » الذي اصدرته جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٥٨ .
كذلك جب صلاح الدين الايوبي في « دراسات في التاريخ الاسلامي » بيروت ١٩٧٣ .

(٤) Lane- poole, Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1898, p.57.

(٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ ، جـ١١ ص ٤١٢ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، جـ١ ص٢٢١

(٧) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٨ فما بعد

(٨) راجع : دريد النوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي : رسالة ماجستير ، جامعة بغداد سنة ١٩٧٦ ، ص ٣٦٢ . وقد نشرت الاطروحة ولم يتيسر لي مطالعتها منشورة .
اما فرسان الاسبتارية فهم فرسان القديس حنا الذين اسسوا تنظيمهم قبل الحروب الصليبية باقامة دير ومستشفى لهم في القدس وكان واجبهم مساعدة الحجاج الا انهم مالبثوا ان اصبحوا فرساناً محاربين اثناء حروب الفرنجه في فلسطين واشتهر بعض قادتهم بالغدر والمكر ضد المسلمين وصلاح الدين .

(٩) بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين ، بغداد ١٩٤٥ ، ص١٥٣ ، كذلك النوري المصدر السابق ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(١٠) راجع : ابو شامة ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٢١ . كذلك لويس ، صلاح الدين والحشيشية ، مجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، لندن ، ١٥ ،١٩٥٣ ، ص ٢٤٢ .

(١١) د . فاروق عمر ، الدعوة الجديدة في بلاد فارس وبلاد الشام ، آفاق عربية ، ١٩٨٥

(١٢) لويس ، الحشيشية ، بالانكليزية ، ص ١١١ - ١١٢ .

(١٣) نفس المصدر السابق . . النوري ، المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(١٤) ابو شامة ، جـ١ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ .- ابن الاثير جـ١١ ص ٢٧٦ - ٢٧٨ .- ابن واصل مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ٢ ص ٢٤

(١٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤

(١٦) ابو شامة ؛ جـ١ ص ٢٥٨ ابن شداد ، ص ٥٢ .- ابن الاثير ، جـ١١ ص ٢٨٥ .

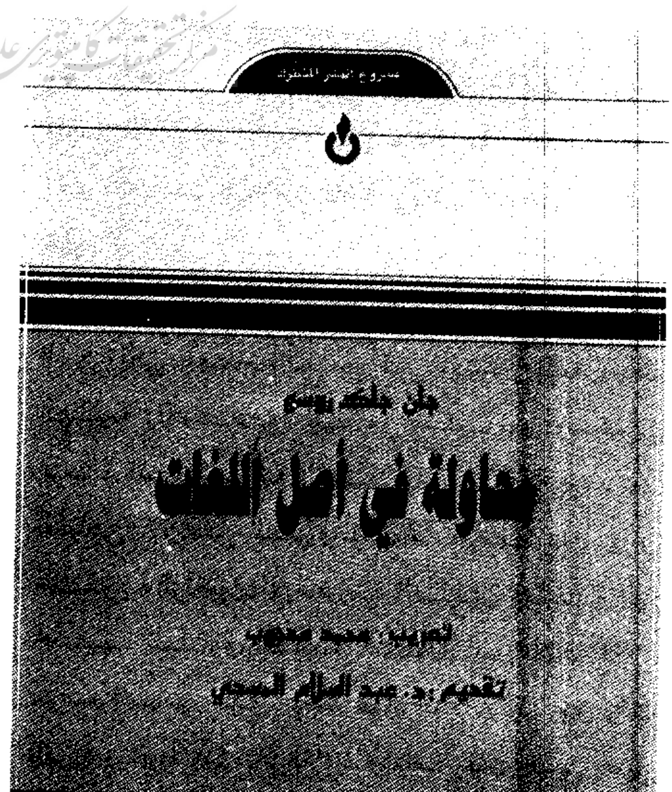
(١٧) النوري ، المصدر السابق ، ٣٦٨ .

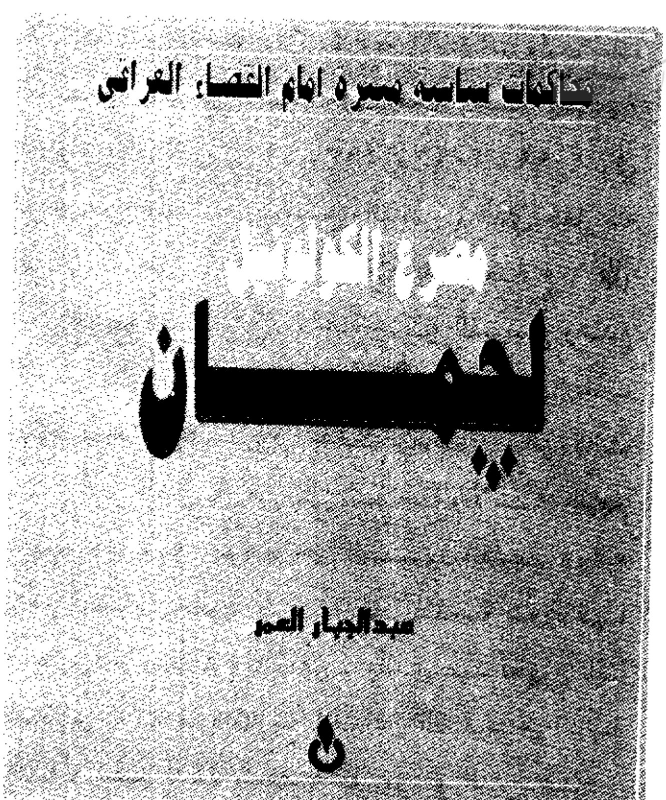
(١٨) ابو شامة ، جـ١ ص ٢٦١ .

(١٩) راجع لويس ، المصدر السابق ، ١١٣ . ـ النوري ، المصدر السابق ، ٣٧٠ ـ ٣٧١ .
(٢٠) ابو شامة ، جـ١ ص٢٦١ . ـ البنداري ، سنا البرق الشامي للعماد الاصفهاني ، بيروت ١٩٧١ ، جـ١ ص٢١٩ .
(٢١) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٠٨ .
(٢٢) من اجل التعرف على طبيعة صلاح الدين واخلاقه راجع : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، القاهرة ١٩٦٤ . ـ عماد الدين الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ليدن ، ١٨٨٧ . نفس المؤلف البرق الشامي الذي اختصره البنداري في كتابه الموسوم (سنا البرق الشامي) بيروت ١٩٧١ . وكذلك ماكتبه القاضي الفاضل من كتب ورسائل عن تلك الفترة وهي مبعثرة في مؤلفات ابي شامة وعماد الدين الاصفهاني .
(٢٣) جب ، مآثر صلاح الدين في دراسات في حضارة الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٤ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠ نقلا عن ابن شداد ، ص ٢١٨ .

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة





عماد الدين زنكي
وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين

د. مرتضى حسن النقيب
كلية الاداب/ جامعة بغداد

يأخذ عماد الدين زنكي اسمه في التاريخ العربي - الاسلامي من دوره في تكوين دولة وراثية في الموصل والجزيرة وبلاد الشام خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بأسم « الدولة الاتابكية » ، ومن دوره في مقاومة الأمارات والممالك الصليبية الأربعة التى تكونت في اعقاب الحملة الصليبية الاولى في بلاد الشام (٤٩٠ - ٤٩٣ / ١٠٩٦ - ١٠٩٩) في كل من الرها وانطاكية وطرابلس والقدس ، الذي جعل منه ومن سيرته بطلاً من ابطال الأسلام بدون منازع : فإلى زنكي يرجع الفضل في معالجة حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي كانت تسود مناطق الجزيرة والشام في اعقاب سقوط مملكة تتش السلجوقية والحكم الفاطمي ، التي كانت سبباً في تمكن الصليبيين من ممثلي السلاجقة والانتصار عليهم بسهولة بالغة لم يكن يتوقعها حتى الصليبيون انفسهم ؛ واليه يرجع الفضل في تطوير حرب الجهاد المقدسة بدوره فيها « كغازى » و « مجاهد » لا يقهر ، والذي مَهّد لظهور تلك الشخصيات المعاصرة لتاريخ الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة ، يقصد بذلك شخصية كل من نورالدين محمود ، ثاني اولاد زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي الشهيرتين . . ولم تكن انجازات زنكي هذه من المسائل العادية التي يمكن لأي حاكم من حكام السلاجقة او تابعيهم من تحقيقها ، بموجب اخفاق المحاولات السابقة التي قام بها عددٌ من الشخصيات الاسلامية الحاكمة هناك ، قبل ان يربط زنكي مستقبله بحرب الجهاد ، وبموجب الخطر الصليبي الناجم عن وجود وتوسع الأمارات الأربعة على امتداد بلاد الشام ، بعد اختفاء مجتمعات اسلامية كاملة وحلول مجتمعات فرنجية محلها .

وبسبب هذه الانجازات المهمة ، فقد حظى عماد الدين زنكي بأهتمام بالغ من قبل المهتمين بالدراسات الصليبية والمتخصصين فيها من مستشرقين ومفكرين عرب ، فدرسوا سيرته الذاتية ودولة الاتابكة وتاريخها السياسي ، وبعض النظم والمؤسسات المرتبطة بها ، بما في ذلك دور « الزنكيين» في مقاومة الصليبيين كالمقالة التي خصصها المستشرق الراحل هملتون كب (H. Gibb) ، للوضع السياسي الذي عاشه عماد الدين زنكي بين وقت ظهوره وسقوط امارة الرها[1] ، ودراسة عماد الدين خليل

المتعة عن حياة وتشكيلات دولة هذا الاتابك[٢] ، وما تقدم به شاكر ابو بدر عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية[٣] ، او رسالة السيدة علية عبدالسميع عن امارة الرها ودور زنكي في سقوطها[٤] ، اضافة الى ما اعتمدت عليه هذه الدراسات من مساهمات لعدد كبير من المختصين الاوائل في هذا الحقل[٥] .

وبالرغم من فائدة هذه الدراسات في زيادة معلوماتنا التاريخية عن عماد الدين زنكي وتاريخ الدولة الاتابكية التي اسسها ، وعن جهوده في محاربة الصليبيين ومقاومتهم ، الا ان عماد الدين زنكي لم يدرس لحد الان كظاهرة تاريخية لأحداث الدولة السلجوقية التي سادت الموصل والشام خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بوجه الخصوص لم يتوضح لحد الان الخصوصيات التي تتميز بها شخصية زنكي ، سواء كانت تلك التي تخص عمله السياسي والعسكري كأحد امراء السلاجقة ونتاج مؤسساتهم العسكرية ، او تلك التي تخص اتابكيته والتي تساعد كليهما على تثمين دوره في تاريخ المنطقة والتاريخ الاسلامي ككل . ومن هذا ، سوف نتعرف في هذه المقالة المختصرة على ظاهرة ارتقاء عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث في الموصل والجزيرة والشام خلال الربع الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، والظروف التي مهدت لظهوره ، ودوره في تكوين الدولة الاتابكية ، ثم نحلل بوجه الخصوص سياسة عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبيين من حيث طبيعة هذه السياسة والخصائص المرتبطة بها ، والتي توجت بانتصار زنكي في الرها على جوسلين الثاني سنة **٥٣٩/١١٤٤** . فقط انذاك يصبح بأمكاننا توضيح بعض القواعد التي استقر عليها عمل عماد الدين زنكي ونثمن دوره وشخصيته كبطل من ابطال الاسلام **ومجاهديه**. والآن ما هي الظروف التي مهدت لظهور عماد الدين زنكي وارتقائه الحكم على ولاية الموصل وكيف استفاد منها في تكوين **اتابكته** ؟

كان صعود عماد الدين زنكي للحكم في ٥٢١ / ١١٢٧ وبقائه على رأس الدولة التي كونها الى وقت مقتله في ٥٤١ / ١١٤٦ حدثاً مهماً وانجازاً كبيراً لشخص **الاتابك** : فقد كانت الموصل والجزيرة والشام قبيل ظهور زنكي تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار لا يوجد ما يشبهها في مناطق العالم الاسلامي كله[٦] ، فكانت بأحوج ما يكون الى قائد يعمل على وضع حدٍ لحالة الفوضى هذه ، وكان الحل يكمن في شخص عماد الدين زنكي الذي كان يبحث عن مركزٍ مهم وثابت لتطلعاته ، بعد حالة الضجر التي ظلت تنتابه من جراء تحرك قواته الدائمة داخل دولة الخلافة ، التي كانت تخضع لأشراف والي الموصل آق سنقر البرسقي وتوجيهاته وتضطلع بمهمات عديدة وعاجلة ضمن مناطق نفوذ السلطنة السلجوقية[٧] .

ترتبط حالة الفوضى في المناطق الشامية والموصل بظاهرة تعدد حكام وولاة السلاجقة ، فهي تسود معظم ، ان لم نقل كل ، المدن الشامية التي تخضع لحكمهم ، ولو بالأسم وحده . ويرجع السبب في ذلك الى ان هذه المنطقة لم تشهد منذ انتهاء عهد السلاجقة[٨] زمن ملكشاه قيام اية سلطة مركزية واحدة تخضع لها الولايات والمدن الشامية المتعددة وتلتزم بأوامرها . ومع ان هذا السلطان كان قد نجح في توحيد مناطق الموصل والشام تحت حكم السلاجقة مؤقتاً ، الا انه هو الذي ازال بأسم السلطة المركزية مجموعة الامارات والدول التي كانت تحكم بأستقرار ولايات المنطقة وتمثلها ، كالامارة **العقيلية** في الموصل وحلب ، والدولة المروانية في ديار بكر[٩] . وقد نجح الملك تتش بشكل موقت ايضاً في اعادة عمل اخاه ملكشاه في توحيد مناطق دمشق وحلب والموصل وديار بكر من بين مناطق اخرى الى مملكته ،

الا ان ذلك لم يَدمْ طويلاً ، اذ فَوَّت عليه فرصة حكم مثل تلك المملكة في اثناء نزاعه على السلطنة مع ابن ملكشاه الكبير بركياروق ، الذي نجح في التخلص من عمه تتش عشية الغزو الصليبي للمنطقة . وهكذا توزعت مملكة تتش بين ولديه واتابكتهم : دُقاق ورضوان وطغتكين ، وعدد من امراء البيت السلجوقي ومن امراء الجيش من طبقة المماليك والغلمان(١٠) .

ولم يختلف وضع الموصل عن ولايات ومدن الشام في ظاهرة تعدد الحكام ايضاً بعد زوال حكم العقيليين العرب عنها . وقد حانت لها فرصة من الاستقرار اثناء ولاية قسيم الدولة آق سنقر البرسُقي والمكلف بمتابعة الحرب ضد الصليبيين . ولكن هذه الفرصة ضاعت ايضاً عندما تمكنت جماعة مكلفة من الباطنية (الاسماعيلية) باغتيال هذا الامير في قلب الموصل نفسها سنة ٥٢٠ / ١١٢٦(١١) . وكان والي الموصل يكلف من قبل السلاجقة بمتابعة حرب الجهاد التي كانت تضطلع بها حالياً دمشق بشخص الاتابك طغتكين .

وبالرغم من ان هؤلاء الامراء كانوا يمثلون السلطان السلجوقي في ولاياتهم ويعترفون بسلطته عن طريق الخطبه له ، الّا انهم كانوا على حالة لا يحسد عليها من الاستقلال والتصرف بعد تأمينهم الواردات للسلطان . وبسبب ذلك فقد سيطرت حالات الحسد وروح المنافسة والنزاع على موقف هؤلاء الامراء الى حد انها كانت تقرر نوع مواقفهم في قضية مثل حرب الجهاد وتحالفاتهم ازاء هذا الامير او ذاك ، ثم التغير بسرعة فيما بعد ، رغم ان حرب الجهاد لها خصائصها العامة المشتركة ، مثلاً ، كان والي الموصل الجديد مسعود يتحمل مسؤولية حرب الجهاد ، الّا ان ما كان يتطلع اليه وراء المشاركة فيها هو تملك المناطق الشامية الخاضعة لحكم طغتكين كما يشير الى ذلك ابن القلانسي(١٢) . ويشترك امراء التركمان بمثل هذه الخصائص من انهم كانوا يشكلون احد العناصر الرئيسية المشتركة في حملات الجهاد ؛ وقد قدموا من اجل ذلك منتهى التضحيات اللازمة خلال سير هذه الحملة ، ولذلك لا توجد ادنى دهشة في تلكؤ اميرها بتقديم المساعدة اللازمة الى غريمه عند تعرضه لخطر خارجي(١٣) ، كالتحدي الكبير الذي جاءت به الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشام في ٤٩٠ / ١١٩٦ ، والنجاح الذي ادى الى تكوين الامارات الصليبية الاربعة ، بالرغم من ان خصائص الوضع بين الصليبيين لم تكن تختلف عن الخصائص السائدة بين حكام المدن والولايات الشامية ، اي حالات الحسد والمنافسه القائمة بين لوردات الصليبيين وباروناتهم ، وبين البعض منهم والبيزنطيين من جهة اخرى وانعدام تمثيلهم بدولة قوية واحدة(١٤) . ولذلك سرعان ما اثرّتْ الخصائص السياسية لمنطقة الشام على تصرفات الصليبيين ومواقفهم السياسية والمشاكل التي تترتب على ذلك من محالفات وغيرها .

وقد قلب عماد الدين زنكي بصفته اتابك وحاكم على الموصل والجزيرة والشام هذا الوضع بنجاحه في تكوين « دولة الاتابكة » من بين تلك المدن والولايات المجزأة . والاهم من ذلك في عدم سماحه بتكرار حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي عاشتها المنطقة مرةً اخرى ، الى حد انه عندما حدث اغتياله في ٥٤١ / ١١٤٦ لم يُصِب الدولة الفتية من الاضرار الا مبدئياً ، بالرغم من ان اعداء الاتابك حاولوا اقتسام ممتلكاتها ، وسرعان ما قام ابنه الموهوب نورالدين محمود بتكملة العمل بنجاح . . فكيف حدث هذا واي من العوامل والمتغيرات ساعدت زنكي على تحقيق هذا الوضع الجديد للمنطقة ؟

كان عماد الدين زنكي قبل قيامه بدور الاتابك لولدي(١٥) السلطان محمود وبدء ولايته على الموصل في

٥٢١ / ١١٢٧ قد خدم ضمن تشكيلات الجيش السلجوقي وتدرج في الرتبة العسكرية الى وقت وصوله رتبة امير في الجيش . وكانت علاقتهُ مبنية بشكل خاص مع امراء الموصل ممن كانوا قبل ذلك اما زملاء في العمل مع والده قسيم الدولة آق سنقر[١٦] او ضمن تشكيلات قوته كالامراء من ولاة الموصل كربوقا وشمس الدولة جكرمش ومودود بن التونتكين . الّا ان نقطة التحول في حياة زنكي جاءت عندما ارتبط بآق سنقر البرسُقي[١٧] ، الذي كان يكلفه بشتى الواجبات والاعمال داخل العراق ابان اشغاله لولاية الموصل وشحنكية العراق خلال حكم السلطان محمود كأعمال ولايتي واسط والبصرة ، وبعض المهمات الحربية ضد عدد من الامراء المتمردين كدبيس امير الحلة ، وتوليته العاجلة لشحنكية العراق بعد عودته من دركاه السلطان[١٨] . وكانت هذه المهمات وحدها كافية لأن تؤهل زنكي لأشغال اي منصب مهم ضمن اعمال السلطنة السلجوقية من تلك التي تستدعي رضا وموافقة السلطان . الا ان تطلع زنكي كان موجهاً نحو اشغال ولاية الموصل التي يرتبط بولاتها بأوثق الصلات .

يدين عماد الدين زنكي بمنصب ولايته على الموصل الى سمعة والده آق سنقر المتميزة ، وهو الامير الذي يُعترف بفضله في خدمة السلطنة السلجوقية بشخص السلطان ملكشاه ، والى شخصية زنكي وقدراته العسكرية والسياسية المرتكزة على المناورة والمراوغة مع الادارة السلجوقية ، فكان من السهل عليه مثلاً التخلص من منافسه الضعيف على هذا المنصب وهو اخ صغير للامير الراحل مسعود لولا وجود جاولي المستأثر بالحكم بوصايته عليه . ولذلك لم تصبح الولاية من نصيب عماد الدين زنكي الّا بعد ان أمّن وفدٌ مؤلفٌ من ثلاثة اعضاء[١٩] كان قد ارسلهم زنكي الى بغداد للتفاهم مع انوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود آنذاك هذا الترشيح زنكي حيث تقرر ان يقدم الوزير هذا الترشيح مقابل معطيات مالية مجزية يتقدم بها زنكي للأدارة السلجوقية والسلطنة ، وبعد ان ضمن الثلاثة بدورهم مراكز عالية في ادارة زنكي الجديدة[٢٠] ويشمل ذلك منشور التولية[٢١] ، الذي صدر في رمضان ٥٢١ / ١١٢٧ على « الموصل والجزيرة ونصيبين وما كان بيد البرسقي »[٢٢] ضمن بلاد الشام .

كان عماد الدين زنكي مؤمناً بتكوين دولة يتزعمها ، يطلق عليها ابن الاثير « الدولة الاتابكية » لخدمة طموحاته التي كانت موجهة لمعالجة مشكلة الصليبيين بالدرجة الاولى . . الّا ان تكوين هذه الدولة كان يعني التوسع على حساب الأمراء المحليين ، الذي لم يجد زنكي تردداً فيه لان سياستهُ تجاه الامراء والحكام المنافسين لمركزه كانت تستقر على الاعتقاد بأن المعارضة المحلية ضمن منطقة حكمه والمناطق التي تحيط بها يجب ان تجتث وتقطع ،[٢٣] بغض النظر عن ردود الفعل التي سيثيرها هؤلاء الامراء تجاه محاولته المرتقبة . ففي التوسع الجغرافي ، كان ذلك يعني توجه حملات زنكي نحو المناطق التي تخضع لحكم الارتقين التركمان في ديار بكر وجزيرة ابن عمر ، ونحو مخلفات مملكة تتش في دمشق وحلب برئاسة طغتكين ، وما الى شمالها وجنوبها من مناطق خاضعة للصليبيين والبيزنطيين ، ولم يضيع الوالي الجديد وقته منذ صدور المنشور بولايته للعمل على تكوين نواة اتابكيته .

بدأ زنكي بالقوة التي تحت امرته بجملة من الحملات السريعة المفاجئة ، فأنهى اولاً خطر جاولي بتعويضه منطقة الرحبة مؤقتا ؛ ثم قام بنفس السنة ٥٢١/١١٢٧ من مد نفوذه على جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحران . وجاءت نقطة التحول في حملاته سنة

٥٢٢ / ١١٢٨ عند عبور عماد الدين زنكي الفرات لأخذ حلب ، التي كانت مهددة بالسقوط بيد الصليبيين والتي كانت في حالة تامة من الفوضى ، لم يغب عن بال زنكي استغلال اوضاعها لصالح نجاح مهمته ؛ اعقبها في ٥٢٣ / ١١٢٩ بأخذ حماه التابعة لدمشق بحجة الجهاد ضد الصليبيين[٢٤] . وقد كانت هذه المناطق كافية لتكوين نواة الاتابكية التي عمل زنكي على تثبيت اسسها بنجاح ، ويلاحظ بأن توسع زنكي كان محصوراً في المناطق العربية والتركمانية من الموصل والجزيرة وديار بكر وشمال سوريا لمحاذاتها لمناطق التوسع الصليبي في الشام . ولكن يلاحظ ايضاً بأن عماد الدين زنكي لم يوجه حملاته صوب اذربيجان او فارس مثلا ، التي كانت تقرر مستقبل السلطنة السلجوقية ، لان محور اهتمام زنكي كان باتجاه مناطق النفوذ الصليبي ولم يكن مهتماً بقضايا النزاع التي تدور بين امراء السلاجقة حول السلطنة الاّ بقدر ما يقرر هذا النزاع شأن اتابكيته .

وكان نمو دولة الاتابكة يعني تصميم عماد الدين زنكي على الاحتفاظ بوضعه الجديد مهما كانت الصعوبات ، وذلك بعدم التساهل مع اي تغير قد يسبب اقالة شخص الاتابك وهذا التغيير كان يتسبب نتيجة لغضب السلطان الشخصي عليه لصالح مرشح جديد للولاية ، او بسبب حدوث شيء ما لشخصه نتيجة لفعاليات الباطنية [٢٥] في المنطقة التي تخطط لاعمال الاغتيالات السياسية وتحترفها ، رغم الضربات الموجعة التي وجهت اليها[٢٦] . والمعروف ان زنكي كان كثير الحذر من مثل هذه المحاولات وقد طوّر حرسه الخاص كوسيلة من وسائل هذا الاحتراز . بينما كان السلطان السلجوقي يأمل من زنكي ومن غيره من الامراء ان يتقدموا بأداء صنوف الطاعة الى شخص السلطان وعدم العصيان عليه بأرسال احد اولادهم من الذكور الى الدركاه كرمز لهذه الطاعة ، اضافة الى تأدية ما يترتب على الامراء من شروط الخدمة من تلك التي تتمثل بمساهمات مالية وعسكرية لازمة لحملات السلطان اما بالحضور شخصياً الى الدركاه او بأرسال قوة عسكرية الى هناك لتمثلهم برئاسة احد المقدمين . ولم يَخِلّ عماد الدين زنكي بأداء هذه الواجبات طيلة وجود السلطان محمود على رأس السلطنة مستفيداً من وضعه كأتابك لولدي هذا السلطان ، وبالاموال الجمة التي كانت تحت تصرفه . ولكن علاقة زنكي بكل من السلطانين طغرل الثاني ومسعود ظلت تتأرجح طبقاً لمصلحة الاتابك العليا والامراء الذين في معيته . وكان مسعود قد شهر العداء لزنكي واراد التخلص منه لانه كان ينسب الى الاتابك مسؤولية كل المشاكل التي يواجهها في سلطنته من الامراء . وبعد استقراره نهائياً في السلطنة ، توفرت لمسعود فرصة للتوجه شخصياً بحملة كبيرة الى الموصل لتصفية خلافاته مع زنكي ، ولكن السلطان تخلى عن هذا المشروع بعد ان تقدم بمبالغ مالية كبيرة لشخص السلطان[٢٧] . وكان بأمكان زنكي من جانبه ان يبقى بعيداً عن مركز السلطنة متى ما اراد بحجة انشغاله بحرب الجهاد التي يترأسها الان عملياً . يضاف الى ذلك بأن علاقة زنكي بالسلطان كانت تتأثر بعامل جديد لم يكن يدخل في حساب واضعي السياسة السلجوقية ايام عهد السلاجقة ، وهو دور الخليفة في تحديد الاتجاهات السلجوقية وفي تعيين الولاة على اثر قيام الخلفاء العباسيين بممارسة سياسة النهوض والاستقلال بالخلافة التي طوّر سياستها ثلاثة خلفاء من معاصري عماد الدين زنكي هم كل من المسترشد والراشد والمقتفي بالتتابع . وكانت هذه السياسة تستهدف طرد السلاجقة من بغداد ومباشرة الخليفة لمهام الامور بنفسه عن طريق احتفاظ الخلافة بجيش خاص بها وقيادة الحملات شخصياً وتحقيق الاستقلال المالي ، تلك السياسة التي حولت اهتمام السلطان صوب بغداد اكثر من اي شيء اخر كحرب الجهاد للحفاظ على امتيازات

السلاجقة هناك[٢٨] . وكان زنكي في المنطقة التي يتحكم بها مصدر المشاكل بالنسبة لهؤلاء السلاطين والخلفاء بعد تمركزه في ولاية الموصل ونجاحه في تكوين دولة الاتابكة هناك . ولكن الاتابك كان قد ترك بالتدريج امر التدخل في شؤون السلطنة والخلافة لصالح مسألة حرب الجهاد التي يسعى لمتابعتها .

على اية حال ، فقد اعطى الوضع الخاص بالسلطنة زنكي ما يتوفر له من وقت لازم لأن يقوي اسس الدولة الجديدة (التي تكونت بفضل حملاته العسكرية الناجحة) ، من تكوينه جيش خاص بالاتابكة الى نظام مستقر للأدارة على طريقة زنكي السياسية في الحكم . وكان زنكي شخصاً مهماً في تقرير امور السياسة السلجوقية ، ولكنه لم يكن مولعاً في ربط مصيره بمستقبل السلطنة[٢٩] ، بالرغم من ان صفة وضعه كأتابك كانت تسمح له بالمنافسة مع بقية الامراء الكبار عن طريق ترشيح احد اولاد السلطان محمود لها ، والسبب في ذلك يرجع الى ان زنكي كان في طريقه لان يصبح « سلطاناً غير متوجاً » ، دون ادنى حاجة لمنزلة الاتابك لولا مقتله المفاجىء الذي جاء في اعقاب تحوله الى اهم شخصية في المنطقة على اثر انتصاره في الرها على الصليبيين . الّا ان المعارضة الحقيقية لعماد الدين زنكي كانت تصدر دائماً من جهة الامراء والحكام المحليين ممن كانت مصالحهم تتهدد بالضرورة لسياسة زنكي في التوسع والجهاد .

وواضح ان عماد الدين زنكي لم يتمكن من التخلص من كل القوى التي كانت تعارض تطلعاته من زاوية حرب الجهاد كالحادثة التي تسببت في مقتله عشية محاولته التخلص من احدى هذه الحلقات[٣٠] ؛ فمثلاً ، كانت دمشق ، اهم تلك القوى المنافسة ، تحكم من قبل افراد اسرة طغتكين وتتمتع من وجهة نظر المسلمين والصليبيين بأهمية سياسية وستراتيجية كبيرة ، ولكن زنكي لم يفلح في ضمها الى دولته رغم محاولته العسكرية والسياسية التي وقعت خلال سني ٥٢٩ / ١١٣٥ ، ٥٣٢ / ١١٣٨ ، ٥٣٣ / ٥٣٤ ، ١١٣٩ / ١١٤٠ ، وفي ٥٤٠ / ١٠٤٥[٣١] ؛ كذلك في عدد من محاولاته مع امراء الاراتقة من الذين لم تؤثر فيهم حملات زنكي العسكرية او مصاهرات الزواج التي عقدها معهم كالامير حسام الدين تمرتاش ، صاحب ماردين وحليف جوسلين الثاني ، امير الرها وغريم عماد الدين زنكي ، بالرغم من ان اسلوب المحالفات هذا كان مسموحاً به من قبل واضع السياسة الزنكية ، زنكي نفسه .

يرجع اهتمام المؤرخين المسلمين بسيرة عماد الدين زنكي الى ما حَققهُ هذا الاتابك في مجال حرب الجهاد « كغازي » و« بطل » من ابطال الاسلام العظام ، بينما يرجع بغض الصليبيين له الى اجهازه الكبير عليهم في الرها ، اولى الامارات الصليبية التي اختفت من خارطة بلاد الشام السياسية ، التي بسببها جاء تنظيم الحملة الصليبية الثانية : فأذا كان العماد الأصفهاني ينص على ان عماد الدين زنكي هو « قطب يدور عليه فلك الاسلام »[٣٢] ، تنعته بعض المصادر المسيحية ، على عكس ما هو معروف عن الاتابك « بالجبن » و« الغدر » لانه في هجومه على الرها ضيّق واجهز عليها كزحف الثعابين على فريستها[٣٣] . واذا كان زنكي قد اراد منَ تكوين دولة خاصة به ان يكون هو على رأسها في الحكم من اجل تخصيص موارد وطاقات تلك الدولة لمحاربة الصليبيين واجتثاث حصونهم وقلاعهم من الشام فلماذا كان مهتماً بحرب الجهاد وما طبيعة وخصائص سياسته بهذا الخصوص ؟ سنستعرض اولاً وضع الصليبيين في بلاد الشام والمشاكل الرئيسة التي كانت مسؤولة عن هزائم المسلمين امامها ، ثم نتعرف على طبيعة وخصائص واهداف

سياسة زنكي في الجهاد حتى نتمكن من تقويم مساهمات زنكي في هذا الحقل .

لقد نجح الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي في تثبيت قواعد الحكم في الامارات الصليبية الاربعة التي تم تكوينها في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس بمساحة تمتد ما بين ماردين من الشمال الى العريش في الجنوب ، بحيث لم يبق طبقاً لقول ابن الاثير مما يحتفظ به المسلمون من ولايات الاّ حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض الاعمال والحصون التابعة لها[٣٤] ؛ كما مدّوا سيطرتهم على الموانىء الساحلية لبلاد الشام (باستثناء عسقلان) ، للحفاظ على خطوط مواصلاتهم الدفاعية مع اوربا ، التي تحرسها وتمدها اساطيل المدن الايطالية . واخيراً جَدّ الصليبيون في بناء عدد من القلاع الداخلية لاستعمالها لاغراض الدفاع والهجوم على مدن بلاد الشام والجزيرة بحيث اصبحت اعداد من المدن الامامية التي بقيت في حوزة المسلمين مهددةً بالسقوط ، رغم دفع الضرائب المباشرة للصليبيين ورغم الاموال الجمة التي كانت تقدم لحكامهم بأمل الحفاظ على حياة وممتلكات سكانها[٣٥] . . وقد كانت هذه التغيرات بحد ذاتها كارثة كبيرة لسكان بلاد الشام ، التي لم يدرك خطورتها المسلمون في مناطق العالم الاسلامي الأخرى الاّ تدريجياً ، وبأجراءات عسكرية عاجلة لتهدئة خواطر المنكوبين وويلاتهم : فقد تمت تصفية مجتمعات هذه الولايات والمدن التابعة لها بمذابح جماعية لسكانها من العرب ـ المسلمين وحلت محلها مجتمعات كاثولكية من الفرنج مكونة من جماعات اللوردات والبارونات والقساوسة والتجار وعامة الناس ، وتجمعت لديهم ثروات طائلة جداً لم يحلم الأوربيون بأمتلاكها في يوم من الايام بدون التصفية لحاجات وممتلكات سكان هذه المجتمعات . . وبأختصار كان الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي يعيشون قمة انتصاراتهم ، وفي وضع الهجوم ، وبيدهم زمام المبادرة في قيادة الحملات[٣٦] ، التي لم تتوقف بالاندفاع نحو مدن الشام الداخلية .

وعلى العكس من ذلك ، كان الوضع في المدن والولايات الاسلامية ، الذي يتسم بالفوضى وعدم الاستقرار ، كما نوهنا سابقاً ، نتيجة ما اصابها من تفكك بعد سقوط مملكة تتش السلجوقية ، فكانت انتصارات الصليبيين باعثاً على اثارة الفزع والخوف في سكان المدن التي ظلت بحوزة الامراء المسلمين ، بحيث نقرأ في المصادر عن هجرات كثيرة للفلاحين والمزارعين من قراهم ومدنهم وعن استغاثات لانقاذ سكان هذه المدن دون جدوى[٣٧] . وكانت حالة الخوف من السقوط بيد الصليبيين واضحة بشكل خاص في حلب ، التي كانت تحمل في نظر گب ميزان التوازن بين الجماعات المسيحية والاسلامية ، والتي عولجت من قبل عماد الدين زنكي مباشرة[٣٨] . وكل هذا يدلل على ان مشكلة المسلمين الرئيسية ازاء الصليبيين كانت تدور حول افتقارهم الى قيادة ثابتة تقود سير حملات الجهاد ضدهم ، والتي لم تنجح لحد الان في معالجة التوسع الصليبي واحتوائه .

ولم تكن المشكلة بالنسبة لحرب الجهاد مع الصليبيين اي نقص في عدد المقاتلة المسلمين او في تغلب الصليبيين عليهم بكثرة العدد ، فقد كان للمسلمين سيلٌ من المقاتلة والمتطوعة التركمان المتحمسين للجهاد بصفة خاصة ، ما يغمر به الامارات الصليبية الاربعة مجتمعة ، بالرغم من ان الامدادات البشرية من الفرنج كانت تصل بأستمرار للصليبيين على شكل فرسان ومحاربين. كما لم تكن المشكلة ايضاً اي نقص في حماس الامراء الديني عند مواجهتهم لقوى الصليبيين او منازلة فرسانهم : فقد كانت هناك بأسم الجهاد حملات اسلامية يكلف بها السلطان والي الموصل او نظيره من عمال السلاجقة لمعالجة اعتداءات الصليبيين وتهديداتهم

للمدن الشامية المستهدفة . ولكن هذه الحملات لم تتوفق في درء خطر الصليبيين عن المدن والولايات الاسلامية ولا حتى مؤقتاً ، وكل ما ينتج من هذه الجهود في حالة الانتصار هو اخذ اعداد لا بأس بها من اسرى الصليبيين وامرائهم لادامة روح الحماس والتفاوض . اما في الحالات العامة فكثيراً ما كانت تتحول هذه الحملات الى هزيمة موجعة لامراء المسلمين المشاركين في الحملة بسبب الأختلافات التي تحدث بين امراء الجيوش ممن حصل على نصيب المشاركة والتي قد تؤدي الى التحاق احد من هؤلاء الامراء الخارجين بالعدو الصليبي كما حدث في حملات سنة ٥٠٥ هـ و٥٠٨ هـ لكل من رضوان وطغتكين وايلغازي ، وكل ذلك بدون شك يعكس حالة التجزئة وفقدان القيادة الحازمة لسير هذه الحملات ونجاحها[٣٩] . وقد جَهّز عماد الدين زنكي بأتابكيته القاعدة اللازمة لتحقيق الاستقرار ، وبشخصيته القيادة التي تتمكن من قلب الموازين لصالح المسلمين . فلا غرابة في عودة الاستقرار الى سكان المناطق المستهدفة تدريجياً وفي تحول زنكي من واجب الدفاع عن المدن الاسلامية الى الهجوم على مراكز الصليبيين الامامية ، الامر الذي سبب في استعادة القلاع والمدن الشامية تدريجياً ابتداءً بحصن الاثارب في ٥٢٤ / ١١٣٠ . ألا اننا يجب ان ننبه الى ان هذا التحول في وضع المسلمين لم يأت نتيجة لجهود زنكي وحدها ، وانما يدخل في ذلك جهود عدد من الامراء المعروفين في مجال محاربتهم للصليبيين ومقاومتهم قبيل استلام زنكي للمسؤولية .

لم يكن عماد زنكي اول حاكم بين حكام السلاجقة ممن نادى بسياسة الجهاد ضد الصليبيين وطلب تطبيقها ومتابعتها ضدهم لضمان نجاح المسلمين عسكرياً وسياسياً ، فقد كانت هذه المسألة من الواجبات المفروضة على كل مسلم تابع لهذا الدين الحنيف . كما لم تكن عملية التطبيق والمتابعة هذه وقفاً على احد من الامراء دون غيره ، بالرغم من ان الاوامر المرسلة لهم في هذا المجال كانت تصدر بأسم الخليفة والسلطان معاً ، فقد كان التركمان ورؤساؤهم من اخلص الامراء في محاربة الصليبيين ، ولكن تحمل المسؤولية اصبح بالتدريج من مهام ولاة الموصل ودمشق وامراء التركمان بسبب اوضاعهم الستراتيجية والعسكرية والمالية التي يمثلونها ، وبسبب قربهم من الصليبيين وتهديداتهم بواسطة سياسة التوسع التي يمارسونها انطلاقاً من قلاعهم وحصونهم الامامية . ففي هذا الاطار ظهرت شخصيات لا تقل اهمية عن عماد الدين زنكي وسبقته في اداء واجب الجهاد على خير ما يجب ، مثلا ، الامير طغتكين ، حاكم دمشق ، كان كزنكي اتابكاً ومجاهداً جيداً ، فكان اهم شخصية في حرب الجهاد خلال سنوات الربع الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي (ت ٥٢٢ / ١١٢٨) ، بالرغم من محالفاته الاولى التي عقدها مع الصليبيين[٤٠] . وقد حدث هذا عند اضطلاع عماد الدين زنكي بأعمال ولاية الموصل ، الذي عوَّض بظهوره عن عمل هذه الشخصيات ووفر القيادة اللازمة لنجاح مهمة الحرب مع الصليبيين . ولكن هناك فرقا اساسيا بين ما عمله عماد الدين زنكي في هذا المجال وبين ما انجزه سابقوه من الامراء في ان زنكي كان قد نجح في اثارة روح جديدة للمقاتلين تتناسب مع روح وطبيعة حرب الجهاد ، وفي انه قلب الموازين على الصليبيين بواسطة اتابكيته التي ساعدت بأمكاناتها الكبيرة على اخذ زمام المبادرة من الصليبيين ، بعد تخلصه الى حد ما من حالة التمزق المسؤولة عن اخفاق المحاولات السابقة . ويرجع السبب في هذا الى ان عماد الدين زنكي كان قد تهيأ لمواجهة الصليبيين منفرداً ، فلم تكن تتوفر لهؤلاء الامراء الامكانات التي توفرت لزنكي على

شكل « دولة الاتابكة » ، كما انهم كانوا يعترفون بحالة من التعايش مع امراء الصليبيين قادتهم. فلم يكن في محاولاتهم شيء من التسرع ، بل كانت تعتمد على ما تسنح لهم الفرص من حملات لاستعادة ما فقد منهم في جولتهم السابقة بعد تحرشات الصليبيين بأحد المراكز التابعة لهم ، بخلاف عماد الدين زنكي ، الذي كان يرى بأن هذه المهمة تشكل الحجر الاساس في واجباته الحربية لأن زنكي كان قد ربط مصيره بحرب الجهاد ، ولكنه كان مجبراً على التريث في المجابهة الى وقت استكمال الاستعدادات اللازمة حتى لا يتعرض للهزيمة التي ميزت عمل سابقيه من الامراء ، وحتى يتمكن من توجيه الضربات الموجعة لهم بنجاح ، تلك الاستعدادات التي كانت تتطلب منه معالجة موقف الامراء المحليين اولاً . الّا اننا يجب ان ننوه ايضاً بأن استلام عماد الدين زنكي لمسؤوليات حرب الجهاد لم يلغ من واجبات نظرائه من الامراء في تجهيز حملات مماثلة ، عادةً لمواجهة توسعات الصليبيين في مناطق نفوذهم ، مثلا الحملة التي قادها الامير بزاوش ، مقدم العساكر الدمشقية ضد فرنج طرابلس الشام في ٥٣١ / ١١٣٧ بالتعاون مع جمع من المتطوعة والتركمان(٤١) ، او الهجوم الذي قام به التركمان قبل ذلك(٤٢) (٥٢٧ / ١١٣٣) على طرابلس نفسها بحيث اوشكوا على اخذ قلعة بعرين الحصينة ، الذي لم يتحقق الّا على يد عماد الدين زنكي في ٥٣١ / ١١٣٧(٤٣) . ولكن ما هي الاسباب التي كانت تدعو عماد الدين زنكي الى الاهتمام بحرب الجهاد ومقاومة الصليبيين وما هي سياسته في هذا الصدد ؟

كما قلنا ، كان عماد الدين زنكي قد ربط مصيره بحرب الجهاد وليس بمستقبل السلطنة ، ولكنه كان يتريث في منازلة الصليبيين حتى تتقرر قواعد حكم اتابكية وحتى تستكمل مهمة تهيئة وتوسيع حجم الجيش الذي يضطلع بمهمة الجهاد . وكان زنكي ، بالطبع ، اميراً متحمساً للجهاد ولا يتردد في اخذ الاجراءات اللازمة من اجل مقاومة الصليبيين ودرء اخطارهم ولكن زنكي كان يستعمل حرب الجهاد كوسيلة من وسائل التوسع لدولته الاتابكية ايضاً ، فقد كانت هذه الحرب بالنسبة لزنكي تفتح مجالاً للتوسع في جبهتين متداخلتين : «١» المدن والقلاع التي كانت تخضع لحكم الامراء المحليين من الذين تصدوا لسياسة زنكي وتوسعه في الشام ، او من الذين رفضوا الاعتراف بسيادة زنكي عليهم من الاتابكة والتركمان وامراء العرب ، كأتابك دمشق وبعض من امراء الاراتقة وبني منقذ ، ٢) القلاع والمدن التي كانت في حوزة الصليبيين ، كان سقوطها بيد زنكي يسبب سمعة كبيرة له كمجاهد و« غاز » ، والتي تساعد بدورها على التخلص من ضغط السلطنة عليه عن طريق السمعة التي يحصل عليها والاموال التي تأتي بها نتائج هذه الحملات (مع ان السلب والنهب او الاثراء الشخصي على حساب الصليبيين لم تكن من صفات عماد الدين زنكي اولها دخل بحملاته كمجاهد) ؛ ذلك ان حكام الولايات من الذين واجهوا خطر السقوط بيد الصليبيين كانوا يخشون قوة مثل تلك التي يمثلها عماد الدين زنكي بأن تأتي الى نجدتهم ، لانه في حالة دعوته لقوة من هذا النوع لتقديم المساعدة اللازمة لهم في مجابهتهم مع الصليبيين ، فأن قوة زنكي هذه سوف تستحوذ على المنطقة التي دعيت اليها وتضمها الى ممتلكات سيدها الاتابك ، فمثلاً ، في ٥٢٤ / ١١٣٠ تظاهر عماد الدين زنكي بجهاد الصليبيين فأستجاب له المَلك بوري ، حاكم دمشق ، فما كان من زنكي الّا ان اوقع به وملك حماة التابعة ادارياً لدمشق(٤٤) . . ونفس الشيء يقال عن المخاوف التي لازمت زنكي عندما تقدم الى السلطان مسعود بطلب المساعدة العاجلة بعد التهديد البيزنطي ـ الصليبي الكبير لمدن الشام

(حلب) ، على اثر نجاح زنكي في اخذ قلعة بعرين من الصليبيين في ٥٣١ / ١١٣٧[٤٥] ، ولم يتخلص زنكي من تهديدات مسعود بالزحف صوب المناطق التابعة لزنكي (بأسم المشاركة في الجهاد . ، الاّ بعد شراء عماد الدين ذمة السلطان بمبالغ مالية مجزية . الاّ ان زنكي كان محقاً في نوع الاجراءات التوسعية التي يقوم بتبنيها ضد الامراء المحليين لانهم كانوا مسؤولين عن تبلور شتى صنوف الخلاف بين جماعة الامراء من المشاركين في حملة الجهاد ، وذلك في اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يتوقعون تسجيل انتصار لهم على الصليبيين مثلا . وكان زنكي يهاجم ممتلكات احد الامراء المحليين ممن يقف حجر عثرة بوجه توسعاته او في استقرار أتابكيته بعد كل انتصار يحققه على الصليبيين . ولم يكن عماد الدين زنكي بغافل عن علاقة هذه الخلافات بهزائم المسلمين المتكررة قبله ؛ فكان مصمماً ، بهذه السياسة على عدم تكرار مثل هذه الامور تحت زعامته وان كان في ذلك تهديد مباشر لمصالح الامراء المحليين وامتيازاتهم .

هناك اذن بعض التضارب في سياسة عماد الدين زنكي الخاصة بالجهاد : فبينما كانت هذه السياسة تتطلب منه ازالة العراقيل التي تقف بوجه نجاح حروبه مع الصليبيين ، اي التجزئة وتعدد القيادة متمثلة بتلك القوى التركمانية والمحلية المجاورة لاتابكيته والتي تمكن منها زنكي باستثناء حكم اسرة طغتكين وبعض الامراء من العرب والتركمان ، كانت نفس السياسة تستقر على مبدأ الجهاد وتنتفع منه ، التي تتطلب تلبية نداء الجهاد متى ما طلب منهم ذلك، وهم في هذه الحالة تحت قيادة زنكي الذي يدعو الامراء عن طريق مراسلاته الى الالتحاق به لغرض تحويل التزاماتهم الى مواقف عسكرية وسياسية ثابتة .

على اية حال ، فقد كانت سياسة عماد الدين زنكي بمسألة الجهاد تقضي الضرب اولاً بشدة في تلك المناطق الصليبية المتاخمة لحدود الولايات الشامية والتي تشتمل على عدد من القلاع والحصون الدفاعية ـ الهجومية كالاثارب وحارم وبعرين وغيرها (عادةً بواسطة قوة زنكي النظامية او بالحملات التي يضطلع بها أمراؤه ، وبواسطة تلك القوى التي تلبي واجب الجهاد من الذين يؤدون نداء زنكي اما اختياراً او خشيةً من بطشه) ، ثم التحرش فيما بعد بممتلكات الأمارات الصليبية الاربعة مباشرةً ، خاصةً تلك التي تخص امارتي الرها وانطاكية[٤٦] . ولكن عماد الدين زنكي لم يكن مولعاً من وراء حشد هذه الطاقات بتكوين جبهة اسلامية كما تدعى دراسة عماد الدين خليل عن زنكي لان مثل هذه الجبهة لم تكن قائمة ولا يوجد لها من اساس في سياسة زنكي ، بالرغم من وجود بعض من الحقيقة لها في الفترة التي سبقت حكم الاتابك عندما كان سلطان السلاجقة محمد يدير حرب الجهاد[٤٧] . صحيح ان الامراء المسلمين كانوا يحاربون من اجل قضية عامة مثل الجهاد ، ولكن لم تكن هناك جبهة بهذا الأسم زمن عماد الدين زنكي : فأتابكية دمشق ، التي تلعب دوراً مهماً في سياسة المنطقة على مستوى الصليبيين والمسلمين سويةً ، كانت لها وجهة نظرها في هذا الموضوع ، وكانت سياسة عماد الدين زنكي تستهدف الاستحواذ على دمشق، وحملاته غير الموفقة لضمها تعكس هذه السياسة حتى اواخر ايام حياته ؛ ثم ان الامراء التركمان كان لهم نشاطهم الخاص وميزاتهم الحربية الخاصة بهم ، التي من اهمها عدم الاعتراف باية قيادة ليس لهم ارتباط بها ، كما كان زنكي يقوم بالتوسع في اراضي امرائهم تدريجياً ؛ وكان سلاجقة الروم لهم مشاكلهم ومشغولون في استعادة ما فقدوه للامبراطور يوحنا كومنين ؛ واخيراً كان الفاطميون في نظر السلاجقة هراطقة المسلمين. وكانوا فرحين بالهزائم التي حلّت بالسلاجقة على يد

الصليبيين . وقد وجدت مثل هذه الجبهة بين البيزنطي والصليبين عندما عرض عماد الدين زنكي ممتلكات امرائهم للخطر ، كما تم اقتراح مثل هذه الجبهة بين اوربا والمغول عندما اضطلع المماليك البحرية بواجب الجهاد ، الآ ان عماد الدين زنكي لم يعمل على تكوين مثل هذه الجبهة وليس هناك في سياسته ما يؤيد ذلك ، مع ان هذا لا يعني بأن الاتابك لم ينتفع من حرب الجهاد ومن مواقف عدد من الامراء منها تلبيةً لنداءاته عند تعرضه للخطر او للهجوم او في اثناء تعرض الآخرين غير زنكي للهجوم من الصليبيين وتلبيةً لدعوة السلطان بذلك .

وللتوضيح عملياً بامثلة نقول بأن اول انتصار لعماد الدين زنكي على الصليبيين كان في حصن الاثارب سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ ، مع ان هذا اللقاء لم يكن اول مشاركة له في حرب الجهاد ، التي تعود الى ايام والي الموصل مودود في حملته على طبرية[٤٨] . ويأخذ انتصار الاثارب اهمية متعددة : فهذه المعركة اختبرت قبل كل شيء قوة الدولة الجديدة التي اوجدها زنكي وقيادة مؤسسها الاتابك ؛ كما ان هذه المعركة عرفت الفرنج (الصليبيين) بالقيادة الجديدة للمجتمع العربي - الاسلامي ضمن منطقة الجهاد المواجهة للصليبيين ، والتي باشرت بعمليات هجومية ناجحة في الاثارب وحارم تفسر من قبل ابن الاثير على ان مشروع التوسع على حساب الاراضي الاسلامية قد انتهى[٤٩] ، فهو نقطة تحول في سير العمليات الصليبية للمسلمين والفرنج سويةً . واخيراً توضح هذه المعركة حالة الثنوية في سياسة زنكي المتمثلة في متابعة الجهاد من جهة واستغلال الانتصار من اجل التوسع على حساب الامراء الاخرين من جهة اخرى كاستحواذه على سرجي ودارا من امراء التركمان وحسام الدين تمرتاش وركن الدولة داود بن سقمان[٥٠] . وكان زنكي هو الذي قد بدأ الهجوم على الحصن لتهديده المباشر لمدينة حلب ، الداخلة في اتابكيته ، كما قام بضرب القوى الصليبية التي تجمعت لحمايته بمنتهى القسوة والعنف لانه اراد ان يوضح للصليبيين وامرائهم اي نوع من الشخصيات يعني عماد الدين زنكي[٥١] . ويلاحظ بان الاتابك لم يلجأ الى استعمال اسلوب التمويه الذي قام باستخدامه فيما بعد عند اختياره اهدافاً صليبية لحملاته الحربية .

ثم جاء اختبار الصليبيين لزنكي سنة ٥٣٢ / ١١٣٨ عندما قام البيزنطيون بحملة كبيرة على الشام (اقصد زنكي) ، بقيادة الامبراطور يوحنا كومنين تلبية للنداءات التي وجهت له من الصليبيين على اثر سقوط قلعة بعرين القريبة من حماة بيد زنكي في ٥٣١ / ١١٣٧ . توصف هذه القلعة بأنها « من امنع معاقل الفرنج واحصنها » ، كما اطلق على هذا الانتصار « بالفتح المبين » لان القوة الصليبية التي هُزمتْ كانت تشتمل على تجمع هائل « للفرنج وملوكهم »[٥٢] . وقد هدد البيزنطيون بحملتهم هذه اتابكية زنكي ، بصورة خاصة حلب عن طريق مهاجمة حصن بزاعة القريب منها . ولكن يلاحظ بان الامبراطور البيزنطي لم ينتخب زنكي هدفاً للمجابهة مع قواته ، بل فضل اختيار عدد من الامراء المحليين (شيزر مثلا متمثلةً بأميرها ابن منقذ الكناني) ، ممن طلبوا من الاتابك التدخل وتقديم المساعدة . واستغل البيزنطيون من جانبهم هذه الفرصة للاستحواذ على عدد من موانىء الصليبيين وقواعدهم[٥٣] اذ يجب التنبيه على ان للبيزنطيين خلافاتهم مع الصليبيين في مسألة تنظيم الحملات الصليبية ، وفي مسألة السيادة التي يمارسها الامبراطور على الامارات الصليبية الاربعة ، تلك الخلافات التي اثرت في مجرى نتائج هذه الحملة البيزنطية . كما كان الصليبيون يعيشون فترة من الخلافات ايضاً ، التي ترجع الى ايام مجيئهم الى بلاد الشام في بدء الحملة الصليبية الاولى ، بالرغم من ان ابن الاثير ينسب تاريخ هذا الخلاف الى الحوادث التي اصابت الصليبيين في ٥٢٧ / ١١٣٣ ، والى موت كبير

« الفـرنـج » واقـوى شخصيـة بينهم ، بلدوين الثـاني (ت ١١٣١ م) ، مَلك مملكة القدس ، اكبر « الامارات » الاربعة واهمها نفوذاً[٥٤] . وكان عماد الدين زنكي يدرك ، بـدوره ، خطورة الـوضع الـذي سببته هـذه الحملة عـلى اتابكيته ومناطق بلاد الشام الاخرى ، ويظهر النداء الذي تقدم به زنكي الى السلطان مسعود بأن الاتابك كان يواجه موقفاً صعباً لا يمكن لزنكي من معالجته بنفسه ، الا ان الغاء طلب المساعدة من قبل الاتابك بعد زوال الخطر البيزنطي وعدم موافقة السلطان على ذلك الاّ بعد تقديم عروض مالية كبيرة امر ممتع ايضاً ، لان السلطان مسعود كان عدواً مفتوحاً لزنكي ، وله الاقوال المشهورة بحقه[٥٥] . ولذلك وقف هذا السلطان موقف الصمت من طلب الاتابك ولم يأمر باعداد اي جيش لـلالتحـاق بـزنكي الاّ بعـد تـوالي صيحـات البغداديين ونداءاتهم . ولكنه اصر ، بعد زوال الخطر عن زنكي ، على وجوب تـوجه الحملة الى بـلاد الشام لتـأدية واجب الجهاد بحجة ان الحملة كانت قد نظمت ولا يجوز الغاءها ، ولم يتـزحزح السلطان عن مـوقفه هـذا الاّ بعد مساهمة زنكي المالية . وكان الاتابك يرى ضرورة ابعاد هذه القوة السلجوقية عن اراضيه حتى لا تستقر هناك ويجبر على الدخول معهم في مواجهة عسكرية .

على اية حال ، فقد اثبت زنكي في هـذه المواجهـة البيزنطية ـ الصليبية قابلياته في تحقيق انتصارات عسكـرية وسياسية على الصليبيين مما لا يتمكن غيره من الامراء انجازه حتى من قبل تلك القوى التي تشتهر بشجاعتها المتميزة ، فقد كانت بعـرين قد هـوجمت في ٥٢٧ / ١١٣٣ من قبل التركمان دون نجاح ، رغم الخسائر الكبيرة التي اوقعـوها بقوة الصليبيين المدافعة عن الهدف[٥٦] . واخيراً فأن ما حدث في الاثارب تكرر في بعرين والرها من حيث تصميم الاتابك على التوسع في قلاع وحصون الامراء المسلمين والصليبيين سوية[٥٧] .

كانت الرها (اورفة الحالية) المتاخمة لحدود الاتابكة الشمالية والتي تحكم من قبل جوسلين الثاني هي الاختيار الـطبيعي لهـدف حملة زنكي الكبـرى عـلى الصليبيين في ٥٣٩ / ١١٤٦ (سنتـين قبل مقتـل الاتابـك). اما مملكـة القدس ، التي لها صلة القربى بالرها والتي تتزعم « الامارات الاربعة » من حيث مكانتها الدينية والسياسيـة ومن حيث تحرشها بين وقت وآخر بحدود اتابكته مباشرةً او عن طريق محالفاتها مع دمشق ، فلم تشكل في يوم ما هدفاً لحملات الاتابك ، لا بسبب المكانة التي تتمتع بها هذه المملكة وانما لعدم تمكن زنكي من انهاء حكم اسرة طغتكين في دمشق . وكان الاتابك يريد اخذ هذه المدينة بكل الوسائل والسبل الممكنة واستعمل معها الاسلوب العسكري والدبلوماسي مراراً[٥٨] . ومع ان الاتابك نجح في الاستحواذ على بعض الممتلكـات التابعـة لدمشق ادارياً ، الاّ ان هـدف زنكي الاساس في ضم دمشق الى اتابكته ظل حلماً غير محققاً ، وذلك بعد تأجيـل محاولتـه على دمشق وجـه عماد الـدين زنكي اهتمامه نحو الرها[٥٩] .

كانت محاولة زنكي على الرها عملية عسكرية ناجحة جـداً فقد كـانت « حصناً منيعـاً للفرنـج »[٦٠] ، ممـا حـدا بالاتابك الى تخصيص كل الوسائل والسبل المتوفرة لديه من عُـدد وآلات ومهرة وفنيين ومن تلك التي تتعلق بعمليات الحصار والهجوم . وعملت مخابراته على اخفاء هدف الحملة مستعمـلا كل وسـائل التمويه والمـراوغة التي عـرفت بها سيـاسته ، خـاصةً عـلى امير الامـارة المستهدفـة جوسلين الثاني ، الذي عبر الفرات بعـد الاطمئنان عـلى ان زنكي سوف لا يهاجم الرها . ولكن المدينة ، بعد ثمانية وعشرين يوماً من الحصار الشديد ، سلمت لزنكي ، محققاً انتصاراً كبيراً يستحقه بكل جدارة[٦١] .

لم يبق الاتابك اكثر من سنتين بعد الرها ليرى ماذا كان سيتم انجازه خلال السنوات المتبقية من حياته ، التي لم يتمتع بها بعد الاغتيال الذي دُبّر عليه من قِبل زمره من حرسه الخاص يقودهم يرنقش الخادم[٦٢] ، مع اننا نعلم بأن الاتابك كان ينوي خلال هذه الفترة تجديد مشروعه لأخذ دمشق ومهاجمة عدد من الامراء المحليين ممن تستوجب تصفيتهم لضمان الاستقرار في اتابكته بعد حوادث الشغب التي قامت بها قوة من عسكر قلعة الموصل بالتعاون مع الملك السلجوقي المتمرد فرّخشاه ، الذي يعمل زنكي اتابكاً له[٦٣] .

ولكن انتصار زنكي في الرها ساعد بالطبع على توسيع حدود دولة هذا الاتابك الكبير وعلى ارتقائه الى مستوى لا يساويه في المنزلة اي من امراء وملوك المنطقة من المسلمين والصليبيين سوية ، فلا يوجد من ينافسه بينهم على زعامة المنطقة الا ان الاكثر من ذلك اهمية على المستوى الروحي هو وضع عماد الدين زنكي كقائد لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فقد اتضح للمسلمين بان سياسة هذا الاتابك تجاه الصليبيين قد نجحت وبأنه سائر بكل تأكيد نحو اجتثاث مناطقه نفوذهم تباعاً . ويمثل سقوط الرها في نظر المؤرخين الغربيين اول هزيمة كبرى للصليبيين[٦٤] ، وهو حكم صحيح في ضوء الاحداث التي اعقبت هذا السقوط لانها تسببت في قيام الحملة الصليبية الثانية على الشام .

من اجل ذلك اصبح عماد الدين زنكي « بطلا » للمسلمين[٦٥] ، واشهر شخصية بين معاصريه فهو الزعيم الجديد الذي لاغبار عليه وتقف هذه الصورة الجديدة لزنكي[٦٦] ولزعامته وراء نظرية ابن الاثير في تفسير ظاهرة ارتقاء الاتابك وارتباطه بحركة الجهاد وهي ان اختياره لقيادة هذه الامة ولاخراجها من محنتها مع الصليبيين كان اختياراً ربانياً ، فالاتابك بحكم هذا الاختيار كان من افضل الحكام المسلمين واعلاهم شأناً وهو لذلك يحظى بالتأييد الالهي وبدعمه ، ومسؤول عن نجاحه مع الصليبيين[٦٧] ، وقد وجدت هذه النظرية استجابة لدى بعض الباحثين المحدثين فتبنوا محتواها لتفسير ظاهرة عماد الدين زنكي ودوره في التاريخ الاسلامي[٦٨] .

ان من اهم ما يميز عمل زنكي كظاهرة تاريخية هو ان هذا الاتابك منذ البداية كان قد ربط مصيره بحركة الجهاد ، التي كان احد عناصرها الاساسية ، فقد كانت سياسته بهذا الصدد مسؤولة عن شهرته ومكانته كبطل من ابطال الاسلام ، اما سياسته تجاه السلطنة والخلافة فكانت دفاعية في طبيعتها ، وكان وضعه مع الصليبيين يتطلب منه التريث لمعالجة الخطورة التي كان يثيرها ضده كل من السلطان والخليفة سويةً . . يضاف الى ذلك ان اهتمام عماد الدين زنكي ببلاد الشام وميله الى التوسع على حساب الولايات التي تتكون منها كان امراً طبيعياً ، وتقضي بذلك نفس سياسته تجاه الصليبيين ، الذين كانوا يتوسعون باتجاه حدود اتابكته والذين لم يغيروا في مسار هذا التوسع الاّ بعد اختفاء عماد الدين زنكي . لكن هذا الاتابك لم يكن خالياً من التطلعات التي كانت تشغل بال امراء السلاجقة وقادتهم لانه كان يمثل نتاج السلاجقة ومؤسسات السلطنة السلجوقية ، العسكرية منها خاصةً ؛ فكان من اساس تطلعاته ان يرى من نفسه على رأس دولة يمثلها خير تمثيل اسلوبه السياسي والعسكري في الحكم .

جمع عماد الدين زنكي في شخص قيادته بين النوعية العسكرية والسياسية للقائد[٦٩] ، مما لم يكن واضحاً عند كثير من سابقيه من الامراء : فصفاته العسكرية تفوق حد الوصف ، فهو عسكري مقاتل من الطراز الاول ومتمكن من شتى صنوف القتال وفنونه وخاصةً القتال المرتبط بالقلاع والحصون ، الذي عرفته بلاد الشام ، وفي المصادر اجماع عام على شجاعته وقابلياته على المناورة واتخاذ القرارات وعلى

الصبر والجلد في الحروب ؛ وتحوي هذه الادبيات على شتى القصص والحوادث للتدليل على تلك القدرات المتميزة . كما ان الجيش الذي بناه الاتابك بنفسه يدلل على تنظيم عسكري ناجح جداً ، بما في ذلك نوع الضبط والنظام الذي كان يمارسه على وحداته . ولكن على الرغم من سمعته كمحارب و « غازٍ » وسياسي ، فأن زنگي لم يفلح في كسب ما قاده من حملات على مناوئيه من تلك التي استهدفت الخلافة ودمشق وبعض امراء التركمان ، فكان عندما لا يرى نصراً قريب الوقوع له ، يسمح لنفسه بالانسحاب للاحتفاظ بماء الوجه للمناسبة القادمة(٧٠) .

كما كان عماد الدين زنگي سياسياً وادارياً ناجحاً على خلاف كثير من امراء الجيش السلجوقي ممن عاصره او ساواه في الرتبة والوظيفة . وقد ساعدته على ذلك صفاته الفسيولوجية والعسكرية التي تدخل في تركيب شخصيته والتي تثبتها المصادر بأقوال مختلفة(٧١) اساسها عدم تعرف مناوئيه العسكريين والسياسيين على نواياه واهدافه وعدم التردد في اخذ الاجراءات الكفيلة بتحقيقها . فكان من مظاهرها نجاح الاتابك في فرض الامن والنظام على المناطق التي تتكون منها اتابكيته ، خاصةً في المناطق التي يصعب تطبيق مثل ذلك عليها ، من ذلك مثلا حملاته الكردية(٧٢) ، التي كانت ترتبط بسياسته في عمارة البلاد وفلسفته السياسية في الحكم التي تدور حول مفهوم العدل والاخلاص في الواجب .

لقد كان عماد الدين زنگي بداية لظاهرة سياسية جديدة في الموصل والشام ، ولكنه لم يكتب له اتمام مهمته مع الصليبيين كما يجب وترك الامر لابنه نورالدين لانجاز ذلك : فأن كان الخطر الصليبي مسؤولاً عن ظهور الاتابك ، فزنگي هو الرجل المناسب لمعالجته ، والذي لم يبخل في اعطاء ما لديه من مواهب لذلك . ولكن عماد الدين زنگي زال قبل ان يتمم الكثير مما يتمكن من انجازه ، مع ان هذا لا يغير من الحقيقة الواقعة بأن ما عمله في مجال الجهاد وتكوين الأتابكية قد اسهم في وضع اسس المملكة التي خُلّد بها اسم نورالدين محمود . فيما بعد .

الهوامش :

(١) واحدة من مجموعة مقالات عن الحروب الصليبية نشرت في كتاب يحمل عنوان :
A History of the Crusades, ed. by K.M. Settom (2 Vols.) Philadelphia : university of Pensylvania press, 1958, Vol.2.

(٢) هذه الدراسة في الاصل رسالة ماجستير منشورة بعنوان : عمادالدين زنگي (بيروت : الدار العلمية ، ١٩٧١) .

(٣) بعنوان الحروب الصليبية والاسرة الزنگية (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢) ، والكتاب يحتوي على معلومات نافعة .

(٤) رسالة جامعية نشرت في : (القاهرة : مطابع سجل العرب ، ١٩٧٥) .

(٥) من بين ذلك ما ساهم به ستيفن رانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (مجلدان : بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧) ؛ وما نشره سعيد عبدالفتاح عاشور وحسن حبشي ؛ ورسالة محمد محمد مرسي الشيخ المنشورة عن : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية : دار الثغر ، ١٩٧٤) ؛ وما كتبه رشيد الجميلي عن التاريخ السياسي لدولة الاتابكة في الموصل (بيروت : دار النهضة ، ١٩٧٠) . وتجدر الاشارة الى ان تعبير « الصليبيين » الشائع الاستعمال هو من التعابير التي لم تكن تعرف زمن عماد الدين زنگي ، الذي يقابله في المصادر العربية « الفرنج » او « الافرنج » ، اي المجتمعات الكاثوليكية التي تكونت في قلب بلاد الشام من اوربا الغربية وقد استعمل تعبير الصليبيين هنا لما يقابل هذه المجتمعات الفرنجية . عن هذا التعبير ووقت شيوعه راجع : CL. Cahem, (Crusades), El, II, 63 — 66

(٦) انظر : M. G. S. Hodgsom, The venture of Islam (Chicago : The University of Chicago Press, 1974) Vol. 2, p. 264 .

(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، م ١٠ ، صص ٥٨٨ ، ٦٠٤ ، ٦٢٢ . وكان السلطان محمود قد اصدر اوامره بوضع وحدات من جيوش امراء الاطراف تحت اشراف والي الموصل آق سنقر البرسقي ، وكان زنگي ، بسبب تنقل القوة التي يترأسها قد ضاق ذرعاً بهذا كما يظهر من حواره مع قادة الوحدات التي تتبعه : « كل يوم للموصل امير جديد ونريد نخدمه ، وقد رأيت ان اسير الى السلطان فأكون معه » ، انظر المصدر ذاته ، م ١٠ ، ص ٦٢٣ .

(٨) الذين حلوا محل الفاطميين

(٩) قام بأداء هذه المهمة كل من فخر الدولة بن جهير ، وزير الخليفة المقتدي في حينه وابنه عميد الدولة ووالد زنگي المدعو قسيم الدولة آق سنقر ، من

بين كثير من الاشارات راجع ابن الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، ص ٥ ؛ العماد الاصفهاني، تاريخ دولة اق سلجوق، ص ٧٦ .

(١٠) راجع ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٢٤٤ ـ ٤٨ .

(١١) وهو احد الشخصيات المتحكمة بسلطنة محمود، وكان مسؤولاً عن جملة من امراء السلاجقة من بينهم زنكي وقتل على يد الباطنية في جامع الموصل . ولم يكن ابنه مسعود، الذي كُلِّف بمتابعة حرب الجهاد مع الصليبيين، بمستوى والده وكفاءته . راجع عن آق سنقر البرسقي وسيرته ابن القلانسي، ذيل تاريخ مدينة دمشق، ص ٢١٤ ؛ ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٦٣٣ ـ ٣٤، وتتكرر الملاحظات في الباهر .

(١٢) لاحظ ما يقوله ابن القلانسي في ذيل دمشق، صص ٢١٦ ـ ١٧ : « انه (اي مسعود) عازم على التأهب والاحتشاد لقصد اعمال الشام والعبث فيها والافساد . فعزم ظهير الدين اتابك (اي طغتكين) على الاستعداد لقصده في عسكره . . فيُوقع بعسكره ويشفي غليلهُ بالفتك بحزبه » .

(١٣) ويتوقع هؤلاء الامراء زوال الخطر دون ان تقع لهم اية كارثة .

(١٤) راجع ملاحظات هوجسن في : Venture of Islam, Vol. 2, P. 265

(١٥) وهما كلٌ من الملكين آلب ـ ارسلان وفَرّخشاه المعروف بالخفاجي، راجع ابن خلكان، وفيات الاعيان، م ٢، ص ٣٢٨ ؛ العماد الاصفهاني، تاريخ آل سلجوق، ص ١٨٨ ؛ قارن مع ابن الاثير، الباهر، ص ٧١، بشأن هوية كل منهما وتمرد الخفاجي على نائب زنكي في الموصل في ٥٣٩ / ١١٤٤ .

(١٦) يجب التمييز بين قسيم الدولة آق سنقر والد عماد الدين زنكي وبين الامير آق سنقر البرسقي، والي الموصل قبل زنكي بقليل بسبب وقوع الخلط بينهما، (انظر مثلا محمود ياسين التكريتي، الايوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٣، هـ ٥، كما لم يكن زنكي ابناً لجركمش راجع رنسمان، مصدر سابق، م ٢، ص ١٧٨ . عن السيرة الذاتية لقسيم الدولة آق سنقر والوظائف التي تقلدها وعن مكانته بين امراء السلطان ملكشاه راجع ابن الاثير في كل من الكامل، م ١٠، صص ٢٣٢ ـ ٣٣، الباهر، ص ١٥ .

ويذكر ابن تغري ـ بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، م ٥، ص ٥٤١، ان من بين القاب قسيم الدولة لقب « الاتابك »، وهذا مما لا يرد في المصادر الرئيسية كابن الاثير وابن العظيمي، الذي يقتبس منه ابن خلكان في ترجمة عمادالدين زنكي، راجع وفيات الاعيان، م ٢، صص ٣٢٧ ـ ٢٨ . اما عن سيرة عمادالدين زنكي (٤٧٧ ـ ٥٤١ هـ)، فمن الضروري لاية دراسة هستريوغرافية من القيام بمقارنة عامة بين ما يورده ابن الاثير عن زنكي وبين تلك التي يخصّ بها ابن القلانسي في ذيل دمشق (مع اضافة ابن العظيمي اليهما)، لان الاثنين يمثلان وجهات نظر متضاربة . ولا ينفع ابن الجوزي في المنتظم من متابعة سياسة زنكي في الجهاد، الّا انه مهم فقط من ناحية تمثيله لوجهة نظر الخلافة وموقف زنكي منها، الذي كان يتذبذب طبقاً لمصالحه ؛ كذلك ما يورده ابن كثير في البداية والنهاية . واذا اردت مفصلاً لحياة عماد الدين زنكي فراجع عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، صص ٣١ ـ ٤٥، صص ١٦٩ ـ ٨٧ ولكن يجب الّا ينظر الى زنكي في محتوى غير النظم العسكرية السلجوقية ومؤسساتها .

(١٧) راجع ما ورد قبلا هـ ٧، هـ ١١ .

(١٨) هناك تفاصيل كثيرة عن هذه المناصب والتعيينات قام بدراستها وتصنيفها وتنسيقها عماد الدين خليل . انظر اعلاه هـ ١٦ .

(١٩) وهؤلاء هم كل من الاميرين صلاح الدين الياغسياني، « امير حاجب » البرسقي سابقاً، والذي حلّ بنفس منزلته السابقة عند زنكي، ثم صهر الياغسياني، نصير الدين جَقَر، والقاضي البارع بهاء الدين الشهرزوري . راجع عن دور هؤلاء الثلاثة في ولاية زنكي : ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٦٤٣ ـ ٤٤، وانظر ابن تغري ـ بردى، النجوم الزاهرة، م ٥، ص ٥٤١ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م ١١، ص ٢٢١ .

(٢٠) راجع ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٦٤٤ ـ ٤٥ ؛ وايضاً الباهر، ص ٣٢ .

(٢١) نص منشور التولية لا يرد في المصادر، ولكن ما ثبت مأخوذ من ابن الاثير الباهر، ص ١٢ .

(٢٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ص ١٢ .

(٢٣) يقتبس ابن الاثير قولاً لزنكي نصه : « ان البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على غورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها »، « وهذا يعكس جانباً من فلسفته السياسية في الحكم، انظر الباهر، ص ٧٩ .

(٢٤) عن تفاصيل هذه الحملات راجع ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٦٤٥ ـ ٤٧، صص ٦٤٩ ـ ٥١ .

(٢٥) بالرغم من تحرزه لم يمنع من الوقوع فريسةً للاغتيال بيد رجال من حرسه الخاص . وكان زنكي على علم بسلسلة الاغتيالات التي قام بتنفيذها رجال الباطنية ضد سابقيه من ولاة الموصل والامراء والشخصيات السلجوقية . عن هذه النقاط راجع ابن القلانسي، ذيل دمشق، ص ٢٨٥ ؛ العماد الاصفهاني، تاريخ آل سلجوق، ص ١٩٠ .

(٢٦) وكانت الباطنية قد اصيبت بنكسة كبيرة خلال حكم زنكي على اثر الضربة التي وجهت الى قاعدتهم في دمشق سنة ٥٢٣ / ١١٢٩ بسبب اجراءات حاكمها تاج الملوك بوري، خلف طغتكين، راجع ابن الاثير، الكامل، م ١٠، صص ٦٥٦ ـ ٥٧ ؛ ابن القلانسي، ذيل دمشق، صص ٢٢١ ـ ٢٣ .

(٢٧) كان السلطان محمود ميالاً للاتابك ومعجباً بشخصيته ويحتفظ بعلاقات جيدة معه، ولكن السلطان مسعود يقف على النقيض ويقول ابن الاثير بهذا الصدد بأن السلطان : « كان قد تجهز لقصد اتابك زنكي، وبأنه كان قد حقد عليه حقداً شديداً بسبب ما ينسبه مسعود الى زنكي من اثارته لامراء الاطراف ضده »، راجع الكامل، م ١١، ص ٩٣ ؛ وانظر ايضاً ابن الاثير، الباهر، ص ٦٥ .

(٢٨) ينسب ابن خلكان قولاً الى ابن العظيمي (الذي كان معاصراً لزنكي والذي لم يصل جميع تاريخه الينا الا ما بقي منه محفوظاً في مكتبة **المتحف** العراقي) ، مفاده بان الخليفة المسترشد هو الذي رشح زنكي دفعاً **لغريمه** دبيس بن صدقه المزيدي ، راجع وفيات الاعيان ، م ٢ ، صص ٣٢٨ ـ ٢٩ .

(٢٩) كان زنكي في البداية **واحداً** من امراء السلاجقة المنغمسين في مسألة الصراع حول السلطنة ، ولكنه تخلى عن هذا الموقف خلال النصف الثاني من فترة ولايته (٥٣٠ ـ ٥٤١ هـ) لصالح سياسته الخاصة بالجهاد . عن تفسير اخر يغاير هذا الرأي راجع عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص ٢٢٧ .

(٣٠) عند محاصرة زنكي لقلعة جعبر التابعة للامير العقيلي سالم بن مالك ، عن الروايات الخاصة بهذه النقطة راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ١٠٩ ؛ ايضاً الباهر ، صص ٧٤ ـ ٧٥ ؛ ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، صص ٣٨٤ ـ ٨٥ .

(٣١) وهي تتضمن الدعوة التي وجهت لزنكي من شمس الملوك ومشروع زواجه من زمرد خاتون ، ثم محاولة زنكي لاخذ دمشق بالقوة عن طريق الحصار . وجاءت محاولته الاخيرة بعد انتصاره في الرها ولكن زنكي ارجأ المشروع ولم يتحقق كلياً . للمعلومات عن هذه المحاولات راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، صص ٢٠ ـ ٢١ ، ص ٥٠ ، ص ٦٩ ؛ ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٣٢) العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٦ .

(٣٣) راجع النص في الجنزوري ، امارة الرها **الصليبية** ص ٣٨٦ وما بعدها ، وهي لنرسيس ، بطريرك **الارمن** .

(٣٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٣ .

(٣٥) المصدر ذاته .

(٣٦) M. Hodgson Venture of Islam, Vol. 2, P. 265.

(٣٧) وقد استغلت الباطنية هذا الوضع لصالحها .

(٣٨) وهي نقطة الاساس في مقالته راجع : Gibb (Zengi and the fall of Edessa), P. 449 .

(٣٩) التفاصيل يوردها ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٥٠٩ ـ ٥١٣ .

(٤٠) راجع عنه ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، صص ٢١٨ ـ ٢٢٠ ؛ واشارة ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ؛ وانظر : F. Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, P. 40

ومثل اخر في شخص والي الموصل آق سنقر البرسقي كما نوهنا سابقاً .

(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥٠ .

(٤٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، م ١١ ، ص ٧ ؛ المصدر ذاته ، م ١١ ، صص ١١ ـ ١٢ . نموذج اخر بشخص شمس الملوك ، الذي خرج لمواجهة الصليبيين مع حشد كبير من التركمان وغيرهم ؛ وانظر كذلك ، م ١٠ ، ص ٦٨٤ ، بالنسبة لما عملوه في بانياس .

(٤٣) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٥١ .

(٤٤) راجع ما ورد قبلا ،

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٩٥ ، تمعن في **قول** زنكي بعد انحسار الخطر : « بأن لا يستصحب من العسكر احداً » ، وفي رد السلطان : « بأن العسكر قد تجهزوا ولا بُدّ من الغزاة الى الشام » ، وتعليق ابن الاثير : « ولم يعد العسكر الاّ بعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له (للسلطان) ولاصحابه » !!

(٤٦) عن حملات الامير اسوار وتواريخها راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، ص ٦٨٥ ، م ١١ ، صص ٨ ـ ٩ . وكان زنكي يضطلع عادة بأداء المهمات الرئيسة المستهدفة قلاع الصليبيين وحصونهم ، بينما كان اسوار يكلف بمتابعة الجهاد في مناطق حلب وقد قام اكثر من مرة بايقاف هجمات الرها واللاذقية والقدس .

(٤٧) هذا الرأي يتكرر في عدد من المصادر الثانوية المتداخلة ، راجع مثلا عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص ١٦٥ ؛ محمد محمد مرسي الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، صص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ؛ محمود ياسين التكريتي ، الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ، ص ١٣٥ (والمصادر التي يشير اليها . قارنه بما يذكره شاكر ابو بدر ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ٦٩ . وكان هدف زنكي تكوين امارة خاصة به وليس ايجاد جبهة اسلامية موحدة لان الجبهة من خصائصها المحافظة على حكم الامراء المحليين ، بينما كانت سياسة زنكي تستهدف التخلص منهم تباعاً .

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ١١٢ ؛ وانظر ايضاً الباهر ، صص ٨٠ ـ ٨١ .

(٤٩) ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، ص ٦٦٣ .

(٥٠) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٦٦٤ .

(٥١) كذلك ، م ١١ ، ص ٦٦٣ حيث قال زنكي : « بأن هذا اول مصاف عملناه معهم ، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم » .

(٥٢) للتفاصيل راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، صص ٥١ ـ ٥٢ ؛ انظر ايضاً الباهر ، ص ٥٩ . وهي مذكورة بأسم (بارين) ، راجع ياقوت ، معجم البلدان ، م ١ ، صص ٣٢٠ ـ ٢١ ، ص ٤٥٢ .

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، صص ٥٣ ، ص ٥٧ ، ص ٥٨ .

(٥٤) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٨ .

(٥٥) كذلك ، م ١١ ، ص ٩٣ .

(٥٦) كذلك ، م ١١ ، صص ٧ ـ ٨ .

(٥٧) للاطلاع على نماذج من حملات زنكي هذه راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥٢ ، ص ٩٨ ، من بين اشارات اخرى كثيرة .

(٥٨) راجع ما ورد قبلا ، هـ ٣١

(٥٩) راجع ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٢ ، وما كتبه : B. Lewis, (Egypt and Syria), The Cambridge History of Islam (London, Cambridge University press, 1979), Vol. IA, 200 .

(٦٠) **ياقوت**، معجم البلدان ، م ٣ ، ص ١٠٦ ، وتكتب **(الرهاء)**، وصنعتها الجنزوري ، مصدر سابق ، ص ٥٣ : « بأنها جزيرة مسيحية وسط

محيط من الاتراك المسلمين » .

(٦١) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، صص ٩٨ - ١٠٠ ؛ وايضاً الباهر ، صص ٧٧ - ٧٠ ؛ ابـن الجـوزي ، المـنـتـظم ، م ١٠ ، ص ١١٢ (مقتضب) .

(٦٢) عن برنقش ودوافعه راجع ابن القلانسي ، ذيـل دمشق ، صص ٢٨٤ - ٨٥ ؛ قارن ذلك بما ورد في العماد الأصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، صص ١٨٩ - ١٩٠ ؛ ابن الاثير ، الباهر ، صص ٧٤ - ٧٥ .

(٦٣) عن ترد : فرخشاه راجع ما ورد قبلا في هـ ١٥ .

(٦٤) انظر : B. Lewis, (Egypt and Syria), in op. cit, vol. IA, p.200

(٦٥) انظر : C. E. Bosworth. The political and Dymastic History of the Iramian **warld, in the Cambridge Historyof Iran, ed. by Boyle (Cambridge: The University press,1968), vol.5. 127. Dynastic**

(٦٦) نتيجة لانتصار الرها حصل زنكي على القاب جديـدة يوردهـا ابن القلانسي في ذيل دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٦٧) ابن الاثر ، الباهر ، صص ٣٣ - ٣٤ .

(٦٨) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص ١٠ .

(٦٩) كما يتضح من حكم ابن الاثير (يتبعه ابن خلكان) عليه : « شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة » ، راجع الكامل ، م ١١ ، ص ١١١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، م٢ ، ص ٣٢٩ .

(٧٠) مثلا حصاره لحماة في ٥٣١ هـ ، الذي انتهى بالفشل ، راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥١ : « فأقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض » .

(٧١) راجع مثلا ما يقوله عنه العماد في تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٧ .

(٧٢) قارن مع ما يذهب اليه : Bosworth in op.cit, vol. 5, p. 127

المصادر والمراجع

ابن الاثير ، عزالـدين . الكامـل في التاريـخ (بيروت : دار صـادر ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦) ، م ١٠ - ١١ .

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبدالقادر طليمات (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣) .

ابن تغـري بردي ، جمـال الـدين . النجـوم الـزاهـرة في ملوك مصـر والقاهرة . (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣) ، م ٥ .

ابن الجوزي ، عبدالرحمن . المنتظم في تاريخ الملوك والامم حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٧ / ١٩٣٨) ، م ٩ - ١٠ .

ابن خلكان ، شمس الدين . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٩) ، م ٢ .

ابن القلانسي ، ابويعلى . ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق امدروز (بيروت : مطبعة اليسوعين ، ١٩٠٨) .

ابن كثير ، اسماعيل . البداية والنهاية (بيروت : المعـارف والنصر ، ١٩٦٦) ، م ١١ .

ابو بدر ، شاكر احمد . الحروب الصليبية والاسرة الزنكية (بيـروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢) .

Bosworth C.E. The political and Dynastic History of the Iramian World, in The Cambridge History of Ira.:n, ed. by J.A.Boyle (Cambridge : The university press, 1968), vol. 5.

التكريتي ياسين محمود . الايوبيون في شمال الشام والجزيرة (بغداد : دار الرشيد ، ١٩٨١) .

Gabrieli Fracesco. Arab **Historians** of the Crusades (London : Routledge Kegan , 1969) .

Gibb, H.A.R. (Zengi and the fall of Edessa) in A History of the Crusades, ed. by K.M. Setton (Philadelphia : University of pennsylvania press, 1958), vol. II

الجنزوري ، علية عبدالسميع . امارة الرها الصليبية (القاهرة : مطابع سجل العرب ، ١٩٧٥) .

خليل عماد الـدين . عماد الـدين زنكي (بيروت : الـدار العلمية ، ١٩٧١) .

رنسيمان ستيفن . تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد البازي العريني (مجلدان : بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧) .

الشيخ ، محمد مرسي . الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية : دار الثغر ، ١٩٧٤) .

العمـاد الأصفهاني . تـاريخ دولـة آل سلجـوق ، اختصـار البُنْداري (القاهرة : مطبعة الموسوعات ، ١٣١٨ / ١٩٠٠) .

Cahen, clude. (Crusades) in EI. 2., vol. II., Hodgson, M.G.S. The Venture of Islam (Chicago : The University of Chicago press, 1974) vol. 2.

ياقوت الحموي ، شهاب الدين . معجم البلدان (بيروت : دار احياء التراث ، د. ت م ، م ١ ، م ٣) .

* * *

جهاد صلاح الدين الأيوبي
« التاريخ والشعر »

د. ناظم رشيد
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

أنجبت الامة الاسلامية رجالا أفذاذا ، لا نزال نفتخر بهم لما لهم في نفوسنا من حب واجلال ، ونعتز بأعمالهم العظيمة ، ونقرأ أخبارهم ، ونقف عند سيرهم ، نلتمس منها صور الشهامة والشجاعة والبطولة والاقدام . . . ومن هؤلاء الأفذاذ الذين سطروا في سجل التاريخ بحروف من نور ملاحم خالدة ، ومواقف نادرة ، « العالم العادل المجاهد المرابط ـ كما نعته الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[١] ـ صلاح الدين يوسف بن أيوب » المولود في قلعة « تكريت » سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، حيث كان والده واليا عليها ، ثم انتقل به الى « الموصل » ، وترعرع فيها ، ومنها تحوّل والده الى « بعلبك » بعد ان ولّاه نور الدين محمود بن زنكي حكمها . وكان صلاح الدين كما يقول ابن شداد[٢] : « يتربّى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه امارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة » .

كان صلاح الدين منذ الصبا مولعا ـ الى جانب التحصيل العلمي ـ بالرماية والفروسية ، فنراه يلتحق ـ وهو لا يزال غض الاهاب ـ بعمه أسد الدين شيركوه الذي كان قائدا شهما بحلب لنور الدين محمود ، ثم يذهب لمعاونة أخيه شمس الدين توران شاه حينما كان يعمل في ديوان الجيش بدمشق ، ويعود ثانية الى حلب ويتصل بنور الدين محمود ، ويتعلّم منه امور الجهاد كما يقول ابن الفرات[٣] ، ويصبح واحدا من ملازميه المقربين ومعاضديه المؤتمنين « لا يفارقه في سفر ، ولا حضر ، وكان يفوق الناس في لعب الكرة ، وكان نور الدين يحب لعب الكرة »[٤] ، وهي لعبة الفرسان آنذاك ، يمارسونها على ظهور الخيل ، يقاذفون كرة خشبية بمضارب طويلة ، وللعماد الأصبهاني قصيدة جميلة في صلاح الدين ، وقد عثر جواده وهو يضرب الكرة مع نور الدين ، مطلعها[٥] :

لا تنكرنّ لسابحٍ عثرتْ به
قدمٌ ، وقد حمل الخضمّ الزاخرا

لقد كان صلاح الدين بالنسبة الى نور الدين خير خلف لخير سلف في النضال والجهاد ، قال أبو شامة المقدسي عنهما[٦] : « فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ـ رضي الله عنهما ـ في المتقدمين ، فان كل ثانٍ من الفريقين حذا حذوَ مَن تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في اعزاز دين الله أيّ

اجتهاد » .

جاء الفرنج بجيوش جرارة الى الديار المصرية سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وعلى أثر ذلك أرسل نورالدين محمود جيوشا قوية لمحاربتهم ورد كيدهم بقيادة أسد الدين ومعاونة ابن أخيه صلاح الدين ، واستطاعت هذه الجيوش المؤمنة بالحق طرد الغزاة ومحقهم بعد مجابهة عنيفة ومضاربة شديدة ، وكان فيها للشاب المتألق صلاح الدين دور بارز ومشرف في مقارعة الأوغاد الظالمين ، ومصاولة الأشرار الغادرين . ولما زال الخطر وهدأت الامور وتخلصت مصر من شر المهاجمين قفل أسد الدين راجعا الى الشام مع صلاح الدين .

عاود الفرنج هجومهم الغادر على مصر سنة أربع وستين وخمسمائة حاملين معهم كل أسباب الفتك والدمار والخراب . وقد دفع الخوف منهم ان يبعث صاحب مصر العاضد بالله رسالة استغاثة الى نورالدين محمود ومعها خصلٌ من شعر نسائه ، يقول فيها[٧] : « أدركني ، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج » .

جهّز نورالدين العساكر المجاهدة بقيادة أسد الدين وبرفقته صلاح الدين المتحمس للنضال واستئصال جذور البغي والعدوان ، ولما اقترب هذا الجيش من القاهرة هرب الفرنج هلعا وفزعا ، وصاروا ـ على قوتهم وعنادهم ـ كالغنم المذعورة كما يقول اسامة بن منقذ في قصيدة يخاطب فيها صلاح الدين[٨] :

وهم اسود الشرى ، لكنْ أذلَّهمُ
ملكٌ لديه الاسودُ الغُلْبُ ، كالغنمِ

وبقي أسد الدين في مصر ، وتقلّد الوزارة للعاضد ، وبعد شهرين وخمسة أيام قضى نحبه ، وتولّى الوزارة من بعده صلاح الدين ، ومن هنا بدأ نجمه يلمع ، وهلاله يعلو ويسطع ، « وارتفع قدره عند المصريين ، وائتلفت عليه القلوب ، وخضعت له النفوس[٩] » ، ونظم العماد الأصبهاني في هذه المناسبة قصيدة حماسية تفوح برائحة الصدق طلب فيها من صلاح الدين ان ينهض كالأسد القوي ، غضبا للحق المسلوب ، وانتصارا للدم المسكوب ، ويهجم على الافرنج في أوكارهم ويطردهم من الأرض المقدسة[١٠] :

ومـا يرتـوي الاسـلامُ حتى تُغـادروا
لكم من دمـاء الغادرين بها غُـدْرا
فصبُّوا على الافرنج سوطَ عذابها
بأن تقسموا ما بينها القتلَ والأسرا
ولا تهملوا البيتَ المقدّسَ واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البِكرا
تديمون بالمعروف طيِّب ذكركم
وما الملكُ إلّا ان تديموا لكم ذكرا

ان هذا الشعر صدى لما في نفوس الناس من ألم وحسرة وأسف على الديار التي نُهبت ، والمقدسات التي انتهكت ، والأرواح التي زهقت . ويظهر ان الشاعر أراد بهذه القصيدة ان يثير حمية صلاح الدين ويدفعه الى تحرير ممتلكات المسلمين كاملة بعد تسلمه القيادة وتسنّمه أمر الوزارة في مصر .

أحسّ الافرنج بنوايا صلاح الدين ورجاله المخلصين في اقامة وحدة قويّة بين دمشق والقاهرة يشد بها أزره ويضرب فلولهم الى الأبد ، ولذلك قرروا ان يُفشلوا هذه الخطةَ ونزلوا على شواطىء مصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وداهموا دمياط « بالمنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك[١١] » تمهيدا للسيطرة على القاهرة ، وحاصروها خمسين يوما ، ومنعوا عنها الأرزاق . ولكن القائد الهمام استطاع بفكره النير وخطته المحكمة الدقيقة وجيشه المقتدر من سحقهم وإبادة الكثيرين منهم . قال ابن شداد المرافق الدائم لصلاح الدين[١٢] : « وشنّ عليهم الغارات ، حتى بان لهم الخسران ، وظهر على المرق

الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرِّقت مناجيقهم ، ونُهبت آلاتهم ، وقُتل منهم خلق عظيم ، وسَلِمَ البلد ـ بحمد الله ومنِّه ـ عن قصدهم » . وبهذا العمل النبيل كسب سمعة كبيرة ، وودّه الناس ، صغارا وكبارا ؛ لأنهم وجدوه الذائد الأمين عن حياضهم ، والمدافع المخلص عن شرفهم وعرضهم ، وصدق الأسعد بن ممّاتي حين قال مخاطبا صلاح الدين[١٣] :

ومـلكـت ألـبـابَ الأنـا
م كـأنّـك السيفُ الصقيـلُ
أنـتَ المقيـلُ من الخـطو
بِ وظـلُّ دولتك المقيـلُ

وصوَّر فتيان الشاغوري هذه المعركة تصويرا بارعا ، وأبان عن شجاعة البطل النادرة ، في مواجهة الزخم الهائل من القوات المهاجمة ، وشلّ حركتهم ، وتحطيم عُددهم ، وسحق جموعهم ، وطرد من تبقّى منهم كالأنعام الجوافل كما يقول[١٤] :

ولـما أتـوا دمياطَ كـالبحـر طـامياً
وليس لـه من كثـرة القـوم سـاحـلُ
يـزيـد عن الاحصـاء والعـدِّ جمعُهم
الـوفُ الـوفٍ خيـلُهـم والـرّواحـلُ
رأوا دونها اسْـداً بـأيـديهـمُ الـقـنـا
وبيضـاً رقـاقـاً أحكمتهـا الصيـاقـلُ
فعـادوا عـلى الأعقـاب منهـا هـزيمـةً
كـأنّهمُ ذلًّا نـعـامٌ جـوافـلُ

ولما استقل صلاح الدين بملك مصر سنة سبع وستين وخمسمائة بعد وفاة العاضد أعاد الخطبةَ لبني العباس ، وهزّ الفرح الخليفة المستضيء بأمر الله حينما وصل اليه هذا الخبر ، وزيِّنت بغداد ، وخرج الناس بالأهازيج ، وشارك الشعراء في هذا المهرجان ، منهم شمس المعالي أبو الفضائل الحسين بن محمد بن تركان حاجب الوزير ابن هبيرة ، ومما جاء في قصيدته قوله[١٥] :

لـتـهـنـك يـا مـولى الأنـامِ بشـارةٌ
بهـا سـيف ديـن الله بـالحقّ مـرهـفُ
ضـربـتَ بهـا هـامَ الأعـادي بهـمَّـةٍ
تـقـاصـر عنهـا الـسمهـريُّ المثـقّف
بـعـثـتَ الى شـرق البـلاد وغـربهـا
بـعـوثـاً من الآراء تُحيـي وتُـتـلفُ
فقـامت مقـامَ السيف والسيفُ قـاطـرٌ
ونـابت منـابَ الـرمح والـرمحُ يـرعفُ
وقـدتَ لهـا جيشـاً من الـروع هـائـلاً
الى كـل قلبٍ من عـداتـك يـزحـفُ

وتهيأت الظروف لصلاح الدين في توحيد مصر والشام ، فقد توفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، وكان ابنه الصالحُ اسماعيل صغيرا لا يتجاوز احدى عشرة سنة . واستطاع صلاح الدين فيما بعد السيطرة على بلاد الجزيرة وديار بكر والحجاز واليمن ، وهكذا اتحد قسم كبير من العالم العربي تحت لوائه ، يقود الامة من نصر الى نصر .

بدأ البطل الصنديد جهاده ، ونَهَدَ لمعارك التحرير التي سنبينها من خلال أصوات الشعراء الذين شاركوه في القتال وهم قريبون منه او الذين آزروه في النضال وهم بعيدون عنه ، تلك الأصوات الهادرة التي لم تفتر او تهدأ الى ان مضى الى جوار ربه قرير العين وقد حقق الجزء الأكبر من آماله في طرد الصليبيين من الشام ، اللهم إلّا رقعة صغيرة تمتد من « صور » الى « عكا » .

انتقل الى رحمة ربه بكرة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة « وكان قد أوصى ان يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصى ، ويكون قبره على النهج السائل ، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد

والصادر ، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر[١٦] » . قال أبو شامة المقدسي[١٧] : «وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لايعلمه إلا الله تعالى ، وتالله لقد كنتُ أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم » . ورثاه الشعراء بعيون هامية ، وقلوب دامية ، وكان العماد الأصبهاني أكثرهم حزنا ، حيث بلغت قصيدته مئتين واثنين وثلاثين بيتا أتى فيها سيرته وجهاده وفجيعة المسلمين بفقده ، ومطلعها[١٨] :

شمـلُ الهـدى والملك عـمَّ شتـاتـه
والـدهـر ساء وأقلعتْ حسنـاتُـه

ومن الرثاء الجيد في بطل التحرير قصيدة أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة ، منها قوله[١٩] :

ألستَ ترى كيف انبرى الخطب ثائراً
ومـدَّ يـداً منـه الى دافع الخـطْبِ
الى النـاصـر المَلْكِ الـذي مُلئتْ بـه
قلوبُ البـرايـا من رجـاءٍ ومن رعبِ
جـزاه عـن الاسـلام خيـراً إلهـه
فـما مـلّ عنـه من دفـاعٍ ومن ذبِّ
تـداركـه بعـد ابتـذالٍ ، فقـد غـدا
وكـان شديـد الخوف ، في أمنع الحجبِ
وأصبـح لـلبيت المقـدّس مُنـقـذاً
بـأصلبِ عـزمٍ في مقـارعـة الـصُّلبِ
أذلَّ لـه الله الـعـدا مُـذْ أطـاعـه
وسهَّـل منهم كـلَّ ممتنـعٍ صعـبِ

ان هذا اللون من الرثاء ـ وهو كثير في هذه الحقبة ـ يثير في النفس القوة والعزيمة والمضاء والاستماتة من أجل المبادىء الشريفة التي تعلي الامة وتنير لها درب الخلود .

ويجدر بنا أن نكشف عن بعض جوانب هذه الشخصية الخالدة التي نستشف منها معاني التضحية والفداء ، والعزة والاباء ، وما أحسن قول ابن قلاقس فيه[٢٠] :

بـدائـع في الحـروب ولَّـدهـا
مـن فِـطنٍ لا تـزال متَّـقـدَه

لقد كان ـ رحمه الله ـ تقيا نقيا ، حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، عادلا ، حليما ، ناصرا للضعيف على القوي ، يغضب للكبائر ولا يُغضي عن الصغائر ، يرشد الى الهدى ، ويهدي الى الرشاد ، ويسدّد الأمر ، ويأمر بالسداد . وكان معتدلا في مأكله ومشربه ومركبه ، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، قال فيه ابن عُنين[٢١] :

صَلاح الـديـن يـا خـيرَ البـرايـا
ومَـنْ قـد عمَّ بـالفضل الـرَّعـايـا

وكان كثير المروءة ، نديَّ اليد ، مبسوط الوجه ، عطوفا ، رؤوفا بالأسرى ، شديد الشغف بأولاده الصغار ، صبورا على مفارقتهم ، راضيا ببعدهم عنه احتسابا لله تعالى . وقد رويت أخبار كثيرة عن صبره وجلده في الحرب ، من ذلك ما قاله قاضيه ابن شداد[٢٢] : « لقد رأيته على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : لا ننام الليلةَ حتى تنصب لنا خمسة مجانيقَ ، ورتّب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه . . . وكنا طول الليل في خدمته . . حتى أتى الصباح ، وقد فرغ منها ، وكانت من أطول الليالي ، وأشدها بردا ومطرا » .

ومن الصفات المحمودة لهذا البطل المجاهد الشجاعة والاقدام ، قال ابن شداد الذي رافقه في حروبه وسجل مشاهداته[٢٣] : « ولقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ من عظماء الشجعان ، قويَّ النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر . ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مرابطا في مقابلة عُدَّة عظيمة من الفرنج ، نُجُدهم تتواصل ، وعساكرهم

تواتر ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر . . وكان ـ رحمه الله ـ اذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين . . يخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره . . . وما رأيته استكثر العدو أصلا ، ولا استعظم أمرهم قطُّ » . وننقل صورة اخرى من شاهد عيان لهذا القائد المنتصر الذي دوَّخ الفرنج وروعهم ، قال ابن أبي اصيبعة[٢٤] : « قادتني الضرورة الى التوجه الى صلاح الدين ، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني ، وتوجهت الى القدس ، فرأيت ملكا عظيما ، يملأ العين روعة ، والقلب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى ﴿ ونَزَعْنا ما في صدورِهم مِنْ غِلٍّ ﴾[٢٥] ، وأول ليل حضرته ، وجدت مجلسا حُفلا بأهل العلم ، يتذاكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار ، وحفر الخنادق ، ويتفقّه في ذلك ، ويأتي بكل معنى بديع . وكان مهتما في بناء سور القدس ، وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس ، الفقراء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب ، والقاضي الفاضل . ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ، ويمد الطعام ، ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا » . هذا هو البطل وجنوده الميامين ، الاسود الصابرون المرابطون ، لا يخشون الموت ولا يهابونه . وقد أجاد القاضي الفاضل حين قال[٢٦] :

قالوا : رأينا الاسود ، الصبرُ عادتهم
فقلت : أبناء أيوبٍ ، ولا عجبُ
الشاربون كؤوسَ الموت مُترعةً
وللأسنّة في حافاتها حببُ
والمضرمون لنار الحرب ليس لها
إلا الرماحَ وأضلاع العدا حطبُ

رجال شجعان لا يبتغون غير كشف الغمة عن الامة ، واصلاح ما أفسده فاقدو الذمة من الدخلاء على أرض الرسالات السماوية ، لذلك نصرهم الله نصرا عزيزا وثبّت أقدامهم على القوم الظالمين .

كان صلاح الدين فقيها ـ كما يقول السبكي ـ حافظا للقرآن الكريم ، وكتاب « التنبيه » في الفقه للشيخ ابراهيم إبن علي بن يوسف ، و « الحماسة » لأبي تمام الطائي[٢٧] . وحفظ الحديث الشريف ودرسه على الشيخ اسماعيل بن مكي بن عوف الزهري والشيخ الحافظ ابن أبي طاهر أحمد إبن محمد السِّلفي . قال السيوطي[٢٨] : « رحل الى الاسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث على السلفي ، ولم يُعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فانه رحل بولديه الأمين والمأمون الى الامام مالك لسماع الموطأ » . أما الشعر فهو أحب الفنون الأدبية الى نفسه ، حفظه وردده ، لا سيما الحماسي منه . قال العماد الأصبهاني[٢٩] : « ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله ، وكنت ليلة عنده ، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان ، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ ، وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف ، والى استحسانه مصروف » .

كيف لا يستأنس بشعر اسامة بن منقذ ، وهو واحد من مشهوري الفرسان الشجعان الذين لهم صولات في حومة الوغى وجولات في ساحة الردى ، وله شعر موجّه الى صلاح الدين يدعوه فيها الى الجهاد ، مثل قوله[٣٠] :

لا تستقلَّ الذي صنعتَ ، فقد
قُمتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وجستَ أرض العدا ، وأفنيتَ من
أبطالهم ما يجاوز العددا

فسرْ الى الشام ، فالملائكة الـ

أبرار تلقاك جمعهم مَدَدا

والله يعطيك فيه عاقبة النـ

ـصر كما في كتابه وعدا

وكيف لا يحفظ شعر هذا الشاعر وهو يصور نفسية المقاتل الهمام وثباته في مضايق الحرب بشموخ وصلابة[٣١] :

سَلْ بي كماةَ الوغى في كلّ معركة

يضيق بالنفس فيها صدر ذي الباسِ

ينبِّئوك بأنّي في مضايقها

ثبْتٌ ، اذا الخوف هزّ الشاهقَ الراسي

أخوضها كشهاب القذف يصحبني

عضبٌ كبرقٍ سرى او ضوء مقباسِ

ان حديث الجهاد من ألذ الأحاديث الى نفسه وأقربها الى روحه ووجدانه ، لا يمل منها ولا يسأم . قال ابن شداد[٣٢] : « ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب عليها الرياح يمنة ويسرة . . وكان الرجل اذا أراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد ، او يذكر شيئا من أخبار الجهاد . ولقد أُلف له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث رُوي فيه فضله ، وشرحت غريبها ، وكان - رحمه الله - كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل » . والى جانب كتب الجهاد كان يحب قراءة الكتب التي تتناول شؤون الحرب والدفاع ، وتعبئة الجيوش ، واعداد الآلات ، وتدريب المقاتلين ، وترويض الفرسان . وقد أدرك أحد معاصريه هذا الولع والاهتمام ، وهو مرضي بن علي بن مرضي فألف له كتابا بعنوان « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الأعلام في العُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء »[٣٣] .

لقد كان هدفه تحرير الأرض وانقاذ الديار ، ديار المسلمين من دنس الغزاة الطارئين ، وتخليص العباد من شر الطامعين ، وعودة الفرحة والطمأنينة الى نفوس المكلومين ، والابتسامة الى عيون النساء والأطفال المروعين . وقد حقق القسط الأعظم من هذا الهدفِ بالقوة ، وبقي يجاهد ويجالد بلا هوادة لتحرير الديار واقصاء الأشرار . وما أعظم مقولته وهو واقف ينظر الى البحر الأبيض المتوسط بعد فتح « عكا » سنة أربع وثمانين وخمسمائة[٣٤] : « في نفسي ، أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمتُ البلاد ، وأوصيت ، وودّعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا ابقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » .

وما ألطف تعليق ابن شداد على هذه المقولة[٣٥] : « فانظر الى هذه الطوية ما أطهرَها ، والى هذه النفس ما أشجعها وأجسرَها ، رحمة الله عليه ، اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصرة دينك ، رجاء رحمتك ، فارحمه » .

الجهاد ، وما أدراك ما الجهاد ، كلمة ملكت قلبه وعقله وروحه ، كا ن لا يتسلى إلا بذكرها ، ولا يستأنس إلا بأخبارها وأنبائها ، ومن نافلة القول ان نورد هنا خبرا طريفا للعماد الأصبهاني في حوادث سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة للهجرة ، قال[٣٦] : نزلنا ببركة الجبّ - خارج القاهرة من الجهة الشمالية - لقصد فرض الجهاد ، وعرض الأجناد ، فكتب الأسعد بن مَمّاتي اليَّ قصيدة في الملك الناصر :

يا صلاح الدين ، يا ملكاً

قد براه الله للامم

إن يكُ الشطرنجُ مشغلةً

لعليّ القدْرِ والهممِ

فـهـي في نـاديـك تـذكـرةٌ
لامـور الحـرب والـكـرمِ
فـلكـم ضـاعـفـتَ عـدّتهـا
بـالـعـطاء الجمّ لا الـقـلمِ
فـابقَ لـلاسـلام تـرفـعـهـا
وأمـرِ الأقـدارَ كـالخـدمِ

يبدو ان الشاعر ـ وهو ناظر دواوين صلاح الدين ـ قد أشفق على قائده من تعب الجهاد ، وأراد ان يريحه بتسلية لطيفة وخفيفة فيها طابع عسكري هي لعبة الشطرنج التي تتحرك فيها الملك والجنود بلا صهيل خيول وصليل سيوف وإثارة غبار وسفك دماء .

لقد أقام مجدا أثيلا ، شامخا أبد الدهر شموخ الجبال الراسيات ، تذكره الأجيال المتعاقبة ، تزهو به وتتباهى في محافلها وأنديتها ، وتتخذه رمزا في ساحات نضالها وكفاحها ، وحسبه قول الشاعر علي بن أحمد بن الزبير[٣٧] :

شيّـدتَ بـالبيض والعسّـالة الـذُّبلِ
مجـداً أنـاف عـلى النسـرين والحمَـلِ
تخضـرُّ أكنـاف أرضٍ إن نـزلـتَ وإن
نـازلتَ تحمرّ أرضُ السهـل والجبـلِ

كان صلاح الدين حريصا ـ الى جانب حرصه على أعراض الناس وشرفهم ـ على لغة القرآن التي هي جزء أساس من كيان الامة التي جاهد من أجل كرامتها وعزتها ، وناضل في سبيل وجودها وهويتها . ولا يخفى على القارىء الكريم ان هذا البطل الغيور لم يكن فارسا مجاهدا فقط ، بل كان عالما مثقفا ، ومفكرا نابها ، ومن هنا نجده يفتح ذراعيه لكل خطوة انسانية تعمل على سعادة المجتمع وتدفع عنه عوادي الزمن وغوائله . وقد تجاوزت الأموال التي كان ينفقها على أرباب القلم كما يقول أبو شامة المقدسي[٣٨] : «مئتي ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» . انه القلم سلاحا الى جانب السيف في محاربة الخصوم ، ولا غرابة في ان يقول وهو جالس في محفل كبير مع قادته[٣٩] : «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل» . وقد سطّر القلم آنذاك أدبا كثيرا ، ولا سيما الشعر الذي أحبه صلاح الدين ورغب فيه وحفظه ورردده في مجالسه وقت الراحة او في مواقع الأحداث بين اسوده الممتلئين عزيمة وثباتا ، المتحمسين للوثوب على من تقرّب من عرينهم . وقد أدرك أثره في النفوس خاصة قبل الاقتحام والالتحام ، فجمع حوله الشعراء وشملهم ببره واحسانه وأحاطهم بعطفه وحنانه . قال ابن العديم[٤٠] : «ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة الحمداني ما اجتمع ببابه من الشعراء رحمه الله وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء» .

أصبح صلاح الدين مثار اعجاب الشعراء ومحطّ آمالهم ، وقد تجمعت لديَّ أثناء كتابة هذا البحث أسماء خمسة وستين شاعرا آزروه ووقفوا الى جانبه في احقاق الحق وازهاق الباطل ، ولا عجب ان يقول الشاعر عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة[٤١] :

وإنّي امـرُؤ أحـبـبـتـكـم لـمكـارمٍ
سمعت بهـا والاذن كـالعـين تـعشـقُ
وقـالت لي الآمـال : إن كنـت لاحقـاً
بـأبـنـاء أيـوبٍ فـأنـت المـوفَّـقُ

تضافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب على معاضدة صلاح الدين ، واظهار مناقبه ، ورسم بطولاته في محاربة الفرنج وجولاته في جلاء الغاصبين عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها ، وقد نعته أحدهم برب الملاحم[٤٢] :

ربُّ المـلاحـم ، لم يـؤرِّخْ مـثـلهـا
الـعلماءُ قِـدمـاً في قـديـم الأعـصـرِ
مَـن رام مِـن كـل المـلوك مـرامـه
تُخفـقْ مسـاعيـه ويـكْـبُ ويـعـثـرِ

ودرّ درّ سبط ابن التعاويذي حين دعاه بـ « ربّ المذاكي » :

ربُّ المذاكي الجياد مُقرَبةً
والنصل عريان غيرُ مقروبِ
خوّاض موج الوغى وقد اخذت
أبطالها الحُمْسُ بالتلابيبِ
تنكرُ أغمادها مناصلُه
في يوم حلٍّ ويوم تأويبِ
تسلُّ في الحرب للمفارق وال
هام وفي السلم للعراقيبِ
سلطانُ أرض الله الذي ضمنت
رماحه نصرَ كل محروبِ[43]

ان الحرب الضروس التي خاض غمارها هذا المجاهد مع جنده الميامين وقادته البسلاء أذكت قرائح الشعراء ، القريبين منهم والبعيدين ، وألهبت مشاعرهم ، وقدحت زناد عواطفهم ، بشعر حماسي كثير ، يفيض بالحيوية والنشاط ، وينبض بالحركة والغليان ، يعكس صدى وصولات المقاتلين وهبات الفوارس الأشداء .

ويكاد القسم الأكبر من دواوين بعض الشعراء يكون في أدب الحرب ، ووصف الجيوش ، والآلات والأدوات القتالية ، والأخلاق العسكرية ، والمهارات القيادية ، كما هي الحال في ديوان فتيان الشاغوري ، وديوان أبي الفضل عبدالمنعم بن عمر الجلياني الأندلسي المسمى بـ « المبشرات والقدسيات » ، الذي قال عنه ابن أبي اصيبعه[44] : « انه نظم وتدبيج ، وكلام مطلق ، يشتمل على وصف الحروب والفتوح على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس » . ويعد ديوان راجح ابن اسماعيل الحلي من أكبر الدواوين التي اختصت بنضال أبناء أيوب بعد صلاح الدين ، فانه ضم أكثر من ثمانية آلاف بيت[45] . وكان للمرأة نصيب في هذه المشاركة ، وقد نوّه ابن خلكان بواحدة منهن ، هي تقية بنت أبي الفتح غيث الدين بن علي الصوري ، فقال[46] : « نظمت قصيدة حربية ، وصفت الحرب ، وما يتعلق بها أحسن وصف » .

سجّل الشعراء النجباء الذين وفدوا على صلاح الدين الأيوبي او الذين راسلوه من ديارهم النائية ، مآثره الخالدة . فهو في نظر ابن الساعاتي شهاب نور وهداية للضالين ، وسيف بتار للخارجين عن طاعة الله[47] .

شهاب هدىً في ظلمة الشكّ ثاقبٌ
وسيف هدىً في طاعة الله مرهفُ
وقفتَ على « حصن المخاض » وانه
لموقف حقٍّ لا يوازيه موقفُ

هذان البيتان من قصيدة قالها الشاعر بعد معركة ضارية ومجابهة حادة دامية مع الفرنج في حصن « بيت المخاض » القريب من دمشق ، غنم فيها جيش صلاح الدين « مئة ألف قطعة من أنواع الأسلحة . . . وكان عدد الأسرى سبعمائة »[48] .

ان صورة هذا البطل ، او لنقل خياله ، قد خيّم كالطير على رؤوس الأعداء المارقين ، وأصبح يخيفهم ويرهبهم ، ويرعد فرائصهم ، ويرجف قلوبهم ، ويقض مضاجعهم ، وكم كانوا يتمنون ان يعطيهم فرصة يغمضون فيها جفونهم المرهقة من السهر ويبيتون براحة بال وأحسن حال :

يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعد وهنِ
أبادهمُ تخوُّفه فأمسى
مُناهم لو يبيِّتهم بأمنِ

بيتان أنشدهما الشاعر الشهيد ابن رواحة الحموي ضمن قصيدة طويلة أمام صلاح الدين وهو يستقبل أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية المحملة بالأسرى الذين تجاوز عددهم الألف[49] .

كيف يستطيع الأعداء ان يركنوا الى السكينة ، ويخلدوا الى الراحة ، وهم يرون « دار الجهاد » التي شيدها الفارس صلاح الدين ، ترسل عليهم الأبطال تلو الأبطال حاملين شواظاً من نار لتحرق وجوههم الشريرة ورؤوسهم المملوءة بالحقد والكراهية ؟ قال ابن سناء الملك[50] :

ومن شاد داراً للجهاد فأصبحتْ
بها الرمح يبني ، والحسام يُهندسُ
ويرسل عزماً للأعادي مبكّراً
فيأتيه فتحٌ للأعادي مُغلِّسُ
يُرىٰ جذلاً في حومة الحرب ضاحكاً
فلا القلب منخوبٌ ولا الوجه مُعبسُ

أعطى الشاعر صورة واضحة لهذا الثائر بوجه البغاة الذين نزعوا الرحمة من قلوبهم ، واندفعوا نحو الشرق ، مقيمين لأنفسهم امارات على أشلاء قتلاهم . والبيت الأخير يذكرنا بصورة بديعة لسيف الدولة الحمداني وهو في حومة الوغى يقارع الروم في بيت أبي الطيب المتنبي المشهور[51] :

تمرُّ بك الأبطالُ كلمىٰ هزيمةً
ووجهك وضّاحٌ ، وثغرك باسمُ

ويسترسل ابن سناء الملك في إظهار جلادة قائده وقوة ارادته بين جنوده في قهر الأعداء ، والاجهاز عليهم بكل اقتدار ومضاء . فها هوذا يصول عليهم بسيفه البتار كالبرق اللامع او النار الحارقة ، وهم يستسلمون لسطوته الجبارة ، حتى لو كان هذا السيف مغمدا في قرابه :

تطير اليه طالباتٍ أمانه
ومعتذراتٍ منه أيدٍ وأرؤسُ
وفي كفّه ماضٍ مضى وكأنه
من البرق يجني او من النار يقبسُ
وكم أسلموا من خوفه وهو مغمدٌ
ولو أبصروا نيرانه لتمجّسوا

ما أهيب صورة هذا القائد الذي تحيط به الكماة الشجعان وهم يمتطون صهوات خيولهم ، الملثمة بالحديد ، تلج أتون الحرب ، مثيرة النقع بسنابكها ، وباعثة الموت الزؤام بظبى المعتلين ظهورها :

وكلُّ حصانٍ بالحديد ملثّمٌ
عليه كميٌّ بالحديد مُقلنسُ
تزاحمت الأبطال فيه فخرّقتْ
ثيابٌ لها من عهد داود تُلبسُ
وأظلم فيها النقعُ واشتبك الظبى
فأصبح فيها الموتُ لا يتنفّسُ

وتأتي صورة البطل المهيب عند فتيان الشاغوري أكثر وضوحا واشراقا ، فهو اذا ما بدا تتراجف عساكر الأعداء ، وتخور عزيمتها ، وتتخاذل ارادتها ، وتتضاءل معنوياتها[52] :

اذا ما بدا خرّتْ الى الأرض سُجّداً
له عن ظهور الصافنات الجحافلُ
تظلُّ ملوك الأرض خاضعةً له
فكلُّ عظيمٍ عنده متضائلُ

وتزداد رهبتهم ، وتتعاظم خشيتهم اذا ما سمعوا زئير الاسود ، اسود القائد ، وهي مندفعة نحوهم ، لتدق أعناقهم ، وتحيلهم مزقا ، وتجعلهم طعاما للطيور الجارحة :

جحافله اسدٌ تزاءر في الوغى
وما غيلها إلّا القنا والقنابلُ
خميسٌ له الرايات ظلٌّ وفوقه
من الطير ظلٌّ يحجب الشمسَ سادلُ

وصورة الطير الذي يرافق الجيش القوي المنتصر - وان كانت مألوفة في أدبنا القديم[53] - تتكرر عند الشعراء الذين رافقوا صلاح الدين وشاهدوا معاركه العنيفة ومقدار خسارة الأعداء في الأرواح ، منهم ابن الدهان الموصلي في

قوله[٥٤] :

والطيرُ من ثقةٍ بأكلٍ مشبعٍ
تبعتْ جيوشك فوق غابٍ مُسبعِ

وهذا البيت من قصيدة طويلة رسم فيها الشاعر صورة لهذا القائد المنتصر ، مجسدة في اطار فخم ، تبرز فيها خيوله المغيرة ، وسيوفه الموشحة بالدماء ، ورماحه النافذة في كلوم الأعداء ، وهو ثابت الجنان ، يجالد أنداده الفرسان بكل صلابة ومعنوية :

واذا تنمَّر قال للأرض ارجفي
بالصاهلات وللجبال تزعزعي
واذا علا في المجد أعلى غايةٍ
قالت له الهمم الجسامُ ترفَّعِ
ثبتُ الجنان اذا القلوب تطايرت
في الروع يعدل ألفَ ألفِ مدرَّعِ

وترتفع الصورة عند الشاعر ، وتأخذ أكثر أبعادا ، فهو يلقي الرعب في نفوس الفرنج بطلوعه عليهم ، واقباله نحوهم بنيران جيشه القوي ، وهم ليسوا بشيء في نظره وان كان عددهم كالرمل كثرة والحصى وفرة . يدوسهم بخيوله ، ويقذفهم كالسيل العرم ، ويفتت جمعهم ، ويحيلهم الى قتيل مضرج بدمائه ، وأسير مكبل بقيوده ، وهارب يملأ قلبه الهلع والفزع[٥٥] :

وهابوك حتى الفارس الشهم من رأى
بجيشك ناراً أو تأمّل قسطلا
ولو أنهم كالرمل او عدد الحصى
لما بيّنوا إذ عاينوك كلا ولا
وطئتهمُ رغماً فلم يغنِ حشدهم
ومن ذا يردُّ السيلَ من حيث أقبلا
فقسمتهم في الملتقى قسم جائرٍ
وان كنتَ فيهم عادلاً ومُعدّلا
قتيلاً صريعاً او جريحاً مضرّجاً
وخِلاًّ طريداً أو أسيراً مكبّلا

ان هذا الهمام الغضنفر ـ كما يسميه أبو علي الحسن بن علي الجويني ـ أضحى الخصوم لديه مخذولين ، ومهزومين مرذولين ، تطاردهم سيوفه المؤيدة بنصر الله وعونه ، ولم تستطع القلاع الرصينة والحصون المنيعة ان تحميهم وتدفع عنهم الهجمات الكاسحة والضربات الماحقة والطعنات الساحقة[٥٦] :

الهمامُ الغضنفرُ الملكُ النا
صر مولى الورى صلاحُ الدينِ
يا مليكاً أضحى الزمانُ يناجيـ
ـه بلفظ المذلَّلِ المسكينِ
فارقتْ أهلها الحصون الى بأ
سكَ حتى عوَّضتهم بالسجونِ
وأراهم ربُّ السماء بأسيا
فكَ ما لم يجُلْ لهم في ظنونِ

وهذا النصر الذي أحرزه شفاء للصدور وقرة للعيون ، ويشبهه الشاعر بيوم « حُنين » الذي انتصر فيه جيش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المشركين في السنة الثامنة للهجرة ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وفيهم قال الله تعالى في محكم كتابه[٥٧] : ﴿ لقد نصرَكمُ اللهُ في مواطنَ كثيرةٍ ، ويومَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجبتْكُم كثرتُكم فلمْ تُغنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتم مُدْبِرين ﴾ :

إنّ هذا الفتح المبين شفاءٌ
لصدورٍ ، وقُرَّةٌ لعيونِ
هو يومٌ أضحى كيومِ حُنينٍ
سهَّلَ اللهُ نصرَه في الحزونِ

ولم يكن صلاح الدين قائدا حربيا ، وموجها ميدانيا ، ومشرفا قتاليا فقط ، بل هو مشارك فعال، ومقاتل عنيد ، ومبارز كرّار ، مغرىً بضرب السيوف وقراع القنا

كما يقول سعادة بن عبدالله الأعمى[٥٨] :

تعوّدت ضربَ السيف والطعنِ بالقنا
وكلّ امرىءٍ مغرىً بما قد تعوّدا

ويبدو ان هذا الشاعر قد نظر الى بيت أبي الطيب المتنبي الذي قاله في سيف الدولة الحمداني[٥٩] :

لكلّ امرىءٍ من دهره ما تعوّدا
وعاداتُ سيف الدولة الطعن في العدا

وللشاعر سعادة بن عبدالله الضرير قصيدة جيدة يصف فيها الفارس المطعان وهو يقود الخيل التي تقلّ المجاهدين وبأيديهم السيوف الرقاق ، تفري الأعناق في وسط الرهج المتعالي في سماء المعركة[٦٠] :

القائدُ الخيلَ تهوي في أعنّتها
مثلَ الأجادل ، والأبطال في جدلٍ
والبيض من علق الأقران في حللٍ
حمرٍ ، ومن قمم الشجعان في خللٍ
والشمس شمس الضحى في النقع آفلةٌ
وشمس همّته الغراء لم تفلِ

وهذا القائد ـ كما يرى عبدالرحمن بن بدر النابلسي ـ يتحمل المتاعب ويستهين بالمصاعب ، سواء كان ذلك في حر الصيف اللاهب ام في برد الشتاء العاصب . لا تأخذه الراحة إلا على ظهر جواده يصول ويجول في خضم معركة المصير ، متجملا بثوب الصبر ، صبر العظماء في الشدائد وأيام المحن[٦١] :

ملكٌ تساوى جمادى في الجهاد وتمـ
ـوز لديه وضاهى ناجراً صفرُ
ولا يرى الروحَ إلا ظهرَ سلهبةٍ
في بطن معركةٍ مركوبها وعرُ
صبرٌ جميلٌ كطعم الشهد في فمه
وعند كل مليكٍ طعمه الصَّبرُ

وحينما شاهد الشاعر ، أبو المكارم هبة الله بن وزير ابن مقلد ، بطله يجهد نفسه فوق طاقتها ، ويتعبها تعبا مضنيا شاقا بلا هوادة ، قال[٦٢] :

أما آن ان يرثي لخيلٍ مغيرةٍ
وشهرين عنها ما ازيلت لبودها
وأن تغمد البيض الرقاق وقد شكت
الى عفوه طول الفراق غمودها
مواقعه خلف العدا وأمامها
فما ينثني إلا اليه طريدها

كيف يريح خيوله ، ويرفع عنها سروجها ، ويخلع لجمها ، ويغمد أسيافه ، ويمسح ما علق بها من دماء ، وينثني عن جهاده المتواصل ، وهو يعلم ان الخصم الجائر اذا ما اعطي فرصة يستيقظ من سكرته ، ويسترجع أنفاسه الحائرة ، ويستعيد قواه الخائرة ، ويضرب من وقف بوجهه واخذ ما بيده وسعى الى طرده .

كيف يُلقي سلاحه ، والعالم الأسلامي ينظر اليه ، ويتتبع اخباره النضالية ، ومواقفه القتالية ، وينتظر الساعة التي يعلن فيها خلاصه من القوم الظالمين . انظر ما يقوله الشاعر الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي من أهل الحلة[٦٣] :

وأوردتَ بيض الهند ماء رقابهم
وأصدرتها تختال في حللٍ حمرِ
جلوتَ به صمصامة الدين بعدما
علا متنها من بغيهم صدأُ القسرِ
هي الفتكة الغراء لا زلتَ قائماً
بأمثالها للدين في السر والجهرِ
فأصبح في أقصى خراسان ذكرها
وفي كل قلب منه جيشٌ من الذعرِ

حقا انه أورد سيوفه رقاب الأعداء ، وطعنهم طعنة نجلاء ، وفتك بهم فتكة غراء ، وصلت أخبارها أقصى خراسان ، ودخلت أنباؤها قلوب أبناء الغرب . تأمل

ما يقوله ابن الساعاتي في ملك انكلترا ، او الانكتير كما هو المعروف آنذاك[٦٤] :

سـلْ عنـه قلب الانكـتـير ، فـإنّ في
خـفـقـانـه مـا شئتَ من أنـبـائـه

تسلّم صلاح الدين أمانة الجهاد ، وارتضاها باخلاص ، وحملها بصدق ، وانشغل بها دون غيرها ، ووفّى حقها باقتدار ، وحسبه قول جمال الدين أبي غالب محمد بن سلطان بن الخطاب[٦٥] :

لـقـد جمَّـل اللهُ مـنـك الـورى
بـأوفى مـليـكٍ وفيّ هـجـانِ
تهشُّ الى نـغـمـات الـسُّـيـو
فِ في الهـام لا نـغـمـات الـقـيـانِ

انه لا يطرب إلا بصليل السيوف ، وخفق البنود ، ما دام مرهونا بالجهاد الذي دعا اليه الله تعالى في آيات كثيرة ، منها قوله[٦٦] : ﴿ انْفِروا خِفافاً وثِقالاً ، وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾ . ومن هنا نرى القاضي الفاضل يقول لصلاح الدين[٦٧] :

جـهـادك حـكـم الله لـيس بمـصـدودِ
وعـزمـك أمـر الله لـيس بمـردودِ
لا يخـلف الله المـواعـيـدَ بـعـدمـا
بعثتَ القنـا مستنجـزاً بـالمـواعـيـدِ

ونال جيش صلاح الدين وأفراد قواته الميامين من شعر معاصريه قسطا كبيرا ، وصفوا فيه بشدة البأس ، وقوة الارادة ، وعلو الكفاءة ، وسمو القدرة ، وحسن التنظيم ، وجودة التدريب ، ومهارة الضرب والطعن . وقد استوفى ابن سناء الملك كثيرا من هذه الصفات في قصيدة طويلة ، منها قوله[٦٨] :

وجيش بـه اسـد الكـريـهـة غـضَّـبٌ
وان شئـت عـقـبـان المـنـيّـة حـوَّمُ
يعفُّـون عن كسب المغـانـم في الـوغى
فـليس لهـم إلا الـفـوارس مـغـنـمُ
اذا قـاتلوا كـانـوا سكـوتـاً شجـاعـةً
ولـكـن ظـبـاهـم في الـطُّلى تـتـكـلّمُ
بـإقـدامـهـم نـالـوا الحـيـاة وربّما
يـؤخّـر آجـال الـرجـال الـتـقـدُّمُ
وأنـت الـذي هـذّبتـهـم فـتـهـذَّبـوا
وأنـت الـذي فهَّـمتـهـم فـتـفـهَّـمـوا
وإنّهمُ يـومَ الـوغـى بـك أقـدمـوا
وأعـداؤهـم يـوم الـوغى بـك أحجمـوا

صورة متألقة لجيش قائد النصر ، تتجلى فيها الاسود الغاضبة ، والعقبان الكاسرة ، تغير على الأعداء بضراوة ، وتجهز على الفوارس بإحكام ومهارة فائقة ، تلك المهارة التي اكتسبوها من رائدهم الذي علّمهم فنون القتال وصنوف النضال وأحاطهم بشؤون النزال وكيفية الاقدام ثم الالتحام ، وكانت ثمرة كل ذلك النصر المؤزر والحياة الحرة الأبية .

لقد جابه جنود صلاح الدين جيوشا جرارة ، مدججة بصنوف السلاح ومختلف أدوات القتال . نذكر ـ على سبيل المثال ـ احدى هجمات الفرنج سنة ٥٧٠ هـ التي حملت أعدادا كبيرة من المقاتلين ، «ما بين فارس وراجل ، وكانت عُدّة الطرائد ـ نوع من السفن ـ ستة وثلاثين طريدة ، تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني ـ نوع من السفن الحربية ـ في كل شيني مئة وخمسون رجلا ، وكانت عدّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدّة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الراجل المتفرق ، وغلمان الخيالة ، وصنّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية ، ما يتمم خمسين ألف رجل »[٦٩] . لكن ماذا كان مصير هذا العدد الهائل من

المقاتلين ، والكمية الكبيرة من العتاد والسلاح أمام جيش صلاح الدين المزوّد بذخيرة الايمان ؟ نترك الجواب للعماد الأصبهاني ، حيث قال[٧٠] : « لم يسلم منهم إلا من نزع لبسه ، ورمى في البحر نفسه ، وتقحّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها ، فولّت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة ، وبقي العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق » .

لم يعلم الماردون ان الظفر حليف أصحاب الحق ، والنصر نصيب الصابرين الثابتين وان كانوا قليلين ، وما أعظم كلمة رب العالمين[٧١] : ﴿ كم مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلبتْ فئةً كثيرةً بإذْنِ الله ﴾ . وقد أشار الى ذلك الشاعر أبو حسان نعمة بن حسان الضرير[٧٢] :

وقالوا قليلٌ جنده وجموعه
وليس من الشرقيّ في موقع العشرِ
ولم يعلموا أنّ الإله مؤيِّدٌ
له ويُمِدُّ بالمعونة والنصرِ

ان سلاح جيش صلاح الدين - على يسره - بيد فرسان أبطال ﴿ صَدَقوا ما عاهَدوا الله عليه ﴾[٧٣] ، وقد أجاد سبط ابن التعاويذي وصف هذا السلاح بقوله[٧٤] :

عتاده للرعب عسّالةٌ
سمرٌ وأبطالٌ مذاويدُ
ومحكمات النسج موضونةٌ
قدَّرها في السرد داودُ
ومرهفات الحدّ مطرورةٌ
وضُمَّرٌ أقرابها قودُ

رماح لدنة ، وسيوف مرهفة ، ودروع محكمة النسج ، استطاع ان يرعب بها العدو ويدمر حشدهم ، ويقضي على من تبقى منهم قضاء مبرما كما صورهم الشاعر في القصيدة نفسها :

جيوشهم بالرعب مغلولة
وزرعهم بالسيف محصودُ
جهاد من لم يبق يوماً له
في نصر دين الله مجهودُ
ومن تبقّاه الردى منهم
في الأسر مكبولٌ ومصفودُ

وكانت الخيول المطهمة الوسيلة الرئيسة في اللحاق بالعدو ومباغتته والاجهاز عليه بسرعة ، والامساك بتلابيبه . وهذه الخيول كانت مدربة على الجري القوي ومروضة على الكر والفر ، وقد ورد ذكرها في كثير من القصائد الحماسية التي تناولت الحروب الجهادية آنذاك ، من ذلك قول فتيان الشاغوري مخاطبا صلاح الدين[٧٥] :

فخيلك تغشى الروع شعثاً ضوامراً
شوازبَ قد عوَّدْتها الفتح والنصرا
ترى الحرب روضاً والدروع بها أضىً
وسمرَ القنا دوحاً وخرصانها زهرا
سنابكها عزّت بإذلالك العدى
فداستْ خدوداً كنّ من عزّها صُعرا

أبيات تذكرنا بقوله تعالى[٧٦] : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعْتم مِن قوَّةٍ ومِن رِباطِ الخيلِ تُرهبون به عدوَّ الله وعَدوَّكم ﴾ . ما أعظم هذه الخيول الضوامر الشعث ! وما أروعها ! تغشى الوغى مستأنسة فرحة وكأنها تدخل روضة ، ولكن أيُّ روضة ؟ غدرانها دروع ، وأشجارها رماح ، وأزهارها أسنّة ، تتحرك فيها وتجول ، مذلّة بسنابكها خدود المتجبرين المتغطرسين ، الممتلئة قلوبهم حقداً وضغينة على اناس أبرياء كانوا قاطنين في ديارهم بسلام وأمان .

ونشاهد لوحة اخرى جميلة للخيل دبجتها يراعة الشاعر سعادة بن عبدالله الأعمى[٧٧] :

خيـلٌ هي الـعـقـبـان في طيـرانها
لا بـل هـي الـسيـدان في عسـلانها
فـالـشهب مـا حملْتـه في أرمـاحـهـا
والـغُـلْب مـا نـقـلْتـه في عـدوانها
كـم قـدتهـنّ أبـا المـظفّـر ظـافـراً
والاسـد صـائـلـةٌ عـلى عـقـبـانها
متـوثّبـاتٍ لـلطعـان ، فـلا كبتْ
تـلك الـعتـاق الجـرد يـوم طعـانها

صورة رائعة متحركة ذات تشكيل بهيج ، ترى فيها الخيول المهاجمة كالعقبان المحلقة بأجنحتها القوية في الفضاء ، والنسور الكاسرة في عنان السماء . وتزداد الصورة هيبة ورهبة حين ترى هذه الخيول ومن فوقها غلب الرجال حاملين الشهب المحرقة في نواصي الرماح العوالي ، يقودهم أبو المظفر صلاح الدين للوثوب على المارقين والانقضاض عليهم .

ان دور الشعر في معارك المصير جليل وعظيم ، يرافق المقاتلين أنّى حلوا وارتحلوا ، ويحرضهم دوما على الكفاح والاستبسال وأخذ الثأر من الطارئين على الديار ظلما وعدوانا . فهذا محمد بن محمد بن الفراش يدعو صلاح الدين الى ارواء سيوفه من أوداج الطامعين ، وخوض خيله في دماء مرضى العقول الخائبين[٧٨] :

وفـجِّـرْ مـنـبـع الأوداج مـنـهـم
تخـوض الخيـل في العلق الـصبيـبِ
تـرى الاسـلام قـد وافـاك يـعـدو
الى لـقـيـاك مـشـقـوق الجـيـوبِ
وقـد نـادى مـؤذّنهم ، فـنـادى
ليـوث الغـاب : حيَّ عـلى الحـروبِ
انـاسٌ دبّـت الأعـلال فـيـهـم
ولـيس لهـم كـسيـفـك من طـبيـبِ

حيَّ على الحروب ، نداء قوي ، وصوت عالٍ مجلجل ، يبعثه من أعماق قلبه الى الناس كافة كي يستيقظوا ويهبّوا كالليوث الى سوح المعارك ، مؤدين ما عليهم من فروض الجهاد .

وتعالت أصوات الشعراء الشرفاء من كل مكان ، طالبة النهوض بهمم الأبطال ومعنوياتهم ، والمسير الى مواقع الأحداث ، لكبح جماح المغيرين على الأرض ، أرض المسلمين التي فقدت عزتها وحصانتها بعد فتور رجالها وخمول فتيانها ، وقعود أصحاب الشأن عن نصرتها . وقد آلم هذا الواقع المرير الشاعر سعادة بن عبدالله الأعمى ، ونادى بصوت جهور[٧٩] :

شِمْ بـالشـآم سيـوفـاً من عـزائمهم
اذا غـمـدتَ المـواضي لـيس تنغـمـدُ
ولا تخـفْ فـالعـوالي شـوكهـا ثمـرٌ
حلو الجنى ، والمعـالي صـابهـا شهـدُ
واخـطبْ بحـدّ المـواضي كـل شـامخةٍ
في أنـفهـا شـممٌ في جيـدهـا غَيَـدُ
فمن يكن بـالمـواضي خـاطبـاً أبـداً
زفّـتْ الـيـه بـلادٌ كـلهـا خُـرُدُ

نعم ، بالسيوف المواضي تتحقق الأماني ، وبالرماح العوالي تجنى الثمار الغوالي . ومن ينظر الى دعوة الشاعر ، المقدمة باسلوب رشيق جذاب ، يجدها مغرية ومشوقة ، فهو يريد من قائد الفرسان ان يتقدم لخطبة الشامخات المنيفات ، أي المدن الحصينة والقلاع الرصينة ، وهو متأكد بزفافها اليه بأبهى حلّة ما دام مقبلا عليها بحماسة ومقتحما اياها بشجاعة .

ان صورة العروس البهيجة المتوشحة بالحلي والزينة كثيرة في أدب الحروب الصليبية ، اتخذها الشعراء وسيلة للاغراء وأداة للاندفاع والخروج الى جبهات القتال للمنازلة

والمصاولة وقهر الأعداء ، من ذلك قول عرقلة الكلبي[٨٠] :

الى كم ذا التواني في دمشقٍ
وقد جاءتكم مصرٌ تهادى
عروسٌ بعلها أسدٌ هصورٌ
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا
وما كل امرىءٍ صلّى مع النا
سِ مأموناً كمن صلّى فرادىٰ

تحريض واستنهاض للمسير خلف القائد الهمام ، بجماعات متكاتفة ، وأياد متضامنة ، وصفوف متراصّة . ومثل هذا الشعر نجده أيضا عند الشاعر ابن الساعاتي حينما حثّ صلاح الدين على التوجه نحو حلب ومنازلتها ، ولكنه لم يشبهها بعروس غيداء ، بل بعقيلة حسناء ، رشيقة القد ، أسيلة الخد ، تزهو بهاء ورواء[٨١] :

هي العقيلة حسناً والزمان بها
متيّمٌ كلف الأحشاء غيرُ خلي
رشيقة القد لا تسمو اليه يدٌ
أسيلة الخدّ لا تدنو من القبلِ
كم مقلةٍ سهرت وجداً بمقلتها
لم تكتحل بكرى شوقاً الى الكحلِ
بكر المعاقل فاخطبها مكابرةً
بكل أعمى أصمِّ الكعب معتدلِ

أخذ صلاح الدين هذه العقيلة ، وجعلها في امرته معزّزة مكرّمة . قال العماد الأصبهاني[٨٢] : « وأقام بالقلعة مستويا على عرش السمو والرفعة ، فأدار العدل في داره ، وأفاض الفضل بأنوائه وأنواره ، ووظّف المكارم ، وكشف المظالم . . . وكتب الى أصحاب الأطراف والأوساط ، لاجتماع عساكر الجهاد من جميع الجهات عنده للرباط » .

لازم الشعراء صلاح الدين ، ورافقوه في خطواته الموفقة ، وباركوا له فتوحاته في قصائد عامرة بألفاظ الكفاح والجهاد ، وطالبوه بالاستزادة من هذه الفتوحات ، حتى تتحرر الأرض المغتصبة كاملة ، وتنجو الامة من العصبة الغادرة ، ومن هؤلاء الشعراء عمارة بن عقيل اليمني في قوله[٨٣] :

أضفتَ الى أجر الجهاد زيارةَ الـ
ـخليل ، فأبشرْ ، أنت غازٍ موفّقُ
وهيّجتَ للبيت المقدّس لوعةً
يطول بها منه اليك التشوُّقُ
وغزوك هذا سلّمٌ نحو فتحه
قريباً ، وإلّا رائدٌ ومُطَرِّقُ
هو البيت ، إنْ تفتحه ، والله فاعلٌ
فما بعده بابٌ من الشام مغلقُ

هذا الصوت في ذكر « القدس » نسمعه من شاعر في مطلع حكم صلاح الدين ، وما جاء فيه امنية الأماني ؛ فان البيت المقدس قبلة المسلمين الاولى ، ومسرى الرسول الأكرم محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه قبّة المسجد الأقصى الذي ورد ذكره في قوله تعالى[٨٤] : ﴿ سبحانَ الذي أسرىٰ بعبدِه ليلاً من المسجد الحرامِ الى المسجدِ الأقصىٰ ﴾ ، كما جاء ذكره أيضا في الحديث الشريف[٨٥] : « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلّا الى ثلاثة مساجدَ ، مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد البيت الأقصى » .

ان احتلال القدس من الفرنج وبقاءهم فيها زمنا طويلا أقلق المسلمين كثيرا وأزعجهم ، وكان العماد الأصبهاني كاتب صلاح الدين وأمين سره من أكثر الشعراء الذين شغلهم هذا الاحتلال المقيت ، فقال في أول قصيدة هنأ فيها صلاح الدين بقيام دولته[٨٦] :

ولا تهملوا البيت المقدس ، وأعزموا
على فتحه غازين ، وافترعوا البكرا

وذكّره بالقدس في قصيدة ثانية ، فقال[٨٧] :

فتملَّ فتحك ، واقصد القدسَ الذي
بحصوله لفتوحكَ الإتمامُ
دُمْ للعُلى حتى يدوم نظامها
واسلَمْ يعزَّ بنصرك الاسلامُ

وقال له في قصيدة ثالثة[٨٨] :

فَسِرْ وافتح القدسَ ، واسفكْ به
دماءً متى تجرها ينظفِ

واستنهضه في قصيدة رابعة[٨٩] :

نهوضاً الى القدس يُشفى الغليلُ
بفتح الفتوح ، وماذا عسيرُ
سلِ الله تسهيلَ صعب الخطوب
فهو على كلّ شيءٍ قديرُ

هذا التكرار في الاستنهاض ، والالحاح في استعادة القدس السليب دليل الحب لهذا المكان الطاهر المقدس الذي يؤمُّه المسلمون ، ويتبركون به ، ويستلهمون منه مواقف السلف الصالح حين هبوا لنشر رسالة الاسلام .

كيف يهنأ المسلمون ويهدأ بالهم وهو يرون المسجد الأقصى بيد المحتلين الغاصبين من الفرنج ، يجوبون في أروقته ، ويجلسون في حجراته ، يتجاذبون أطراف الحديث بحرية وكأنهم أسّسوه بسواعدهم ، وبنوه بأيديهم ، وصانوه بعرق جبينهم .

لقد كان الشعراء لسان حال المسلمين الذين يتمنون ان يخرج الأغربة من المسجد الأقصى ، ويعود الى أصحابه الشرعيين ، ﴿ فَرِحين بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِهِ ﴾[٩٠] وكان صوت الشاعر الحكيم أبي الفضل عبدالمنعم بن عمر الجلياني قويا ومدويا في هذا المقام[٩١] :

فذا المسجد الأقصى وهمّتك العليا
وعزمتك القصوى ورميتُك الصمّا
فما هو إلّا ان تهمَّ وقد أتت
فتوحٌ كما فاض الخضمُّ الذي طمّا
وإنْ أنت لم تُرْدِ الفرنجَ بوقعةٍ
فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدما
وليس كفتح القدس منيةُ قادرٍ
وما إن تلقّاها سوى يوسفٍ جزما

علم الشاعر ان الخلاص من الذل والعبودية لا يتم إلا بيد صلاح الدين ، حامي الحمى الذي نذر نفسه للجهاد ، فوجه اليه هذه الأبيات التي دعا فيها ان يبذل كل جهده ، وأقصى همته ، وأقوى رميته في ضرب الفرنج وطردهم من البلد الذي طالما انتظر المسلمون ان يعود الى أحضانهم بفارغ الصبر بعد غيبة طويلة استغرقت تسعين عاما كما قال الشاعر الحسن بن علي الجويني[٩٢] :

تسعون عاماً بلادُ الله تصرخ والـ
إسلام أنصاره صمٌّ وعميانُ

نعم ، صرخت بلاد الله كثيرا ، ونادت : وا إسلاماه ! ، وطال جواب النداء ، حتى هيأ الله لها المجاهد الكبير صلاح الدين ، فلبّى النداء ، ونهد لمعارك الجلاء بأمانة واخلاص ، وقرت بهبّاته عيون المؤمنين كما يقول ابن الساعاتي[٩٣] :

جَلَتْ عزماتك الفتحَ المبينا
فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينا

وهذا البيت مطلع لقصيدة نظمها الشاعر بعد فتح « طبرية » الموقع الحصين الذي اتخذه الفرنج درعا واقيا لهم ، وأشار فيها الى ابتهاج « القدس » بهذا النصر وتفاؤلها بمقدم يوم الفتح الأكبر :

تهزّ معاطف القدس ابتهاجاً

وتُـرضـي عـنـك مكّـة والحجـونـا
فـلـو أنّ الجـهـاد يـطيـق نـطقـاً
لـنـادتْـك ادخـلـوهـا آمـنـيـنـا
فـقـلـب الـقـدس مـسـرورٌ ولـولا
سُـطاكَ لـكـان مـكـتـئـبـاً حـزيـنـا
أدرتَ عـلى الـفـرنـج وقـد تـلاقـتْ
جمـوعـهـمُ عـلـيـك رحىً طـحـونـا

كثرت معارك صلاح الدين قبل فتح القدس ، وتعدّدت مواقفه الشديدة مع الفرنج ، واستغرقت أكثر من خمسة عشر عاما ، وكانت معركة « حِطين » الخالدة من أعنف المعارك وأشدها وطأة على الأعداء ، وكان فضل الانتصار فيها للقيادة الحكيمة التي ترأسها هذا البطل العظيم وجنوده الميامين ، وننقل هنا طرفا من هذه المعركة ؛ قال العماد الأصبهاني[٩٤] : « أما عساكرنا فإنها اجترأت ، ومن كل ما يعوقها برئت ، فهذا لسنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم مفوَّق ، وهذا شهم موفَّق ، وهذا مكبّر للتكبير ، ومنتظر للتبكير . . . والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله ، فهو يمضي بنفسه على الصفوف ، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ، ويغري المئين بالالوف ، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدّون ، ويصدّون العدو ويردّون ، وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس ، وكان حصانه قوي الراس ، فابعد عن اخوانه ، ولم يتابعه أحد من أقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فأثبت في مستنقع الموت رجله ، وقاتل الى ان بلغوا قتله ، فلما اخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان ، وانتقل الشهيد الى جوار الرحمن ، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتهم وخلصت لله نيتهم . . . » بهذه الروح كان يقاتل جند القائد صلاح الدين ، وقد وقعت هذه المعركة التي قصمت ظهور الفرنج وبدّدت أحلامهم سنة ٥٨٣ هـ ، وهي على مشارف القدس ، وكانت مقولة هذا القائد قبل خوضها مؤثرة في قواده الممسكين بزمام المبادرة[٩٥] : « هذا اليوم الذي كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا رجل قد كبرت ، ولا أدري متى أجلي ، فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا لله تعالى ، لا من أجلي » . نعم ، كان لله قتالهم ، وفي سبيله نضالهم ، ولتنفيذ أمره جهادهم واستشهادهم ﴿ وجاهِدوا في الله حقَّ جهاده ﴾[٩٦] .

هيأ القائد مستلزمات النزال ، وعبأ الطاقات ، كل الطاقات لملاقاة القوات المتجحفلة أمامه بأعدادها البالغة خمسة وأربعين ألفا ، وزادها بعضهم الى ثلاثة وستين ألفا ، بين فارس وراجل . أما عدد المسلمين فكان اثني عشر ألف مقاتل . واصطدم الجمعان ، وتضارب الطرفان ، واحتدم القتال بضراوة ، واشتد الجلاد بقساوة ، الى ان انكسر الفرنج شر كسرة ، وتحطمت آلاتهم وأدواتهم ، وهلك منهم الآلاف ، وفر الباقون فزعين من هول ما رأوا وشدة ما وقع على أصحابهم ورفاقهم . وقد أحدث هذا النصر المبين رنة فرح تردد صداها في أنحاء العالم الاسلامي ، وكتب العماد الأصبهاني على لسان صلاح الدين الأيوبي « في ذلك سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع »[٩٧] ، ونظم قصيدة بهذه المناسبة الخالدة مطلعها[٩٨] :

أطيب بـأنفـاسٍ تـطيب لكم نـفسـا
وتعتـاض من ذكـراكم وحشتي انسـا

ومنها :

كـسـرتَهم إذ صـحّ عـزمـك فـيـهـمُ
ونكّستـهـم إذ صـار سهمهـمُ نكسـا
بـطون ذئـاب الأرض صـارت قبـورهم
ولم تـرض أرض ان تكـون لهم رمسـا
وطـارت عـلى نـار المواضي فـراشُهم
صـلاءً فـزادت من خمـودهمُ قـبسـا

وقد خشعت أصوات أبطالها فما
يعي السمع إلا من صليل الظُّبى همسا
تقاد بدأماء الدماء ملوكهم
اسارى كسفن اليمّ نُطّت بها القلسا

تعطينا هذه القصيدة صورة للفرسان المهاجين بعزيمة وثبات على الأعداء ، ضاربين بسيوف الحق رقابهم ، وتاركين جثثهم تملأ الأرض طعاما للطيور الجارحة والذئاب الجائعة ، الى جانب الاسارى وهم يساقون للبيع بأبخس الأثمان ، وقد جاءت الصورة أوضح عند فتيان الشاغوري[99] :

أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمرِ
ولُّوا وعقبان المنون مُسِفَّةٌ
والخيل تعثر بالقنا المتكسِّرِ
لا ينظرون سوى حسام مشهَّرٍ
ومن الدماء كأنّه لم يشهرِ
فالقوم نهبٌ للسباع تنوشهم
من كل ذي نابٍ وصاحب منسرِ
فمن الذي من جيشهم لم يخترم
قبلا ومن من جمعهم لم يؤسرِ

انهم أصبحوا كالفراش المبثوث بين قتيل تنهش فيهم السباع ، وأسرى بأيد تباع . وقد أحسن العماد الأصبهاني وصف هذا الموقف ، فقال[100] : « وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى ، وقيد الاسارى في الحبال واجبة القلوب ، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب ، وحطّت حطين تلك الجيف عن متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها ، وعبرت بها فألفيتها محل الاعتبار ، وشاهدت ما فعل أهل الاقبال بأهل الادبار ، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار ، ورأيت الرؤوس طائرة ، والنفوس بائرة ، والعيون غائرة . . . » . ونجد لوحة غريبة عن هذه المعركة الفاصلة عند ابن سناء الملك[101] :

خانهم ذلك السلاح فلا الرمـ
ـح تثنى ولا المهند طنّا
وتولّت تلك الخيول فكم يُثـ
ـنى عليها بأنّها ليس تثنى
أشجع القوم فيهم جاعل الدر
ع هروباً او الغرار مجنّا
وتصيّدتهم بحلقة صيدٍ
تجمع الليث والغزال الأغنّا
وجرت منهم الدماء بحاراً
فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنّعت منهم وليمة وحشٍ
رقص المشرفيُّ فيها وغنّى

لم تنجهم قواتهم الكثيرة ، ولم تحمهم اعتدتهم الغفيرة ، وولّت خيولهم شاردة ، وفرسانهم هاربة ، ووقع من تبقى منهم في الشباك ، تشويهم النار في وليمة ، وأي وليمة ؟ كان المشرفيُّ يرقص فيها تارة ويغني تارة اخرى .

لم يقف صلاح الدين عند هذا الفوز الساحق والظفر الماحق ، ولم يمهل الأعداء ان يرتقوا فتقهم ويجددوا بنيانهم المتهاوي ويلمُّوا شعثهم ويهيئوا أمرهم لمعركة جديدة ، بل مضى مسرعا الى البيت المقدس ودخله دونما عناء او مقاومة شديدة ، واسر ملك الفرنج ، ودخل المسجد الأقصى ، ونصب المنبر الذي هيّأه من قبل نور الدين محمود لمثل هذا اليوم ، يوم النصر ، وصلّى مع صحبه المجاهدين ، وشكر الله على هذا الفتح المبين ، وقام قاضي القضاة محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن زكي الدين وخطب في أول جمعة خطبة طويلة استقصى فيها مكانة القدس عند المسلمين والاثر

الذي أحدثه رجوعها في النفوس ، ومما جاء فيها قوله[102] :

«فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والفتكات العلوية . جددتم للاسلام أيام القادسية ، والواقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء» .

كان هذا الفتح الجليل نصرا لا نظير له آنذاك ، هز النفوس ، وسر الأفئدة . وراح الشعراء يترنمون من نشوة الطرب ، وينشدون لقائدهم قصائد الابتهاج بيوم الجلاء من المدينة الشماء التي استعصى فيها زمنا طويلا ، وتسابقوا في الدخول عليه والمثول بين يديه للتهنئة ، وكان أول صوت يشنف اذنه من ابن أخيه تقي الدين عمر قصيدة مطلعها[103] :

دع مهجةَ المشتاق معْ أهوائها
يا لائمي ما أنت من نصحائها

ومنها :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحاً
يا كفأها ، ما العذر من عذرائها
زفّت اليك عروسُ خدرٍ تجتلى
ما بين أعبدها وبين إمائها
إيهٍ صلاحَ الدين خذها غادةً
بكراً ، ملوك الأرض من رقبائها
كم خاطبٍ لجمالها قد ردّه
عن نيلها ان ليس من أكفائها

شبه هذه المدينة الصامدة بالفتاة الحسناء الممنعة الحصان التي لم تجد كفءاً لها غير صلاح الدين ، الفارس الأبي ، فزفت اليه مجلوة لتعيش في ظله آمنة مطمئنة . وهذه الصورة ـ كما قلنا سابقا ـ مكررة ومعادة عند الكثيرين .

واهتز رشيد الدين عبدالرحمن بن بدر النابلسي بهذا الفتح الباهر ، وأخذته أريحية النصر القاهر ، وجادت قريحته بقصيدة لطيفة عبّر فيها عن مشاعر المسلمين تجاه هذا العمل البطولي النادر الذي عجز الكثيرون عن تحقيقه والاتيان به ، مطلعها[104] :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوفِ لله أقوامٌ بما نذروا

نعم انتظار طويل ، ممل وثقيل ، دام تسعين عاما ، تحمل فيه الناس قسوة الفرنج وجورهم ، وعاشوا مروّعين هلعين لا حول لهم ولا طول ، الى ان جاء الفرج الأكبر ، وانكشفت الشدة ، وزالت الغمة ، وذهب شبح الخوف ، وعادت قبة الصخرة الى أهلها بسلام ، يرفرف عليها علم الاسلام ، وصوت المؤذن بكلمة « الله أكبر » يجلجل في جوانبها كما يقول الشاعر :

الآن قرّت جنوبٌ في مضاجعها
ونام من لم يزل حلفاً له السهرُ
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
إسلامِ من بعد طيٍّ وهو منتشرُ
الله أكبر ، صوتٌ تقشعرُّ له
شمُّ الذرا ، وتكاد الأرض تنفطرُ

ونرى الشاعر لا يقف عند هذا الحد ، حد النصر والفتح ، وتسلُّم مفاتيح البيت المقدس ، بل يريد مطاردة الفرنج وملاحقتهم في الساحل الشامي (الطراز الأخضر) ورميهم بعيدا ، وتثبيت أعلام الظفر وأكاليل الفرح :

يا مالك الأرض مهِّدْها فما أحدٌ
سواك من قائمٍ للمهد ينتظرُ
ما اخضرَّ هذا الطراز الساحلي ثرىً
إلّا لتعلو به أعلامك الصُّفرُ

ويندهش نقيب الأشراف بالديار المصرية محمد بن أسعد بن علي المعروف بالشريف الجواني من هذا النبأ ، ويذهل من خبر دخول الجيش الاسلامي منتصرا في مدينة القدس التي حصنها الفرنج وأقاموا فيها الحواجز والمتاريس ، وزجوا خلفها آلاف المقاتلين المدربين على أنواع السلاح ، فقال[١٠٥] :

أتَرى مناماً ما بعينيَ ابصرُ ؟
القدس يفتح والفرنجة تكسرُ !
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليكٌ يؤسرُ !

أيفتح القدس وينكسر الفرنج ؟! ويؤسر مليكهم ويساق مقيدا ؟! لماذا هذا الاستغراب وقد مشى بالجيوش مجاهد ، يلتهب حماسا ، ويتوقد ايمانا بقضيته العادلة ، مجاهد استلهم قوة ارادته ، وصلابة عزيمته ، ومتانة همته ، من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

فُتحَ الشآم ، وطُهّر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشرُ
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمرُ الامام الأطهرُ
ولأنت عثمان المشرَّف بعده
ولأنت في نصر النبوَّة حيدرُ
ملكٌ غدا الاسلام من عجبٍ به
يختال والدنيا به تتبخترُ

ويطلع علينا نجم الدين يوسف بن المجاور لقصيدة هادرة ، ذات معانٍ سامية نادرة ، مطلعها[١٠٦] :

الوقتُ أضيقُ من سماع قصيدةٍ
موسومةٍ لصفات أغيدَ أهيفِ
الجدُّ في هذا الزمان مُبَيَّنٌ
والهزل فيه مع الغواية مختفِ

لا مجال للهزل والغواية والجري وراء الملذات والغيد الحسان والوقوف عند محاسنهم وأطايب أحاديثهم ، الوقت أضيق من ذلك ، فهو يقتضي الاسراع الى الحرب واللحاق بالملك الناصر صلاح الدين ومؤازرته في الموقف الحاسم مع العدو الغاشم :

بالناصر المهديِّ والهادي الى
سبل الجهاد أبي المظفّر يوسفِ
المستعين بربّه والواثق الـ
ـمنصور والمستظهر البرِّ الوفي
شُدّت قوى أركان ملّة أحمدٍ
وتحمّلت بجهاده في الموقفِ
عزمٌ وحزمٌ أنسيا ما كان من
عزم ابن مرداسٍ وحلم الأحنفِ

هذا المجاهد الصامد الثابت أنسى مآثر الرجال المشهورين بالحلم والعزم ، مثل الأحنف بن قيس والعباس ابن مرداس صاحب البيت المشهور[١٠٧] :

نقاتل عن أحسابنا برماحنا
فنضربهم ضرب المذيذ الخوامسا

ويحث الشاعر ابن المجاور في القصيدة نفسها السلطان صلاح الدين بعدما أحكم أمر الجهاد ، او « ديوان الجهاد » كما يسميه ، ان يمد سيطرته على البسيطة ويوحدها ويقيم العدل الذي فقدته بين ربوعها :

لله يوم عروبةٍ إذ أعربت
ساعاته عن نصرك المتعرّفِ
هذا الطراز الأخضر استفتحته
فزها بثوبٍ من علاك مسجّفِ
وضبطت ديوان الجهاد بعاملٍ
من عاملٍ ، وبمشرفٍ من مشرفي
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني
وبناظر الرأي الذي لم يطرفِ

فخذِ الخراج من البسيطة كلها
واستأدِ فرضي جزيةٍ وموظّفِ
واقبضْ على الدنيا بكفّ زهادةٍ
وابسطْ لرحمتها جناح تعطّفِ

وتابع الشاعر المشهور ابن الساعاتي أنباء معارك التحرير، وتفاعل معها، واندمج بها بكل جوارحه، وكتب عنها قصائد طويلة تزخر بالصدق، صدق العواطف تجاه الكماة الذين حملوا راية الكفاح. ففي احدى هذه القصائد يتساءل عن العي الذي أصاب بعض الألسن، مع ان الأعين قد شاهدت الانتصارات الباهرة والآذان قد سمعت أخبار الاشتباكات الساخنة والمصادمات الطاحنة. وتمنى ان ينهض الفاتح الأول الخليفة عمر بن الخطاب ويرى ما صنع الأبناء البررة من الخلف الصالح، ومقدار التضحية التي قدموها، والدماء التي سكبوها قربانا لقضيتهم العادلة[108]:

أعِيًّا، وقد عاينتم الآية العظمى
لأيةِ حالٍ تدخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس في كل منطقٍ
وشاع الى ان أسمع الأسلَ الصمّا
فليت فتى الخطّاب شاهد فتحها
فيشهد أنّ السهم من يوسف أصمى

ان صدى الفتح ـ في نظر الشاعر ـ تردّد في كل الآفاق، حتى في أكناف الكعبة الشريفة بمكة، ومثوى الرسول الكريم في يثرب. وقدّم صورة بديعة، اذ جعل للدين ـ بعد ان حسمت الجيوش الاسلامية الموقف، وداوت القروح التي أعيا دواؤها بالسيوف المرهفة ـ ثغرا مفترا تتهادى عليه ألسنة الأغماد لثما وتقبيلا:

حبا مكّة الحسنى وثنّى بيثرب
وأطرب ذيّاك الضريح وما ضمّا
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه
وغير الحسام العضب لا يعرف الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسماً
وألسنة الأغماد توسعه لثما

ويعيد الشاعر في قصيدة اخرى ذكر الصحابي الجليل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان له الفضل الأول في فتح بيت المقدس. ويعد صلاح الدين المجدد لهذا الفتح الذي تحامته آنذاك سادات الدنيا ومسودها، ولم تستطع ان تزيل عنه الكابوس الثقيل وتحرره من القيود التي طوقته زمنا ليس بالقصير[109]:

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما
تحامته سادات الدُّنا ومسودها
فضيلة فتحٍ كان ثاني خليفةٍ
من القوم مبديها وأنت معيدها

وأثّرت الحروب الصليبية بالشاعر الرحالة المشهور ابن جبير الذي زار مصر والشام، واعجب بشخصية صلاح الدين، ووجده عن كثب سلطانا مهيبا «محا البدع اللعينة كلها ـ كما يقول ـ وبسط العدل ونشر الأمن»[110]، وتألم من جانب آخر حينما شاهد المحتلون يؤذون المسلمين والمسلمات، فقال[111]: «ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسْوقهنّ خلاخيل الحديد، فتتفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الأشفاق عنهم شيئا». ولكن زال هذا الألم وحل محله الفرح والحبور بعدما جاء نصر الله بفتح بيت المقدس، ونظم قصيدة تناول فيها الخطوات الجبارة التي خطاها صلاح الدين في تحرير أرض المسلمين من قبضة الفرنج، والضربات القاصمة التي جعلتهم يولون الأدبار، وأشاد بصبره وجلده على مقارعتهم، وسهره في مرضاة

الله ، ننقل منها الأبيات الآتية[112] :

وجاهدت مجتهداً صابراً
فلله درّك من صابرِ
تبيت الملوك على فرشها
وترفل في الزرد السابري
وتؤثر جاهد عيش الجهاد
على طيب عيشهم الناضرِ
وتسهر جفنك في حق من
سيرضيك في جفنك الساهرِ
فتحت المقدّس من أرضه
فعادت الى وصفها الطاهرِ
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثرِ

وكان الشاعر الأندلسي الآخر أبو الفضل عبدالمنعم إبن عمر الجلياني أكثر حماسة لاستعادة الحمى الذي كلكل عليه الفرنج بظلمه وجبروته ، ونظم قصائد طوالا شكلت ديوانا كبيرا نقل منه أبو شامة المقدسي خمسا منها ، جاء في احداها المسماة بـ « القدسية الكبرى » وهي في مئة واثنين وخمسين بيتا[113] :

لسرعة فتح القدس سرٌ مغيّبٌ
وفي صرعة الافرنج معتبرٌ بدا
أتوا كحبالٍ ابرمت لاسارنا
فسقناهم فيها قطيناً مجدّدا
وجرّوا جيوشاً كالسيول على الصُوى
فأضحت غثاءً في البطاح مبدّدا
أرى الله فيها معجزَ النصر مخلصاً
لأمر صلاح الدين في الناس مُخلدا
ومن عجبٍ خمسون ألف مقاتلٍ
سبتهم جيوشٌ ليس فيها من ارتدى

وعلى الباغي تدور الدوائر ـ كما يقال ـ فانهم جاءوا بجنود مجندة لضرب قوات المسلمين وابادتها ، ولكن هذه الجنود تحولت بهمم الرجال الشجعان الى غثاء لا قيمة له ، وهباء متناثر لا شأن له ، الى جانب عدد كبير من الأسرى وهم منكسو الرؤوس من القهر الذي تحملوه في النفوس .

وله قصيدة اخرى تسمى بـ « التحفة الجوهرية » مطلعها[114] :

رفاهية الشهم اقتحام العظائمِ
طلاباً لعزٍّ ، او غلاباً لضائمِ

البطل الصابر الجريء الذي ارتضى ان يكون مهاده شوك القتاد ، قتاد الحرب ، عاشق للجهاد عشق الحبيبين المولّهين المرتبطين برباط دائم لا انفصام له ، وملازم لهذا الجهاد ملازمة العابد في صبحه ومسائه وصيفه وشتائه بصوت المؤذن لأداء فروض الصلاة :

فانت المليك ، الناصر الحق ممعناً
يرى دهمَ شوك الحرب مهد النواعمِ
أتعشقك الهيجاء أم أنت عاشقٌ
لها في وصالٍ من حبيبين دائمِ ؟
شتاءً وصيفاً لا نزال نراك في
مساءٍ وصبحٍ كالأذان الملازمِ

ويكرر هذا الشاعر في أكثر من قصيدة مطلبا عظيما ، هو اقامة « الوحدة الكبرى » التي يتقوّى بها المسلمون ويستعيدون بها مجد البطولات الباهرة في عصر الرسالة[115] :

يا فاتح المسجد الأقصى علىَّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزتهِ
أبشرْ بملكٍ كظهر الشمس مطّلعٍ
على البسيطة فتّاحٍ بنشرتهِ
حتى يكون لهذا الدين ملحمةٌ
تحكي النبوّة في أيام فترتهِ

الحق لا يسترد إلا بالقوة والوحدة والتضامن ، وقد أدرك الشاعر هذا الشيء ، لذلك دعا الى جمع الشمل وتوحيد العالم الاسلامي تحت راية واحدة وبأمرة قائد حكيم واحد ، وهذا الطموح المشروع نجده أيضا عند العماد الأصبهاني[١١٦] :

توكّلْ على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعاً ، وعصمته ترسا
ودمِّرْ على الباقين ، واجتثَّ أصلهم
فإنك قد صيّرت دينارهم فلسا
ولا تنسَ شرك الشرق غربك مروياً
بماء الطلى من صاديات الظُّبى الخمسا
وان بلاد الشرق مظلمةٌ فخذْ
خراسان والنهرين والترك والفرسا

بهذه اللغة السهلة يخاطب الشاعر قائده ، ويدعوه الى مواصلة الجهاد ، ويمد حكمه في بلاد واسعة تظللها راية واحدة قائمة على الحق والعدل .

ان الشعر الذي ذكرنا أمثلة منه في هذا البحث جزء يسير من سفر كبير نستطيع ان نطلق عليه « ديوان جهاد صلاح الدين » شاركت فيه أقلام كثيرة من بلدان مختلفة ، سطّرت فيه بأمانة واخلاص ما جرى على الساحة العربية زمن صلاح الدين الأيوبي من كفاح ونضال في مجابهة فئة حاملة في جعبتها سهاما مردية لاناس لاذنب لهم سوى انهم يعيشون على أرضهم بأمان واطمئنان ويحمون أماكنهم المقدسة التي توارثوا مفاتيحها من آبائهم وأجدادهم .

ومما يميز هذا الشعر انه كان يدور في مضمون واحد ، او في تجربة واحدة ، تجربة الحرب المريرة التي انهكت العالمين آنذاك ، وازهقت أرواحا بريئة ، واتلفت أموالا كثيرة ، وقد تضافر الشعراء على توضيح هذه التجربة ونقلها الى القارىء باسلوب سهل مأنوس . وسمة السهولة والوضوح معروفة في القرن السادس للهجرة ، تدعى باتجاه الرقة والسهولة ، او مدرسة الرقةوالسهولة كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين[١١٧] . وهذه الطريقة شاعت وراجت وكثر سالكوها ، لأنها أيسر السبل في ايصال الأصوات في هذا الظرف العصيب المكفهر الى العامة والخاصة من الناس . وكان المعجم الشعري لهذه الأصوات ميسورا وسهلا لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء في دلالته ، الى جانب اللغة الفصحى .

لقد عبّر الشاعر آنذاك عن واقع الحرب وما يعاني الناس في ظلها تعبيرا صادقا ، والتجربة الشعرية كما هو معروف « حدث وجداني او عاطفي ، حدث ينبع من نفس صاحبه ، ومن عقله ، ومن كل حواسه ، ودخائله النفسية والفكرية ، الظاهرة والباطنة ، حدث عاشه أوضح ما تكون المعيشة »[١١٨] . وهل هناك أكبر من هذا الحدث الذي هزه وأقلقه ونغّص عليه حياته ؟ وهل هناك أصعب من هذه المشكلة التي ثلمت العزة وجرحت الكرامة ؟ لا أظن أمرا يعادل الحرب والدمار والصراع الدامي ـ ان لم أكن مخطئا ـ في تأثيره على النفوس . ومن هنا جاء تعبير الشاعر في تلك الظروف صادقا وصحيحا لا كذب فيه ولا تزوير . يقول الدكتور محمد النويهي[١١٩] : « والصدق الذي نريده من الأديب دائما ان يقول بلسانه حقيقة ما في قلبه ، فإن قالها فهو صادق بمعنى الصدق الأدبي ، وان خالف كلامه الواقع في بعض الأشياء ، وان لم يقلها ، فهو كاذب بمعنى الكذب الأدبي » . وكان الشاعر ـ وهو من الطبقة المثقفة الواعية ـ أمينا في تصوير الواقع ، وقد استعان في هذا التصوير بالفنون البيانية . فمن التشبيه قول علي بن أبي الحسين يحيى المعروف بابن الذروي في وصف الجيش الذي لا يقهر[١٢٠] :

لله جيشٌ منك لا ينثني
إلّا بنصلٍ دُميتْ شفرتاه
ما بين عقبانٍ ولكنّها
خيلٌ وفرسانٌ كمثل البزاه
آساد حربٍ فوق أيديهمُ
أساود الطعن ، فهم كالحواه

ومن الاستعارة الممتزجة بالكناية قول العماد الأصبهاني[121] :

واهتزّ عطف الاسلام من جذلٍ
وافترّ ثغر الايمان وابتسما

ومن الاستقراء الداخلي للنصوص الشعرية في هذه الحقبة يستبين للقارىء ولع بعض الشعراء بالبديع في تزيين الصور ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء القاضي الفاضل ، الذي اختط لنفسه طريقة عرفت به ، وامتاز بها في زمنه ، وما تلاه من الأزمان ؛ فانه أكثر من استعمال التورية ، والجناس ، والطباق ، والتلميح ، والاستخدام ، والتوجيه ، ومراعاة النظير ، والاقتباس من آيات القرآن الكريم . . . وقد اعجب رجال الصنعة بطريقته ، مسجلين له أعظم تقدير وثناء ، ولا سيما ابن حجة الحموي[122] .

ونورد هنا أمثلة قليلة جدا ، لأننا لا نريد ان نثقل البحث بالشواهد ، فهي كثيرة لمن يريد ان يطلع عليها في مصادر هذه الحقبة . فمن الطباق الى جانب التقسيم قول سعادة بن عبدالله الأعمى من قصيدة وجهها الى صلاح الدين[123] :

صدعْتَ ما شعبوا ، قطعت ما وصلوا
فللت ما شحذوا ، حللت ما عقدوا

ومن المقابلة قول ابن سناء الملك[124] :

يروّعه الصبح المنير اذا بدا
ويوحشه الليل البهيم اذا جنّا

ومن الجناس قول رشيد الدين النابلسي[125] :

زاروا غموراً ، ولا تغني وقاحتهم
اذا اسودك في أبطالهم زاروا

ومن الترصيع قول العماد الأصبهاني[126] :

مسعودةٌ غدواته ، محمودةٌ
روحاته ، ميمونةٌ ضحواتُهُ

ان هذه النماذج وأمثالها ـ وهي كثيرة في شعر الجهاد ـ لم تسطُ على المعنى وتفضح به ، بل زادت من الشرح والابانة ، ومن دعم الصور الشعرية التي عبّر الشعراء من خلالها عن واقع المعارك العنيفة آنذاك وحالات المواجهة الشديدة مع الفرنج .

والجدير بالذكر ان سمة المبالغة بارزة وشائعة في شعر الحرب في عصر صلاح الدين ، وقد تصل عند بعضهم حدا غير مستساغ ، مثل قول ابن سناء الملك في وصف قوة صلاح الدين وشدة بأسه[127] :

بضربٍ يذيب الشمسَ في الافق حرُّه
ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

وقول ابي المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد المصري في وصف جيوش صلاح الدين التي تضيق الأرض بهم ، وتكاد تميد من الخوف حين تخفق بنودهم فوق نجودها[128] :

جيوش تضيق الأرض عنها كأنها
أفاويض بحرٍ عاجلتْها مدودُها
تمور نجود الأرض من عظم خوفه
اذا خفقت في الخافقين بنودها

وتقترن المغالاة بالحشو والتطويل والتكرار عند الكثيرين من الشعراء الذين ولجوا باب الشعر الحربي[129] ، وهذا الأمر ـ وان كان يعكس الحركة النفسية الداخلية لدى الشعراء تجاه الحرب آنذاك ـ يقلل من القيمة الفنية لهذا الشعر ، ويضعه في مرتبة دنيا اذا ما قيس بالشعر الحربي في عصر المتنبي وأضرابه من الشعراء .

وفي الختام أقول : ان الشعر ـ وهو مرآة تنعكس عليها صورة الواقع ـ عبّر خير تعبير عن حالة المجتمع الذي عاش سنوات الشدة والضيق والحرج في ظل الاحتلال الأجنبي المتمثل في الامارات الصليبيّة ، ثم الأمل والانطلاق والانفتاح والعيش بعزة وكرامة في عهد المجاهد الأبي صلاح الدين الذي اتصف بسمو الخلق ونبل النفس . وهذا الشعر الذي درسناه في هذا البحث الوجيز سلط الأضواء على مواضع صغيرة وأطراف محدودة لا تكفي ان تعطي صورة واضحة ومتكاملة عن رجل عظيم تعلقت به الامة في القرن السادس للهجرة ووجدت فيه الأمل المنشود في استرداد الوطن الحبيب من الغاصبين . ونأمل ان يتناول أحد الباحثين هذا الشعر في دراسة كبيرة يكشف فيها عن جوانب مشرقة وصفحات مضيئة من تاريخنا العظيم الذي قدم فيه أبناؤه التضحيات الجسام على مذبح الحرية ودرب الخلاص من التبعية .

الهوامش

(١) حسن المحاضرة ٢ : ٨ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ٤/١ : ٥٥ .

(٤) الروضتين ١ : ١٠٠ .

(٥) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٥٨ .

(٦) الروضتين ١ : ٥ .

(٧) حسن المحاضرة ٢ : ٤ .

(٨) الروضتين ١ : ٣٩٥ .

(٩) حسن المحاضرة ٢ : ٥ .

(١٠) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٦١ .

(١١) النوادر السلطانية ص ٤١ .

(١٢) النوادر السلطانية ص ٤١ .

(١٣) الخريدة ، قسم مصر ، ١ : ١٠٨ .

(١٤) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٩ .

(١٥) الروضتين ١ : ٥٠١ .

(١٦) الروضتين ٢ : ٢١٤ .

(١٧) الروضتين ٢ : ٢١٣ .

(١٨) الروضتين ٢ : ٢١٥ ، مرآة الزمان ٨ : ٤٣١ ، الانس الجليل ١ : ٣٩٥ ، شفاء القلوب ص ١٨١ .

(١٩) الروضتين ٢ : ٢٢٤ ، وينظر شفاء القلوب ١٨٢ .

(٢٠) ديوان ابن قلاقس ١ : ٢٨٩ .

(٢١) ديوان ابن عنين ص ٢٦ .

(٢٢) النوادر السلطانية ص ٢٦ .

(٢٣) النوادر السلطانية ص ١٩ .

(٢٤) عيون الأنباء ٣ : ٣٣٧ .

(٢٥) سورة الحجر ، الآية ٤٧ .

(٢٦) ديوان القاضي الفاضل ١ : ١٦٢ .

(٢٧) طبقات الشافعية ٧ : ٣٤٠ .

(٢٨) حسن المحاضرة ٢ : ١٩ .

(٢٩) الروضتين ١ : ٦٣١ .

(٣٠) الروضتين ١ : ٦٠٥ .

(٣١) ديوان اسامة بن منقذ ص ٢١١ ، وينظر اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ص ٢٤ .

(٣٢) النوادر السلطانية ص ٢١ .

(٣٣) طبع في بيروت سنة ١٩٤٨ . بتحقيق كلود كاهين .

(٣٤) النوادر السلطانية ص ٢٢ .

(٣٥) النوادر السلطانية ص ٢٣ .

(٣٦) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ١٠٦ ، الروضتين ١ : ٦٩٥ .

(٣٧) الخريدة ، قسم مصر ، ١ : ٢٠٣ .

(٣٨) الروضتين ١ : ٢٠٣ .

(٣٩) مرآة الزمان ٨ : ٣٠٤ .

(٤٠) زبدة الحلب ٣ : ١٢٥ .

(٤١) شفاء القلوب ص ١٩٢ .

(٤٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤١ .

(٤٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٠ .

(٤٤) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٥ .

(٤٥) حققته أميرة محمود باشرافنا ، ونالت به درجة الماجستير من جامعه الموصل .

(٤٦) وفيات الأعيان ١ : ٢٩٧ .

(٤٧) ديوان ان الساعاتي ٢ : ٤٠٩ .

(٤٨) الروضتين ٢ : ٨٢ .

(٤٩) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٩٢ .

(٥٠) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١٧٤ .
(٥١) شرح ديوان المتنبي (لبرقوقي) ٢ : ٢٧٤ .
(٥٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٧ .
(٥٣) ينظر على سبيل المثال ديوان النابغة الذبياني ص ١٣ ، ديوان صريع الغواني ص ١٢ .
(٥٤) ديوان ابن الدهان الموصلي ٣٣ .
(٥٥) ديوان ابن الدهان ص ٤٣ .
(٥٦) مفرج الكروب ٢ : ٧٨ ، الروضتين ٢ : ٩ .
(٥٧) سورة التوبة ، الآية ٢٥ .
(٥٨) الروضتين ٢ : ١٢ .
(٥٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٨٥ .
(٦٠) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٢٠ .
(٦١) الروضتين ٢ : ٢٢١ .
٦٢) الخريدة ، قسم مصر ، ٢ : ١٤٥ .
(٦٣) سنا البرق الشامي ١ : ٣٣٩ .
(٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤١١ .
(٦٥) مفرج الكروب ٢ : ٩٩ ، الروضتين ٢ : ١٦ .
(٦٦) سورة التوبة ، الآية ٤١ .
(٦٧) ديوان القاضي الفاضل ١ : ١٨٤ .
(٦٨) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٩٢ .
(٦٩) الروضتين ١ : ٥٩٨ .
(٧٠) الروضتين ١ : ٦٠٠ .
(٧١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .
(٧٢) الخريدة ، قسم الشام ، ٢ : ٢٣٣ .
(٧٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .
(٧٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١١٠ .
(٧٥) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٥١ .
(٧٦) سورةالأنفال ، الآية ٦٠ .
(٧٧) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٠٦ .
(٧٨) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٣٠٣ .
(٧٩) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤١٢ .
(٨٠) ديوان عرقلة الكلبي ص ٣٢ .
(٨١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨٣ .
(٨٢) البرق الشامي (مخطوط) ٥ : ٩٤ .
(٨٣) النكت العصرية ص ٢٢٩ ، الروضتين ١ : ٤٩٢ .
(٨٤) سورة الاسراء ، الآية ١ .
(٨٥) صحيح مسلم ٢ : ٩٧٦ .
(٨٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٦١ .
(٨٧) نفسه ص ٣٧٨ .
(٨٨) نفسه ص ٣٠٤ .
(٨٩) نفسه ص ١٩٤ .
(٩٠) سورة آل عمران ، الآية ١٧٠ .
(٩١) الروضتين ٢ : ١١٦ .
(٩٢) الروضتين ٢ : ١٠٥ .
(٩٣) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤٠٦ .
(٩٤) الروضتين ٢ : ٧٧ .
(٩٥) الروضتين ٢ : ٨٢ .
(٩٦) سورة الحج ، الآية ٧٨ .
(٩٧) الروضتين ٢ : ٩٦ .
(٩٨) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٢٣٠ .
(٩٩) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٤ .
(١٠٠) الروضتين ٢ : ٧٨ .
(١٠١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٤١ .
(١٠٢) الروضتين ٢ : ١١٠ ، مفرج الكروب ٢ : ٢١٨ ، وفيات الأعيان ٣ : ٣٦٤ ، شفاء القلوب ص ١٣٠ .
(١٠٣) الخريدة ، بداية شعراء الشام ، ص ٢٥ ، مفرج الكروب ٢ : ٢٣٦ ، كنز الدرر ٧ : ٩١ .
(١٠٤) الروضتين ٢ : ١١٨ .
(١٠٥) الروضتين ٢ : ١٠٥ ، مفرج الكروب ٢ : ٢٣٣ ، كنزالدرر ٧ : ٩٦ .
(١٠٦) الروضتين ٢ : ١٠٣ .
(١٠٧) ديوان العباس بن مرداس السلمي ص ٧٠ .
(١٠٨) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨٥ .
(١٠٩) نفسه ٢ : ٤١٠ .
(١١٠) رحلة ابن جبير ص ٣١ .
(١١١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ .
(١١٢) ابن جبير الأندلسي شاعرا ص ٥٠٢ .
(١١٣) الروضتين ٢ : ١١٧ .
(١١٤) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٠ .
(١١٥) الروضتين ٢ : ١٠٣
(١١٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٢٣٣ .
(١١٧) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٠ .

(١١٨) في النقد الأدبي ص ١٣٨ .
(١١٩) وظيفة الأدب ص ٤٨ .
(١٢٠) الروضتين ١ : ٥٣٢ .
(١٢١) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٣٧٧ .
(١٢٢) انظر الخزانة ٥٨ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
(١٢٣) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤١٢ .
(١٢٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٢٤ .
(١٢٥) الروضتين ٢ : ١٩٤ .
(١٢٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٨٧ .
(١٢٧) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢٣ .
(١٢٨) الخريدة ، قسم مصر ـ ٢ : ١٤٥ .
(١٢٩) ينظر بحثنا (القدس في شعر القرن السادس للهجرة) مجلة المورد ، العدد الأول لسنة ١٩٨٢ . وبحثنا (شعر الحرب في عصر بني أيوب) مجلة آداب الرافدين ، العدد الخامس عشر لسنة ١٩٨٢ .

المصادر والمراجع

١ ـ اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية : جمال الدين الألوسي . مط أسعد ـ بغداد ١٩٦٧
٢ ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : مجير الدين الحنبلي . المط الحيدرية ـ النجف ١٩٦٨ .
٣ ـ البرق الشامي : عماد الدين الأصبهاني . مخطوطة المتحف البريطاني . ج ٣ رقم ١١ ، ج ٥ رقم ٤٢٥ (توجد مصورة منه في مكتبتي) .
٤ ـ تاريخ ابن الفرات : محمد بن عبدالرحيم بن الفرات . تحـ : د. حسن محمد الشماع . ج ٤ . مط حداد ـ البصرة ١٩٦٧ .
٥ ـ ابن جبير الاندلسي شاعرا : منجد مصطفى بهجت . مجلة آداب الرافدين ـ العدد التاسع لسنة ١٩٧٨ .
٦ ـ حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي . مط دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦٧ .
٧ ـ خريدة القصر وجريدة العصر : عماد الدين الأصبهاني ، تحـ : د. شكري فيصل . ج ٢ (قسم الشام) المط الهاشمية ١٩٥٩ . بداية شعراء الشام . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٨ . وقسم شعراء مصر . تحـ : أحمد أمين ، د. شوقي ضيف ، د. احسان عباس . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥١ .
٨ ـ خزانة الأدب : ابن حجة الحموي . المط الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٤ هـ .
٩ ـ دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : د. محمد كامل حسين . مط دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٥٧ .
١٠ ـ ديوان ابن الدهان : عبدالله بن أسعد الموصلي . تحـ : عبدالله الجبوري . مط المعارف ـ بغداد ١٩٦٨ .
١١ ـ ديوان ابن الساعاتي : تحـ : أنيس المقدسي . المط الأمريكية ـ بيروت ١٩٣٨ .
١٢ ـ ديوان سبط ابن التعاويذي : تحـ : مرجليوث . مط المقتطف ـ القاهرة ١٩٠٢ .
١٣ ـ ديوان ابن سناء الملك : تحـ : محمد ابراهيم نصر ـ دار الكاتب للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٩ .
١٤ ـ ديوان العباس بن مرداس السلمي : تحـ : د. يحيى الجبوري . دار الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٨ .
١٥ ـ ديوان فتيان الشاغوري : تحـ : أحمد الجندي . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٧ .
١٦ ـ ديوان القاضي الفاضل : تحـ : د. أحمد أحمد بدوي . مط دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦١ .
١٧ ـ ديوان ابن قلاقس : تحـ : د. سهام الفريح . المط العربية الحديثة ـ القاهرة ١٩٨٢ .
١٨ ـ ديوان عرقلة الكلبي : تحـ : أحمد الجندي . مط دار

الحياة ـ دمشق ١٩٧٠ .
١٩ ـ ديوان عماد الدين الأصبهاني : تحـ : د. ناظم رشيد . مط جامعة الموصل ١٩٨٣ .
٢٠ ـ ديوان ابن عُنين : تحـ : خليل مردم . مط دمشق ـ ١٩٤٦ .
٢١ ـ رحلة ابن جبير : مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤ .
٢٢ ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين : ابو شامة المقدسي . ج ١ . مط المؤسسة المصريه العامه للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢ . ج ٢ مط وادي النيل ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ .
٢٣ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم . تحـ : د. سامي الدهان . المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨ .
٢٤ ـ سنا البرق الشامي : العماد الأصبهاني ، اختصار الفتح بن علي البنداري . تحـ : د. رمضان ششن . مط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١ .
٢٥ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . تحـ : ناظم رشيد . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٨ .
٢٦ ـ طبقات الشافعية الكبرى : عبدالوهاب بن علي السبكي . تحـ : محمود محمد الطناحي . ج ٧ . مط عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ١٩٧٠ .
٢٧ ـ عيون الأنباء : ابن أبي اصيبعة . مط الاقبال ـ بيروت ١٩٥٦ .
٢٨ ـ في النقد الأدبي : د. شوقي ضيف . مط دار المعارف ـ القاهرة د. ت .
٢٩ ـ كنز الدرر وجامع الغرر : عبدالله بن أيبك الدواداري . ج ٧ . تحـ : سعيد عبدالفتاح عاشور . ط دار إحياء الكتب العربي ـ القاهرة ١٩٧٢ .
٣٠ ـ مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥١ .
٣١ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ابن واصل . ج ٢ . تحـ : جمال الدين الشيال . المط الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٧ .
٣٢ ـ النكت العصرية : عمارة اليمني . طبع مدينة شالون ١٨٩٧ .
٣٣ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين بن شداد . تحـ : د. جمال الدين الشيال . ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٣٤ ـ وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي : د. محمد النويهي . مط الرسالة ـ القاهرة ١٩٦٦ .
٣٥ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان . تحـ : د. احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢ .

* * *

شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الأيوبي

د. نوري حمودي القيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

تكتسب مفردة الحرب لونها الزاهي من خلال القدرة القتالية المتميزة وتترسخ صورتها في النفس وهي تحمل القيم الأصيلة التي تمنحها دلالة التعبير، وقوة الايحاء، وحالة التوازن المطلوبة في تصوير الحدث فهي ليست مفردة محددة من حيث الأداء وانما يبقى تأثيرها فاعلا بمقدار ما تؤديه من حالات مرحلية تناسب صدق ايحائها وجمالية تركيبها واستيحاء جوانبها التي تعطي كل مظهر من مظاهرها ما يستحق. فالمفردة في شعر عمرو بن كلثوم لها وقعها الذي جعلها نشيدا يتجاوز الزمن ويعبر مسافات المراحل التاريخية لأنها اكتسبت حياة الاكتمال الذاتي في تكثيف المشاعر وحققت صوتها الواعي في استحضار القيم السائدة واستجابت لما كان المقاتل يراه نموذجا في التعبير القتالي. والمفردة في شعر حسان وكعب لها نغمها المشرق بروح الجهاد ولونها الزاهي بألق العقيدة وحركتها المعبرة عن قوة الايمان الذي أصبح صفحة متميزة في طبيعة المصاولة وحقيقة القتال. وبعد استقرار هذه المفردة في السياق الشعري لقصائد الحماسة وارتباطها بحياة الامة وهي تؤدي أمانة الوفاء لما ارسلت اليه ودعيت الى نشره كانت معانيها تشرق انبعاثا لتناسب خسا يطوي ضلوع المؤمنين والمجاهدين لتقويض دعائم الشرك واسقاط رموز العبودية وانقاذ البشرية من طواغيت المجوسية المقيتة. ولعل الصور التي أعقبت تحرير العراق والشام وأرض العرب قد شهدت مواكب المحررين وهي تعيد هذه المفردة حية دافقة تواصل عطاءها في اطار الصورة الجديدة التي حملتها القلوب وعبرت عنها المبادىء واستقامت في حياة المقاتلين جهادا وبطولة وفروسية.. ولعل هذا العطاء الشعري الزاخر الذي توج بمجاميع كتب الحماسة يؤكد الايمان الذي ساور نفوس الحريصين على جمع هذا الفن الشعري ليظل عطاء متدفقا يملأ الحياة بما ينبغي ان تملأ ويغني النفوس بما يترك لها فرصة الاستحضار الوجداني الصادق ويضفي على الحياة طابع التضحية الفريدة التي قدمت ليبقى لألاؤها بارقا وزهوها حيا وصوتها معبرا عن الارادة الواعية والتواصل التاريخي والرسالة الكريمة.

وارتبطت المفردة في التكوين الشعري بحالة التحدي وأصبحت صوتا لهذه الحالة واستجابة لا ارادية لما يتعرض له الانسان فهي تأخذ بعدها في التعبير من قوة الاحساس بمقدار التحدي ومن عمق التقدير بالنتائج المترتبة عليه والأحداث المستقبلية التي يمكن ان تغير التاريخ الذي ظل صوتا نابضا

من أصوات هذا التكوين . . . وعندها تصبح الصورة في اطار هذا الأداء متكاملة من حيث امتلاك العناصر الدافقة والموجهة والمعبرة في الاسلوب والصياغة والبناء . ومثلما كانت المفردة في هذا الامتداد مفردة حية وواعية في ظل الجو الشعري الذي يتيح لها مجال التأثير فان التركيب الجملي للصيغة البيانية أصبح حالة اخرى تتداخل فيها القيم الأساسية التي تبناها المجتمع وحدد أجواءها وارتضاها قيما تعطي السلوك وجهه المقبول وتضعه في المرتبة التي تجعلها موضع احترام الآخرين .

فالتضحية قيمة تتحدد بمقدار العطاء الذي يقدمه المضحي والشجاعة قيمة تكبر في اطار الأداء البطولي الذي يتجلى في حالة المنازلة ، والاستشهاد قيمة تسمو الى الدرجة التي تعطي الشهيد شرف الخلود وكرامة التكريم وجلال السمو ولكل قيمة من هذه القيم جلالها في التعبير ومكانتها في التقويم ومثلها مجموعة القيم التي تعارف الناس على الاعتزاز بها والتمثل بنماذجها والاقتداء بروادها فتدخل أحداثها في الموروث الثقافي الحضاري وتعزز حالتها من خلال المبالغة احيانا ولاضافة طابع التقديس عليها اجلالا لمكانتها وترسيخا لاصولها واشباعا لمطامحها التي يراد لها ان تستقر اسلوبا من أساليب الحياة واشراقة زاهية من اشراقات التربية الحقيقية للامة التي احتفظت بها ووجدت في إحيائها إحياء لمكارمها وتكريما لتاريخها واستحضارا لمجدها . ومن الطبيعي ان تستمر اللفظة مفردة ومركبة أداء وتعبيرا عن السياق التاريخي الذي مرت به والتداول الشعري الذي لازمها وهي تنتقل من شاعر الى شاعر ومن قصيدة الى قصيدة ومن وصف معركة الى وصف معركة اخرى وهي تتوهج احيانا الى حد التألق وتخبو احيانا اخرى الى درجة الخفوت ولكنها تبقى قادرة عند استخدامها في الموضع المناسب والحالة المتأججة ليعود شعاعها ثانية يغشى العيون ليجلي بصرها وتتدفق ينابيع حروفها نغما تردده أصوات المنشدين ويعلوه تناسق تراكيبها لحنا بلاغيا يجعلها موضع اعتزاز النقاد ومجال استشهاد المريدين الذين يطربهم الابداع اللفظي وتستهويهم البراعة المعنوية .

وقد أسهمت قدرات الشعراء العرب في اغناء ديوان الحرب وتوثيق أواصر المفردات واعطائها ما تستحق معبرين عن صوت العصر بالصورة المستوحاة من ضمير الجمهور ومستشهدين بالحالة التي يمجدونها ويكتبون في ظلها صفحات العز والفخر والمآثر . حتى اتسعت قاعدة الاستعمال وكبرت مساحة المفردات وهي تغنى بيئات جديدة وتحمل الى أماكن بعيدة وتؤدى في صور مختلفة لتظل عبقة بشذا القرارات الانسانية وهي تتجدد صورا وتزداد تأثيرا وتنحت ألفاظا ومعاني ولم تقتصر مفردة الحرب على شعر الحماسة او تتوقف عند ذكر المعارك وانما تجاوزت هذه الأغراض لتستقر في قصائد المديح وهي تشيد بالممدوح وتظهر خصائصه وتتحدث عن معاركه وتجلو صورا من بطولته . . ولتظهر في قصائد الرثاء وهي تذكر مناقب المرثي وتعدد وجوه شجاعته وبلائه واقتداره وصولاته حتى تتحول الأبيات الى أمجاد تاريخية يجد فيها الشاعر وجها من وجوه الاستثارة وصوتا من أصوات الكوامن التي تعيد للمرثي جانبا من فعاله وحالة من حالات الاعتزاز به . أما الجانب الديني فقد امتد في هذا العصر امتدادا واسعا واستغرق من الشعر مساحات كبيرة لأنه يعبر عن حالة التحدي ويوثب مشاعر الجمهور ويدخل الى نفوسهم الحماسة ويثير في دواخلهم أسباب الجهاد دفاعا عن المبدأ ووفاء بتعاليم الاسلام ورغبة في تحقيق الاستشهاد وبعد ان أصبح طريقا من طرق المفاخر ولونا من ألوان المحامد التي تمنح الانسان الخلود والبقاء والذكر الحميد . واذا كانت مفردة الحرب قد اتسعت من حيث المدلول وتطورت وفق أساليب القتال واستقامت في ظل الانجازات الحربية التي توثقت حقائقها فان الشعر الحربي في اطار الأغراض الفنية الاخرى أصبح

قاعدة واسعة وحالة تزخر بالعطاء القتالي والنضالي الذي عبر عنه المقاتلون وهم يخوضون حروبا طويلة ويكتبون صفحات نادرة في التضحية ويسجلون أياما خالدة في الدفاع عن الأرض والعقيدة . وقد سجل الشعر العربي في مرحلة القرن الخامس والسادس والسابع الهجرية معارك بطولية ظلت أصداؤها تنحت في الذهن الأدبي وتستذكر ملاحمها في قصائد الشعراء وهم يرفعون رايات الجهاد ويخوضون معارك التحرير ويكتبون صفحات الاستبسال بعد ان أصبحت اصول الشعر الحربي جزءاً من الحياة وأدب الجهاد لونا من ألوان العقيدة وصوت الضمير استجابة حية من استجابات المنطق البطولي لحالة التوثب والاقتدار .

فحمل الشعر أنفاس المقاتلين وضم أحاسيسهم وهم يؤدون امانة الدفاع وعبرت معانيه الصادقة عن حركة الحياة التي تلمسها الرجال في خنادق الشرف وقلاع المبادىء وعزيمة الثغور ومنعطفات السهول والهضاب وهي تشهد الرجال الأشداء يقاومون الغزاة ويملأون الدروب بتكبيرة (الله أكبر) و (فتح من الله ونصر قريب) و (اقتلوهم حيث ثقفتموهم) . . وكل الآيات القرآنية التي تحرض المؤمنين على القتال وتشل قدرة المنهزمين الذين طوت أجسادهم مهاوي الردى وتناثرت أشلاؤهم نهبا لكل طريدة . لقد استطاع الشعر في هذه المعارك ان يخلد الصوت القتالي ويثير الهمم ويؤدي دوره وهو يتسرب من خلال أغراض الشعر بعد ان وجد في باب الجهاد حصته الكبيرة وتلمس في معانيه وايحاءاته وأساليبه صوته المعبر ولونه المؤثر وومضاته المشرقة التي تضيف الى المعركة روح الايمان وتبعث في نفوس المقاتلين حب الشهادة وتدفعهم الى التضحية جزاء ما يناله الشهداء عند الله من رفعة وسمو .

لقد هزت الأحداث الخطيرة التي حاولت ان تعمق بالدولة العربية الاسلامية وجدان الشعراء وفجرت قدراتهم الفنية وهم يقفون على أعتاب حالة تعاونت فيها قوى الردة وتآمرت على تجميعها عناصر الحقد فوجدت في أرض العرب وامة العرب ميدانا تباشر فيه دورها التخريبي وتنفث في ديارها نفثات سمومها القاتلة لتقويض دعائمها وتهديم اصول قيمها واسقاط معالم حضارتها التي بقيت ترفع صوتها الانساني وتملأ العالم بجهود أبنائها الأخيار وهي تفيض عدالة وتنشر وفاء لكرامة الانسان واحياء للتشريع الالهي الذي أعطى البشر حق الحياة ومنحهم فرصة العطاء وقد تركت أحداث غزو الفرنج آثارا واسعة وجروحا عميقة في نفوس الشعراء وأتاحت لهم مجالا خصبا لاستلهام الجوانب البطولية واستثارة عناصر القوة وتحشيد البواعث الحقيقية التي استحضرت التاريخ بكامل مفرداته واستوعبت الوقائع والأيام والغزوات الحربية بكل أمجادها وبطولاتها لتوثيب الحالة الحية وترديد الصوت الشعري الدافق ليرسم لوحة الفروسية المعبرة بكل ما يعيد الى الامة قدرتها في المواجهة وحكمتها في الاعتبار واندفاعها في رد الخصوم . متخذين من ويلاتها المريرة مواضع استثارة ومن نتائجها بواعث تحفيز ، مؤكدين الدور القيادي لقدرة الرجال وجهاد الأبطال وتضحية المؤمنين الذين قدموا على طريق النصر أرواحهم رخيصة وجاهدوا في سبيل الله والوطن حق الجهاد لرد الغزاة المعتدين وأخراجهم من الأرض العربية مدحورين خائبين .

ويسهم ابن دنينير الشاعر الموصلي المتوفى سنة (٦٥٠ هـ) في ديوان الحرب الذي امتدت مساحته في هذه الحروب الطاحنة حوالي مائتي سنة وترك قصائد طويلة يشيد فيها بشجاعة الملوك الأيوبيين ودورهم في قيادتها ودفاعهم واستبسالهم لنصرة كلمة الحق والدفاع عن أرض الكرامات ويستنهض همم الملوك ويدعوهم الى التوجه الى مصر لنجدة الملك الكامل الذي نزل دمياط ليتصدى للفرنج الذين حاصروا المدينة . فيقول[1] :

فقل لملوك الخافقين اليكم
عن الملك او شدوا عن الأمر ما شدوا

مليك الورى أين الملوك عن الذي
تصديت فيه للعدا حينما صدوا
أيطمع أقوام بنعمة عيشة
متى عطشوا فالموت دونهم ورد
إلام التمادي والفرنج بجمعهم
على جيد دمياط كما انتظم العقد

وقد أفاض الشاعر بالحديث عن هذه الحرب وقد أكد فيها الدور البطولي لكل الذين يسهمون فيها ويواصلون السير على طريق التصدي للأرتال التي حاولت تدنيس بيت المقدس وقد حاول الشاعر فيها ان يستمد من معارك الاسلام الاولى صوت شاعريته ويستلهم من جهاد المؤمنين ايمان المبادىء التي يدافع عنها وهي ظاهرة لم تقتصر على ابن دنينير وانما شاعت في شعر الفترة حتى أصبحت واجهة جديدة وغرضا متميزا استثار فيه الشعراء روح الجهاد مستلهمين من معانيه قدرة المواجهة ومن مبدأ الوفاء جذوة التضحية حتى دفعه هذا الايمان الى افتتاح بعض قصائده بالاشارة الى عمود الدين والاستشهاد بذكر الرسول عليه الصلاة والسلام والتأكيد على اظهار الحق واخماد صوت الباطل حيث يقول[٢] :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا
فقد جاءكم عيسى وهذا محمد

وكثيرا ما يصبح التأكيد على هزيمة الغزاة هو النهاية المحتومة والحالة الأخيرة التي ينتهي اليها الشعراء لاشاعة روح الانتصار في نفوس المؤمنين وترسيخ جانب الهزيمة في نفوس الأعداء ولم ينس الشعراء ان يوثبوا العزائم وهم يدعون الى اقتحام المعارك ويعاودون مقاتلة الأعداء ويصبرون على الشدائد في ساحات الوغى ويذكّرون بعار الهزيمة الذي لا يرحم ويعيدون الى الأذهان النتائج المترتبة عليها ووصمة الهجاء التي تظل لاحقة في حالة الاحجام والتردد والتراجع . والى ذلك يشير ابن دنينير :

فمن أنقذ الاسلام من بعدما وهى
بهندية بيض وخطيّة سمر
وآساد غيل في ظهور صلادم
تعد العلى في الكر والعار في الفر

ويبقى الموقف الشجاع في نصرة الحق والاستجابة لدواعي الوطن ومبدأية العقيدة هي الدافع المحرك لكثير من الشعراء لتمجيد هذه المواقف والاشادة بالرجال الميامين الذين يدركون العواقب المؤلمة التي تنتظر الامة اذا تخلت عن مبادئها وتنازلت عن قيمها ومثلها فحين لبى المعظم واخوه الملك الأشرف نداء الواجب وجمعا العساكر لنصرة الكامل وانقاذ دمياط من الفرنجة مما عجل في كسر شوكتهم وفك الحصار عن المدينة المحاصرة وإحكام القبضة على الفرنج وانزال الخسائر الفادحة في جيشهم المهزوم والثأر لأهل دمياط الذين واجهوا الغزاة بقوة الرجال وشجاعة المؤمنين لا بد ان تكون البداية بالتكبير على هذا النصر فكانت قصيدته . . .

ها قد بلغت الذي قد كان ينتظر
الله أكبر هذا النصر والظفر
أكذبت ظن الأعادي بالذي كملت
به السعادة واستهنى لك الخطر
هذا هو الفتح فتح لا يقوم به
نظم المديح ولا نثر فيبتكر
يا يوم دمياط قد راحت مسوّدةً
منك الطروس وقد سارت بك السير
أنطقت خرس الأماني وهي صامتة
ورضت صعب المعاني فهي تبتدر
في يوم ذي رهج لا وصف يدركه
يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
أتى بجيش وغى في الأرض عسكره
وفي السماء قضاء الله والقدر

وكانت الصورة بين فتح مكة وفتح بيت المقدس متقاربة فبكليهما تعزز موقف المسلمين وخذل أعداؤهم وفي الظفر فيهما والنصر بدخولهما تباشر المؤمنون بنصر الله وعزته وتذاكروا بنعم الله وقوته فكانت الصيحة واحدة وكانت البداية على طريق النصر متوازنة . وقد وجد الشعراء فيها مدخلا للحديث والمقارنة فقال ابن دنينير :

تهلل الدين والدنيا به فرحا
واستبشرت مكة والحجر والحجر
لم تخش يشرب تشريبا لفاتحة
من بعده اذ سرت في ذكره السور

وتبقى صور المعارك الطاحنة وغبار الخيول وهي تحجب نور الشمس ، ورؤوس الرماح وهي تلمع هي اللوحة الفنية الحية التي يجد فيها الشعراء مجد الرجال يتلألأ وصوت المبادىء يرتفع وقدرة الرجال تتزاحم وتضحيتهم الفريدة تسمو انها الساحة الكبيرة التي تدفقت في رحابها أعداد الرجال وهي تصول على الأعداء بما عرف عنها من شجاعة وتمتلك ناصية الوغى مما أبدته من بسالة حتى تحول الأعداء البغاة الى أصوات صراخ تطلب السلم والأمن وتبدل عنادهم المقيت وعداءهم المستحكم الى خضوع وخنوع بعد ان تحكمت القوة في الحسم وعزائم الرجال المؤمنين في المجالدة والمصاولة فكانت لوحة اخرى من لوحات الشعراء الذين وجدوا فيها اشارة تاريخية تكشف عن نفوس الخائبين :

قد عاد صبحهم ليلا نضيء به
زرق الأسنة فهي الأنجم الزهر
وزّعتهم بين بيض الهند مصلتة
وبين سمر القنا والموت معتكر
فللرماح قلوب منهم أبدا
وللسيوف الطلى والهام والقصر
راموا بحيث اطلخمّ الأمر سلمُهمُ
وقد رأوا غارة هانت لها الغير
لم يطلبوا السلم إلا بعد علمهمُ
بأن سيفك لا يبقي ولا يذر
أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا
ويل طويل وقد وافاهم الخير

لقد استطاع الشعر في هذه المرحلة ان يعبر عن الواقع الذي زخرت به كتب الأدب والتاريخ وهي تصور حالة الغزو الذي تعرض له الوطن العربي وما عانى منه الشعب وهو يجابه هجمة ظالمة ويقاوم غزاة طامعين وقد استبدت بهم نزعة الشر وامتلكتهم سورة الحقد وعلت نفوسهم كبرياء الغرور فارتكبوا من المجازر ما ظل التاريخ شاهدا عليها ومن الشرور ما ضاقت به صفحات الكتب ومن الجناية على الحضارة ما أوهن بعض اصولها وأضعف حلقات سلسلتها وكانت هذه الأحداث تأخذ مداها على امتداد الرقعة العربية وقد وجدت المشاعر الاسلامية صيغتها في الأساليب المعينة وهي تستوعب حالة التحضر وتؤكد روح المقاومة التي أصبحت حالة معبرة وصوتا مسموعا وأثرا بينا في توجيه الأحاسيس لأن التعبير المشترك عن حالة التوقع والتصور الحقيقي لمجريات الأحداث والتهيؤ لما يمكن ان يحدث كانت تملأ قصائد الشعراء وهي تنذر بالاخطار وتوحي بالمآسي وقد تواردت أخبار الغزاة وهم يحرقون الأرض ويقتلون البشر ويدمرون المدن وينشرون الرعب والفزع[٣] . .

وقد آثرت ان أقف عند شعر الحرب في معارك صلاح الدين بعد ان ازدهرت معاني هذا الفن الحربي ومهد له عدد من الشعراء الذين أشادوا ببطولة المقاتلين وهم يصدون حملات الغزاة وتحدثوا عن خطط الحرب وهي تواجه مخططات الطامعين وقوة السلاح وهو يؤدي دوره في ملاحم المعارك . . ويتغنون بانتصاراته الباهرة التي كانت تسجل في كل موقف من المواقف الصعبة .

وشعر الجهاد لون من ألوان شعر العقيدة تميزت معانيه بالصدق وألفاظه بالايمان وصوره بالتضحية التي واكبت روائعه معارك التحرير وارتسمت فرائده في دواوين الشعراء زهوا يملأ النفس واعتزازا يثير الكوامن وتضحية تسجل روائع البسالة وخوالد الفعال فاتسعت أبوابه في أحاديث المجاهدين من الشعراء واستوحت بطولات الرجال الأماجد من الصحابة والقادة والمقاتلين فكانت أسفارا من أسفار التاريخ المشرق وصفحات من صفحات المجد العريق وهو في كل مرحلة له قوته وصلابته يتحدد في اطار الفعل المقتدر والتحدي المفروض ويتجلى في جرأة المقاتلين وعمق ايمانهم ويستنهض حين تشرق قسمات الحياة بحب الآخرة وكرامة الخلود وعزة الذكرى ويستحضر في صوت الحقيقة وهي تملأ جوانب المعركة بكل ما يدعو الى الاقدام لأنه حسنة فيتجاوز حالة التردد وهو يرى الموقف التاريخي بكل أمجاده ويستذكر الموقف الحميد بكل خصائصه لما يتركه من أثر في الحالتين ويحققه من مآثر في الموقفين .

ويمثل شعر الجهاد وجها من وجوه الملاحم الأدبية الخالدة التي تعالى فيها صوت التضحية حتى أصبح نموذجا في الاقتداء وارتفعت فيه عزة النفس حتى صارت حديثا من أحاديث البطولة له في كل معركة ذكر وفي كل مجابهة صوت وعند كل التحام صرخة واذا كانت المعارك الاسلامية الاولى قد روعت المشركين ببلاء المقاتلين ورسمت بدايات شعر العقيدة وجددت معالم الطريق للذين استرخصوا الدماء من أجل الوفاء بالمبادىء فان غزو الفرنج الذي بدأ منذ نهاية القرن الخامس الهجري كان بداية جديدة لهذا الضرب الشعري الذي أضاف الى الأدب العربي في هذه المرحلة والتي تلتها أصواتا جديدة وألوانا فنية أعادت لشعر الحماسة صورته وأفاضت في تلوين روائعه بما نهض به الشعراء وهم يواكبون حملة الدفاع عن أرض العرب بعد ان بدأت أرتال الغزاة تدنس السواحل العربية .

لقد أدرك صلاح الدين مهمة الجهاد التي اضطلع بها وقوة الهجمة التي حاولت ان تتحدى الامة بعد ان ظلت جذور أطماعها تغذي وأساليب تجميعها تأخذ وجوها مختلفة اختلطت فيها عوامل الدين بالتبشير وتداخلت أسباب الاستعمار والسيطرة وامتزجت المطامع الذاتية بروح الاستحواذ والامتداد والاستيطان حتى تكاملت غزوة ظالمة وتجمعا ترسخت في أعماق مدبريه عوامل الحقد وعناصر الشر لاقتطاع جزء من الوطن عزيز على حماته .

وأدرك صلاح الدين ان الدولة التي يمكن ان تجابه هذه الحملة لا بد ان تكون قوية صلبة تمسك أطرافها أياد أمينة وتحكم ادارتها عقول مقتدرة وتسير امورها أحكام لا تهاون في تطبيقها ولا تخلخل في حلقاتها يشد انسانها مبدأ ويلتصق أبناؤها بفكر وتوحد صفوفها في نمط اجتماعي موحد يشعر الجميع بأمانته ويتحسسون حرصه ووفاءه ويثقون بعدالته وحصانته . فكانت القدرة العسكرية مبدأ والتدريب على أساليب القتال منهجا والانصراف الى التسلح اسلوبا وتعبئة الجمهور وتوعيته وتثقيفه وتحذيره من النتائج المترتبة أساسا من اسس المجابهة ولعل الاهتمام البالغ الذي أولاه صلاح الدين للعناية بكتب الجهاد والاستماع الى أشعار الحماسة والاعتناء بقصص المعارك والبطولات تعطي هذا الجانب دوره في المعارك .

الأخبار التاريخية تؤكد ان يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كانت بداية للمعركة وان البطل صلاح الدين قد أيقن ان الواجب يدعوه الى أخذ دوره التاريخي بعد ان وجد شعور الناس يلزمه بالتحرك واعلان حالة الجهاد وان الله سبحانه وتعالى ناصره وممكّنه من استرداد الأرض فسير جنده واندفع بايمانه قاصدا أرض العدو وقد تعود ان يرفع راياته أيام الجمع بعد صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء وثقة بنصر الله الموعود وهم يدعون الله النصر والظفر وبعد خمسة أيام

نزل غربي طبرية فمكنه الله من احتلالها وحين علم الفرنج تقدموا بجنودهم للدفاع عنها وكانت الطلائع الاسلامية في مقدمة المتصدين للحملة وكانت المعركة على سطح جبل طبرية وحين ضاق الخناق بالفرنجة وهم يعلمون انهم يساقون الى الموت صاغرين وقد أيقنوا بالنهاية المحتومة والهزيمة المنكرة وان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره وأجراه على وفق ما قدره وشهدت سيوف الحق وحمل الرجال الأماجد وصاحوا صيحة الرجل الواحد ألقى الله الرعب في قلوب الغزاة (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وخذلوا فلم ينج منهم أحد إلا من استسلم طائعا فتبددت جموعهم وتناثرت أشلاؤهم وكان الواحد منهم يخلد الى الأسر خوفا على نفسه وقد ذكر بعض شهود العيان انه لقِي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده[1] ،

لما أصابهم من خذلان وما قوبلوا به من مقاومة وجوبهوا به من شدة وقد اسر في المعركة الملك جفري وأخوه والبرنس ارناط وبعد ان تم فتح قلعة طبرية رحل الى عكا فاستنقذ ما فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر وتفرقت عساكره في بلاد الساحل يفتحون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة فاستعادوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وواصلت مواكب المؤمنين المجاهدين وهم يحررون تبنين وبيروت وعسقلان وفي كل معركة من معاركه يضيق الخناق على الغزاة بالزحف وتصب عليهم حمم المجانيق من حرها اللاهب ويقاتلهم قتالا عنيفا وبعد حصار طويل استسلمت غزة وبيت جبرين والنطرون وأصبح فتح القدس المبارك هدفا سوقيا بعد ان اجتمعت العساكر وتوحدت الغايات واستنهضت الهمم والعزائم فسار معتمدا على الله مفوضا أمره اليه منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه السلام . من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه وكان نزوله سنة ثلاث وثمانين المباركة وكان عدد المقاتلة بما يزيد على ستين الفا ما عدا النساء والصبيان وقد نصبت المجانيق وتقدمت زحوف المقاتلين وتدافعوا بالمناكب واشتد رمي الرماة حتى تمكنوا من ثقب السور فتدفقوا منه أشداء وتقاطروا عليه رجالا يحبون الموت كما يحبون الحياة فأيقن الغزاة ما نزل بهم من الأمر الذي لا يدافع عنهم ولاحت تباشير نصر الحق على الباطل فألقي في قلوبهم الرعب وهم يرون أبطالهم قد تقاسمهم الأسر والسبي والقتل وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ وأيقنوا انهم صائرون الى النهاية التي وعدوا بها فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الأمان وكان تسلمه القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ليلة المعراج فيسر الله عوده الى أيدي المسلمين وكان فتحا عظيما شهده خلق عظيم بعد ان بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وقصده العلماء من مصر والشام وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت الجمعة يوم فتحه ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر وقد ترك فتح بيت المقدس آثاره في قصائد الشعراء .

وكانت حطين بداية لانهيار الفرنج بعد ان حاول (ارناط) الذي عرف بغدره وخبثه ونقضه للمواثيق ونكثه للعهد[5] ، صاحب حصن الكرك تنفيذ خطة تحقق للفرنج سيطرتهم على مياه البحر الأحمر ، وغزو الحرمين ولكن ارناط هذا تناسى ان كفة المسلمين قد رجحت فتحول التفكك والدفاع الى وحدة وهجوم وان الجبهة التي تمتد من حلب الى القاهرة أصبحت أقوى على رد العدوان وأكثر تماسكا من ذي قبل بعد ان استوعب القائد أبعاد الخطط التي اعدت لهذا الهجوم وان حدود الفرنج أصبحت غير مأمونة بعد ان ضعفت قدرتهم على احكام سيطرتهم لحمايتها وان قوتهم وتماسكهم أصبح أكثر ضعفا وانحلالا .

وتؤكد الأخبار التاريخية[6] انهم نقلوا نشاطهم الى ساحل الحجاز وأشرفوا على المدينة المنورة[7] وقد أثارت هذه

الأخبار التي أصبحت حقيقة حفيظة المسلمين بعد ان تجرأ الفرنج على الاقتراب من المدينة وهي الأرض التي لم يسبق ان وصل اليها رومي . . وقد تركزت أهدافهم في قطع طريق الحج وضرب المسلمين في أعز موقع وأقدس بقعة والاستيلاء على عدن لاحكام السيطرة على البحر الأحمر واغلاقه واحتكار التجارة فيه . وقد وجد القائد صلاح الدين في هذا التحدي عاملا من عوامل الاستحضار وتعبئة المسلمين للوقوف بوجه هذه الحملة التي لم تترك خيارا في التردد فكانت أوامره الى أخيه العادل سريعة لاعداد العدة وتحضير الاسطول فكان الحاجب حسام الدين لؤلؤ قائدا وهو الذي قوى الاسطول بالديار المصرية .

وقد سجلت المعركة الاولى انتصارا للمسلمين بعد ان ترك الفرنج سفنهم ولاذوا بالجبال حتى وقعوا في الأسر[٨] . ان خطة السيطرة على مكة والمدينة أظهرت نوازع الحقد الديني وأكدت أطماع الغزاة في ديار المسلمين وكشفت عن الحملة الظالمة التي كانت تساور نفوس المتعصبين الذين طافوا اوربا يحرضون وجابوا ديارهم يستثيرون كوامن النعرات تأليبا واثارة وتأجيجا ارضاء لأغراضهم واشباعا لرغباتهم حتى وضعت الفرنج في مأزق خطير وأحرجت موقفهم وحملت المسلمين على توحيد صفوفهم وهم يرون أماكنهم المقدسة تتعرض للانتهاك وديارهم التي بقيت موضع تقديرهم للغزو والاستباحة لا سيما بعد ان استمعوا الى أخبار الفرنج وهم ينهبون المراكب ويقتلون الحجاج ويسرقون الأطعمة ويحدثون الأحداث التي لم يسمع عنها المسلمون[٩] .

وحين يخترم الموت أحد القادة الذين يؤمل عليهم في رد عوادي الأيام او يرحل بطل تعلقت في بطش ساعده آمال المؤمنين باستعادة الأرض او حماية كرامة ينبري الشعراء مرة اخرى لاستذكار اولئك الذين ينصرون المقاتلين في غزواتهم فيأسرون ملوك الفرنج والذين يكبحون جماح الخطوب ويكشفون بلوامع سيوفهم داجيات الليالي وهنا يستذكرون الناصرين لجيوش المجاهدين الحافظين كرامتها وحدودها[١٠] :

من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ اموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
برواحه في غزوه وبكوره

وكثيرا ما كان الجهاد يدفع الشعراء الى مغادرة أوطانهم والابتعاد عن أحبابهم فيعتاضون به عن شوقهم . فهذا عماد الدين يمدح العماد نور الدين سنة ٥٦٥ فيقول[١١] :

أتمنى في الشام أهلي ببغدا
د وأين الشآم من بغدادِ
ما اعتياضي عن حبهم يعلم . . .
. . الله تعالى إلا بحب الجهادِ

وفي قصيدة اخرى يؤكد الجهاد ويذكر معركة من المعارك التي خاضها الملك العادل نور الدين محمود فيقول[١٢] :

يا واحدا في الفضل غير مشارك
أقسمت ما لك في البسيطة ثانِ
أحلى أمانيك الجهاد وانه
لك مؤذن أبدا بكل أمانِ

وقد تبدو ظروف الحرب واحدة لما تشابه من أحوالها او اتفق من مسبباتها وما تنتهي اليه نتائجها وفواجعها ومآسيها وكل جانب من هذه الجوانب له صلة بحياة الانسان حاضره ومستقبله وله صورة في وجدانه وأحاسيسه ومشاعره لما يرافقها من رعب وفزع وأحداث دوامي وفواجع مؤلمة لأن البشر مادتها والسلاح وسيلتها والدماء مظهر واحد من

مظاهرها ولهذا كانت الحرب حالة مرعبة تخشى عواقبها ويهاب الخوض فيها ولكنها تركب اذا كانت طريقا للسلام الذي ينشد وتحمل نتائجها على كل محمل اذا أصبحت طريقا من طرق النجاة او سبيلا من سبل الكرامة التي لا يجد الانسان سعادة بدونها ولا عزة بغير التمسك بها واذا كانت هذه البدايات موحدة من حيث التأثير واذا كانت نتائجها معروفة ـ مهما اختلفت أبعادها ـ فمن الطبيعي ان تظل أساليب التعبير الوجداني محصورة في هذا الاطار وخاضعة لهذه المسالك وكفيلة بما يتحدد من أحوالها لأنها ترى في كل ظاهرة صوتا من أصوات الحالة المقررة مسبقا وفي كل حالة من حالاتها حكما وضعت قواعده في اطار التجارب التي تلمسها الانسان من خلال اطلاعه عليها او قربه منها او سماعه عن أخبارها . . وقد بقيت هذه الحالة الصعبة تشد الانسان اليها وهو يستعيد من أخبارها ما يتغنى به أحيانا ويستبشعه أحيانا اخرى ويفخر به اذا وجد مجالا للفخر وتعلوه نشوة الفرح اذا استهوته لوحة حربية تسربت من مضامينها صورة ملونة بخوافق جمالية زاهية . ولعل تواصل ذكر الوقائع واستلهام روح المعارك الكبيرة والاستشهاد بأحداث الملاحم البطولية حقيقة او رموزا تحدد الصورة التي ظلت حية في أذهان الشعراء والادباء والمؤرخين لأنها تقرب لهم البعيد وتوحي بالجديد وتثير أسباب النزوع وتحقق وحدة الموضوع .

فكان شعر الحرب لوحة متكاملة تتجدد بعض ألوانها أحيانا لاسباب تخص المعركة ذاتها وتتصل بقدرة الشاعر المتمكن الذي يعطيها من قوة الحركة وفنية الابداع ما يجعلها ناطقة ومعبرة ويملأها عمقا نفسيا يترك في نفوس السامعين آثارا تحملهم على الانتباه الى فصولها ومتابعة أجزائها والاعجاب بما تركه الشاعر في أبياتها من دفق عاطفي وصوت وجداني وقدرة شعرية متحركة تهب الة ة صفة الخلود وتترك أبياتها شواهد على كل لسان وتعطي صورها البيانية مجال الاستشهاد والمناقشة والنقد والحوار ويمثل عماد الدين الاصبهاني (٥١٩ ـ ٥٩٧) الشاعر الفارس الذي رسم في قصائده صور المعارك التي خاضها الناصر صلاح الدين وما أبلى فيها وما سجل من مواقف حاسمة وملاحم بطولية كانت أصداؤها في أسفار التاريخ خالدة وأحداثها في وقائع الأيام مشهودة وقد نطقت بها أشعار هذا الشاعر وهو يشيد بمواقف القادة ويتحدث عن بلاد المقاتلين ويسجل المواقع التي كتب الله فيها النصر والظفر وكان أول لقاء له في حمص سنة ٥٧٠ وقد أنشده مدحته التي يقول فيها[١٣] :

وللناس بالملك الناصر الصـ — ـلاح صلاح ونصر وخير
وكم قد فللت جموع الفرنج — بحد اعتزام شباه طرير
بضرب تحذّف منه الرؤوس — وطعن تخسّف منه النحور
وغادرت غادرهم بالعراء — ومن دمه كل قطر غدير
بجيشك أزعجت جيش العدو — فما نضرٌ منه إلا نفور
تزاحمُ فرسانها الضارباتُ — فتصدم فيها النسورَ النسور

ويمكن اعتماد قصائد عماد الدين الأصبهاني في توثيق معارك الجهاد التي خاضها البطل الناصر صلاح الدين بعد ان استغرقت منه مجموعة من قصائد المديح وهو في كل فريدة منها يشير الى شجاعته ويتحدث عن الرعب والهلع الذي يأخذ بقلوب خصومه والفزع الذي يستحوذ عليهم وهم يسمعون أخباره ويتسقطون أنباء انتصاراته وهي تتوالى وتظل مأساة القدس لحنا مستثيرا يعزفه الشعراء لاستنهاض الهمم وصوتا محركا من أصوات التوثيب تشده أوتار القصائد ليظل النغم الرامي تذكرة لكل حريص على تراثه غيور على

ترابه وقد وجد الشاعر عماد الدين في الناصر صلاح الدين موئلا يدعى وناصرا يستنجد به فكانت صرخته التي تذكره بها ويده التي اطلق عليها فتح الفتوح حيث قال[14] :

نهوضاً الى القدس يشفي الغليلَ
بفتح الفتوح وماذا عسيرُ
سَلِ الله تسهيل صعب الخطو
ب فهو على كل شيء قدير
اليكَ هجرتْ ملوك الزمان
فما لك واللهِ فيهم نظير

وبقيت امنية استرجاع القدس حلما من أحلام سلاطين الدولة الأيوبية وانقاذه من دنس البغاة لتعود أرضا عربية وقد وقف الشعراء عند هذه الأماني لما تركته من آثار في نفوس الرجال المؤمنين الذين يحز في نفوسهم بقاء البيت المقدس بيد مغتصبة . . .

ويذكر عماد الدين ذلك في أبيات وهو يرثي نور الدين[15] :

أوما وعدت القدس أنك منجزٌ
ميعادَه في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا
وتقدس الرحمن في تطهيره

وليس غريبا ان يأخذ الفرنج قبل ظهور البيت الأتابكي الذي تقدمه البطل صلاح الدين أكثر البلاد بالشام والجزيرة . وقد تولى أمر الدولة بنو عبيد اللذين استمر حكمهم من سنة تسع وتسعين ومائتين الى سنة سبع وستين وخمسمائة وكان يسر ملوك هذه الدولة ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم[16، 18 ، 4].

وفي أيامهم افسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم وقد مهدوا لدخول الفرنج بعد ان تواطأوا معهم . فرسخوا أقدامهم وثبتوا كيانهم الى ان من الله على المسلمين بظهور البطل صلاح الدين فاسترد البلاد وأزال ظلم هذه الدولة التي تحكمت برقاب العباد[19] .

وتتجلى خيانة هذا النفر في رسالة كتبها القاضي الفاضل الى نور الدين يقول فيها :

«انهم أعداء وان تعدت بهم الأيام » وأضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام لا تخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون اليه وحيلة يبرمونها ومكيدة يتمنونها وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة الى الفرنج خذلهم الله تعالى التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ويزينون لهم الاقدام والقدوم . وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستثار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضتهم سير كاتبه رسولا الينا ظاهرا واليهم باطنا[20] .

وبدأت أعمال صلاح الدين تؤكد أثرها الديني في تطور الحوادث منذ تولى وزارة مصر سنة ٥٦٤[21] وهي مرحلة حاسمة في تطور اليقظة الشعبية في الشام ومصر بعد ان لاحت عوامل التحدي وتجلت أسباب الغزو الصليبي وهي تحاول اقامة حكومات مستقلة في قلب الوطن العربي وكانت المرحلة توجب ايجاد قيادة حكيمة تدفع عن الجماهير غائلة الغدر وتمسح عن وجه الأرض العربية ما ران عليها من امارات الدخلاء وغدر الظالمين والحاقدين وتعيد وحدة القوة المؤمنة وتوحد الجهد المخلص وتجمع القلوب التي أرهقتها خصومة المنافسين وأضاعهم تنازع المتحكمين فكان عماد الدين رجلا تجمعت تحت رايته حشود الجماهير والتفت حوله قلوب المجاهدين وهي تراه ينقذ الرها من أيدي الفرنج بعد ان استطاع وبقوة الوعي الشعبي والاحساس المشترك وخطورة النتائج المتوقعة على مستقبل الامة ان يوحد جزءاً كبيرا من أرض الجزيرة العراقية والشام في ظل حكومة واحدة تجمعها أهداف وطنية ويوجهها صوت

وجداني مخلص . وبعد مجيء نور الدين محمود تمكن من انتزاع الرها من الفرنج بعد اغتيالهم لها عقب وفاة عماد الدين وقد أكدت الأحداث ان نور الدين كان يسعى لجمع شمل الامة وتوحيد جهودها لمواجهة الفرنج بقوة موحدة وجهد متكامل .

لقد كانت جهود صلاح الدين متميزة في ترصين وحدة الصف منتفعا من تأييد الشعب ورافعا راية الجهاد ومحققا المطامح المشروعة التي اكتملت في استعادة بيت المقدس وقد ساعده في ايصال صوته وايضاح أفكاره ونقل مشروعاته القاضي الفاضل الذي عمل وزيرا له وحرص على تسجيل أيامه والأحداث الكبيرة والمناسبات البارزة من خلال رسائله التي كانت تنقل الى امرائه وفيها من الآراء التي يبشر بها ويسعى الى نقلها . ولم يكن القاضي الفاضل وحده عونا لصلاح الدين في مهماته وانما أصبح العماد الاصفهاني كاتب الديوان عمادا آخر يقوي ساعده ويعينه على تأدية رسالته[٢٢] . لقد أدرك الشعراء ان مظاهر البطولة في قيادة صلاح الدين توحي بالمستقبل الذي ينتظره وان بدايات هذه المظاهر تؤكد قدرته في ميدان النزال ورحاب المعارك .

فقد أشار اسامة بن منقذ الى هذه البطولة منذ وقت مبكر حيث قال[٢٣] :

الناصر الملك الموفي بذمته
ومن ندى كفه يغني عن الديم
ومن اذا جرّد البيض الصوارم في الـ
ـهيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطماعة في
انتزاعه بشبا الهندية الخذم
ورد طاغية الافرنج يحسب ما
رجاه عن ملك مصر كان في الحلم

وله من قصيدة اخرى[٢٤] :

أقمت عمودَ الدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد

ويؤكد عمارة اليمني الآمال الكبيرة التي علقت عليه وهو يتولى الوزارة فيقول[٢٥] :

لك الحسب الباقي على عقب الدهر
بل الشرف الراقي الى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سعت
بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة
أقلتم بها الاقدام من زلة العثر
حميتم من الافرنج سرب خلافة
جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
كتائب في جيرون منه أواخر
وأولها بالنيل من شاطىء مصر
أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مُرّي على مري
طريق تقارعتم عليها مع العدا
ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
لكم آل أيوب الى آخر الدهر

وللحكيم عبدالمنعم الجلياني من قصيدة طويلة[٢٦] :

أبو المظفر مأوى كل مضطهد
بحلمه ونداه يضرب المثل
مهما يَمُل جائر او عائث عَمِهٌ
فعند عدل صلاح الدين يعتدل
كم للفرنج بها ورداً ومنتجعاً
ودارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ النصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل

ولما قصد الفرنج دمياطا انفذ صلاح الدين من الرجال والأبطال والفرسان والميرة والسلاح وآلات السلاح ما أمن معه عليه الازعاج العدو وكانت امداداته تتوالى . وحين نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارات عليهم بعد ان أحرقت مجانيقهم وقتل منهم خلق كبير وقد تركت المعركة آثارها في نفوس الشعراء فأفاضوا في تمجيد المقاتلين وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول فيها[٢٧] :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا
وليس له من كثرة القوم ساحل
رأوا دونهم اسدا بأيديهم القنا
وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب
ومن دونها سد من الموت حائل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة
كأنهم ـ ذلا ـ نعام جوافل
وما أمّلوا ان يلحقوا ببلادهم
لتعصمهم مما رأوه المعاقل

وللعماد أبيات يهنىء فيها صلاح الدين بالنصر[٢٨] :

وفي كل مرة يستذكر الشعراء بيت المقدس ويستذكرون وقائع النصر التي تبعث في نفوسهم الهمم وتثير اللوعة ويعلو شعار الجهاد والغزو وطرد الفرنج فمن قصيدة لعمارة اليمني في مدح صلاح الدين يقول[٢٩] :

لعل بني أيوب ان علموا بما
تظلّمت منه ان يرقّوا ويشفقوا
وما عصمتهم منكَ إلا معاقل
تأنّوا على تحصينها وتأنّقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
سوادره سورٌ عليهم وخندق

أضفتَ الى أجر الجهاد زيارة الـ
ـخليل فأبشرْ أنت غازٍ موفّق
وهيّجت للبيت المقدّس لوعةً
يطول بها منه اليك التشوّق
وغزوك هذا سلّمٌ نحو فتحه
قريبا وإلا رائد ومطرّق
هو البيت ان تفتحْه والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

وحين حصل صلاح الدين على دمشق وحرر قلعتها واستوطن بقعتها نشر علم العدل والاحسان وعفى آثار الظلم والعدوان وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين وقد وجد اسامة بن منقذ في جهاد صلاح الدين مدعاة للمديح بعد ان جاس أرضهم وأفنى أبطالهم وغزاهم في عقر دارهم وقد أحاطت به الملائكة تبارك نصره وتعاون فتحه وتمده بمدد من عند الله الذي حباه بعزه فألهمه العدل وأعطاه الملك[٣٠] .

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند تحريره دمشق بقصيدة طويلة منها :

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام ان وثبا
رأيت جلّق ثغرا لا نظير له
فجئتها عامرا منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت

جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفسٌ مرّة ويدٌ
فعّالة وفؤاد قطّ ما وجبا
يستكثر المدح يُتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا اذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندريّة قد
أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياتهُ حِقبا

وكان الشاعر يشير الى منازلة الفرنج في دمياط بعد تولي صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ اذ انهزمت جيوشهم وأساطيلهم فارتدوا عنها في سنة ٥٦٥ . أما الاسكندرية فاشارة الشاعر فيها الى الحصار الذي ضربه الفرنج عليها سنة ٥٦٢ وصلاح الدين يدافع عنها .

وتبقى صورة صلاح الدين في قلوب الفرنج مرعبة ، ويومه عليهم عبوسا قمطريرا تذكر الشعراء بطولته بالنهوض ، لاستعادة القدس والتي يعد تحريرها فتح الفتوح لما يحمله تحريرها من معاني .

ويوم الفرنج اذا ما لقوك
عبوس يرغّمهم قمطرير
نهوضاً الى القدس يشفي الغليل
بفتح الفتوح وما ذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطوب
فهو على كل شيء قدير
اليك هجرت ملوك الزمان
فما لك والله فيهم نظير
وأنت تريق دماء الفرنج
وعندهم لا تراق الخمور[٣١]

وتظل مفردة الفتح لامعة في قصائد الشعراء وهي تتجلى نصرا وعزة وذكرى وتوالى مفردات النصر والاشراق لتبقى نشيدا يتلى وقصيدة تروى ونغما يملأ أسماع المقاتلين ليعيدوا للتاريخ صورته وديوانا يضم النفثات الصادقة وهي تستعيد الأيام الخوالد تحصد شوكة الخصوم وترد عادية اللئام وكانت مناجاة نور الدين بعد وفاته صرخة تواصل صداها في عصر البطل صلاح الدين لتظل الراية مرفوعة والهمة قائمة فيقول العماد[٣٢] :

كم قيصر للروم رمت بقسره
ارواءَ بيض الهند من تاموره
اوتيت فتح حصونه وملكت عقـ
ـر بلاده وسبيتَ أهل قصوره
أوما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا
وتقدّس الرحمن في تطهيره

وظل الشعر يواكب المعارك ويرسم للقائد طريق النصر ويحدد له الأماكن العزيزة التي بدأت تعود الى الوطن بعد ان بدأت أرتال الفرنج تلوذ بالجبال والوديان مهزومة مخذولة وهذا شاعر من دمشق يكتب على قصائده سعيد بن عبدالله يقف بين يدي الملك الناصر صلاح الدين قبل تحرير بيت المقدس ، فيقول[٣٣] :

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفّاه لا تنكفّ عن هطلانها
تلك السيوف المرهفات بكفّه
أمضى على الأيام من حدثانها
ملك اذا جليت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فاسلم صلاح الدين وابق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض الى فتح السواحل نهضة

قـادت لـك الأعـداء بـعـد حـرانها

ويقف شاعر آخر ليصف غارته على غزة وعودته من ذلك الغزو بالعزة[٣٤] :

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزوةً
نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخط
رماها بآساد ما لهن مرابض
ولا اجمٌ إلا الذي تنبت الخط

ويقف الحق مرة اخرى مع المؤمن المحتسب المجاهد السلطان صلاح الدين وهو يجابه عشرين ألف مقاتل وما وراءهم من امداد وهم يزيدون كل يوم قوة وشدة ولم يكن معه من الجيش سوى ستة آلاف فارس . ولكن ايمانه بالله الذي يمده بنصره وثقته بالرجال الذين تقاتل الملائكة معهم كان أقوى من العدد الضائع فشلّ جموعهم حتى ولوا مدبرين وتبددت سيولهم في كل شعب ، واندحرت فلولهم عند كل ثنية لا تملك لنفسها ردا ولا تدفع عن نهايتها موتا . وقد وجد العماد في هذه المعركة التي أذلت عسكر الفرنج تعبيرا عن الصورة الكبيرة التي تعيش في قلوب المؤمنين الذين حاولت سيوف الفرنج ان تزيح وجودهم ليردوا الغزاة ويدفعوا عن الوطن غائلة الغدر فقال وهو يحمد الله على نصره وأفضاله[٣٥] :

فالحمد لله الذي أفضاله
حلو الجنا عالي السنا وضاحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال وما درى
ان الذي يجني عليه سلاحه
ان أفسد الدين الغلاة بخبثهم
فالناصر الملك الصلاح صلاحه

وتبقى القدس محور الدفاع عن الأرض والقطب الذي تدور حوله قصائد الشعراء والمحك الذي يمتحن فيه الرجال لأنها عقدة النصر الحقيقي والهدف المرجو في سير المعارك والقبلة الدينية التي ينتظر تحريرها من أيادي الفرنج المغتصبين وكانت أحاديثها في مدائح صلاح الدين واسعة والاشارة بطرد الغزاة منها مأثرة من مآثر المديح وجهاد البغاة منقبة من مناقب المستأثرين بالحديث . والى ذلك يشير العماد في بعض مدائحه[٣٦] :

ويوسف مصر بغير التقى
وبذل الصنائع لم يوصفِ
فسرْ وافتح القدس واسفكْ به
دماءً متى تُجْرها ينظف

وقد بلغ خوف الغزاة من الملك الناصر انهم كانوا يخافونه حتى في أحلامهم لما أدخله في نفوسهم من رعب واثاره من فزع وقد تردد هذا المعنى في قصائد الشعراء حتى وجدنا ابن رواحة ينشده في بعض قصائده فيقول[٣٧] :

لقد خبر التجارب منه حزم
وقلّب دهره ظهراً لبطنِ
فساق الى الفرنج الخيل برّاً
وأدركهم على ظهرٍ بسفنِ
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمرنانٌ تنوح على مرنٍّ
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعد وهنِ
أبادهم تخوّفه فأمسى
مناهم لو يبيّتهم بأمنِ

انها صورة الأدب الحي الذي يرسم لوحة الحروب المقدسة وقدرة الشعراء الذين يعبرون عن روح المقاتلين من خلال الضمائر الحية والأساليب القتالية الواعية التي تعطي

الأدب مهمته وتحدد لأغراضه المهمات الأساسية التي تترك له خيار التعبير الفني والوظيفي .

واذا كانت قصائد الشعراء قد تركت هذه الآثار على وجه الأسفار التاريخية وهي تقود معارك الجهاد وتخوض ملاحم القتال فان الأدب بقي يحمل العطاء الفكري للمبادىء التي كانت تدفع المقاتلين وتخطط للقادة وهم يستحضرون الأمجاد ويرفعون راية التاريخ وهي تعلو رؤوس الرجال ويكتبون الأسفار بالتضحية الفريدة .

ان الومضات المشرقة التي بقيت ألوانها تطرز الصفحات الخالدة كانت من نتاج الشعراء المؤمنين .

وان الدفقات الوجدانية التي تألقت في نماذج القصائد تشير بوضوح الى مواكبة الشعر لهذه المعارك وهي تقف على الاحساس التعبيري عن الخلجات الانسانية . . .

الهوامش

(١) الديوان/الورقة من ٣٢ ـ ٣٥ .

(٢) ابن دنينير/مخطوطة الديوان الورق (٩) .

(٣) تنظر كتب التواريخ ذيل مرآة الزمان والحوادث الجامعة والنجوم الزاهرة وذيل تاريخ ابن الوردي .

(٤) ابن شداد/سيرة صلاح الدين/٧٧ وتراجع تفاصيل المعركة في جمال الدين الشيال وقصة الكفاح بين العرب والاستعمار .

(٥) ابو شامة/كتاب الروضتين ٢/٧٥ .

(٦) أبو شامة/كتاب الروضتين ٢/٣٧ .

(٧) ابن واصل/مفرج الكروب ٢٨/١٢٧ .

(٨) ابن واصل/مفرج الكروب ٢/١٢٨ .

(٩) المقريزي/السلوك/١/٧٩ .

(١٠) عماد الدين ـ الديوان/٢١٣ .

(١١) عماد الدين ـ الديوان/١٢٥ .

(١٢) عماد الدين ـ الديوان/٤١٠ .

(١٣) الديوان/١٩٠ ـ ١٩٢ .

(١٤) الديوان/١٩٤ .

(١٥) عماد الدين ـ الديوان/٢١٥ .

(١٦ ـ ١٨) ينظر كتاب الروضتين /الجزء الاول القسم الثاني/٥١٠ ـ ٥١٣ واصول الاسماعيلية لبرنارد لويس

(١٩) للاستزادة من تفاصيل عقائدهم وما اقترفوه من آثام وجنوه بحق الامة وعلمائها تنظر الصفحات من ٥١٠ ـ ٥١٦ .

(٢٠) ينظر كتاب الروضتين/٥٦٣ .

(٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين/الجزء الأول ـ القسم الثاني/٣٩٤ .

(٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين/المقدمة/(د) .

(٢٣) أبو شامة : كتاب الروضتين/الجزء الأول ـ القسم الثاني/٣٩٥ .

(٢٤) المصدر نفسه/٣٩٥ .

(٢٥) المصدر نفسه/٤١٢ ـ ٤١٣ .

(٢٦) المصدر نفسه/٤١٥ .

(٢٧) المصدر نفسه/٤٦١ .

(٢٨) الديوان/٢٧٥ نقلا عن الروضتين ١/٤٦١ والديوان ٣٠٦ ـ ٣١٢ وللقاضي الفاضل كتاب يصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين في زمان وزارته وهي من الرسائل التي وثقت الأخبار وتابعت أحداث الغزوة باسلوب أدبي رائع .

(٢٩) أبو شامة : كتاب الروضتين/الجزء الأول ـ القسم الثاني/٤٩١ ـ ٤٩٢ .

(٣٠) ينظر كتاب الروضتين/الجزء الأول ـ القسم الثاني/٦٠٥ .

(٣١) ينظر كتاب الروضتين/٦٣٠ .

(٣٢) العماد/الديوان/٢١٥ .

(٣٣) كتاب الروضتين/٦٤٦ .

(٣٤) نفس المصدر .

(٣٥) العماد/الديوان/١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٣٦) عماد الدين ـ الديوان/٣٠٤ .

(٣٧) كتاب الروضتين/٦٩٣ .

الحرم الشريف في ظل الغزو الفرنجي

د. عبد العزيز حميد صالح

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لقد كانت فلسطين منذ العصور القديمة هدفاً وطريقاً الى الهلال الخصيب بالنسبة الى الهجرات العربية من قلب شبه الجزيرة العربية . والواقع ان الوجود العربي في فلسطين يرجع الى الالف الثالث قبل الميلاد على الاقل يوم هاجرت اليها والى سورية القبائل العمورية والكنعانية[1] .

تعتبر بيت القدس او بيت المقدس كما يسميها العرب واحدة من بين اقدم مدن العالم واعرقها تاريخاً . لقد تمتع ، بيت المقدس بشيء من القدسية منذ ان مصرها الملك الكنعاني (ملكي صادق) في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . ويروى ان (ملكي صادق) هذا الذي كان معاصراً لنبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام معروفاً بالتقوى والزهد والمحافظة على سنة الله القويمة .[2]

لقد سمى العرب الكنعانيون وهم سكان البلاد الاصليين مدينة القدس باسم (يروشالم) وتعني (مدينة الأله شالم) او (مدينة السلام) . وقد عرفت عند الآشوريين والبابليين باسم (اورشاليمو) وهو نفس الاسم الكنعاني .

لقد وصل الينا من اسماء ملوك القدس ايضا الملك (عبد خيبا) جاء اسمه في الواح (تل العمرنة) من مصر وذلك في رسائل وجهها الى فرعون مصر (امنحوتب الرابع) أحد ملوك السلالة الثامنة عشر (١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق . م) يستنجده فيها بمدد من الجند لصد شراذم من الرُّحل سماهم بـ (خبيرو) . ومن المتفق عليه بين المختصين في الوقت الحاضر ان (خبيرو) هم (العبريون)[3] .

والقدس من المدن التي لها تاريخ حافل متميز توالت عليها من الاحداث والنكبات ما يملأ المجلدات الضخمة . فقد حوصرت في الالف الاول قبل الميلاد وحده سبع عشرة مرة وهدمت مرتين . وربما اول نكبة حقيقية حلّت بها هي عندما استولى عليها العبريون وفتكوا بأهلها في السنة السادسه من حكم الملك داود في اواخر الألف الثاني قبل الميلاد .

والقدس من المدن القليلة في العالم التي لا تزال تحتفظ بأسوارها ، او على الاقل بالجزء الاكبر منها . وان كانت هذه الاسوار متأخرة . حيث ان السور الذي يحيط بها اليوم هو الذي شيّده السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة ١٥٣٥ م .

لقد حرر العرب المسلمون مدينة القدس من أيدي القوات البيزنطية صلحاً في السنة الخامسة عشرة من الهجرة وكانت تعرف آنذاك باسم (ايلياء) . ويعود السبب في التسمية أنه في سنة ١٣٥ م هدم الامبراطور الروماني هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) مدينة اورشليم تماماً حتى ألحق اعلاها بأسفلها ثم حرث الموقع وسوّاه وشيدّ فوقها مدينة رومانية جديدة سمّاها (ايليا كابتلينا) Aelia Capitolina وقد خطّ المدينة الجديدة على رقعة أصغر

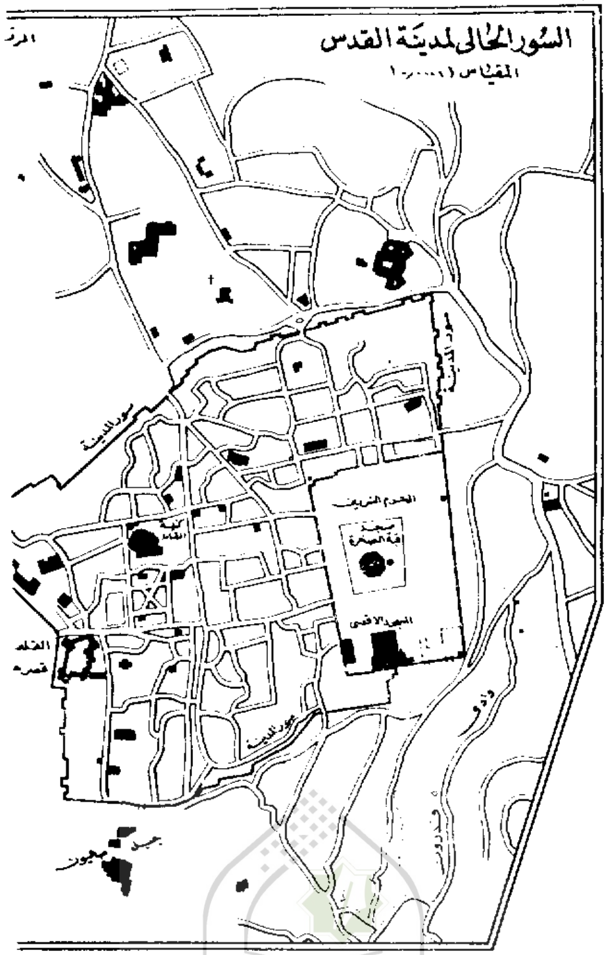
من الرقعة التي كانت تشغلها اورشليم[٤] . ولم يسمح لأي من اليهود الدخول اليها أو حتى الاقتراب منها . لقد ورد اسم (ايلياء) في المدونات التاريخية الاسلامية المبكرة كما وردت في التحذير الذي وجهه الصحابي ابو عبيدةً ابن الجراح الى حاميتها البيزنطية عند محاصرته لها . وجاء الاسم الجديد ايضاً في وثيقة الأمان التي حررها لأهلها عمر بن الخطاب (رض) عند فتحها وهي الوثيقة المعروفة بالعهدة العمرية . ومما تجدر ملاحظته انه عُثر على فلس نحاسي مؤرخ من سنة سبعة عشر للهجرة وقد نقش على خافة احد وجهي النقد (بسم الله) باللغة العربية في حين ان بقية النصوص بلغة الروم . وعثر على فلس آخر من نفس الشاكلة مؤرخ في السنة الثامنة عشر للهجرة[٥] . وفي هاتين الفترتين توكيد لما أفادتنا به المصادر العربية الاسلامية من ان عمر بن الخطاب (رض) كان اول من أمر بسك النقود في ظل الاسلام . وقد ظل اسم ايلياء قيد الاستعمال كما يبدو حتى اواسط العصر الأموي على الاقل . .

وفي السنة التي حررت فيها بيت المقدس يذكر لنا سعيد بن بطريق ان عمر بن الخطاب (رض) طلب الى البطريق سفرونيوس Sophronius ان يدله على موضع ليشيد فيه مسجداً للمسلمين . فأشار البطريق بيده الى الصخرة المشرفة وكانت في بقعة خالية من البناء مليئة بالاتربة مرتفعة عما يجاورها من الارض . فمسك الخليفة هناك بطرف ثوبه فملأه تراباً ورمى به في واد قريب . و « اقتفى المسلمون أثره فراحوا يحملون التراب في حجورهم وفي الثياب والاتراس ، وفي الزنابيل والاجانين حتى نقوا الموضع ونظفوه واستبانت الصخرة »[٦] .

وهكذا فقد بنى المسلمون ايام خلافة عمر الفاروق مسجداً في المنطقة التي كانت مليئة بالاتربة بجوار الصخرة المشرفة . وتتفق معظم هذه المصادر على ان عمراً صيَّر الصخرة في آخر المسجد . ويذكر المطران البيزنطي اركولف Arculfus الذي زار بيت المقدس لغرض الحج سنة ٥٠ هجرية (٦٧٠ م) انه شاهد ذلك المسجد . واشار انه كان مربع الشكل شيّد اغلبه من الواح الخشب وجذوع الاشجار الغليظة . وذكر ايضاً بانه قيل له ان المسجد كان يتسع لثلاثة آلاف من المصلين[٧] .

لقد صار مسجد عمر نواة للحرم الشريف فيما بعد حتى ان كثيراً ما اطلقت كلمة المسجد على الحرم كله . وتبلغ مساحة الحرم الشريف نحو سدس مساحة القدس القديمة المسوّرة[٨] . ويشير احمد بن عبد ربه الاندلسي المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية (٩٣٨ م) أن طوله ٧٨٤ ذراعاً وعرضه ٤٠٠ ذراعاً[٩] . غير ان ابن الفقيه المتوفى سنة ٣٤٠ هجرية (٩٥١ م) يذكر لنا ان طوله الف ذراع وعرضه سبعمائة ذراع[١٠] . ولا شك ان قياسات ابن الفقيه هي اقرب الى الحقيقة فنحن نعلم اليوم ان مقاسات الحرم الشريف ـ وهو ذو شكل منحرف قليلاً ـ هي كما يلي : طول ضلعه الغربي ٤٨٠ متراً وضلعه الشرقي ٤٦٥ متراً . وطول ضلعه الشمالي ٣٠٠ متراً والجنوبي ٢٨٠ متراً .

ويسمى السور الغربي للحرم الشريف بحائط البراق الذي يعتقد المسلمون ان الجدار الذي كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قد ربط فيه البراق عندما عرج به الى السماء . ويسمي اليهود هذا الجدار الغربي بحائط المبكىٰ . فهم يدّعون انه البقية الباقية من هيكل سليمان الذي هدمه القائد الروماني تيتوس سنة ٧٠ ميلادية . وقد انتهز اليهود فرصة وعد بلفور سنة ١٩١٧ واخذوا يجلبون المقاعد والحصر والمصابيح والستائر الى الساحة الواقعة امام جدار البراق على غير العادة المألوفة . ولم يقف العرب المسلمون في القدس مكتوفي الايدي امام تعدي اليهود على حائط البراق وجرأتهم على تسميته بحائط المبكى ، فقد حدثت اشتباكات كثيرة بين الطرفين، مما حمل حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين الى ارسال لجنة دولية خاصة عرفت باسم (لجنة البراق الدولية) للتحقيق في ذلك ، وكان اعضاؤها من الدول الاوربية ووافقت عصبة الامم على تشكيلها في ٥ ايار سنة ١٩٣٠ . واصدرت اللجنة قراراتها والتي كانت الفقرة الاولىٰ منها كما يلي :



الحرم الشريف وسور مدينة القدس

شكل رقم ١

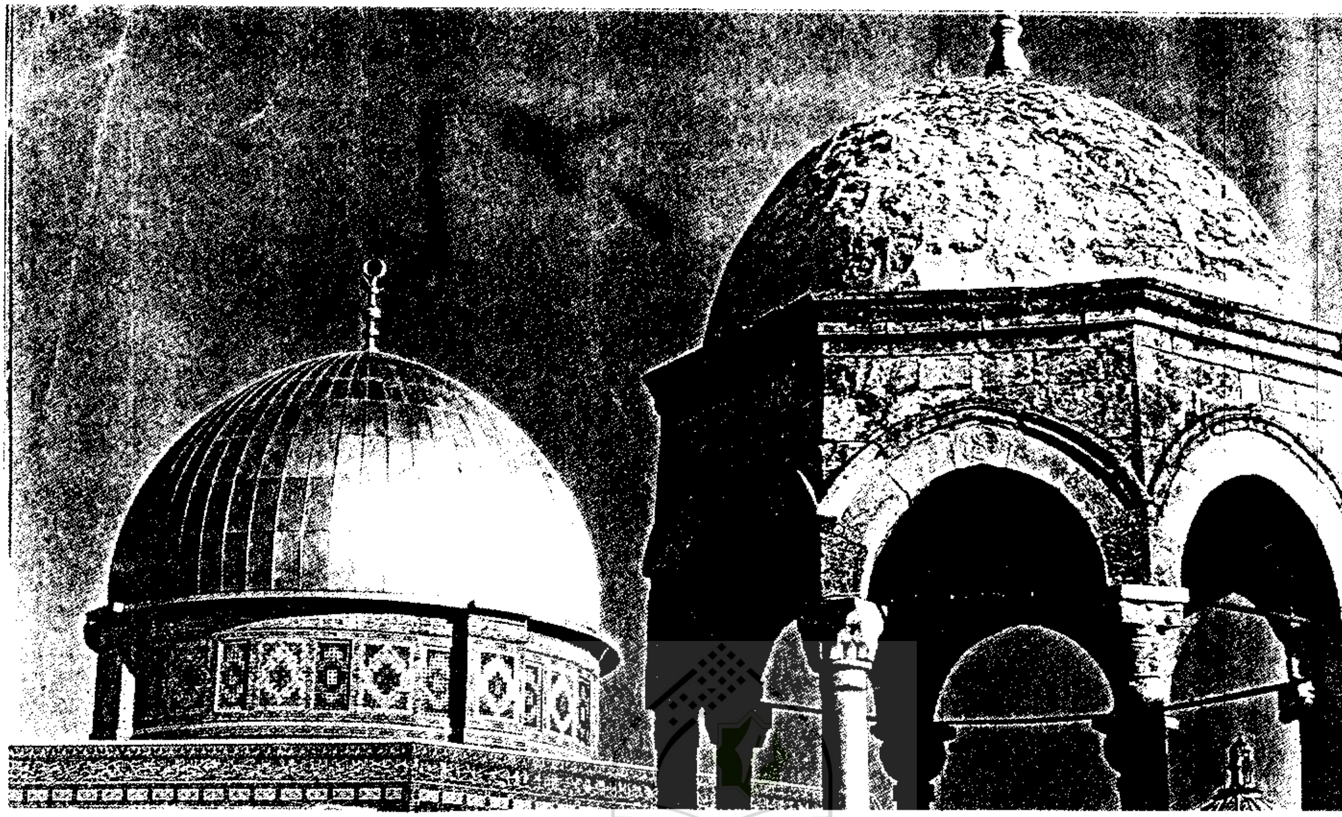
« للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي . ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من املاك الوقف . . »(١١) .

ويذكر ابن الفقيه انه كان للحرم الشريف عند زيارته له خمسون باباً داخلاً وخارجاً : وأن هناك داخل الحرم الشريف سبعمائة عمود . ولا ندري ان كان المقصود بالاعمدة هنا تلك التي تشتمل عليها العمارات الواقعة داخل ساحته ام غير ذلك . فنحن نعلم انه تحيط به اليوم من ثلاث جهات قناطر قائمة على اعمدة رخامية يبلغ عددها ثمانية قناطر اقام قسماً منها الأمير ليث الدولة منصور توشتكين الغوري امير الجيوش وحاكم سورية زمن الخليفة الفاطمي الظاهر لأعزاز دين الله (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م)(١٢) . وتم تشييد بعضها من قبل المماليك في سنة ٧٢٦ هـ هجرية (١٣٢٥ م) . ويذكر ابن الفقيه ايضاً وكذلك ابن عبدربه ان هناك داخل هذا المسجد ثلاث مقاصير للنساء اضافة الى خمسة عشر قبة من العمارات الدينية التي لها قدر كبير من القدسية عند المسلمين . ففي وسطه قبة الصخرة وفي الجزء الجنوبي منه المسجد الاقصى والى الجهة الشرقية من قبة الصخرة قبة السلسلة والتي تسمى ايضاً بقبة داود ثم قبة المعراج وغيرها من العمارات والقباب (شكل ١) غير أن اكثر المباني الواقفة ضمن الحرم الشريف اهمية هو البناء المعروف بقبة الصخرة (شكل ٢) .

لقد شيّدت قبة الصخرة على دكة قديمة واسعة منحرفة قليلاً طولها من الشمال الى الجنوب حوالي ١٦٥ متراً وعرضها الشمالي ١٥٠ متراً في حين ان عرضها الجنوبي ١٣٥ متراً ، وارتفاعها عن مستوى الارض المحيطة بها ٤,٥ متراً . ويوصل الى ساحتها سبعة مراقٍ موزعه في جهاتها الاربعة . اما الصخرة التي من اجلها اقيم هذا البناء والتي يروى ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد وضع قدمه عليها عندما عرّج به الى السماء ليلة الاسراء والمعراج فغير

شكل رقم ٢

منظر عام لقبة الصخرة في بيت المقدس



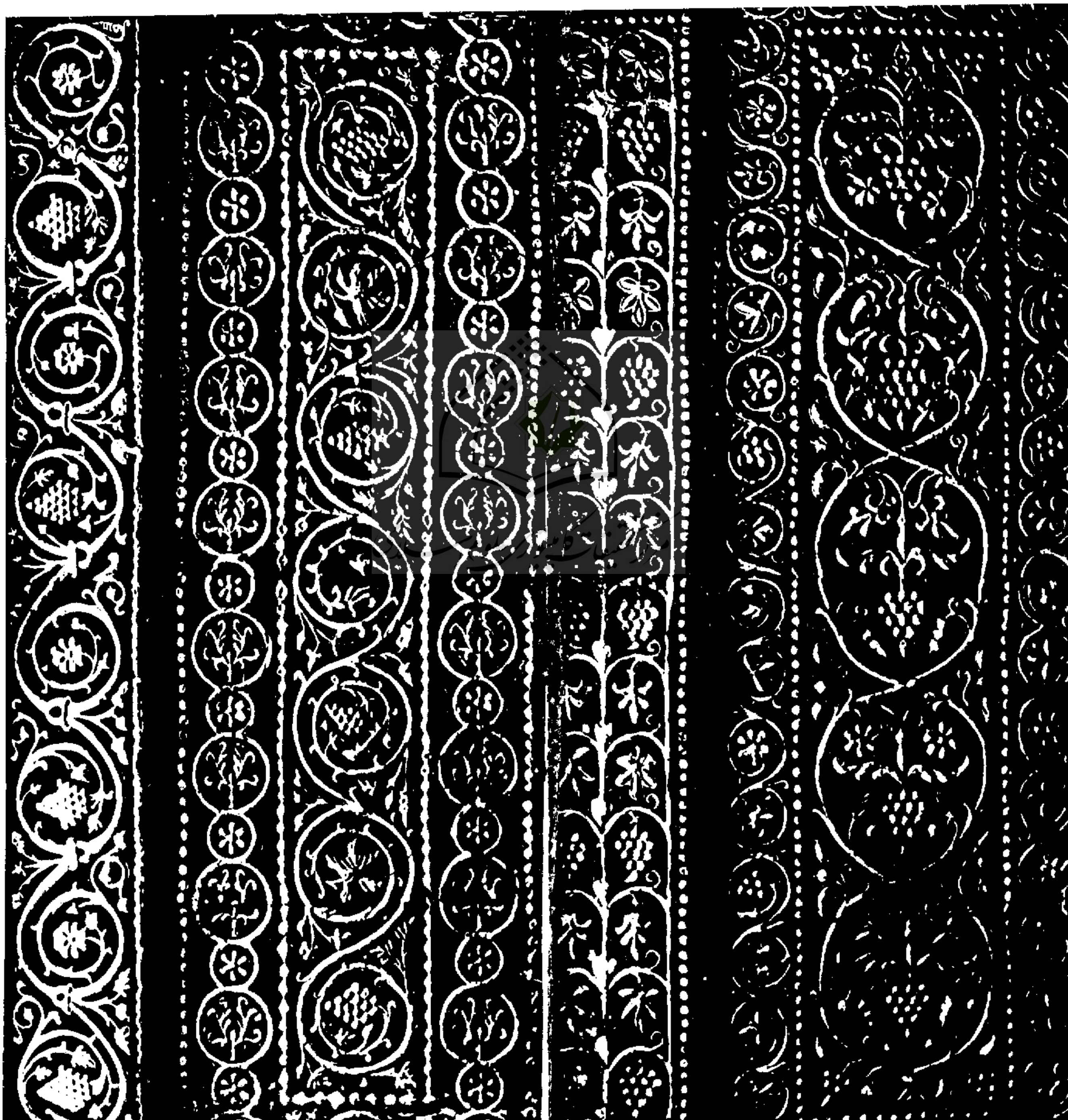
منتظمة . اقصى طول لها ١٧,٥ متراً وابعد عرض لها ١٣,٥ متراً ، واعلى ارتفاع لها عن مستوى الارض المحيطة بها ١,٥ متراً (شكل ٣) .

لقد اختار المصمم للصخرة بناءاً مثمناً ليتماشى مع شكلها غير المنتظم . ويجد الداخل الى قبة الصخرة بائكتين محمولتين على عدد من الاكتاف والاعمدة الرخامية المجزعة . وتشد عقودها بعض الى بعض روابط خشبية متينة مغلفة بصفائح برنزية مطروقة تشغلها تفريعات نباتية دقيقة ناتئة ترجع الى عصر البناء الاول (شكل ٤) . وتحمل البائكتان والجدر الثمانية سقفاً منحدراً وقبة عظيمة ترتفع في الهواء ٣٥,٥ متراً . والقبة من الخشب وهي مزدوجة ، اي انها كما يقول ابن الفقيه « قبة على قبة » . وهناك بين القبتين فراغ ، اي انه هناك بين القشرتين الخشبيتين ، ان صح القول ، فراغ واسع فيه سلم يمكن التسلق بواسطته الى القمة حيث نصب هلال برنزي كبير . وقد ثبتت على القشرة الخارجية للقبة صفائح الرصاص لعزل الخشب لغرض حمايته من الامطار والثلوج والريح . ويقول ابن الفقيه ويؤكده المقدسي ان صفائح الرصاص كانت مغلفة من الخارج بالواح رقيقة من النحاس المذهب الأخاذ (شكل ٥) .

لقد زينت قبة الصخرة عند بنائها من الداخل والخارج بما في ذلك بواطن وكوشات العقود بالفسيفساء . غير ان السلطان سليمان القانوني قلع فسيفساء الواجهات الخارجية للجدران ليكسوها بتربيعات الخزف المزجج وذلك في سنة ٩٥٢ هجرية (١٥٤٥ م) . ولقد تساقطت بعض اجزائها من داخل البناء على مر الأيام غير انه لا يزال هناك ما لا يقل عن ألف متر مربع من الفسيفساء التي ترجع الى عصر التشييد والتي تظهر قدرة العرب على الابداع والاتقان في هذا الضرب من الفن سواء كان ذلك في تنفيذ رسومها الهندسية او في التفريعات النباتية والزهور وغير ذلك . والتي تتجلى

شكل رقم ٥

صفائح البرنز المطروق ذو الزخارف البارزة التي تكسو الروابط الخشبية في قبة الصخرة



ايضاً في اختيار موضوعات الزخرفة وانسجامها وتنسيقها والتوفيق في اختيار الوانها (شكل ٦) .

اما عن تاريخ قبة الصخرة فقد أفادت جميع المصادر العربية القديمة ان الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) هو الذي امر ببنائها بعد أن استشار المسلمين ورصد لها خراج مصر لسبع سنين . وعهد بأدارة العمل الى اثنين من رجاله هما رجاء بن حياة الكندي ويزيد بن سلام . وقد فرغ من البناء في سنة ٧٢ هجرية (٦٩١ م) كما يشهد بذلك الشريط الكتابي التذكاري الذي يبلغ طوله ٢٤٠ متراً والذي نقش بالفسيفساء المذهبة وعلى ارضية زرقاء وبخط كوفي جلي ومتناسق . ان هذا النقش الكتابي هو ليس فقط اقدم ما وصل من كتابة تذكارية على بناء اسلامي شاخص بل اقدم نقش كتابي يجمع بين الاعلام والزخرفة . كما انه بحق افضل ما وصلنا من الخط العربي من حيث التطور والجمال والجودة وحسن الاداء .

لقد صار هذا البناء بقبته المتقنة وبنائه المتين وتكوينه الرائع آية في فن هندسة البناء لا في العصر الذي شيّد فيه فحسب وانما على مر الايام والعصور ، حتى انه بهر بروعته وبهائه وفخامته وتناسقه كبار المختصين في العمارة من الأوربيين . فقال بعضهم بان قبة الصخرة من اجمل الابنية فوق البسيطة واجمل الآثار التي خلدها التاريخ[١٣] . ويذكر آخرون بانها تعد الانموذج الامثل في التناسق والانسجام . ويكتب آخر بانه لم يجد في اي بناء آخر مثل هذا التناسب البديع بين الاجزاء المعمارية والتناسق في الالوان المستخدمة في الزخرفة[١٤] .

ويذكر المتخصص البريطاني في الاثار والعمارة الاسلامية الاستاذ كرسويل بان قبة الصخرة قد بهرت ببهائها ورونقها وفخامتها وسحرها ودقة نسبها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين[١٥] .

وعلى بعد ١٦٠ متراً الى الجنوب من قبة الصخرة وعلى الحدود القبلية للحرم الشريف يقع المسجد الاقصى . ولقد اختلفت الاراء حول من كان له شرف البدء بهذا البناء المبارك في العصر الاموي وهو ثاني مسجد جامع يشيد في بيت المقدس بعد مسجد عمر (رض) . وربما يعزى السبب في الاختلاف الى عدم وجود كتابة تذكارية مثل تلك الكتابة الرائعة الموجودة داخل قبة الصخرة . وقد كرر بعض القدامى من المؤرخين والبلدانيين العرب في هذا الخصوص ان مشيّد هذا المسجد هو عبدالملك بن مروان[١٦] ، بينما يذكر آخرون أن ذلك الشرف كان من نصيب الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٥ م) . ويعتقد بعضهم ان البناء قد بدأ أيام عبدالملك وتكامل في خلافة الوليد[١٧] . ويرى عدد من المختصين ، ومنهم كرسويل ، ان المسجد الحالي قائم في نفس الموضع الذي شيّد فيه عمر بن الخطاب (رض) مسجده الاول في بيت المقدس (شكل ٧) .

لقد كان المسجد الاقصى اوسع مما هو عليه في الوقت الحاضر ، ارضه مرصوفة بالرخام ، وابوابه ملبّسة بصفائح الفضة . غير ان المسجد لم يبق على حاله القديم فقد طرأت عليه مع الزمن تغييرات بسبب التجديدات التي اضطر اليها القوامون عليه بسبب ما كان يلحق به من تصدع ، وبشكل خاص بسبب الزلازل . ومن أقدم الزلازل التي الحقت اضراراً كبيرة به الزلزال الذي ضرب القدس سنة ١٣٠ هجرية (٧٤٦ م) وانهار بسببه الجزء الشرقي من البناء . ولم يتسنّ اصلاح الضرر الا في سنة ١٥٤ هجرية ايام خلافة ابي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) . غير انه لم تمض الا اربع سنوات على هذا التجديد حتى ضرب بيت المقدس زلزال عنيف آخر ، فكان للمهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م) شرف اعادة بنائه في سنة ١٦٣ هجرية (٧٧٩ م) (شكل ٨) .

ويعتبر المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هجرية (٩٩٠ م) اول من وصف المسجد الاقصى من البلدانيين وصفاً مسهباً وذلك عند زيارته للقدس سنة ٣٧٥ هجرية (٩٨٥ م) . فقال انه يتكوّن من بيت صلاة كبير يقوم على أعمدة من الرخام ومسقف بجملون عال وينتهي عند جدار القبلة بقبة عظيمة . وذكر ايضاً ان للمسجد خمس عشرة بلاطة كما ان له ستة وعشرون باباً

شكل رقم ٣ قبة الصخرة من الداخل



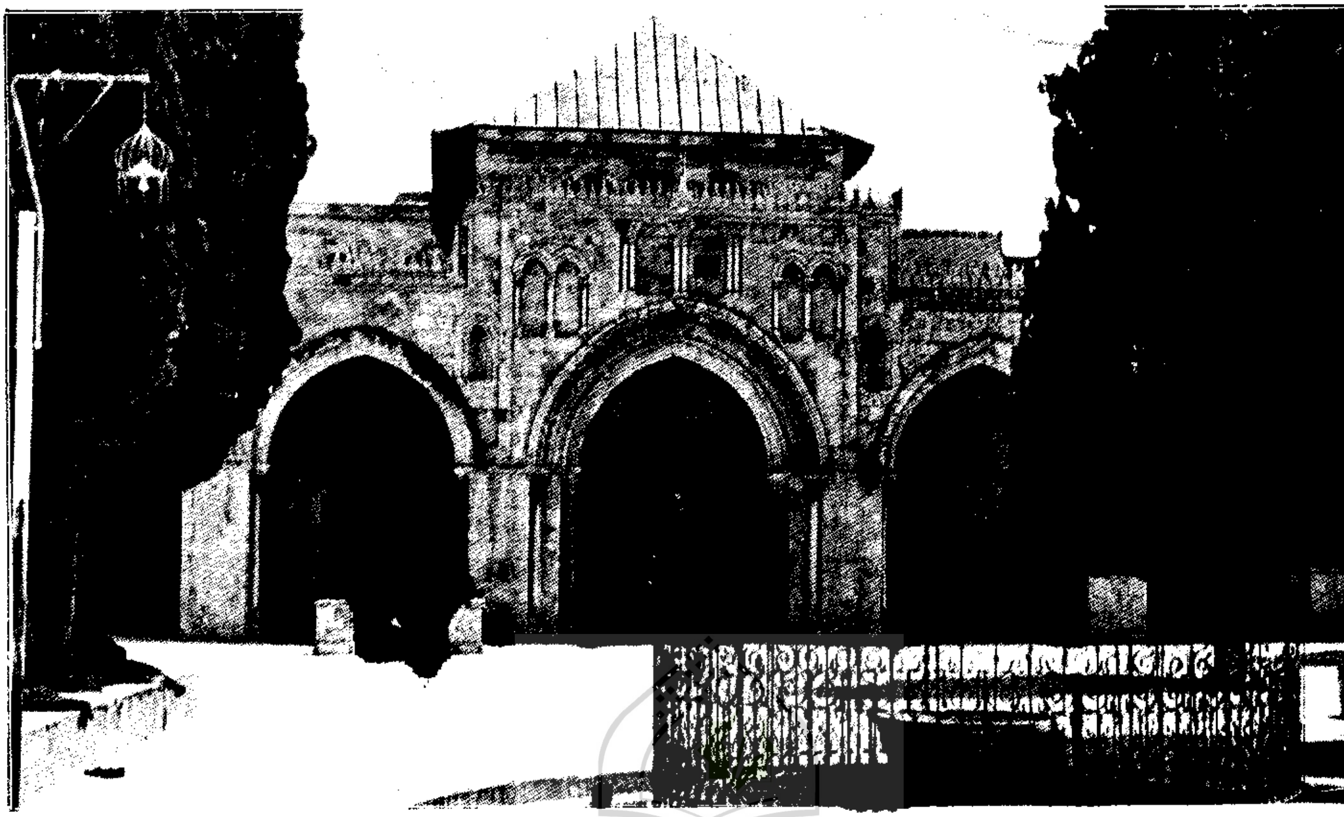
وسقوفه كلها مكسوة بصفائح الرصاص[١٨] .

هـذا وان آخر تجـديد للمسجـد الاقصى قبـل وصـول الصليبيين كان في سنة ٤٢٦ هجرية (١٠٣٤ م) . والسبب في التجديد يعود الى زلزال ضرب المدينـة في السنة السـابقة الحق بالمسجد اضراراً بليغة . وقد ابقي اثناء التجديد على ما امكن الحفـاظ عليه من بنـاء المهدي . فلم يتغـير من تخطيطـه سوى تقليص بيت الصلاة بحذف اربع بلاطـات من كل جهـة من جهتيه الشرقية والغربية . غير ان القبة الحالية ورقبتها والعقود في بيت الصلاة والاروقة والابواب السبعة التي في الجـدار الشمالي للمسجد ترجع كلها الى عصر هذا التجـديد الاخير (شكل ٩)[١٩].

وفي اواخـر القـرن الخـامس الهجـري (الحـادي عشـر الميلادي) عندما استطاع الصليبيون ان يحصلوا على موقع قدم لهم في العالم الاسلامي كـان هدفهم الاول الـوصول الى بيت المقدس . فبعد ان تم لهم الاستيلاء على انطاكية عقدوا العزم على السير الى بيت المقدس ، وكانت وقتذاك تابعة للفاطميين . وبعد حصار دام اربعين يوماً استطاعت القوات الصليبية اقتحام المدينة فانسحب منها القائد الفاطمي افتخار الدولة وقواته باتفاق مع الصليبيين تاركين بيت المقـدس لمصيره المشؤوم وذلك في صيف سنة ٤٩٢ هجرية (تموز ١٠٩٩ ميلادية)[٢٠] . فـالتجأ الكثير من سكانها العرب المسلمين الى الحرم الشريف غـير ان الجيش الصليبي انقض عليهم وبدأت مذبحة من ابشع المذابح في تاريخ المدن ، فلم ينج من العرب المسلمين الا القليل جداً ، اذ انطلق الصليبيون في شوارع بيت المقدس والى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من رجال ونساء واطفال دون تمييز . وفي اليوم التالي اقتحم الصليبيون ابواب الحرم الشريف فقتلوا في سـاحته وفي داخـل قبـة الصخـرة والمسجـد الاقصى جميـع المسلمين الذين التجأوا الى هناك . ولبث الافرنج في القـدس اسبوعاً كاملاً يقتلون فيه العرب المسلمين ، ويذكر المؤرخ ابن العبري بانه قتل داخل المسجد الاقصى وحده ما يزيد على سبعين الفـاً منهم[٢١] . ويكتب مؤرخ صليبي كـان مـواكبـاً للحملة الصليبية بان جنودهم وخيولهم كانت تغوص حتى سيقـانها في دماء المسلمين . ويذكر لنا المؤرخ المعروف فيليب حتي نقلاً عن

منظر عام للمسجد الاقصى كما هو عليه اليوم

شكل رقم ٨



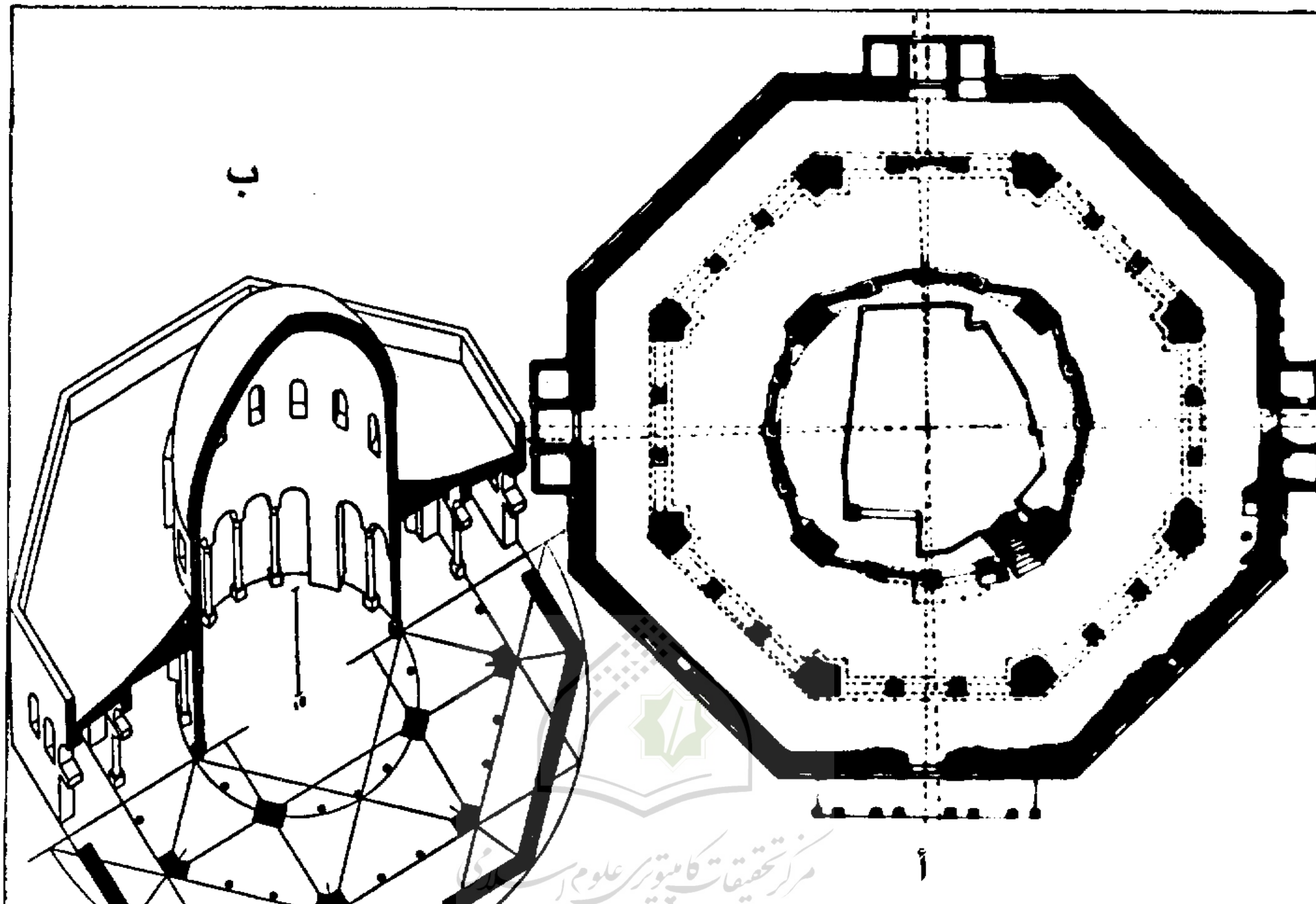
بعض المصادر اللاتينية ان الداخل الى بيت المقدس ليجد بعد المذبحة اكواماً من رؤوس النساء العربيات والاطفال والشيوخ واكفهم واقدامهم في جميع شوارع ودروب وازقة المدينة وساحاتها[٢٢] . وان قائد الجيش الصليبي المدعو (ريموند اجيل) عندما اراد في اليوم التالي على دخول الجيش الصليبي ان يصل الى داخل الحرم الشريف اخذ يلتمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه[٢٣] .

ويذكر ابن القلانسي ان يهود بيت المقدس التجأوا الى معبدهم الكبير ، غير انه تقرر القاء القبض عليهم بحجة انهم ساعدوا المسلمين . فاشعلوا النار في المعبد ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين[٢٤] . وتذكر المصادر الاوربية والعربية على حد سواء انه لم ينج من القتل أحد من العرب والمسلمين وقد ظلت شوارع القدس ودووها وساحاتها مصبوغة بالدماء لفترة طويلة بعد الاحتلال الصليبي .

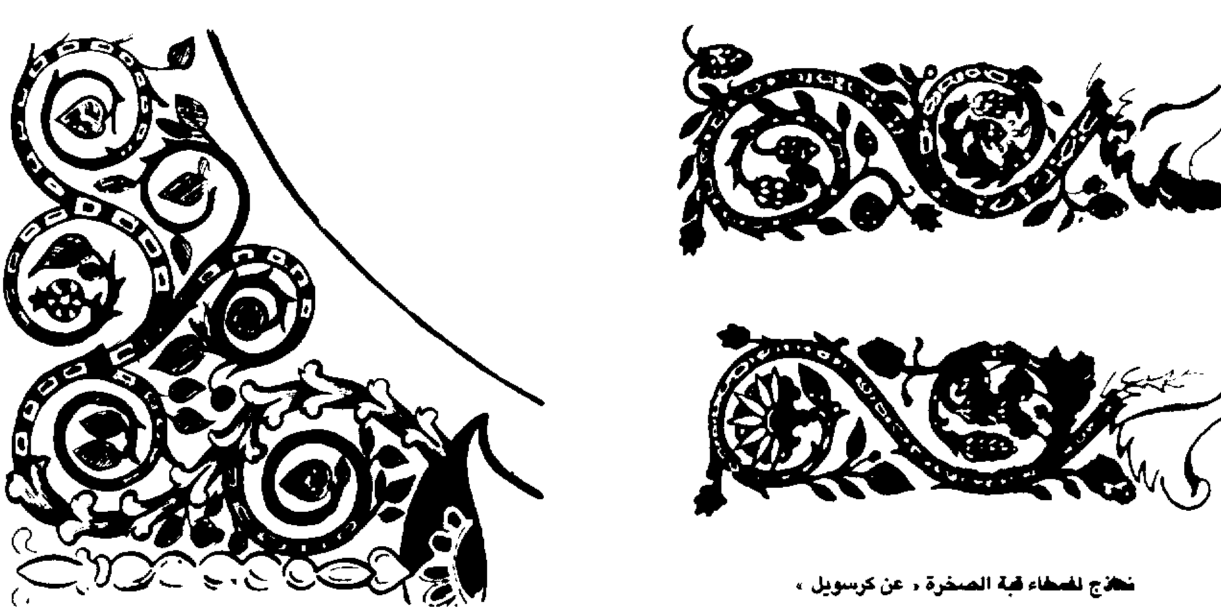
ومن الامور الغريبة حقاً ان امراء الحملة الصليبية الذين فعلوا فعلتهم الشنعاء هذه ساروا بعد ان قتلوا جميع العرب والمسلمين في موكب يتسم بالخشوع التام الى كنيسة القيامة ليؤدوا صلاة الشكر هناك .

أين هذه المذابح من ذلك الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب (رض) لأهل بيت المقدس عندما تم تحريرها على يديه من يد الاستعمار البيزنطي ؟ لقد « اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . . وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم . . »[٢٥] الى آخر ذاك الأمان العظيم الذي يعتبر بحق من اروع الانجازات الانسانية في تاريخ الحروب . وقد سمح المسلمون للجيش البيزنطي بالانسحاب بحرية تامة فكان الجندي البيزنطي : « آمن على نفسه وماله الى مأمنه » على ان يدفع من ينسحب منهم فدية صغيرة . ومن اراد البقاء منهم فهو آمن ويعامل معاملة أهل القدس . ولا بد ان نذكر بهذا الصدد انه عندما حان وقت الصلاة وكان عمر الفاروق في صحبة بطريق « بيت المقدس داخل كنيسة القيامة خرج وصلى خارج الكنيسة . وقال للبطريق : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي

شكل رقم ٤



مخطط ارضي ومسقط لقبة الصخرة المشرفة ، عن كرسول ،



نماذج لفسيفساء قبة الصخرة ، عن كرسويل ،

شكل رقم ٦

وقالوا : هنا صلى عمر » .

ان ما فعله الفرنج يذكرنا تماماً بما فعله الفرس عندما اجتاحوا بيت المقدس وذلك قبل تحرير العرب لها بأربع وعشرين سنة . كان ذلك على يد الملك الساساني كسرى الثاني الذي هدم كل ما وجده من قصور وكنائس واديره وذبحوا من سكانها المسيحيين تسعين ألف نفس . واخذوا الصليب الأعظم الذي يعتقد المسيحيون انه هو الذي صلب عليه السيد المسيح عليه السلام . وقد ذكر المؤرخون أن يهود الجليل عاونوا الفرس في ذلك .

ومهما يكن من امر فقد اسس الفرنج في بيت المقدس والمدن الفلسطينية المجاورة مملكة لاتينية . واستولت هذه المملكة على جميع المباني والممتلكات داخل بيت المقدس وحرمت على العرب المسلمين دخولها تحريماً قاطعاً .

اما بالنسبة الى الحرم القدسي فانهم نهبوا ما في داخل قبة الصخرة والمسجد الاقصى من تحف ثمينة . ونذكر على سبيل المثال ان القائد الفرنجي تانكرد سرق ثمانية قناديل ضخمة من الفضة كانت معلقة داخل قبة الصخرة[٢٦] . وحول الصليبيون قبة الصخرة الى كنيسة سموها المعبد المقدس Templum Domini . وقد كتب بنيامين التطيلي عن ذلك عند زيارته لبيت المقدس وهي في ظل الاستعمار الفرنجي قال : « . . . وعليه اليوم البناء الذي يسميه الافرنج (المعبد المقدس) . . وليس يسمح لأحد ان يدخل فيها تمثالاً لأنها محل خاص بالعبادة . . »[٢٧] .

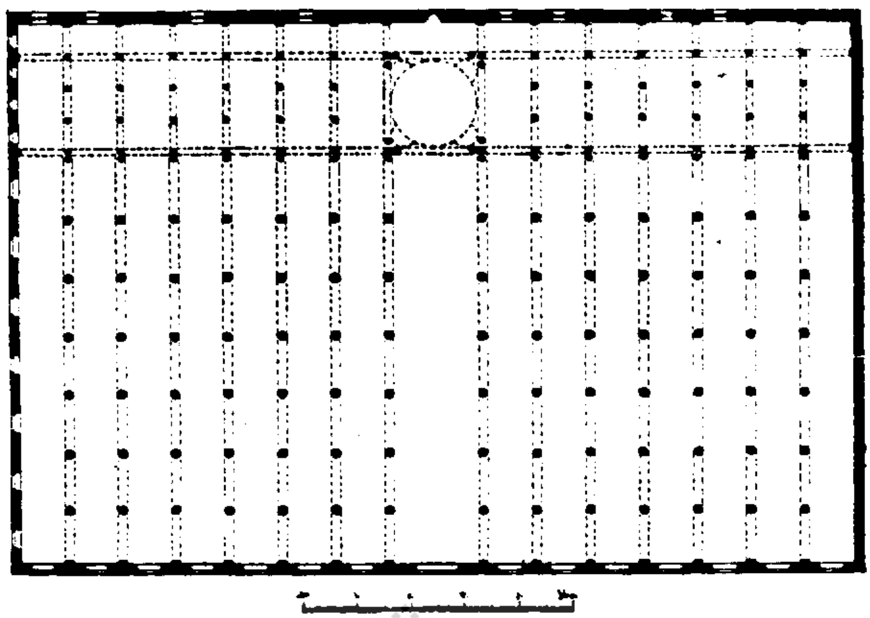
واتخذ فرسان الهيكل Knights Templars قبة الصخرة مقراً لهم معتبرين ان هذا البناء هو البيت الحقيقي للرب . وقد صار شكل قبة الصخرة شعاراً لفرقتهم ونقلوا طرازها الى اوربا حيث ظهرت كنائس مشابهة لها في التخطيط في لندن ولون Loan ومتز Metz وغيرها من مدن اوربا . وفي لوحة روفائيل الشهيرة « الزواج » Sposalizio والمحفوظة في متحف براره Brara Gallery في ميلانو والتي رسمت امام كنيسة مثمنة الاضلاع لا تبعد في الشكل كثيرا عن قبة الصخرة[٢٨] . لقد سمى العرب هذه الفرقة ، أي فرسان الهيكل بفرسان الداوّية وهي الفرقة التي تشكلت في بيت المقدس بعد احتلالها من قبل الفرنج وكانت من الد اعداء العرب المسلمين واكثرهم تعصباً وقد نذر افراد هذه الفرقة انفسهم لقتل المسلمين وافنائهم .

ويكتب لنا ابو عبدالله محمد العماد الكاتب القرشي الاصبهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هجرية (١٢٠٠ م) ان الفرنج زينوا قبة الصخرة بالصور والتماثيل والايقونات , وافردوا لموضع القدم (الصخرة) قبة صغيرة مذهبة محمولة على أعمدة رخامية « . . . وقالوا : محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح . . »[٢٩] كما ان الصليبيين قلعوا الهلال الذي كان يعلو قبة الصخرة ووضعوا بدلاً عنه صليباً كبيراً شأن تلك الصلبان التي تعلو عادة قباب الكنائس المسيحية . كما انهم وضعوا حول الصخرة اطاراً من الحديد بدلاً عن الاطار الخشبي القديم . ويذكر لنا الاصبهاني ويؤيده في ذلك المؤرخون الاوربيون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية بان « الافرنج كانوا يقطعون قطعاً من الصخرة ويحملونها الى القسطنطينة وبقية المدن الاوربية ليبيعوها هناك بوزنها ذهباً وقد اتخذوا من ذلك تجارة[٣٠] . ويضيف الى ذلك ابن الاثير بان الذين كانوا يقومون بذلك العمل هم القساوسة يبيعونها للحجيج المسيحيين ليضعونها في الكنائس التي كانت تشيّد في المدن الاوربية . ومن اجل ذلك اصدر ملوك الافرنج امراً بتغطية الصخرة بالألواح الرخامية حتى لا تختفي كليّاً نتيجة التكسير والتفتيت المستمر[٣١] .

اما بالنسبة الى المسجد الاقصى فقد غير الفرنج كثيراً من معالمه وصاروا يسمونه بهيكل سليمان Templum Salomonis او البلاط Palatium . واتخذوا جانباً منه كنيسة وجانباً منه مكاناً لسكنى فرسان الهيكل . ويذكر ايضاً انهم اضافوا الى المسجد من ناحيته الغربية وعلى طول الحائط القبلي صفاً مزدوجاً من القناطر المعقودة متخذين منها مستودعاً لأسلحتهم[٣٢] .

ويذكر ابن الاثير ان الجزء الذي استقطعوه من المسجد الاقصى واتخذوه مسكناً لبعض فرسان الهيكل لم يكن كافياً فاستخدموا مقصورات الصلاة الثلاثة الخاصة

شكل رقم ٧



المخطط الارضي للمسجد الاقصى في بيت المقدس في ايام المهدي .

بـالنساء لنفس الغـرض . كما انهم شيّـدوا الى الغرب من المسجد أبنية مستقلة لسكنى مـا تبقى منهم والحقوا بها ما يحتاجون اليه من المطابخ ودورات المياه وغير ذلك وقد ادخلوا جزءاً من المسجد الاقصى في تلك المباني(٣٣) .

وجعل الفرنج من السراديب التي تقع تحت المسجد الاقصى مباشرة ، وبشكل خاص تحت الجزء الشرقي من بيت الصلاة ، اسطبلاً لخيولهم . ولا تـزال الى اليوم آثـار مرابط الخيل وبقايا المعالف الحجرية محفورة في جدران تلك السراديب .

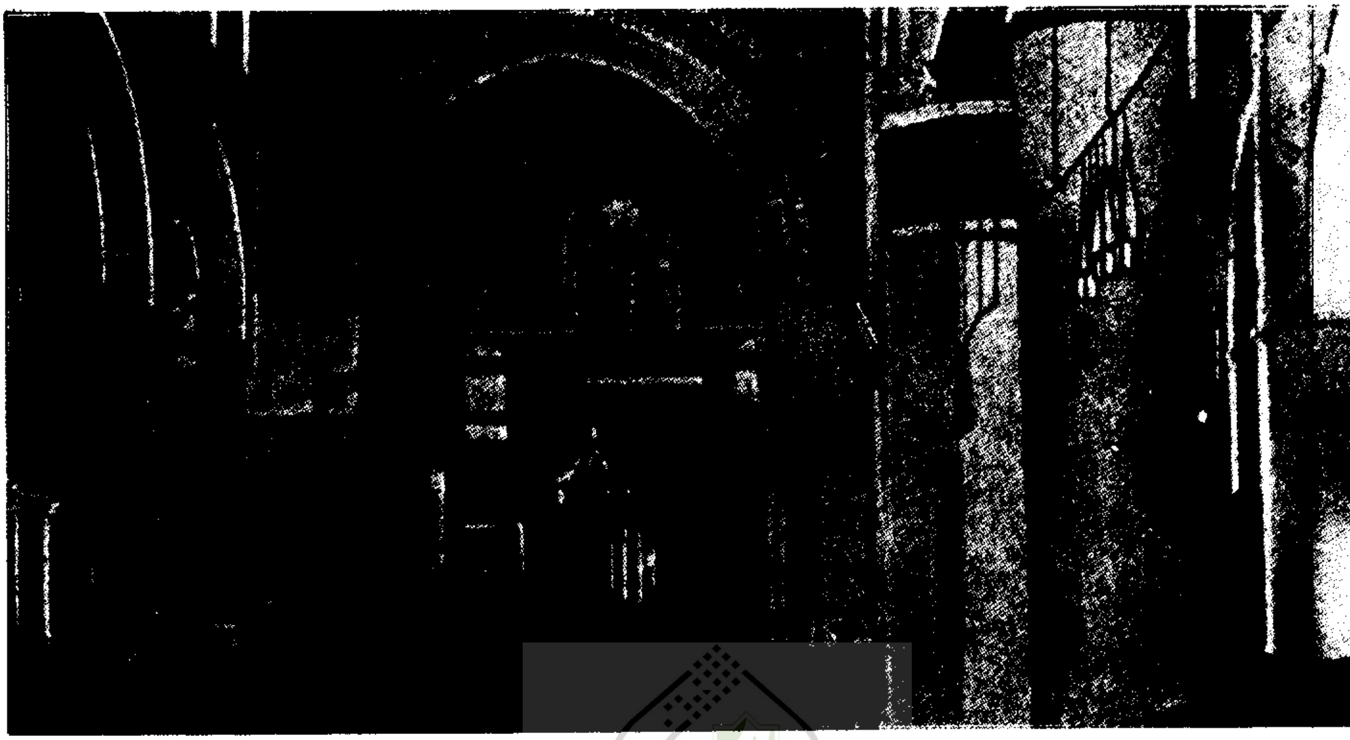
ومن المباني الأخرى المهمة في الحرم والتي لم تسلم من عبث الفرنج ، البناء المعروف بقبـة السلسلة (قبة داود) الواقعة في الجزء الشرقي من جوار قبة الصخرة والتي يعتقد معظم المؤرخين والبلدانيين انها شيّدت من قبل عبدالملك بن مروان قبل بناء قبة الصخرة بقليل . وقيـل أن السبب في بنائها هو لتكون انموذجاً لقبـة الصخرة والتي لا تختلف في التصميم عنها غير أنها أصغر بناءاً وانه لا جدران فيها سوى من جهتها القبلية حيث يوجد حائط بين عمودين ليشكل ما يشبه المحراب بينها . وقد سميت بهذا الاسم بسبب وجود سلسلة تتدلى من وسط قبتها . ان هـذه القبة مكسّـوة من جهتها الخارجية بصفائح الرصاص ومرفوعة على ستة أعمدة وبقية سطح البناء على أحد عشر عموداً خارجياً .

ويكتب الادريسي المتـوفى سنـة ٥٤٩ هجـريـة (١١٥٤ م) معتمداً على بعض المصادر المسيحية ان الفرنج قد حوّلوا قبة السلسلة الى كنيسة صغيرة اطلقوا عليها اسم (قدس الأقداس) أو كنيسـة سانت (جيمس دي ليس) The Chapel of St. James the Less نسبـة الى ذلـك القديس الذي عرف بهذا الاسم واستشهد في ذلك الموقع حين القاه اليهود من فوق سطح المعبد(٣٤) .

وفي الربع الاخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وهي الحقبة الزمنية التي تميّزت بمظهر الوحدة الكاملة للعالم الاسلامي ظهر في العراق بطلان قـادا الامة العربية والاسلامية نحو التحرير القومي : الاول هو الخليفة العبـاسـي النـاصـر لـديـن الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) الـذي استـطاع ان يخلص العـالم

بعض اروقة بيت الصلاة في المسجد الاقصى كما هو عليه اليوم

شكل رقم ٩



الاسلامي من التسلط السلجوقي على الخلافة العباسية وينهي سيطرة آخر سلاطين السلاجقة طغرل الثاني حيث جلب رأسه الى بغداد سنة ٥٩٠ هجرية (١١٩٤ م) .

والبطل الثاني هو السلطان الظافر صلاح الدين الايوبي ذلك الرجل العظيم الذي وهب نفسه وحياته وضحى براحته والعيش الرغيد لأعلاء كلمة الله والدفاع عن ديار العروبة والاسلام في الساحة الغربية وذلك ضد مستعمر ظلوم غاشم تستر بستار الدين ليحقق اطماعاً سياسية واقتصادية في الشرق العربي ويستذل اهله ويسلبهم ما بايديهم من خيرات .

لقد قاد صلاح الدين الايوبي الامة العربية الاسلامية ضد عدو البلاد الاول الفرنج ووجه لهم الضربة القاصمة في معركة (حطين) الشهيرة .

وما اعقبها من سقوط كثير من المدن والقلاع الصليبية التي كانت مراكز هامة للفرنج في فلسطين والشام . ثم حرّر الله على يديه بيت المقدس وارجعها الى حضيرة العرب والاسلام في ٤ شعبان من سنة ٥٨٤ هجرية الموافق ١٩ تشرين اول سنة ١١٧٨ ميلادية . لقد دخل صلاح الدين بيت المقدس ظافراً معززاً واقام اول صلاة جمعة في المسجد الاقصى وعلا على المآذن صوت لا اله الا الله محمد رسول الله فأرتجت المدينة باصداء التكبير والتهليل .

ومما يدل على سمو نفس صلاح الدين وعمق انسانيته انه لم ينكل بالفرنج او اهل المدينة من المسيحيين بل بحث عن روابط يتفق فيها مع المسيحيين العرب ضد الافرنج الغزاة . « فواجه العرب : مسلمون ومسيحيون الغزاة العنصريين الذين ارادوا ان يستروا استعمارهم للمنطقة ولبيت المقدس خلف اعلام المسيحية والصليب . وقد صرح كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحرب من وجهة نظر الصليبيين من ان انهيار المقاومة كان سببه انحياز المسيحيين الشرقيين الى صلاح الدين »[٣٥] . حتى أنه لما علم الامبراطور البيزنطي عمانوئيل الاول (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) بأنباء انتصارات صلاح الدين التمس منه إعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية الى الكنيسة الارثوذكسية كما كان عليه الامر قبل الأحتلال الصليبي لبيت المقدس . فاستجاب صلاح الدين لطلبه وفي مقابل ذلك اقر البيزنطيون وصاية صلاح الدين الايوبي على الجالية العربية الاسلامية في القسطنطينية

فارسل الى مسجد المسلمين هناك الخطباء والمؤذنين والقراء .

لقد اخذ صلاح الدين يتفقد مباني وعمارات الحرم الشريف فوجد ان الفرنج قد اقاموا الكثير من الجدران داخل المسجد الاقصى ليخفوا معالمه وشاراته الاسلامية . فعمد الى اصلاح وازالة ما اضافه الصليبيون اليه كما اعاد الاجزاء التي حذفوها منه . وقد بحث عن محراب المسجد وامر بهدم الجدار الذي بني أمامه لأخفائه . وامر بترخيمه ونقش حول عقده بالفسيفساء المذهبة النص التالي:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس ، عبدالله وليه يوسف بن ايوب ابو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في سنة ثلاث وثمانين وخمسائة وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة واجزال حظه من المغفرة والرحمة »[٣٦] .

ثم فكر صلاح الدين بعمل منبر يليق بالمسجد الاقصى ، ولكنه علم بأن السلطان محمود نورالدين عندما عزم على فتح القدس كان قد طلب من أرباب الصناعة في حلب ان يصنعوا له منبراً خليقاً بعظمة مسجدها الاقصى ولكن المنية عاجلته ، فلما حرر ، بيت المقدس على يدي صلاح الدين أمر باحضار المنبر من حلب ووضعه في مكانه بجوار المحراب . وهو المنبر الذي أحرقه الصهاينة الاسرائيليون في سنة ١٩٦٩ .

لقد أزال صلاح الدين الاثار التي وضعها الافرنج فوق قبة المسجد الاقصى وزين القبة من الداخل بالنقوش الجميلة .

أما بالنسبة الى قبة الصخرة فلقد أعاد صلاح الدين البناء الى حاله القديم فازال معالم الكنيسة ورفع المذبح ومحا كافة الصور وأخرج التماثيل وكافة الشارات من صلبان وايقونات وغير ذلك .

كما تسلق المسلمون القبة فنزعوا من فوقها الصليب الكبير المذهب الذي كان الصليبيون قد ثبّتوه هناك بدلا من الهلال ووضعوا بدلاً عنه هلالاً جميلاً وكبيراً . ورفع المسلمون ايضاً الواح الرخام التي كان الافرنج قد كسوا بها الصخرة المشرفة .

وزيّن صلاح الدين قبة الصخرة من الداخل بالنقوش الجميلة . وجدّد بعض كسوات الجدران الرخامية . وانك تقرأ اليوم على باطن القبة وفوق اقواس الدهليز التي ترفع رقبة القبة النص التالي بخط الثلث :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد وتذهيب القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل صلاح الدين يوسف بن ايوب تغمدّه الله برحمته وذلك في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » .

ورتب السلطان صلاح الدين الايوبي لقبة الصخرة اماماً واقام على خدمته سدنة واوقف عليها بعض الاملاك وحمل اليها والى المسجد الاقصى . عدداً من المصاحف الشريفة لتتلى فيها آيات الله .

ثم رحل صلاح الدين عن بيت المقدس تاركاً فيها القاضي ابن شداد ليعنى بها وبالمستشفى وبقية العمارات وبأهلها واتجه الى دمشق وعاجلته المنية فيها في صفر سنة ٥٨٩ هجرية (ايار سنة ١١٩٣ م) . وقال ابن شداد وهو ينعيه : « اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه . . » .

الهوامش

١. احمد سوسه ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص ٧١٦ .
٢. نسيم وهبة الخازن ، من الساميين الى العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص٩
٣. احمد سوسه ، المصدر السابق ، ص ٧١٧ .
٤. Gray, J., A History of Jerusalen, London, 1969, P. 191 .
٥. عبدالرحمن فهمي ، فجر السكة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٠٨ .
٦. سعيد البطريق ، كتاب التاريخ ، ١٨/٢ .
٧. Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus to the Holy Land, (Palestine Pilgrims Texts, 1889) P. 4
٨. غازي محمد رجب ، المسجد الاقصى بالحرم الشريف ببيت المقدس ، سومر ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٤ .
٩. احمد بن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٢٦٣/٦ .
١٠. احمد ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٨٥ ص ١٠٠ .
١١. عبدالحميد ، القدس الخالدة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .
١٢. عارف العارف ، تاريخ الحرم القدسي ، القدس ، ١٩٤٧ ، ص ٧٣ .
١٣. Hayter, T., The Holy PLaces of Jerusalem, P. 26 .
١٤. Fergusson, J., The Temples of the Jews and other Guildings in the Haram area Jerusalem, P. 12 .
١٥. Creswell, K.A.C., The Origin of the PLan of the Dome of the Rock, P. 27 .
١٦. مجيرالدين العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ز ١٩٦٨ ، ١ / ٢٧٢ .
١٧. غازي محمد رجب ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
١٨. محمد بن احمد المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ١٦٨ .
١٩. عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، القدس ، ١٩٥٥ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
٢٠. عبدالحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .
٢١. المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
٢٢. Hitti, P.K., History of the Arab, London, 1958, P.639 .
٢٣. عبدالحميد زايد ـ المصدر السابق ص .
٢٤. نفس المصدر والصفحة .
٢٥. الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار المعارف ، ٦٠٩/٣ واليك ايها القارىء الكريم العهدة العمرية كاملة كما جاءت عند الطبري .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم واموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتّها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضارُ أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) ؛ فمن خرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فأنهم آمنون على انفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ؛ ومن شاء رجع الى أهله فأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ، ومعاوية ابن ابي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشرة . »

٢٦. ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ٤٠٨/١ .
٢٧. بنيامين التطيلي الاندلسي ، رحلة بنيامين ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٠١ .
٢٨. عبدالحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
٢٩. العماد الكاتب الاصفهاني ، الفتح القسّي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح . ص ١٤١ .
٣٠. المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
٣١. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ، ١٩٦٧ ، ١٨٥/٩ .
٣٢. Le Strange, Palestine Under the Moslems, P. 113 .
٣٣. ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٨٦/٩ .
٣٤. عبدالحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
٣٥. المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
٣٦. عارف العارف ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

التراث المعماري العربي
وأثره في العمارة الأوربية من خلال الحروب الصليبية

د. صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

يمثل التراث العربي الاسلامي حصيلة حضارية ثرة ويسجل في أسفار الامم حضوراً متميزاً له دوره في التأثير وقدرته في الابداع وصورته في التواصل المباشر وغير المباشر .

واذا كانت الاثار الحضارية قد تركت بصماتها بوضوح في كثير من المعالم فأن سمات الفن كانت من ابرز هذه الملامح لما تتصف به من خصوصية وتتميز به من معالم بعد ان اتسعت دائرة الاهتمام به والتأثير بفنيته فأخذ موقعه بين الفنون العالمية وسجل دوره المتميز في التاريخ الواضح في المدارس الفنية والعمارة والصناعات .

وعلى الرغم من التأثير الواضح الذي حققته براعة الفنان العربي وسجلته قدراته الابداعية في الفنون الاوربية بفرعيها التشكيلي والمعماري فأن آراءً كثيرة حرص بعض المستشرقين على تأكيدها بدافع التعصب والحسد والجحود فحاولوا تبرير ذلك بحجج لا تسندها الوقائع العلمية ولا تؤيدها الادلة .[1]

والمعروف ان الاوربيين قد عرفوا الفن العربي في العصور الوسطى ممثلا في التحف الفنية التي نقلوها من الشرق او نقلت اليهم كما انهم شاهدوا الكثير من العمائر التي اقامها العرب المسلمون في بلدانهم فأعجبوا بها وبزخارفها وعناصرها فأقبلوا على تقليدها وكان التقليد في بعض الاحيان صادقاً .

وليس مثل هذا التبادل الفني غريبا ، فقد اتصل الشرق الاسلامي باوربا في العصور الوسطى بوساطة التجارة اولا والاندلس وجزيرة صقلية ثانيا وبفضل مشاهدات الحجاج المسيحيين ثالثاً واخيراً بواسطة الحروب الصليبية التي حدثت بين سنتي (١٠٩٦ ـ ١٢٧٣ م) .

والحروب الصليبية كما هو معروف آثارها تعصب الغرب لأخراج العرب المسلمين من الارض المقدسة (فلسطين) وقد اتخذها البابا وسيلة للسيطرة على الشرق .

وكانت فرنسا مبعث هذه الحركة اختارها البابا لأعلان الغزو . وقد سار الصليبيون برا وبحرا الى الشرق وحدثت حروبهم في فلسطين وسورية ومصر وتونس وكان عدد الحملات ثمانية وكانت الحملة الثالثة من اعظم الحملات التي نفذها الافرنج اشترك فيها ثلاثة ملوك فيليب اغسطس ملك فرنسا وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا وفردريك ملك المانيا ، وقد انتهت لحملات الصليبية بانتصار العرب وهزيمة الصليبيين .

وفي هذا البحث دراسة عن التراث المعماري العربي الاسلامي واثره في العمارة الاوربية من خلال الحروب الصليبية .

ومن المعروف ان الحروب الصليبية كان لها نتائج خطيرة وهامة غير النتائج العسكرية والسياسية وهي النتائج الحضارية

من فنية وثقافية وكانت بعيدة المدى عميقة الاثر في اوربا كلها ، وقد استوقفت مظاهر الحضارة العربية انظار الاوربيين خاصة فأخذوا عن العرب الكثير من الفنون الصناعية والمعارف المختلفة فأحبوها وفضلوها على غيرها حتى اصبحت جزءاً من فنونهم وعلومهم ومعارفهم .[٢]

وليس من شك ان الحروب الصليبية لعبت دوراً مهماً في نقل الكثير من سمات العمارة العربية الاسلامية الى اوربا بواسطة الجنود واصحاب الحرف والصناع والمهندسين والمعماريين الذين كانوا ضمن تلك الحملات الصليبية والتي كانت تأتي الواحدة منها تلو الأخرى ويعود منها من بقي على قيد الحياة الى موطنه ليزاول فيه مهنته وحرفته متأثراً بما رآه وانطبع في ذهنه من تقاليد فنية عربية واسلامية وظهر اثر ذلك واضحاً في فنون العصور الوسطى في اوربا .[٣]

فقد اقتبست اوربا كثيرا من عناصر العمارة العربية وبشكل خاص الفن القوطي الذي اشتمل على عناصر ترجع اصولها الى بلاد الشرق ويسمي المهندس المعماري الانكليزي « ورن » تلك العناصر باسم « العناصر الاسلامية »[٤] وقد تأثر هذا المهندس بالعمارة العربية الى درجة انه اخذ ينتفع من عناصرها عند تصميم الابنية . ومن العناصر المعمارية التي استغلها عند تشييد ابراج كنائسه ، المآذن الاسلامية كما يتضح ذلك في كنيسة سانت ماري لوباو بلندن[٥] .

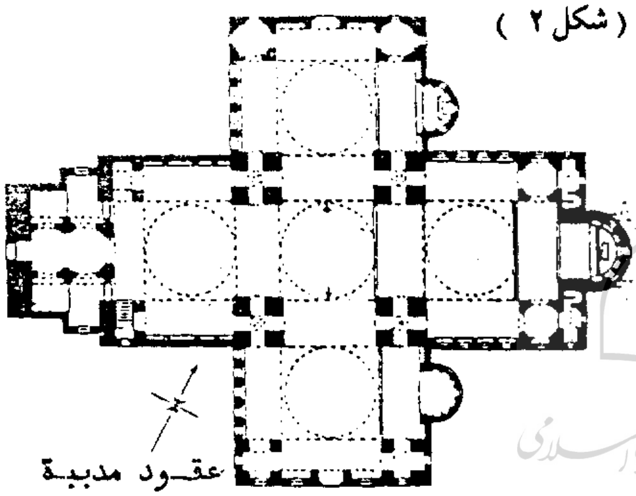
كما اثرت المآذن الاسلامية في تصميم ابراج النواقيس الايطالية في عصر النهضة فقد كان للمآذن الاندلسية وخاصة لمئذنة المسجد الجامع بقرطبة ومئذنة مسجد اشبيلية المشهورة اثر بليغ على ابراج الكنائس الاسبانية سواءا من حيث اشكالها المربعة القاعدة الشاهقة الارتفاع او من حيث امتداد الزخارف عليها من عقود مفصصة صماء متشابكة ونوافذ مزدوجة[٦] .

(شكل ١)

ومن الجدير بالذكر ان اسم المنارة ما زال مستخدما في الكثير من بلدان العالم الاسلامي وهو الاسم الذي عرفته اوربا الغربية Minaret[٧] .

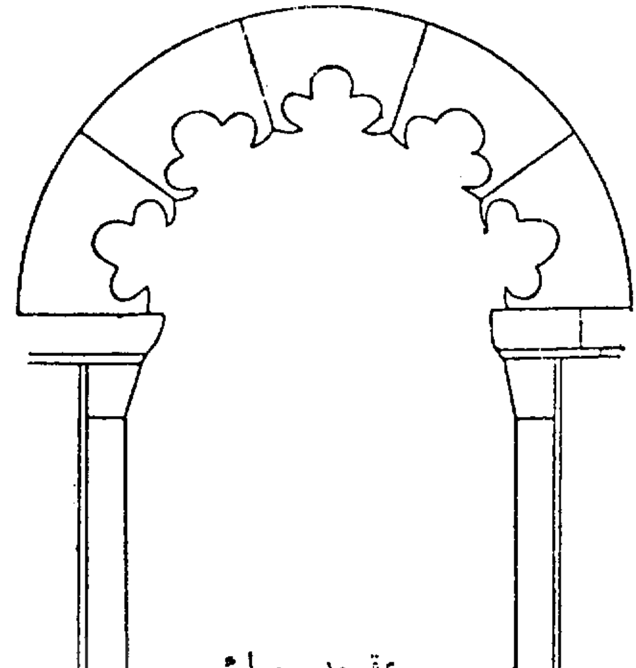
كما اخذت العمارة الاوربية بعض العناصر المعمارية العربية ومن هذه العناصر العقود ومنها العقود المدببة وهي من العناصر المعمارية الهامة التي اخذها الاوربيون عن العرب وكان لها أثرها البعيد في العمارة الاوربية ويعتبر العراق البلد الذي نشأ فيه هذا النوع من العقود وكان ذلك في حصن الاخيضر ثم ظهر بعد ذلك في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء وفي المسجد الجامع بالقيروان وفي مقياس النيل بالروضة في مصر ولم يكن هذا النوع من العقود معروفا عند الاوربيين فلما وقفوا على اهميته في البناء نقلوه عن العرب واستخدموه في كنائسهم نذكر منها على سبيل المثال كنيسة (سان فرون) في مدينة (بيريجيو) في فرنسا[٨] .

(شكل ٢)



ومما يستوقف نظرنا في هذه الكنيسة انتشار العقود من النوع المدبب بما يؤكد وصول التأثيرات العربية الاسلامية الى فرنسا من الشرق الاسلامي عن طريق الحروب الصليبية وليس من الاندلس التي يندر فيها وجود العقد المدبب اذ كان النوع السائد في عمارتها هو العقد نصف الدائري من نوع حدوة الفرس ، وفرنسا كما هو معروف كانت من البلاد التي خرجت منها الحملات الصليبية الاولى .[٩]

ومن انواع العقود الاخرى التي تميزت بها العمارة العربية الاسلامية النوع المعروف بالعقد المنفوخ وظهر هذا النوع لاول مرة في المسجد الاموي في دمشق ثم انتشر الى سائر انحاء العالم الاسلامي ، وقد اقتبس الاوربيون هذا النوع من العقود فظهرت آثار هذا الاقتباس في أديرة وكنائس المستعربين مثل كنائس (بوباسترو) (Bobstro) و (سان ميجل ده اسكالادا) وظهر العقد المنفوخ في كنائس فرنسا مثل (سانت اندريه ده



شكل رقم ٤

كوبزاك) . (Saint Andre de Cubzoc) وكنائس اخرى في جنوب ايطاليا مثل (سانتا مريا ان تلس) (Santa Maria in Collis) [١٠] .

كما اخذ الاوربيون عن العرب العقد المفصص وهي عقود قصت حوافرها الداخلية على هيئة سلسلة من انصاف دوائر او على هيئة عقد من انصاف فصوص . [١١]

وهذا العقد كان منتشرا في العمارة العربية الاسلامية فظهر اول ما ظهر في القصور الاموية في بادية الشام مثل قصر الحلابات وقصر الطوبة . ومن العصر العباسي وصلت امثلة منه في قصر العاشق في سامراء وفي الرقة كما شاع استخدامه في العمائر في الاندلس وخاصة في مسجد قرطبة الجامع ، وتقابلنا أمثلة منه في العمارة الاوربية في كنائس (شاسبوزاك) (Chaspuzoc) و (كراوس) (Cruass) ومواسلك (Maissac) وكاتدرائية (كليرمونت) ودير (كلوني) (Cluny)[١٢]

بقي ان نذكر ان للعرب الفضل الاكبر ايضا في ادخال العقود الصماء المنفرجة الى اوربا فكان لها اثرها البعيد في العمارة الاوربية كما يتجلى ذلك في كاتدرائية « درام » Durham التي شيدت في سنة ٤٨٦ هـ ـ ١٠٩٣ م وفي كاتدرائية نورويش Narwich التي شيدت عام ٥١٣ هـ ـ ١١١٩ م[١٣] (شكل ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) .

وعند تشييد الحصون والقلاع والمدن الغربية ادخلت فيها وسائل دفاعية كثيرة عاد بها الصليبيون الى بلادهم . ومثل هذه الوسائل الدفاعية العسكرية قد استخدمت في اسوار المدن الالمانية والقلاع الانكليزية والحصون الغربية ، ومن هذه الوسائل المداخل المنكسرة او ما يسميه المؤرخون العرب بالباشورة وبالانكليزية Machicoulis[١٤] (شكل ٨ ، ٩) والمداخل المنكسرة هي التي ينعطف فيها بالداخل يمينا ويسارا مرة او عدة مرات وذلك لعرقلة هجوم من يحاول اقتحام الحصن او القلعة وتجعل العدو هدفاً سهلاً للمدافعين واقدم امثلة لهذا العنصر المعماري ظهر في ابواب بغداد المدورة التي بناها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور . [١٥]

ونشاهد امثلة من هذه المداخل في فرنسا اكثر من غيرها من الاقطار الاوربية وذلك في (Carcassonne) . كما تظهر المداخل الملتوية في انكلترا ، وهناك مثال جيد لها في (Beaumaris)

كما اقتبس الاوربيون من العرب الجسور او القناطر المتحركة فوق الخنادق التي تصل بين الابواب وبين ضفاف الخنادق المحيطة بها بحيث يمكن رفعها بسهولة في حالة تعرض المدينة او الحصن لهجوم الاعداء . [١٦]

ولم يقتصر تأثر اوربا على ما تقدم بل تعداها الى اتخاذهم اساليب دفاعية كانت معروفة في العمارة العربية الاسلامية منها فكرة الابواب المصنوعة من القضبان الحديدية القوية المتشابكة . وتنتهي من اسفلها بسنان حادة كالحراب وتنزلق بثقلها الكبير رأسيا ولا يمكن رفعها الا بواسطة الحبال والبكرات من داخل الحجرات المعدة لذلك فوق الابواب . [١٧]

اما العنصر الدفاعي العربي الاخر الذي انتقل الى اوربا فهو ما يعرف بالسقاطة ، والسقاطة عبارة عن شرفة تبرز عن وجه جدران الاسوار تحاط بالبناء وتحملها كوابيل بارزة وبها مزاغل وهي على نوعين مزاغل عمودية واخرى افقية ، والعمودية تكون عادة في ابراج وحنايا جدار الحصن

وهي تستعمل لرمي السهام ، واما النوع الثاني من المزاغل وهي الافقية فتكون في ارضية سقف مدخل الحصن وهذه المزاغل تستعمل لسكب سوائل محرقة او ملتهبة كالماء والزيت الحار او القار او النار او اي شيء آخر يمنع جماعة الاقتحام من الوصول الى داخل الحصن ، كما توجد مثل هذه المزاغل في ارضية ابراج الحصن نفسه ، وهي تؤدي نفس المهمة التي تؤديها المزاغل السابقة اذ تمنع عملية تسلق الاعداء الى اعلى الحصن او حفر الجدار بغرض الوصول الى داخل الحصن ،[١٨] (شكل ١٠)

وهذه الظاهرة العسكرية الدفاعية اي السقاطة كما يقول « كريزول » لم تعرف في اوربا قبل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وانها انتقلت الى اوربا بتأثير العمارة العربية الاسلامية عن طريق الصليبيين ، وقد قلدها الانكليز في القضبان والسياجات المعدنية[١٩] .

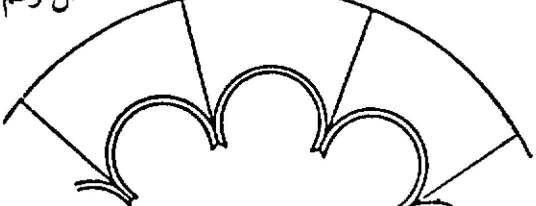
كما ان الصليبيين الذين شيدوا في الارض المقدسة الكنائس والقلاع الجميلة قد تعلموا من العرب شيئا من التحصين وعمل الاستحكامات .[٢٠]

كما عرفت العمارة الاوربية طريقة ملء الشبابيك والفتحات بألواح زخرفية من الزجاج الملون المجمع على بعضه بضلوع من الرصاص وهي فكرة مقتبسة من الشمسيات العربية وهي الواح من الحجر او الرخام او الجص وضعت في الشبابيك وزخرفت بتفريغ الزخارف فيها وكانت من فئة الزخارف الهندسية في اول الامر ثم دخلتها الانواع الاخرى من الزخارف مثل النباتية والكتابية وبعد ان كانت تلك الالواح مفرغة تماما زاد عليها مع التطور صنع قطع من الزجاج الملون سدت بها الاجزاء المفرغة . فابرزت زخارفها وجمال تكويناتها . الا ان الصليبيين اضافوا رسوما والوانا الى قطع الزجاج ليخرجوا منها لوحات تصور القصص المسيحية والمناظر المختلفة[٢١] .

كما اخذت اوربا عنصراً معمارياً آخر هو المحاريب وبخاصة المحاريب التي تشبه الاصداف والتي ظهرت في عصر النهضة تقليداً لما هو موجود في المساجد الاسلامية .[٢٢]

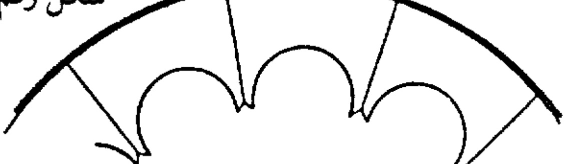
وقبل ان نغادر هذا النوع من العناصر المعمارية احب

شكل رقم ٥



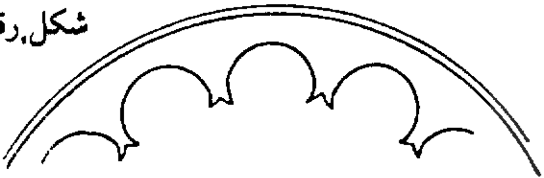
بوابة كنيسة بلاساك في لواء الشارانت السفلى ـ فرنسا

شكل رقم ٦



بوابة كنيسة لابيل دنواز في لواء كروز ـ فرنسا

شكل رقم ٧

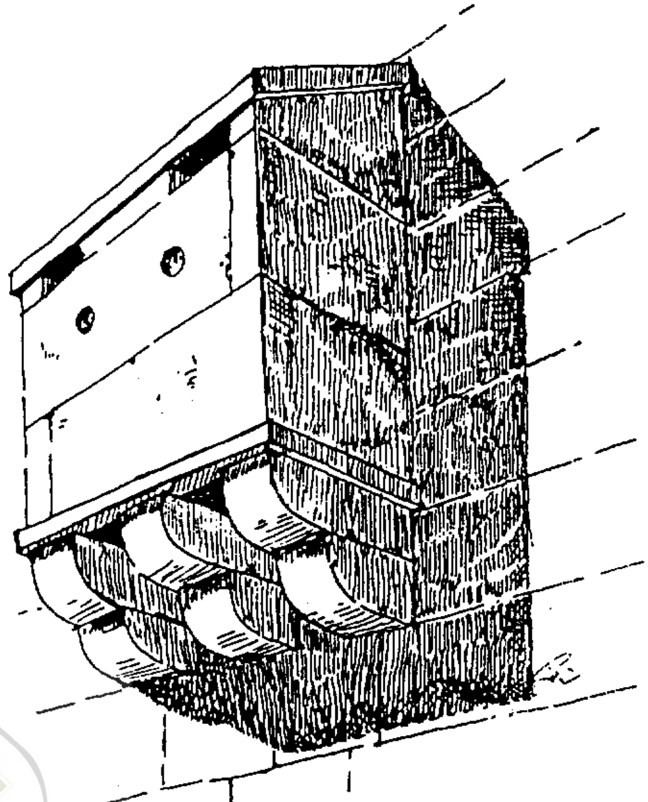


بوابة كنيسة شنبيه في لواء الشارانت ـ فرنسا

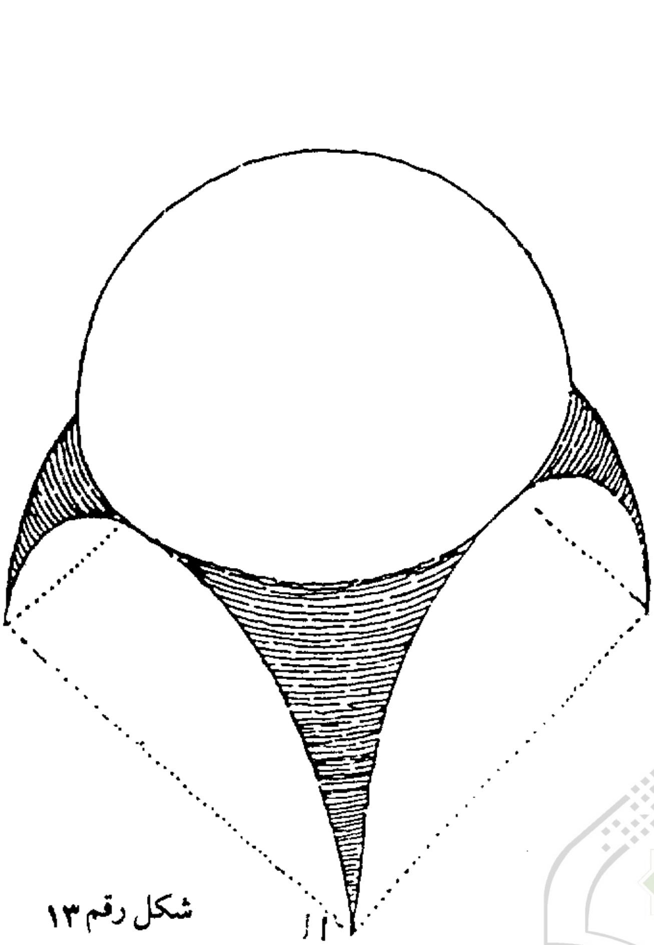
عقود مفصصة مقتبسة من الفن الاسلامي

ان اشير الى رأى طالما حرص المستشرقون على تأكيده وهو ان محراب المسجد منقول من حنية الهيكل او الكورس في الكنيسة وهو قول بينه وبين الواقع بون شاسع .

والحقيقة ان الاختلاف كبير بين محراب المسجد وحنية الكنيسة واذا كان هناك وجه شبه بينهما من حيث ان كلا منهما اشبه بنصف دائرة فان المهم في امور العمارة ليس مجرد الشكل بل الاهم من ذلك هو الوظيفة . فحنية المسجد كان صغيرا لا يسمح بوقوف اكثر من شخص واحد وهو الامام الذي يتولى امامة المسلمين في الصلاة ولم يكن من الضروري ان يقف داخل تجويف المحراب في حين ان حنية الهيكل في الكنيسة تشغل مساحة كبيرة قد تصل الى ٣/١ حجم الكنيسة وهي دائما على هيئة حنيات كثيرة يوجد بها المذبح وتجرى فيها الطقوس التي يقوم بها رجال الدين ومساعدوهم الذين يقومون بأداء مراسيم الصلاة حول المذبح . فليس الغرض اذن من المحراب ان يؤدي في



شكل رقم ١٠



شكل رقم ١٣

المسجد وظيفة كالتي يؤديها الهيكل في الكنيسة كل ذلك يعزز استبعاد ان يكون مصدر المحراب المجوف المنحني هو هياكل الكنائس .[٢٣]

واما الشرفات الزخرفية والمخرمة وهي شرفات بارزة لها جدران من البناء توضع في الاسوار وخاصة فوق الابواب فأتت الى القاهرة من العراق[٢٤] وانتقلت منها الى اوربا ، ومن المحتمل ان يكون مهندسو قصر الدوق وغيره من القصور الاخرى في البندقية قد تأثروا بها[٢٥] .

وكما تدين العمارة البيزنطية بالفضل للعرب الشاميين في ابتكار المثلثات الكروية في مناطق الانتقال وهي المثلثات التي انتشرت في الطراز البيزنطي (شكل ١١ ، ١٢ ، ١٣) فانها تدين ايضا بالفضل من ناحية اخرى للعرب العراقيين في تزويدها بالأبتكار الثاني لمنطقة الانتقال وهو حنية الاركان وهو على هيئة نصف قمع او مخروط تبلغ زاوية رأسه (٩٠°) ووضع على جنبه بحيث ينطبق كل من جانبيه المستقيمين على ضلعي زاوية مربعة للمنطقة التي ستغطى[٢٦] .

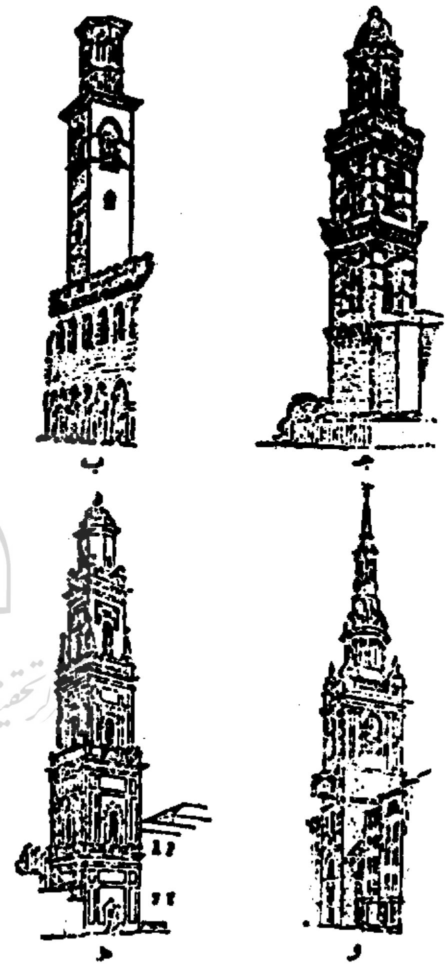
ونلمس في العمارة البيزنطية شكلاً لحنية عربية اسلامية ركنية تعرف بالمقرنصة وهي على هيئة حنية مجوفة ذات رأس من قبة نصف دائرية ويحملها احيانا عمودان[٢٧] (شكل ١٤)

والمقرنصات في نظر معظم الباحثين ظاهرة عراقية ظهر اول مثل لها في العصر العباسي وكان ذلك في مدينة سامراء وفي القصر المعروف بالجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة المعتصم عام (٢٢١ هـ ـ ٩٣٦ م) .[٢٨]

ويبدو ان سبب ابتكار هذه المقرنصة عند العرب هو الاقلال من استعمال المثلثات الكروية .

وانتقلت الى العمارة الاوربية من العمارة العربية النوافذ الصغيرة رؤوسها ذات الفصوص . واقدم مثل لهذا العنصر ظهر في الجدار الجنوبي في الجامع الكبير في سامراء .

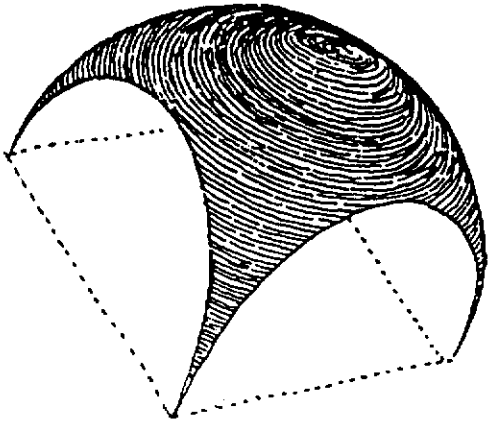
وهكذا لم ينتصر العرب في هذه الحروب في ميداني الحرب والسياسة حيث انتهت بهزيمة الفرنج وحسب ، بل وانتصروا في ميدان الحضارة وقد تمثل في سيادة الفن المعماري العربي في المنشآت الاوربية في عصر النهضة .



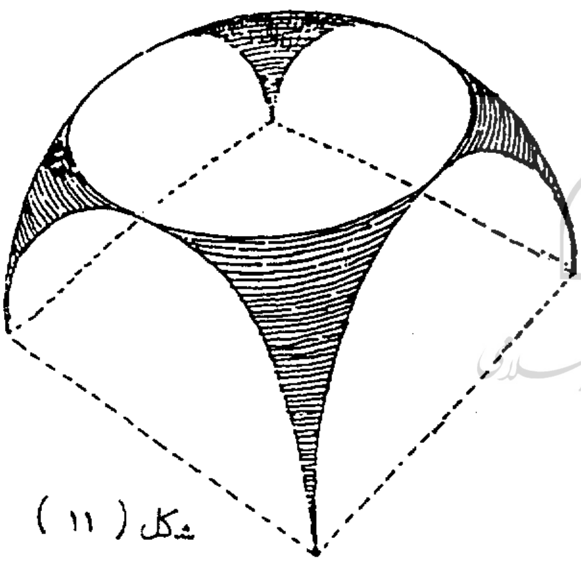
شكل رقم ١

(ب) برج في مدينة فيرونا من القرن الثالث عشر الميلادي .
(ج) برج في مدينة سيوليتو من القرن الرابع عشر الميلادي .
(هـ) برج في مدينة لسكة Lecce بايطاليا من القرن السابع عشر الهجري .
(و) برج كنيسة St Mary le Bow بلندن من القرن السابع عشر الميلادي .

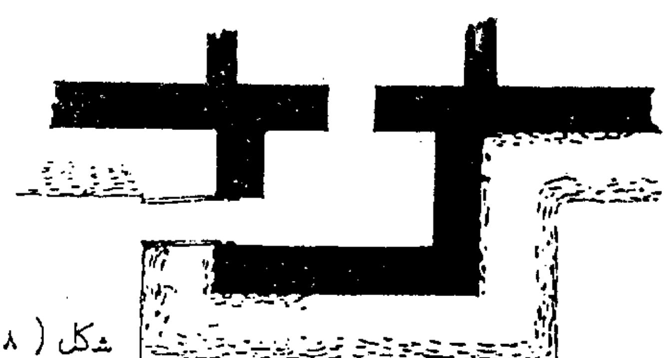
عن كتاب فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن



شكل (١٢)



شكل (١١)



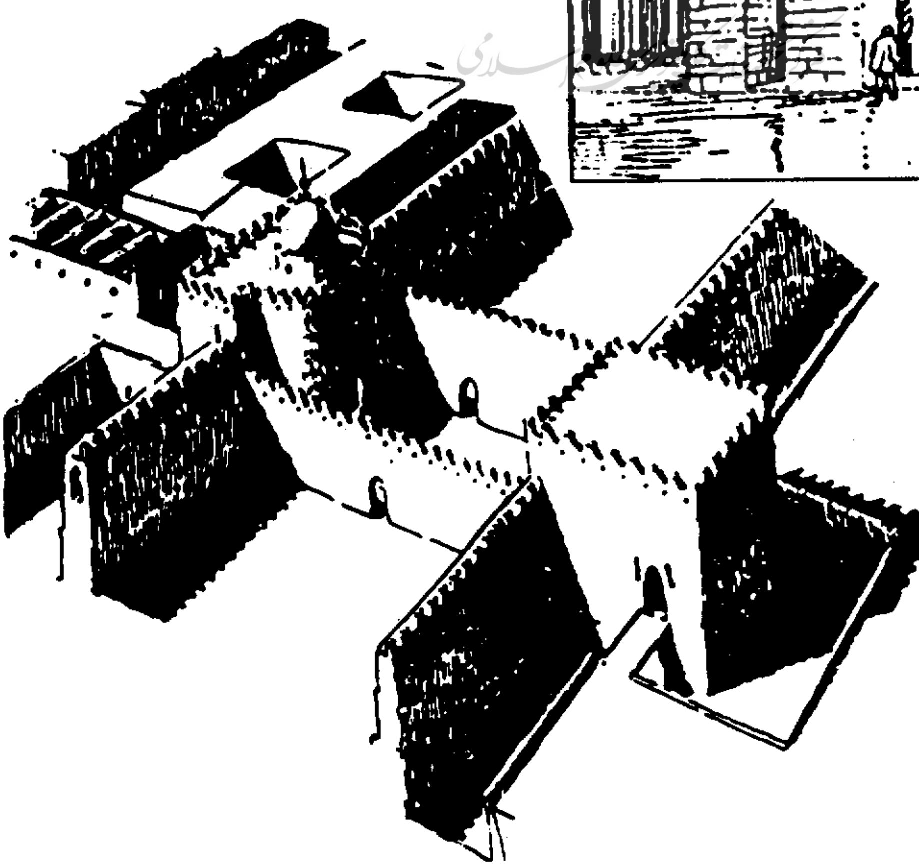
شكل (٨)

الباشورة (مسقط)

عن كتاب العمارة العربية في مصر للدكتور فريد شافعي .

شكل رقم (٣)
عقود مدببة
عن كتاب العمارة العربية الاسلامية في مصر للدكتور فريد شافعي

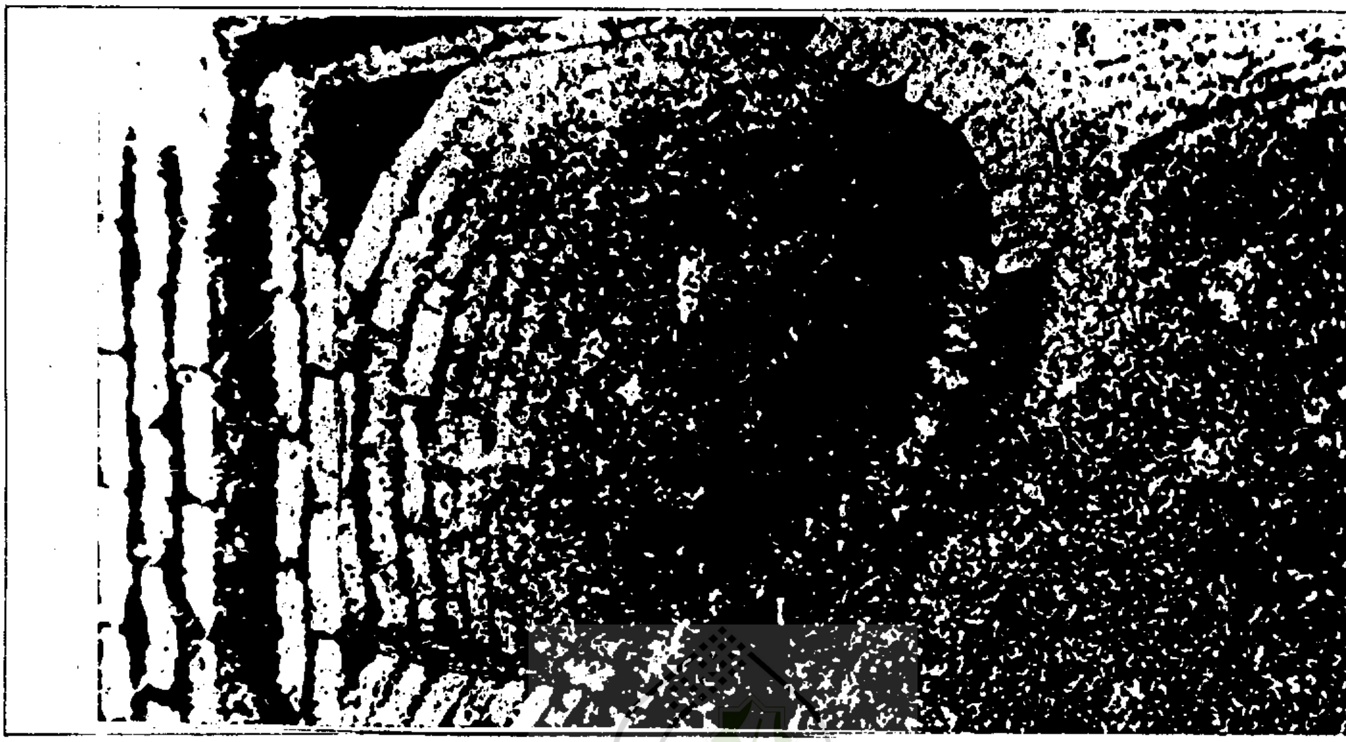




شكل رقم (٩)

بغداد اسوار مدينة المنصور المدورة والمدخل المنكسر (الباشورة) عن كتاب العمارة الاسلامية في مصر للدكتور فريد شافعي

شكل (١٤)



الحنية الركنثية في باب العامة في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء
عن كتاب العمارة العربية في مصر للدكتور فريد شافعي .

الهوامش

١ . العبيدي ، صلاح . الاثار العربية الاسلامية واثرها في الفنون الاوربية في عصر النهضة . مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد . العدد الثالث والعشرون . أب ١٩٧٨ ص ٤٧٣ .
٢ . العبيدي ، صلاح ، الفنون الزخرفية العربية الاسلامية منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٦) ص ١٧٤ .
٣ . شافعي ، فريد ، العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧٠) المجلد الاول ص ٢٧٠ .
٤ . كرمب وجاكوب ، تراث العصور الوسطى ، الناشر مؤسسة سجل العرب ص ٨٩ .
٥ . العبيدي ، صلاح ، الاثار العربية ص ٥٠٧ .
٦ . فكري ، احمد ، التأثيرات الفنية الاسلامية على الفنون الاوربية . سومر . الجزء الاول والثاني . المجلد الثالث والعشرون ١٩٦٧ ص ٧٩ .
٧ . عبدالحميد ، سعد زغلول ، العمارة والفنون في دولة الاسلام . الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٣٩٦ .
٨ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٢ .
٩ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٣٧ .
١٠ . فكري ، المصدر السابق ص ٧١ ـ ٧٢ .
١١ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٣ .
١٢ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٤ .
١٣ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٥ .
١٤ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٩١ .
١٥ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٩١ .
١٦ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ .
١٧ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ .
١٨ ـ العبيدي ، صلاح الاثار العربية الاسلامية ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ .
١٩ ـ شافعي ، المصدر السابق ص ١٩٥ .
٢٠ . العبيدي ، صلاح ، الاثار العربية الاسلامية ص ٥١٠ .
٢١ . شافعي ، فريد ، المصدر السابق ص ٢٧٢ .
٢٢ . العبيدي ، صلاح ، الاثار العربية الاسلامية ص ٥٠٩ .
٢٣ . شافعي ، فريد ، المصدر السابق ص ٥٨٤ ـ ٦٢٤ وانظر عبدالحميد ، سعد زغلول ، المصدر السابق ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
٢٤ . العبيدي ، صلاح ، الاثار العربية الاسلامية ص ٥١٠ .
٢٥ . كرستي ، الفنون الاسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الاوربية . تراث الاسلام ج ٢ ص ١٤٦ .
٢٦ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٣ .
٢٧ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٤ .
٢٨ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٤ .

أضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي

د. سوادي عبد محمد
استاذ مساعد / جامعة البصرة

في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وفي أوج الحماس المنبعث من اروقة «كليرمونت[١]» ، أنطلقت صيحات الاوربيين الذين استبد بهم الفقر والبؤس ، للانخراط في حملة صليبية الى «الارض التي تفيض باللبن والعسل[٢]» الى بلاد المشرق العربي والارض المقدسة في فلسطين . لقد اختلطت النداءات للحملة فيما بعد ، باصوات الجموع الضخمة من اخلاط المتحمسين الاوربيين «الافرنج[٣]» و«النورمان[٤]» من مختلف الفئات والطبقات امراء ونبلاء وعامة ومنهم من كانوا ، قطاع طرق ومجرمين وصفوا هدفهم دائماً بانه «بيت المقدس» لكنهم عند الوصول سوف ينعمون في مواطىء اقدامهم ، هناك بالسعادة والرخاء . . !! وفي هذا الجو المشبع بحشرجات رواد الحملة الصليبية الاولى ورؤاهم ونبؤاتهم[٥] تنادى الصليبيون بالاعتماد المطلق على قواهم الذاتية ، اذ ليست هناك ، حسب رأيهم ، أية مبررات للتفتيش عن حلفاء او ركائز للاستمكان من الاهداف المرسومة في الغزو والتوسع . وعلى الرغم من ان هؤلاء الرواد ، كانوا يضيقون ذرعاً بالحماس الذي تجاوز الحد في فترة الاعداد لغزواتهم ، فانهم اعدوا الترتيبات اللازمة للتدفق نحو الاراضي المقدسة ، بكل ما عرفوه من قوة وشدة ؛ ولم يمض اقل من نصف قرن ، حتى تركزوا في بعض بلاد الشام وفلسطين وبلاد الجزيرة الفراتية ، وظهروا وكأنهم لا يعوزهم سوى المزيد من المتطوعين الذين يحملون الرايات التي نقشت عليها صورة « الصليب »[٦].

لتعزيز وجودهم هناك وتدعيم مواقعهم ومعاقلهم وقواعدهم ، والاندفاع نحو اسيا وتوسيع دائرة الحروب فيها واخضاع زعمائها ، ووضع خطة شاملة لتغيير العالم آنذاك وكان جيمس فيتري James of Virty الذي جرى تعيينه اسقفاً سنة ٦١٣ هـ /١٢١٦م وتلقى من البابا «هونو ريوس الثالث» التعليمات والصلاحيات ، يأمل في ان قوة من الصليبيين ، مؤلفة من اربعة الاف فارس ، تستطيع ان «تسترد» بيت المقدس[٧] .

ان الانهيار السياسي والعسكري والتداعي الذي وصل اليه العالم الاسلامي ومنه المشرق العربي أبان الحرب الصليبية الاولى ، وتردي المعنويات حيث غلبت على اكثر حكامه روحية الاستسلام لهؤلاء الغزاة ، وشعورهم بالانهزامية والعجز ، كرس اجراءات الصليبيين في الاراضي المقدسة وتثبيت اقدامهم في المواقع التي احتلوها ؛ بيد ان ذلك التراجع لم يتجاوز سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م حيث بدأنا نسمع عن سريان روح جديدة لدى اهل المشرق العربي ، تمثلت بالافاقة والنهوض العربي الاسلامي بوجه الغزو الصليبي[٨] ؛ وقد توجت هذه الافاقة في مرحلتها الاولى ، بسقوط مملكة الرها الصليبية بيد جيوش عمادالدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م ، ولكنها بلغت

ذروتها بظهور صلاح الدين الايوبي ، حيث اصبح دون منازع قائداً للمشرق العربي بأفكاره وتصميمه على استعادة الارض المقدسة ، ففي معركة قرون حطين ، جرت ابادة اضخم جيش حشده الصليبيون ، حيث انتقم هذا القائد لما حدث في الحرب الصليبية الاولى من المهانة والاذلال ، وتم تحرير بيت المقدس من الاحتلال سنة ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م

ومن المؤكد انه بعد سقوط الرها وبيت المقدس ، انحطت هيبة الصليبيين ومكانتهم وكسرت شوكتهم وتبددت اسطورة فرسان الغرب الذين لايقهرون التي نمت وترعرعت اثناء مغامرة الحرب الصليبية الاولى[٩] وازدادت متاعبهم وبدأوا ينظرون من حولهم وينادون بتجميع قواهم او بالاتحاد مع البيزنطيين ؛ ولكن حتى هذه الصيحات لم تنقذهم من المأزق الذي وصلوا اليه ، فقد زرعت انتصارات صلاح الدين الايوبي ، الشكوك بين صفوفهم من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة اخرى[١٠] . لقد كان محتما عليهم ، الاتجاه نحو حلفاء أقوياء ، ولم يكن سوى المغول ، الذين ظهروا بقوتهم في المشرق الاسلامي ، يمكن كسبهم والانتفاع من مخالفتهم في «استعادة» مواقعهم التي فقدوها ، وفي مقدمتها بيت المقدس واسقاط النظم السياسية في المنطقة واولها الخلافة العباسية في بغداد منبع الالهام الروحي والمبدئي لصلاح الدين الايوبي في تحطيمه للوجود الصليبي في بلاد الشام والارض المقدسة .

ولعل من المفيد ان نستعرض الاتصالات والمراسلات او ما تطلق عليه المصادر اسم السفارات بين الصليبيين والمغول منذ بداية النصف الاول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حتى نهاية النصف الثاني من هذا القرن ، لكي ندرك طبيعة التحالفات التي اريد عقدها او التي عقدت بين هاتين القوتين اللتين ظهرتا في المشرقين العربي والاسلامي والنتائج التي ترتبت عليها . ويمكن تبعاً الى ذلك تقسيمها الى مرحلتين تاريخيتين : الاولى ، بدأت سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م او قبلها بقليل ، اي قبل استباحة المغول لحاضرة الخلافة العباسية ، بغداد . والثانية بعد سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م حتى تاريخ طرد الصليبيين من آخر معقل لهم في المشرق العربي سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م .

والواقع اننا اذا اردنا ان ندرس المرحلة الاولى ، علينا ان نشير الى الطبيعة التوسعية لحكم ايلخانات المغول ، وخاصة مغول فارس ، ليس في منغوليا والصين وتركستان والهند عبر هضبة اليامير فحسب ، بل في جميع المناطق العربية بما فيها ايران والعراق وبلاد الشام ؛ ففي ٦٥٠ هـ ولي منكو ، عرش الامبراطورية المغولية نتيجة المحاولات التي بذلتها أمة «سورخقتاني[١١]» حيث استقر إلخاناً في «قراقورم[١٢]» وقد اودع حكومة فارس الى يد اخيه «هولاكو» .

ان خطة المغول في التوسع ، هي سياسة رسمية اتخذها الايلخانات وقد اشار اليها اغلب المؤرخين المعاصرين ؛ غير ان الصليبيين لم يكونوا على علم تام بها ، الا البعض منهم عندما تلمس عن قرب اهداف المغول الحقيقية في الغزو والفتح[١٣] ؛ كما ان عقلية المغول في هذه الفترة لا تقبل من الاخرين سوى الطاعة والتبعية[١٤] .

وفي ظل سياسة المغول هذه ، عوّل الصليبيون على الاستعانة بهم لتهديد القوى السياسة في المشرق العربي ففي ٦٤٤هـ / ١٢٤٦ م انتبه البابا «أنوسنت الرابع» الى اصوات المغول التي كانت تصك السمع وتعكره في اواسط اسيا والقوقاز وايران ، في محاولة توجيهها صوب الاراضي المقدسة ، بعد ان يتم التحالف معها لانقاذ الفرنج[١٥] هناك ؛ وقد تميز هذا البابا عمن سبقه من البابوات ، باتباعه دبلوماسية جديدة في معالجة مشكلة الدولة الصليبية ، فسعى الى فتح باب المفاوضات مع المغول ، لتكوين حلف عسكري ، بغية تطويق الدول والامارات العربية الاسلامية من جهتي الشرق والغرب ، وذلك اثناء افتتاح جلسة المؤتمر العام الاولى (اينوسانيسون) الذي عقد في فرنسا في مدينة ليون (السينودس) وحضره الاساقفة و«بودوين» ملك القسطنطينية ونواب الملك «فريدريكوس ملك النمسا ، حيث كانت القضية الاولى

مسألة المغول بعد تقدمهم في اوربا الشرقية[١٦] وقد استقر رأي البابا نتيجة المناقشات، على انفاذ سفارتين الى منغوليا، الاولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني «يوحنا بيان دل كاربيني John Gran de Carpini» الذي غادر مدينة ليون متوجهاً الى البلاط المغولي عن طريق روسيا، فوصل المعسكر المغولي في (سيرا أوردو) الواقع قرب قراقورم العاصمة المغولية سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م وقد صادف وصول السفارة اعتلاء «كيوك Guyuk» عرش المغول حيث شهد انعقاد مجلس «القوريلتاي» وهو مجمع رؤساء وممثلي القبائل المغولية، لانتخابه ايلخانا للمغول. وعلى الرغم من حسن استقبال السفارة فان كيوك طلب من الوفد ان يبلغ البابا وسائر امراء الغرب، ان يحلفوا يمين التبعية له كشرط اساسي للتحالف. لكن دعاة الصليبيين وخصوصاً البابا انو سنت الرابع، لم يرض لاوهامه ان تتبدد ولم يعدم استمالة المغول للتحالف بدون التقيد بشروط كيوك، فأجروا الاتصالات بواسطة سفارة ثانية، تألفت برئاسة الراهب الدومينكاني «اسكلين اللومباردي» حيث ارتحلت سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م وذلك بعد فترة قصيرة مضت على السفارة الاولى، فاجتازت بلاد الشام والعراق ثم ايران والتقت في مدينة تبريز بالقائد المغولي الشرس «بيجو» زعيم مغول القوقاز[١٧]؛ وعلى الرغم من ان الوفد صادف في بيجو رجلاً يميل الى الاعتداء والهجوم، فضلاً عن انه ليس مقبولا، فان بيجو، أعرب عن استعداده لمناقشته احتمال قيام تحالف لمناهضة دول المشرق العربي؛ وقد توضحت خطته التي طرحها على المفاوضين، وهي تستند في اساسها على مهاجمة بغداد واسقاط الخلافة العباسية من قبل الجيوش المغولية وهو البند الاول، اما الثاني فيقوم على انصراف الصليبيين لتأليف حملة صليبية جديدة على بلاد الشام لتخفيف الضغط عن المغول هناك واستخلاص بعض المراكز والمدن من ايدي القوى الاسلامية، للاجهاز على المواقع الاستراتيجية المهمة الاخرى.

ويبدو ان المفاوضين الصليبيين في السفارة لم يستطيعوا ان يبدوا وجهة نظرهم امام بيجو، مما دعا هذا الاخير، ان ينفذ رسولين منه الى اوروبا هما «ايبك» الوثني و«سركيس» من النساطرة ليصحبا الوفد الصليبي في عودته الى روما ويعرضا على قادة الصليبيين اقتراحات بيجو في التحالف، ومع انه لم يكن لهذين الرسولين، سلطات السفراء المفوضين فان الآمال، انتعشت من جديد في الغرب حيث مكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا، وفي ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م أُخطرا بان يعودا الى بيجو بعد ان جرى الاعراب لهما عن الاسف بعدم حصول، اتفاق حول المقترحات والشروط التي اوصى بها بيجو فيما يتعلق بالحملة الصليبية[١٨] التي لم يكن على ما يبدو بمقدور القوى الاوربية الصليبية ان تعبئها في هذه الفترة العصيبة من تاريخ اوربا.

ومن المفيد ان نذكر ان البابا انوسنت الرابع، كان يسعى في ان تتصدر ديباجة التحالف الصليبي المغولي، اعتناق ايلخانات المغول للمسيحية، لكي تكتسب مهمتهم في الحرب صفة «القداسة» وتصبح جزء من واجبهم «المقدس» وذلك بعد ان تقع الاراضي المقدسة بين امبراطورية المغول «المسيحية»، واوربا المسيحية، فلا يكون هنا مفرّ من بقائها في قبضة الصليبيين بقاء دائماً وعلى هذا الاساس، يمكن صياغة تاريخ جديد للصليبيين ليس في الاراضي المقدسة وفلسطين وبلاد الشام فحسب، بل في العراق وفي جميع المشرق العربي والاسلامي[١٩]. وربما يكون من غير المؤكد اشتراط الايلخان المغولي «كيوك» على دعوة البابا انوسنت الرابع لاعتناق المسيحية واتمام هذه الخطوة، دخول البابوية وجميع ملوك الغرب الاوربي وامرائه، تحت سيادة المغول وتبعيتهم حيث اتضح فيما بعد لرسل السفارتين الصليبيتين، ان المغول لم يخرجوا الا للغزو والفتح[٢٠].

واخذ القديس لويس (وهو لويس التاسع ملك فرنسا) على عاتقه، انقاذ الحركة الصليبية من نكستها، بعد

الاندحارات التي منيت بها في المشرق العربي في هذه الفترة ، فبينما كان في قبرص سنة ٦٤٦ - ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٨ - ١٢٤٩ م وهو يعدّ العدة لحملة جديدة على مصر ، ربما تعوض ما خسره الصليبيون ، تناهى اليه ، ان المغول يعدون هم ايضاً لاجتياح العراق ، وقد رأى في ذلك فرصة للانتقام و«استرداد» بيت المقدس . وعلى الرغم من انه لا توجد لدينا معلومات كثيرة ، بشأن مبادرة لويس التاسع للاتصال مع المغول بخصوص التفاوض حول نقاط يمكن الاتفاق حولها لصياغة حلف بين الطرفين ، ولكن من المرجح ، ان اتصالات هذا القائد الصليبي العنيد السرية التي اشار اليها الاستاذ رنسيمان، تضمنت معنى حث المغول على التعاضد ومحاولة جرهم الى حلف عسكري ؛ ويمكن ان نفهم ذلك بيسر ، عندما نقرأ عن وصول مبعوثين مغوليين من النساطرة اليه وهو في نيقوسيا سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م وهما «مارك» مرقص وداود ، حيث انهما بأنهما انفذهما «الجهيداي[٢١]» Al-Jighidai القائد المغولي الذي كان في جبهات الموصل ، وكان المبعوثان يحملان رسالة منه تحدثت في عبارات جافة غليظة في امور تتعلق بالمسيحية في اوربا والمشرق العربي وعطف المغول على افكارها ومؤسساتها . لعل هذه الرسالة هي الرد على تلك الاتصالات وربما اعتبر لويس التاسع ان ممثل الايلخان المغولي ، اعطاه الضوء الاخضر لمفاوضات قد تؤدي الى التحالف المنشود . وامتلأ الملك الفرنسي بالامال العريضة ، فاعرب عن اغتباطه وبادر بارسال بعثة مؤلفة من رهبان دومينكان برئاسة «اندرو لونججيمو[٢٢]» وأخيه اللذين يتحدثان العربية فضلا عن لغة المغول ، وحمل الاخوان معهما «كنيسة متنقلة على هيئة خيمة - اعتبرت هدية تليق بخان بدوي حديث العهد باعتناق المسيحية وما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية» فغادرا قبرص سنة ٦٤٧ هـ/ ٢٤٩ قاصدين معسكر الجهيداي الذي ارسلهما بدوره الى منغوليا ، حيث وصلا الى قراقورم فتبين لهما ان «كيوك» قد مات وان ارملته «أغول قايميش[٢٣] Qaimish» تولت الوصاية على العرش ؛ فاستقبلت البعثة في شيء من الظرف ، غير انها اعتبرت هدايا الملك لويس التاسع ، أتاوة من تابع الى سيد ، وعلى التابع ان يواصل ارسال الهدايا اليها كل سنة ، كما حملت الوفد رسالة تتضمن تبريرها بعدم ارسال حملة ضخمة لمساعدة الصليبيين بسبب نشوب المشكلات الاسرية والتناحر القبلي على العرش ، وقد اكدت تلك الرسالة سيادة وصية عرش المغول ، كما انطوت على الشكر لما يبديه تابعها من الاهتمام بها . وارتاع الملك الفرنسي لهذا الرد ، غير انه ظل يأمل في ان يتحقق مثل هذا التحالف العسكري مع المغول[٢٤] .

لم يعدم الملك لويس التاسع الامل في عقد حلف مع المغول وفي هذه المرة مع مغول وسط روسيا ، حتى بعد فشله في حملته الصليبية على مصر ووقوعه في الاسر في «معركة المنصورة» ثم افتدائه وتعهده بعدم دق طبول الحرب والعودة الى اوربا[٢٥] ، لكنه بدلاً من ذلك ، ارسل سفارته الثانية سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م الى «سرتاق بن باطو» لعله فيها اذا تكللت مساعيه بالنجاح يعوض ما فقده في عملية غزوة لمصر ، فعهد للراهب الفرنسيسكاني «وليم روبروك William of Rubrack» ، غير ان «سرتاق بن باطو» لم يستطع ان يقطع في الموضوع برأي حاسم دون اذن من ابيه «باطوخان» وهكذا يممت السفارة وجهها شطر الايلخان المغولي الذي حوّلها بدوره الى «منكوخان» . ويذكر كروسيه ، ان روبروك قضى خمسة ايام في بلاط الايلخان في قراقورم ، التقى خلالها ببعض رسل الملوك والحكام يتسكعون على عتبة البلاط المغولي مثل رسل الامبراطور البيزنطي ورسل البابوية وغيرهم ممن اراد ان يتودد الى المغول رهبة وخوفاً[٢٦] .

ويبدو ان روبروك كان يتسقط سماع اخبار حروب

المغول وتحركات جيوشهم واهم ما جاء في رسالته الى الملك لويس التاسع الذي كان قد غادر منذ اشهر عائدا الى فرنسا ، ان المغول وضعوا الترتيبات اللازمة لغزو العراق ومحاصرة بغداد وان هذا الامر اعلن رسميا في الحفل الذي اقيم لمبعوث الصليبيين او اثناء المحادثات التي اجريت معه ، حيث تم تكليف «منكو» لاخيه هولاكو مهاجمة جميع بلدان غربي آسيا واهمها الاستيلاء على العراق وانهاء الخلافة العباسية التي وصفت اثناء الاجتماع بانها «العدو اللدود» ؛ وكذلك تضمن الاعلان الرسمي ، «استعادة» بيت المقدس[٢٧] . وقد استخلص روبروك وعداً صادقاً بان يتلقى الصليبيون مساعدة كبيرة ، طالما يقدم امراؤهم للايلخان المغولي في قراقورم الولاء والطاعة[٢٨] .

واتسمت الفترة من ٦٥٦ - ٦٥٩ هـ/ ١٢٥٨ - ١٢٦٠ م بأحداث جسام تصدرتها عمليات الغزو المغولي للعراق ولبلاد الشام ، وهي نفسها مشاريع المغول التي كان روبروك قد سمعها اثناء وجوده في قراقورم . وقد اظهرت تلك الاحداث ، المغول في صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد «عدو» مشترك واحد[٢٩] ، ولهذا السبب فان الصليبيين كانوا يحرصون على ادامة اتصالهم بالمغول طالما كانت الكتائب المغولية تجوس تلك الديار . اما ما يقال عن «خشية» منكوخان ونائبه «الجهيداي» في بلاد فارس من تحمل المسؤولية السياسية الجديدة التي تنجم عن التحالف مع الصليبيين فلا صحة له البتة . وهؤلاء الغزاة يمتازون بالغطرسة وعدم قبولهم وضع انفسهم على قدم المساواة مع اية جهة في السيادة والسلطة مع الامبراطور المغولي ، ويمكن ادراك ذلك من المحاورات الطريفة التي دارت بين روبروك ومنكو ، تنبأ فيها الاول بان الامبراطور المغولي سوف يحكم العالم ويسبغ عليه «العدل والسلام»[٣٠] وقد اجابه منكو بغطرسة وتعال ، ان ذلك سيحدث فعلا .

ويعتقد ارنست باركر انه لم ينجم عن سفارة الملك لويس التاسع ، ما يزيد عن المعرفة الجغرافية ، لكنه يرجح ان اهم النتائج التي اتت بها هذه السفارة كان في سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م حيث كان لها تأثير في سير الحروب الصليبية ، وذلك عندما اغار هولاكو على بلاد الشام واستولى على دمشق[٣١] وعهد بادارتها الى حاكم مغولي يساعدة ثلاثة من الفرس هم علاء الدين الشاش وجمال الدين القزويني وشمس الدين القمي[٣٢] . وسار قائده ، « كتبغا »[٣٣] .

وتسمية المصادر ر العربية الاولية «أبغا» ، نحو الجنوب للاستيلاء على مصر غير انه حلّت به هزيمة ساحقة ، ثم استردت القوات الاسلامية دمشق ؛ وعلى الرغم من تدخل المغول وانتشار سراياهم وكتائبهم في منطقة المشرق العربي ، فقد اتحدت القاهرة ودمشق مرة اخرى مثلما اتحدتا في عهد صلاح الدين الايوبي ، وهنا يمكن القول ان اوربا انغمرت في احلامها بمساعدة المغول لها ، ولكن ما ترتب على اتساع الامبراطورية الايلخانية المغولية من نتائج لم يكن الا تحدياً للصليبيين في المشرق العربي بصورة خاصة[٣٤] .

ويبدوان اشتراك عساكر (الكرج) الذين اشتهروا بشدتهم وقسوتهم التلقي التدميروالجورجيين والارمن في الحملة ، يجعلنا نستنتج ان حلفاء الصليبيين وركائزهم في المنطقة من امثال هؤلاء مثلوا التواجد الصليبي في المعركة ، حيث كان لذيوع انباء تدمير بغداد اثر عميق في جميع انحاء آسيا ، فابتهج الصليبيون في كل مكان وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية وهللو لهولاكو ودقوز خاتون واعتبروهما «قسطنطين وهلينا» وانهما ليسا الا ادوات للانتقام من «اعداء» الصليبيين .

لا شك في ان تعقد الاحداث السياسية في المشرق العربي بعد القضاء على حضاره الخلافة العباسية ، قد فرضت على هولاكو الاكتفاء بتحالفه الفعلي والعملي مع مملكتي ارمينية وجورجيا والعمل على تقوية هذا التحالف فيما ترك الامارات الصليبية وشأنها ، ولكنه لم يشأ التحرش

حدودها اثناء غزوه لبلاد الشام وبذلك تلقى رسالة من البابا «اسكندر الرابع» يشكره فيها على حسن رعايته للصليبيين . ويبدو انه فعل ذلك لكي يقتنع الصليبيون بقوة المغول وضرورة التحالف الحقيقي معهم ، ولا يمكن التسليم بالقول ان بعض القوات التابعة للامارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية قد تجرأت على الاعتداء على بعض الكتائب المغولية وساعدت بشكل غير مباشر على هزيمة المغول في معركة «عين جالوت» وذلك عندما سمحت للجيوش الاسلامية بالمرور في اراضيها ؛ ان ذلك يكشف عن قصر نظر المغول والصليبيين معاً وجهلهم بحقيقة الاوضاع السياسية واختلال موازين القوى التي استجدت في هذه المنطقة ، كما كشفت عن سوء تقديرها لمستقبل وجودها فيها فالمشرق العربي اصبح قوياً وتخلص من التداعي واخذ يواجه اعداءه من الصليبيين والمغول مجتمعين فان الجيوش العربية الاسلامية تستطيع ان تخترق دفاعات الصليبيين لمواجهة الجنود المغولية .

اما سياسة هولاكو تجاه البيزنطيين ، فقد تطلع لكسب صداقتهم فخطب أبنة الامبراطور البيزنطي « سبيلا » وقد اصبحت القسطنطينية في تلك الفترة مركزاً سياسياً يوجه الصليبيين الجدد الذين يتوجهون من اوربا في الحملات الصليبية ، اضافة الى ان هولاكو قصد من هذه الخطوة ، اضعاف ابناء عمه وخصمه « بركه خان المغولي » حيث كانت القسطنطينية محطة انتقال لرسل الفريقين المتحالفين وحلقة الوصل ، بينهما .

ولعل من المفيد هنا ان نوضح ، الدور الذي كان ينوء به هيثوم ملك ارمينية الصغرى في قيليقية في مجال التحالفات مع المغول وتقريب مساعي الطرفين لعقد حلف عسكري مشترك يضم قوات من الارمن والبيزنطيين والمغول لمواجهة الاحداث في المشرق العربي وانقاذ الصليبيين وممالكهم من الضربات التي كانت تسدد اليهم والاندحارات المتتالية التي لازمت جيوشهم وكتائبهم ، وذلك بعد ان انجز هيثوم تحالفه الفعلي مع المغول ونشاطه في تحويل الحلف الطبيعي القائم بين المغول والصليبيين الى التحالف الواقعي العملي ، ويمكن بهذا الصدد ان نذكر ، ان هيثوم ارسل الى بيجو خان سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م كتاباً يفيض بالولاء والاحترام مقدراً اهمية الصليبيين ومتنبأً بان جيوشهم ستغطي المنطقة ، وبعد اربع سنوات من رسالته الى بيجو ، انفذ اخاه الكندسطبل سمباد[٣٥] Sempad الى بلاط «كيوك» في قراقورم[٣٦] حيث استقبل بمودة وحفاوة بالغتين ، وقد اطلع سمباد ، الايلخان المغولي ، ان هيثوم مستعد لان يعتبر نفسه من اتباعه فوعده الايلخان ، بان يبذل للارمن المساعدة اللازمة «لاسترداد» ما انتزع منهم في نواحي قيليقية في آسيا الصغرى ، ورجع سمباد ، يحمل تقليدا من الايلخان يكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها[٣٧] .

غير ان تطورات الاحداث في مملكة المغول والصراع حول العرش بين الايلخانات بعد وفاة «كيوك» التي اوقفت كل اجراء مباشر ، ووصول منكو خان الى السلطة ، جعل هيثوم ، يقرر المثول بنفسه امام الايلخان الجديد سنة ٦٤٥ ـ ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٧ ـ ١٢٤٨ م ، يذكر ذلك ابن العبري بشيء من التفصيل بقولة : «ان حاتم ملك الارمن توجه الى خدمة رمونككا قاآن فخرج متنكراً مع رسول بزي بعض الغلمان ، ويفيد هذا المؤرخ قائلا : «حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته من خدمة رمونككا قاآن» ويؤكد هارولد لامب ان هيثوم ملك ارمينية لم يستسلم لمنكو خان المغول فحسب ، بل تحالف مع الوثنيين وشارك بوهمند السادس امير انطاكية في هذا التحالف ، ودفع جزية صغيرة للمغول ، وقد استمع الايلخان الى توسلات هيثوم وكان مما قاله ، انه سيرسل اخاه

هولاكو للاطاحة بالخليفة العباسي و«استرداد» بيت المقدس[٣٨] ، بدا الايلخان المغولي امام هيثوم متساهلا مع جميع الاديان الا مع المسلمين الذين كان في حرب معهم ، وقد كتب الى البابا يطلب منه ارسال سفراء وعدد من الفلاسفة لزيارته وتعليمه ، وان اخاه هولاكو مكلف باكتساح قلب بلاد المسلمين ، بغداد ، وهو يسعى للاتصال بالصليبيين في الارض المقدسة ، ويزيدنا هارولد لامب بيانا بقوله : لقد تهلل الارمن للتحالف الذي ابرمه ملكهم هيثوم مع رئيس القطيع وتنوقلت الحكايات من قرية الى مدينة عن اكتشاف «مملكة برستو حنا» اخيرا في الشرق وظهور «شجرة الصين» وسط النار والدخان[٣٩] .

ونقرأ عن وصول هيثوم ملك ارمنية ، عقب رحيل وليم روبروك مبعوث لويس التاسع ملك فرنسا ، ففي حفل الاستقبال الذي اقامه له منكو منحه الايلخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة وعدم انتهاك حرمتها وجرت معاملته على انه كبير مستشاري الايلخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا . وصرح له بانه من غير الممكن الدخول الى بلاد الشام والارض المقدسة ما لم يتم غزو العراق وتدمير سلطان الخلافة العباسية وتعاهد انه اذا تعاونت معه كل القوى الصليبية فسوف يعيد اليهم «بيت المقدس ذاتها» ويفهم من اسلوب الايلخان ان «عودتها هذه المرة ستكون في نطاق الامبراطورية المغولية» .

ويكاد يتعذر الافتراض بان التحالف بين هيثوم ومنكوخان ، كان العامل الرئيس في اقناع المغول بارسال هولاكو لمحاصرة بغداد ، وذلك على الرغم من وجود بعض الكتائب الارمنية والجيورجية في الجيش المغولي الذي استباح حاضرة العالم الاسلامي ، كما جاء في النبذة التي كتبها المؤرخ الارمني من القرن السابع الهجري «الراهي متاكي» قوله : «بعد دعوة الجيوش للتأهب ، التي ساهمت فيها العساكر القديمة والجديدة التي عدادها الخيالة الارمن والجيورجية لان المغول بأعدادهم التي لا تحصى زحفوا نحو بغداد ، وبعد وقت قليل فتحوا هذه المدينة العظيمة المجيدة[٤٠]» ولكن بالتأكيد فان دور هيثوم لم يكن الا لتنفيذ السياسة التي خطط لها المغول في زمن سابق على ذلك[٤١] كما ان امارة انطاكية الصليبية ، دخلت في تحالف مع المغول بتأثيره ، فأسهمت كل من انطاكية وارمينية مع المغول اثناء الهجوم على حلب ودمشق سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م وتؤكد المعلومات المتوفرة ، ان إمارتي انطاكية وطرابلس التي كان صاحبها الملك بوهمند السادس تعاونتا مع هولاكو ، بحكم معاهدة بوهمند مع هيثوم ملك أرمينية ، فيشير محيي الدين ابن عبدالظاهر الى ان «بيموند بن بيموند» صاحب طرابلس قد كثر تعدّيه على بلاد الاسلام ، وبعد ان استولى المغول على بلاد الشام ، ذكر هذا المؤرخ ، يصف بوهمند السادس قائلا : «وكان من اكبر اعوان التتار»[٤٢] والجدير بالذكر ان بوهمند السادس قد نال نصيبه من غنائم هولاكو التي كان قد غنمها من العراق وبلاد الشام نتيجة تعاونه معه ، كما اقطعه بعض البلاد المجاورة لامارته ، مثل قلاع دير كوش وبلميس وشقيف وحارم[٤٣] .

ويبدو ، ان الحصول على المكاسب لجميع الفرقاء الذين انضموا فعلا الى المغول ، وهم بوهمند السادس امير انطاكية الصليبية وهيثوم ملك ارمينية قد أستمر ما دام الزحف والغزو المغولي على بلاد الشام مستمرا وما دام هؤلاء الحلفاء يقدمون الطاعة والخدمات لحلفائهم ، فبالاضافة الى ما حصل عليه من الغنائم التي نهبها المغول من حلب ، فقد استرد هيثوم ما انتزعته منه الجيوش الاسلامية من اراضي قيليقية ، كما «استعاد» بوهمند السادس ما سبق ان حرره صلاح الدين الايوبي من بلاد وحصون ، كان صليبيو انطاكية قد استحوذوا عليها واهمها اللاذقية[٤٤] .

على انه عندما بلغ هولاكو عتبة فلسطين سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م وافته الانباء ـ بوفاة «منكوخان» وكان لزاما عليه وفقاً لعادات القبيلة ـ ان يعود ادراجه فورا الى قراقورم ومعه جيشه ؛ لكن هيثوم ، اقنعه قبل مغادرته ، على ترك فرقة واحدة مؤلفة من ١٠،٠٠٠ فارس بأمرة «كتبغا» «للمحافظة» على بلاد الشام ، وقد زحفت هذه الفرقة جنوباً على فلسطين واحتلت الخليل وبيت جبرين ، وهكذا تقابل المغول في الطرف الجنوبي لفلسطين ، مع الممالك الصليبية في مواقعها ، وجها لوجه[٤٥] .

ومن الجدير بالذكر ، ان منح الجاثليق الارمني ، البركات لهولاكو في حملته وهو يستبيح مدن الجزيرة الفراتية ، يجعل من هذه الحملة وكأنها قد اتخذت صفة حملة «مغولية أرمنية صليبية» ، كما ان دخول «كتبغا» نائب هولاكو في بلاد الشام ، الى دمشق سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م وبصحبته هيثوم ملك ارمينية وبوهمند السادس امير انطاكية ، كان مشهدا مثيرا لسكان العاصمة السابقة للخلافة الاسلامية ، حيث شهدوا لأول مرة منذ ستة قرون ، ثلاثة من القواد الغزاة الأجانب يركبون معا وهم يشقون موكبهم في شوارع المدينة[٤٦] . وكذلك فقد سقطت حلب بايدي المغول وهي المدينة التي طالما قاومت البيزنطيين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، والصليبيين في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ودمرت قلعتها العتيدة التي ثبتت امام هجمات الصليبيين ، تنكرد وروجر الانطاكي وبلدوين الثاني وغيرهم[٤٧] والواقع ان سقوط المدن الثلاثة الكبرى بغداد ودمشق وحلب في فترة قصيرة ومتقاربة بأيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة في تاريخ العصور الوسطى[٤٨] .

ولابد من القول ، ان هيثوم ملك ارمينية وبوهمند السادس امير انطاكية بدأوا يقتنعون بان الوجود الصليبي في المنطقة هو وحده الذي يحميهم ويكرس وجودهم ، فيشير محيي الدين بن عبدالظاهر ، وهو معاصر،الى ان «هيثوم بن قسطنطين متملك الارمن قد وصل من جهة هولاكو وكان معه قاضي التتار وكان يقول له : «لا اقدر على الدخول الى بلاد الروم حتى يحضر جماعة من التتار تحفزني[٤٩]» كما اكد هذا المؤرخ ، ان هيثوم عول كثيرا على المغول فقال : «اهتم متملك الارمن هيثوم وجمع العساكر المخذولة من كل جهة وفصّل الف قباء تتري والف سراقوج ألبسها اصحابه ليوهم انهم نجدة من التتار[٥٠]» وقد فعل مثله غيره من الصليبيين الذين كانوا يرون في المغول حمى لهم فقال : «وكان الطاغية صاحب حموص الفرنجي وهو بارو بهرام قد كتب الى انطاكية يطلب نجدة فأنجد بمئة وخمسين فارسا ولبس الجميع السراقوجات تشبها بالتتار واجتمعوا كلهم قرب حارم[٥١]» .

اما التحالف الصليبي المغولي في الفترة اعتبارا من ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م ـ ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م تاريخ طرد اخر صليبي من المشرق العربي ، فلدينا معلومات مفيدة بهذا الصدد يمكن ان تقدم فهما لطبيعة هذا التحالف ، فالمتغيرات الجديدة لكل من النظامين اختلفت ، فبينما كان الصليبيون سابقا يطلبون التحالف مع المغول اصبح المغول الان يقدمون عروضهم للاتفاق على صيغة لحلف عسكري يستطيع مواجهة الاحداث في المشرق العربي . لقد رأى حلفاء هولاكو القدامى من الصليبيين في انطاكية والارمن والكرج ، انه لابد لاجتذاب عناصر جديدة من الصليبيين لحلفهم بغية تمتينه ؛ الاتجاه صوب البيزنطيين اولا،ثم اقناع صليبيين اوروبا ثانيا ، لذلك فقد سمح هولاكو سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م بان يحضر حلفاؤه[٥٢] انعقاد «القوريلتاي» في معسكره قرب تبريز ويشهدوا جلساته بشأن

وضع خطة للحلف الموسع غير ان موته طوى ملف القضية وطرحها جانبا .

وبدأ «ابقان هولاكو Abaga ٦٦٤ ـ ٦٨١ هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢ م» بتطبيق سياسة ابيه فيما يتعلق بالسعي لعقد تحالف مع الصليبيين عن طريق البيزنطيين لان هؤلاء كانوا فعلا يسيرون على سياسة مصادقة ايلخانات ايران . ولعل اشتراك ميخائيل باليولوغوس مع صهره اباقا في دعوة «جيمس ملك ارغونه ، للقيام بحرب صليبية واستجابة الاخير لتلك الدعوة واعداده العدة للحملة واستعداد ميخائيل باليولوغوس لتقديم سفن واغذية ، دليل على التقارب في الرأي حول مفهوم التحالف[٥٣] . ولكن لدينا كذلك ما يشير الى ان الامبراطور لم يكن جادا او انه كان يدفع غيره للحلف والانضمام الى جانب المغول في هذه التكتلات السياسية والعسكرية ، وذلك بسبب ادراكه لتطورات الوضع السياسي وخوفه من القوى المتنامية في المشرق العربي في عهد قوتها وكذلك من مغول «القبجان» وهم اصحاب «بركة خان» اولاد عم هولاكو ، وكانوا في صراع مستمر مع مغول فارس وكثيراً ما كانوا يهاجمونهم من جهة الدربند في الشمال[٥٤] . كما سار ايضا على السياسة السابقة تجاه هيثوم ملك ارمينية الصغرى ، بل انه سعى الى تمتين العلاقات حتى اصبحت بينهما عهود ومواثيق للتحالف السياسي والعسكري ، وظهرت اوجه التعاون بين الطرفين في ميادين كثيرة ، ويقرر المؤرخون ان افضل المساعدات التي قدمها الايلخان المغولي للصليبيين ، هي انه بذل الى هيثوم واحدا من اشهر الامراء المسلمين وهو «شمس الدين سنقر الاشقر[٥٥]» حيث استطاعت احدى الكتائب المغولية ان توقعه في كمينها عندما اغار بجيشه على مملكة ارمينية بسبب تحالفها مع المغول واسرته ثم سلمته الى هيثوم ، ولم يستطع هذا الاخير ان يبادله بأبنه الاسير لدى القوات الاسلامية الا بعد أن «سأل مهلة سنة الى ان توجه الى «الاردو» وحقق خبره وسير يعلم بانه قد اجيب الى اطلاقه[٥٦]» . وقد أقر ابقا ، ليو الثالث ابن الملك هيثوم على عرش ارمينية ، فتوجه اليه ليو وبذل له يمين الولاء[٥٧] ؛ وذكر ابن العبري ان ليون هيثوم التزم بسياسة ابيه تجاه التحالف والتعاضد مع المغول فكان يطلعهم على التحركات العسكرية للجيوش الاسلامية في المنطقة ومما قاله هذا المؤرخ يلقي الضوء على تلك السياسة «ان الملك لاون ابن ملك الارمن سير الى امراء المغول الذين في بلد الروم وعرفهم وحذرهم من عزم ـ البندقدار ـ على دخول بلده سنة ٦٧٥ هـ»[٥٨] .

ومهما يكن من امر ، فأن أبقا سعى لايجاد تضامن مغولي صليبي اوربي عسكري مستغلا بذلك سقوط مملكة انطاكية الصليبية وتداعي احوال الصليبيين في المشرق العربي عموماً ، حتى ان البابا «كليمنت الرابع» وجيمس الاول ملك الاراكون» انفذ له سفارة برئاسة « جيمس الاريك بريجنان James Alaric سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٧ ليسرّا له نبأ وصول حملة صليبية بقيادة «لويس التاسع» فوعده ابقا بالعمل العسكري المشترك حال قدومها الى فلسطين ، ولكن وفاة لويس التاسع حالت دون ذلك، بيد ان «ادوارد الاول ملك انكلترا» تلقى معونات عسكرية فعلية من المغول اثناء حملته سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م حيث ارسل حال نزوله في عكا ، وفداً ثلاثياً الى ابقا طالباً منه القيام بعمل موحد ضد القوى الاسلامية في المشرق العربي ومصر وقد تألف انوفد من كل من ريجنالد رسل Reginald Russel وكودفري ويلز Godfrey Welles ويوحنا باركر John Parker فارسل ابقا عشرة الاف فارس ، استولوا على حلب ومعرة النعمان وافاميا[٥٩] ، وقد اعتبر ادوارد الاول هذه المساعدة غير مجدية لتسوية الاوضاع فاجتمع بالملك هيو الثالث وتم الاتفاق بينهما على ان «استرداد» البلاد المقدسة لا يكون الا بالاستيلاء

على مصر وان تأميل الصليبيين بالشام يتطلب كذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، فاقترح اخضاع مصر وبلاد الشام ، ولاجل ان يستجيب أبقا للاقتراح اكتفى بارسال بعض الجموع المغولية سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م الى شمال بلاد الشام عن طريق عينتاب ، وقام هؤلاء بغارات لمجرد السلب والنهب في حوض نهر العاصي وحول حارم وافاميا ثم عادوا من حيث اتوا قبل ان تصل اليهم القوات الاسلامية المصرية[٦٠] .

ومن هنا يمكن ان يلقي المؤرخ مفضل بن ابي الفضائل بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين المغول والصليبيين ، ففي ٦٦٩ هـ/ ١٢٧١ م توجه امير طرابلس الصليبي الى ابقا يستصرخه على المسلمين ويذكر له ما انجزه الجيش المصري من استرداد بعض القلاع والحصون ، فصاح به أبقا قائلا : «انت ما جئت الا لتخوفني منه - اي من الظاهر بيبرس صاحب مصر - وتنفرني عنه وتملأ قلوب عسكري رعباً»[٦١] فكلا الطرفين لا تهمهما غير مصالحهما الخاصة ، وان المغول تبينوا نوايا حلفائهم الصليبيين .

الى جانب ذلك وعلى الرغم من هذا الواقع فقد كانت رسل أبقا تطوف ابواب اوروبا يدعونهم للتعاون ، وقد حفلت سياسته في هذا المجال بالعديد من الرسائل مع بابوات اوروبا وملوكها لاحياء اهداف الكنيسة القديمة في «استعادة» بيت المقدس التي اخذت الامال «باستعادتها» تضعف بسبب اهمال الامارات الصليبية وتهاويها امام ضربات القوى الاسلامية في المشرق العربي ومصر . ولدى عقد مجمع ليون سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م برئاسة البابا «جريجوري العاشر» لتقرير سياسة الكنيسة ، ارسل أبقا مندوبين عنه للمشاركة في هذا المؤتمر ، وبعد تعميدهما حسب التعاليم الكاثوليكية ، عرضا على المجتمعين دعوة الايلخان واستعداده للتعاون في حملة صليبية مشتركة ، غير ان اختلاف الصليبيين في وجهات نظرهم من المشروع المغولي المعروض امامهم ، جعل المجمع، ينهي اعماله ، قبل ان يستطيع اتخاذ قرار بذلك .

ولا ريب في ان سياسة نقولا الثالث الذي تولى كرسي البابوية سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م كانت اكثر فاعلية ، لتحقيق فكرة التعاون مع المغول من سلفه . فقد اجاب على سفارة ابقا بسفارة مكونة من خمسة من الرهبان سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م حملوا اليه تقدير البابا على اخلاصه ورغبته في «انقاذ» بيت المقدس ووعده بارسال هذه الحملة[٦٢] .

ولم تقتصر دعوة أبقا على البابوات ومعالجة ترددهم حول احياء الحروب الصليبية وايقاد جذوتها من جديد بل شملت تحريض ملوك اوروبا وامرائها على تسعير اوار الحرب والتعهد لهم بتقديم المساعدات لانجاحها ، واهم رسائله تلك التي وصلت الى «فيليب الثالث» ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا يحثهم فيها على المبادرة في هذا المجال ، غير ان المحرك الاساسي لاشعال الحروب الصليبية هو البابا وليس للملوك والامراء يد في ذلك .

ويبدو ان تردي اوضاع مملكة عكا الصليبية ، لم يمنع من استمرار المغول في المفاوضات مع حكام اوروبا والبابويه من اجل القيام بعمل عسكري موحد ضد المشرق العربي وقواه السياسية ، حيث تعهدت مملكة عكا بأيصال رسائل أبقا الى ادوارد الاول ملك انكلترا ، وقد كلف الراهب الدومينكاني «داود» بهذه المهمة ، وكان أبقا يستفسر في رسالته عن الوقت الذي يعيد فيه ادوارد الكرة على المشرق العربي والاراضي المقدسة وكان أبقا قد استغل في وقت سابق وصول ادوارد الاول الى قبرص على رأس حملة صليبيه جديدة سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م قبل اعتلائه العرش ، فبادله الرسائل واتفق معه على الزحف سوية ، وكان ادوارد

الاول قد ارتاع لتدهور اوضاع الصليبيين في المشرق نتيجة الاندحارات التي منيت بها جيوشهم ، ومع انه ادرك في حينها ، ان جيشه صغير ، فانه كان يأمل في ان يعمل على توحيد صليبيي المشرق في قوة ضخمة ، ثم يفيد من مساعدة المغول في القيام بهجوم شديد على المواقع التي استردها المسلمون .

على ان ابقا ، اخذ يسرف في الالحاح على الغرب في تكوين تحالف عسكري مغولي صليبي ففي ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م انفذ سفارة ثنائية الى اوروبا ، تألفت من الاخوين الجيورجيين جون وجيمس فازلي Vasalli وقابل الوفد كلا من البابا انوسنت الخامس وفيليب الثالث ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انكلترا ، ولم تأت تلك المفاوضات بنتيجة عملية ، على الرغم من اتفاق وجهات نظر القادة الصليبيين لمقترحات الايلخان المغولي المتحمس ومشاريعه لعقد تحالفات من اجل استئناف الحروب الصليبية[٦٣] .

ومعروف ان الرسائل التي حرص أبقا على تدبيجها الى البابوات وملوك اوروبا كانت تتضمن اغراءات كثيرة ، لاقناعهم بشن حرب صليبية جديدة ، وقد انحى باللائمة عليهم لتقاعسهم وفند حججهم بهذا الصدد واشار فيها الى انه قد تم الاستعداد لغزو الاراضي المقدسة وانه ينتظر الجيوش الصليبية لتساهم معه في الغزو ولكي تتولى بعد ذلك مسؤولية الحكم في تلك البلاد ؛ اما رسله فكانوا مكلفين بتضخيم الاخبار التي كان الايلخان يرغب في اذاعتها على مسامع الاوربيين ، حتى تحولت مملكة الايلخان فى نظر هؤلاء الى «جنة عامرة» لرعاية الصليبيين[٦٤] ولكن الغرب الاوربي ، اخذ ينظر الى عروض أبقا بشيء من الريبة والشكوك وبدأ تدريجيا يقف موقفاً سلبياً منها ، ويبدو ان أبقا نفسه كان يشعر بهذا الموقف ؛ وقد اتضح له موقف الصليبيين عندما التقت جيوش المغول قرب «ابلستين» بالجيوش الاسلامية سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م حيث تمزق الجيش المغولى ، وكان من المفروض ان تشترك في الحملة ضد المسلمين فرق من الصليبيين ولكن تبين للايلخان المغولي ، ان الجند الصليبيين فروا قبل بدء المعركة ونجوا بأنفسهم ، فاستشاط غضباً وأمر بقتل الاسرى من الجيش الاسلامي[٦٥] ويروي المقريزي ، ان القوات المغولية تتبعت القوات المصرية حتى شهدوا «ابلستين» حيث اوقعت القوات الاخيرة بالمغول وهزمتهم شر هزيمة حتى «عاين القتلى بالمعركة وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان - صاحب مصر - الا القليل مع كثرة رمم التتار ، فشق ذلك عليه وقتل من ببلاد الروم من المسلمين[٦٦] .

وعلى الرغم من اضطراب احوال مملكة أبقا في بلاد فارس ، فان الايلخان المغولي - لم يلبث ان عقد تحالفاً مع ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد الشام ، لعلها تعوض اندحاراتهم بهدف «استخلاص» بيت المقدس ؛ كما اتفقا على ارسال السفارات الى ملوك اوروبا لمساعدتها في ذلك المشروع عن طريق انفاذ حملة صليبية كبرى لكي تنضم الى الجيوش المتحالفة ، ولكن لم يشأ الايلخان المغولي ان ينتظر وصول الرد على مشروعه من الغرب ، وانما قرر مهاجمة بلاد الشام ، بيد ان عوامل المناخ حالت دون تنفيذ خطته تلك ثم صرف نظره مؤقتاً عن فكرة الهجوم[٦٧] .

والملاحظ ان تأكيد الايلخان المغولي أبقا على ضرورة عقد تحالف مجد ومفيد مع الصليبيين هو لمواجهة اليقظة العارمة التي غمرت المشرق العربي ومصر في هذه الفترة ، فقد اخذت هجمات الجيوش الاسلامية تتركز حول الكيانات التي ارتبطت مع المغول فيشير محيي الدين بن عبدالظاهر الى احراق مدينة «سيس» التي كان صاحبها قد تحالف مع ابقا المغولي كما يذكر المقريزي في ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٦ م «ان جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا الى ابقا ابن هولاكو بانهم واصلون لمواعدته من جهة «سيس» في

سفن كثيرة[٦٨] ، غير ان تلك الحملة فشلت بسبب عوامل الطقس . كما يذكر هذا المؤرخ خروج «فرنج عكا وخيموا بظاهرها وركبوا واعجبتهم انفسهم بمن قدم اليهم من فرنج الغرب ومواصلة التتار[٦٩]» . وفي السنة نفسها يذكر المقريزي ورود «الخبر بان الفرنج قد اغاروا على قاقون بمواعدة التتار[٧٠]» .

ومن الجدير بالاشارة الى ان كلا من المغول والصليبيين كانوا يتحاشون كل إثارة يسببها احدهم للاخر ، غير انهم لم يكن بوسعهم ان يضبطوا تصرفات المتهورين منهم ، وحث ما كان يخشاه الامراء الصليبيون ذلك ان جوليا امير صيدا وشقيق وارنون الصليبي ، وهو رجل وسيم ضخم الجثة اشتهر بالمجون والمباذل والتهور كما اشتهر بالتبذير بحيث حمله على ان يرهن إمارته صيدا لدى الفرسان الداوية الصليبية ، مقابل اموال طائلة استدانها منهم ولما اتصف به ذلك من سوء الخلق وسرعة الاثارة دفعه الى الشجار والخصام مع فيليب امير صور الصليبي الذي يعتبر من اعمامه (وقد تزوج من احدى بنات هيثوم ملك ارمينية غير انه لم يكن لصهره تأثير عليه ونتيجة للمعارك التي نشبت بين المسلمين والمغول فقد تهيأت له الفرصة للاغارة من الشقيف على ارض البقاع الخصيبة التي كانت تحت نفوذ المغول ولم يكن للجنرال المغولي «كتبغا» الذي كلف بالمرابطة في بلاد الشام التي كانت تحتلها الكتائب المغولية لان يجيز لهؤلاء المغيرين ان يفسدوا ما استقر من نظام المغول ، فارسل ثلة من العساكر لرد المغيرين ولانزال العقاب بهم ولم يلبث جوليان امير صيدا ان استنفر جيرانه للنهوض الى مساندته فاستطاعوا ان يوقعوا القائد المغولي في كمين وان يجهزوا عليه . ولم يسع كتبغا الذي اشتدت ثائرته الا ان يرسل جيشا كثيفا نفذ الى صيدا ونهبها وحطم المساعدة التي قدمت له من اسطول جنوى الذي قدم من صور وقدانحى هيثوم ملك ارمينية باللائمة على فرسان الداوية الذين استغلوا خسائر جوليان كيما ينتزعوا منه صيدا والشقيف لعجزه عن تسديد الاموال التي استدانها منهم . كذلك ما قام به «يوحنا الثاني صاحب بيروت الصليبي» من الغارة على الجليل التي كانت بيد المغول حيث لم تمض الا فترة قصيرة على الغارة السابقة ، فلقيت من القوات المغولية ما تستحقه من العقاب والردع[٧١] . ان هذه الاحداث اضعفت الصليبيين وفككت قواهم وعملت على بذر الشكوك بينهم وبين المغول من اجل اتفاقات تحالف للمستقبل .

وجاء ان تعرض الصليبيين للمغول والاعتداء على حامياتهم ومعسكراتهم والتحرش بهم ومقابلة المغول لهؤلاء بالمثل واحتلالهم لصيدا وتدميرها كان بسبب امتناع الصليبيين عن الاشتراك معهم في غزو مصر[٧٢] لانهم بحاجة الى اصلاح احوالهم في بلاد الشام حيث بدأت اقدامهم تزلل فكان تأكيدهم على المغول بالاتجاه نحو هذه البلاد والمحافظة على ما تبقى من معاقلهم ومراكزهم .

والظاهر ان المغول كانوا يفضلون التعاون مع صليبيي المشرق العربي او كانوا يعيرون الاولوية لهم على الصليبيين الجدد الذين تقذف بهم اوروبا في الحملات الصليبية ، اذ كان هؤلاء يشعرون ان التحالف الذي ربط بين بوهمند السادس امير انطاكية والمغول له اخطار سياسية وادبية وربما ينجم عنه اكتساح المغول للوجود الصليبي في المشرق العربي وابتلاعه . لكن المغول اصبح من مصلحتهم التواجد الصليبي في منطقة المشرق العربي وانه من السابق لاوانه اتخاذ اجراء من المغول فتضيع الفرصة بانتهاء سعير الحروب الصليبية ، فأخذ المغول يبذلون جهودهم في مواجهات عسكرية مع القوى الاسلامية للمحافظة على الوضع الراهن ، في الاقل ، فيذكر ابو الفدا ان الجيش المصري سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م هزم «الجيوش المتحالفة ، وكانت عدة

التتر ثمانين الف فارس منهم خمسون الفا من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والعجم وغيرهم»[٧٣] . ثم كرر المغول محاولتهم التصدي للجيوش الاسلامية ، فخرج أبقا الى بلاد الشام سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م على رأس جيش من المغول والتحق به اخوه «منكو تيمور» قادماً من كبدوليا ثم انضم اليهما حلفاؤهم الصليبيون ممثلين في ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى وبعض امراء الساحل[٧٤] .

ويقرر الاستاذ رنسيمان ، ان المغول ، قد توجهوا سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م الى بلاد الشام بجيشين مغوليين فيهما بعض الفصائل الصليبية ، الاول يقوده الايلخان ابقا ، غزا الحصون الاسلامية الواقعة على امتداد حد الفرات ؛ اما الجيش الثاني فيقوده شقيقه «منكو تيمور» الذي اتصل بليو الثالث ملك ارمينية الصغرى فأمده بالعساكر ثم هبط الى وادي نهر الادرنت بعد ان اجتاز عينتاب وحلب وقد التقت هذه الجيوش بالجيش الاسلامي ، خارج مدينة حمص ، ومن خلال توزيع المناصب العسكرية في جيش المغول تتبين لنا خطة التحالف التي وصفت ، فقد اتخذ امراء المغول مواقعهم في قلب الجيش وميسرته على حين كان على ميمنته ، عساكر الكرج وعساكر الارمن والاستباريه من الصليبيين[٧٥] ويروي عن مقدم الاستباريه الانكليزي «يوسف شونسي» الذي كان يزور المشرق ، انه كتب الى ادوارد الاول ملك انكلترا ، يصف له «معركة حمص» فذكر ان الملك هيو والاميربوهمند ، لم يستطيعا اللحاق بالمغول في الوقت المناسب ، والراجح انه اراد ان يحميهما من غضب ملك انكلترا ، الذي يعتبر الوحيد من بين ملوك الغرب الذي لا زال مهتما بالحروب الصليبية وشديد التأييد للتحالف مع المغول[٧٦] .

اما بعد سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م حيث طرأت تغيرات في دولة مغول فارس ، فقد جاء الى العرش المغولي الايلخان «ارغون» في انقلاب ضد اخي «ابقا» وهو «تكودار»[٧٧] . وسرعان ما اتخذ «ارغون» سياسة احياء التحالف مع الصليبيين ، فاتفق مبدئياً مع ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى فتعاهد على «استرداد» الاراضي المقدسة ، وارسل اربع سفارات الى البابوية ، يقترح فيها استعداده للقيام بحملة مشتركة لخوض الحروب في الاراضي المقدسة يقوم الفرنجة ، بغزو مصر ، في الوقت الذي يقوم هو بغزو بلاد الشام ، ولكن الايلخان المغولي «ارغون» لم يجد استجابة من صليبيي اوروبا ، ومن الجدير بالذكر ، ان السفارة الاخيرة التي انفذها «ارغون» جاءت في الوقت الذي سقطت فيه عكا وهي آخر حصون الصليبيين الكبرى في بلاد الشام بيد القوات الاسلامية[٧٨] .

وليس من شك في ان ما كتبه الايلخان «ارغون سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م الى البابا هونوريوس الرابع ، يقترح عليه القيام باجراء عسكري مشترك ، له اهمية كبيرة بالنسبة الى فتح باب الاتصالات مع اوروبا لاحياء آمالها وتحريض الصليبيين على تشكيل حملات من جديد الى الاراضي المقدسة وبلاد الشام وعلى الرغم من عدم استجابة البابا لرسالته ، فقد قرر بعد مضي سنتين ان يوفد سفارة الى الغرب يعرض فيها شعوره وعواطفه نحو الصليبيين ويعدد خدمات ابيه وجده نحوهم ويعتذر عن انقطاع المراسلة بسبب «مروق» الايلخان السابق ، ثم يتعهد لهم اخيرا باستعداده للتعاون معهم في «انقاذ» البلاد المقدسة ! فأختار رابان سوما سفيرا له«وبدأ السفير رحيله في اوائل سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م فلقي استقبالا وديا حافلا من الامبراطور البيزنطي «اندرونيقوس» الذي كان مستعدا لان يبذل للمغول مساعداته التي تسمح بها موارده الضئيلة ثم توجه السفير الى نابولي ثم الى روما ، وقد تبين له ان البابا

هونوريوس الرابع قد مات ، فغادر الى فرنسا وقابل الملك فيليب الرابع ، ولما أزمع على مغادرة باريس عين الملك ، سفيرا له اسمه «جوبرت هيليفيل ليصحب «رابان سوما» في عودته الى بلاط الايلخان ، وليعد معه التفصيلات اللازمة عن التحالف مع المغول ، ثم رحل «رابان سوما» الى انكلترا وقابل الملك ادوارد الاول ، الذي طالما دافع عن التحالف مع المغول . وفي ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م تم اختيار «نقولا الرابع» بابا جديداً ه وكان اول اعماله ، انه استقبل السفير المغولي ، فقامت بينهما احسن العلاقات الشخصية ، وغادر السفير روما وبصحبته «جوبرت هيليفيل» يحمل من البابا هدايا وكثير من المخلفات الدينية القيمة للايلخان والجاثليق ، ورسائل اليهما ، والى اميرتين مسيحتين في البلاط المغولي والى «دنيس» اسقف اليعاقبه في تبريز[٧٩] . غير ان سفير الايلخان المغولي لم يجد البابا متمكناً من تحديد الوقت للتعاون العسكري الفعلي ولتشكيل حملة صليبية جديدة يتوق اليها الايلخان .

وبعد مرور سنة على جلوس البابا نقولا الرابع على كرسي البابوية ، ارسل كتابين الى الايلخان «ارغون» واخر سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩ م مع رسوله «يوحنا دي مونت كورفينو» الذي هو نفسه مؤسس الكنيسة اللاتينية في الصين وقد اصبح فيها اسقفاً للكمبالوك (بكين) وارسل البابا كتابا رابعا سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م على اثر سقوط عكا وصيدا وطرد الصليبيين ، يستحثه على احياء الحروب الصليبية[٨٠] . وهكذا فقد اقترح الايلخان «ارغون» على البابا وملوك اوروبا ، ان يقودوا الحملات الصليبية بأنفسهم حتى يضمنوا تحقيق النصر ، لكنهم كانوا مشغولين بشؤونهم الخاصة ويتوجسون الخيفة وخاصة فيليب الرابع ملك فرنسا الذي كان يناور في وعوده ويضيع الوقت ويكسبه في مبادلة الرسل للاتفاق على خطة موحدة للعمل ، في الوقت الذي

كان يستغل ذلك في الداخل لجمع الاموال بحجة الاستعداد للحرب «المقدسة» حتى اضطر ارغون لكي يضع حداً للوقت المضاع معه ان يحدد تاريخ ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م موعداً لبدء الزحف «المقدس» بحيث يلتقي جيش الطرفين ، الصليبيون والمغول على اسوار دمشق[٨١] . اما ادوارد الاول ملك انكلترا ، فقد احسن استقبال «رابان سوما» الذي قام بالمهمة نفسها في عهد الايلخان ارغون ، ولما علم منه ان للايلخان اقتراحات بهجوم مشترك على الارض المقدسة من جهتي الشرق والغرب قال له : «نحن ملوك هذه البلاد قد وضعنا علامة الصليب على اجسامنا ، واهتمامنا بهذا الموضوع اهتمام زائد وان قلبي لينشرح حين اعلم ان ما ارغب فيه يريده ايضا الملك ارغون[٨٢] .

ومن المحتمل جداً ، انه الى هذا الحد ، لم يتطرق اليأس الى قلب اراغون على الرغم من فشل مهمة سفارته ، حيث لم يعتقد بان عدم الاكتراث الاوربي لموضوع الاراضي المقدسة ، بلغ الحد الذي يتغاضون فيه عن استردادها من قبل اهل المشرق العربي ، الامر الذي جعله يرسل سفارة اخرى سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م متمثلة في شخص احد الجنويين المقيمين في بلاده وهو «بسكاريل جيزولف[٨٣] Bus-carel Gisolf» زوده برساله الى كل من ملكي فرنسا وانكلترا والبابا . والظاهر ان المغول وضحوا اهدافهم بدقة في الرسالة المعنونة الى فيليب الرابع ملك فرنسا بصورة خاصة والمكتوبة باللغة المغولية وبحروف ايغورية وقد اضاف بسكاريل جيزولف الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية تنطوي على تحيات لبقة ، موجهة الى الملك الفرنسي[٨٤] وجاء في الرسالة «ان الخاقان قوبيلاي قد فوض ايلخان مغول فارس «اراغون» ان يقوم بحملة عسكرية على بلاد الشام وانه سوف يكون في دمشق ومنها يشرع بأحتلال القدس التي سوف تقدم الى الملك الفرنسي شريطة ان ترسل فرنسا ،

فرقا عسكرية،وان الايلخان على استعداد لتجهيز الجيش الصليبي بعشرين الف حصان ، وفي حالة تعذر التعاون العسكري مع الفرنجة ، فان المغول لا يرون اية فائدة من القيام بحملتهم[٨٥]» واكد السفير بسكاريل جيرولف الى ملك فرنسا ان امراء جورجيا وارمينية سيشتركون في المشروع المغولي . وقد احتوت الرسالة الموجهة الى ادوارد الاول ملك انكلترا على النقاط نفسها كما اكدت الرسالتان على البابوية انه لا يمكنها القيام بخطوة مجدية ما لم تتأكد من تأييد فرنسا وانكلترا وسائر حكام اوروبا مقدماً . ولما لم يتلق المغول جوابا قاطعا عن موضوع التحالف ارسل الايلخان ارغون سفارته الاخيرة سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م الى اوربا وهي مؤلفة من الوفد الثلاثي برئاسة بوسكاريل جيزولف وعضوية كل من زاكان Zagan وسهادين Sahadin المغوليين ، فقصدت السفارة اولا ، البابا نقولا الرابع ، حيث زودها برسالة الى ادوارد الاول ملك انكلترا الذي لم يقابلها لانشغاله في مشكلات «سكوتلاند» فاضطر الوفد الى الرجوع الى روما ومن ثم اصبح متعذرا على الوفد ، الاستمرار في المفاوضات نظرا لان مصير المشرق العربي قد تقرر بسقوط عكا وهي آخر قلاع الصليبيين بيد الجيش الاسلامي[٨٦] .

وتكررت السفارات بين المغول وصليبيي اوروبا ، بعد موت الايلخان اراغون سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م،حيث ارسل جيمس الثاني ملك اراغون الى الايلخان الجديد «غازان» كتاباً سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م يقول فيه انه على استعداد لتقديم مساعدات من سفن حربية وعساكر وخيول وذخائر ويود ان يحاط علماً بما يريده غازان من هذه العروض ، كما يقول انه سمح لاهالي مملكته الذين يريدون الذهاب الى الاراضي المقدسة او الانضمام الى جيشه بتنفيذ رغبتهم ، وانه يود ان يقف على موافقة الايلخان بعد ان تنظم اليه قواته على ان يعطيه خمس الاراضي المقدسة وغيرها من البلاد التي تفتح بعد ذلك ، وطلب في آخر الكتاب الحرية لرعاياه في الذهاب الى بلاد الشام وبيت المقدس بدون ان يدفعوا ضريبة ما[٨٧] .

ثم ارسل غازان بسكاريل جيزولف ، حاملا رسالة الى ادوارد الثاني ملك انكلترا ، وقد تضمنت الدعوة الذهاب الى بلاد الشام «لتخليص» الارض المقدسة من المسلمين !! وقد اهتم الملك الانكليزي بهذه الرسالة اهتماماً كبيراً ورد عليها بكتابين سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م احدهما الى الايلخان غازان وقد كتب في «نور ثامبتون» وارسل الى «الجايتو خدابنده» واحالها بدوره الى الايلخان غازان[٨٨] ، اما الكتاب الاخر فارسل الى بطريق الشرق . وقد وردت ترجمة للرسالة الاولى جاء فيها : «لقد تلقينا الكتب التي ارسلتها الينا مع سفيرك بسكاريل جيزولف الذي يحمل لنا الهدايا وعلمنا مضمونها كما سمعنا الاخبار الشفوية التي ذكرها لنا على لسانك عن مسألة الارض المقدسة ، وقد منعتنا الحروب التي تضطرب لها المسيحية في اوروبا عن اتخاذ قرار فيما يختص بهذه المسألة ، وهذا يتفق وما نريده من زمن بعيد ، على انه عندما نكلف بالعمل في سبيلها فاننا سنبذل عن طواعية واختيار كل ما نستطيع من جهد بقصد اتمام هذا المشروع الذي نتمنى له النجاح اكثر مما نتمنى النجاح لاي مشروع آخر في هذه الحياة الدنيا[٨٩]» .

وتحركت اوروبا لتوجه الصليبيين صوب الاراضي المقدسة ، بعد التقدم النسبي المحدود للجيوش المغولية في بلاد الشام على يد الايلخان غازان ، فاعد القائد المغولي اولجايتو خدابنده من الامدادات لاستقبال الجيش الصليبي من الخيل الفا ومثلها من حمول الذرة لاعاشته واعد من جيشه الف جندي على قدم الاستعداد ، واكد الايلخان لصليبيي اوروبا ، ان الوحدة بين الاسر والقبائل المغولية قد تحققت وهو ينصحهم ان يتحدوا مثلهم ويتعاونوا لانجاح الاهداف

«المقدسة»[٩٠] . ولكن كل هذا ذهب ادراج الرياح ، وهكذا ظل الايلخان المغولي غازان رافعاً عقيرته بنداء مثقل بالهم والحسرة من معسكره قرب دمشق الى صليبي اوروبا يردد انه مستعد «لاعادة» مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه ، اذا ما تعاون جيش صليبي معه في مقاتلة اهل المشرق العربي . . وظل يبعث برسائله الى البابوات والملوك في اوروبا ولم يتلق الجواب من الصليبيين ، لان اهل المشرق العربي حطموا الروح المعنوية لجموع الغزاة الاوربيين ، وعليهم ان يحطموا الوجود المغولي وهكذا فإن إسلام الايلخان غازان (المغولي الاصل ، الفارسي الثقافة) لم يمنعه من السعي الى التحالف مع الغزاة الفرنجة ، تحقيقاً لأطماع متأصلة في نفسه ، فعاد وجحافله يجرون الاذيال الى سهوبهم في اواسط آسيا وفي اعماقهم ألم دفين ، حيث ضاعت «الفرصة» وانتهت الحروب الصليبية بانتصار اهل المشرق العربي .

الهوامش

(١) احدى المدن الفرنسية تحقق فيها اجتماع البابا ايربان الثاني مع رجال الدين والمحتشدين من الاوربيين سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥ م حيث انطلقت شرارة الدعوة للحروب الصليبية .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة د . السيد الباز العريني ، بيروت الطبعة الاولى ـ ١٩٦٧) جـ ١ ص ١٧٢ .

(٣) وهي تعريب "FRAnKs" اي افرنسيون ؛ وقد اصبح اصطلاح الافرنج منذ ذلك الوقت يطلق على الاجانب من الاوربيين ، وتطلقه المصادر العربية الاولية على الصليبيين .

(٤) سكان شمال اوروبا ؛ بعضهم من جنوبي ايطاليا ومن صقلية .

(٥) وصف هذا العصر في اوروبا بانه «عصر الرؤى» فكانت تعاليم الرؤيا والنبؤات . (رنسيمان ، المصدر نفسه ص ٣٤٣ ـ ٣٥٠) .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، (جـ ٣ تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ـ ١٩٦٠) ص ٧

(٧) أرنست باركر ERnest Barker الحروب الصليبية (ترجمة د . السيد الباز العريني ، بيروت) .

(٨) للاستزادة راجع د . سوادي عبد محمد بحثه «الافاقة العربية الاسلامية بوجه الخطر الصليبي» ص ٢٤ مجلة المورد/ المجلد الثالث عشر/ العدد الثاني السنة ١٩٨٥ .

(٩) المصدر السابق ص ١٣

(١٠) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٤٦٣

(١١) وهي ارملة «طولوى» اصغر ابناء جنكيزخان !

(١٢) المدينة الصحراوية في غوبي وقد اتخذها المغول عاصمة لامبراطوريتهم واصبحت في تلك الفترة مركز الدبلوماسية في العالم (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٠٧) .

(١٣) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

(١٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، النجف ـ ١٩٧١) ص ٤٢٢ .

(١٥) لم تجد دعوته في اوروبا استجابة من الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك بعد خلافه مع الامبراطور فردريك الثاني ؛ كما لم يكن هنري الثالث ملك انكلترا في وضع يمكنه من الاسهام في مساعدة البابا ، فضلا عن رفض حكومة البندقية لمشروع البابا ، لتحافظ على مصالحها التجارية مع مصر . اما بيزا وجنوا فتعهدتا بتقديم المساعدات ، وكذلك وجدت الدعوة استجابة من لويس التاسع ملك فرنسا (د . عبدالقادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ـ ١٩٦٩) .

(١٦) سيد علي الحريري ، كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية (الطبعة الثانية ، مطبعة النيل ، مصر ـ ١٣٢٩) ص ٣٤١ .

(١٧) Setton (K.M.) A History of the Gnusades (Pensylvania, 1958) Vol. 11. P. 722. وكانت الايلخانات المغولية الاربعة التي انقسمت اليها الامبراطورية ، كل واحدة منها تؤلف امبراطورية قائمة بذاتها ونخص بالذكر منها «القسم الفارسي» وكانت عاصمته تبريز ، قريبة من البحر المتوسط فأخذت تتدخل في شؤونه (كتاب تراث الاسلام باشراف سير توماس ارنولد ، ترجمة جرجيس فتح الله ، بيروت ـ ١٩٧٢) ص ١٤

(١٨) رنسيمان ، تايخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٦ ؛ د. عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(١٩) ايرنست باركر بحثه الحروب الصليبية (كتاب تراث الاسلام جـ ١ ، ترجمة علي احمد عيسى ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، ـ ١٩٣٦) ص ١٤٣ .

(٢٠) رنسيمان ، المصدر السابق ص ٤٤٧ .

(٢١) وهو نائب الخاقان في القوقاز وفارس وتسميه المصادر العربية الاولية باسم «جغطاي خان» ويقول رنسيمان ، انه كان مندوبا ساميا للايلخان الكبير في الموصل (تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٧) .
(٢٢) كان كبير مندوبي البابا انوسنت الرابع فيما دار من مفاوضات مع المونوفيزتيين (م . ن ص ٤٤٧)
(٢٣) كانت وصية على ابنائها الثلاثة الصغار ، قوشو ونقو وقوغو وقد انتصرت عليها «سور خقتاني» ارملة طولوى اصغر ابناء جنكيزخان ، حيث نصب ابنها «منكو» خاناً في قراقورم وتقرر ادانة «اغول قايميش» بالسحر فقتلت غرقاً وتم ارسال ابنائها الى المنفى (ونسيمان ، المصدر نفسه ص ٥٥)
(٢٤) Joinville : History de Saint Louhs (ed. N. de Wailly) Paris, 1874, P.74.
(٢٥) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٤٧
(٢٦) Grousset (R.) History des eroisates et adu Rogaume frqne de Jerusalem (Paris, 1943) 111. p. 524.
(٢٧) Recueil des Historiens Gruisades Documents Armeniens, 11. pp. 164 — 169 ثم انظر : د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٦) جـ ٢ ص ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠ .
(٢٨) رنسيمان وتاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥١٠
(٢٩) د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، المصدر نفسه ص ١٠٥٠ D'ohsson, History des Mongols (Amrterdom, 1952) 111. p524.
(٣٠) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ١٩٧
(٣١) الحروب الصليبية ص ١٢٦ .
(٣٢) د. السيد الباز العريني ، المغول (بيروت ـ ١٩٦٧) ص ٢٤٧
(٣٣) وهو كتبغا النسطوري الذي ينتمي الى عنصر «النايمان» وقد شاع بانه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة ، وهو غير صحيح ، والمعروف ان كتبغا اعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة في هضبة ايران وكان قد ارسل من قبل هولاكو سنة ٦٥٣ هـ في سرايا وعساكر لتمهيد الطريق نحو العراق وكشفه . (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص٥١٤)
(٣٤) ارنست باركر ، المصدر السابق ص ١٢٦ ـ ١٢٧
(٣٥) وهو المؤرخ الشهير وصاحب الحولية المعروفة في عصر الحروب الصليبية .
(٣٦) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٠٥٠ د . سعيد عبدالفتاح عاشور
(٣٧) رنسيمان المصدر السابق ص ٥٠٧
(٣٨) شعلة الاسلام ص ٥٦٤
(٣٩) م . ن . ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧
(٤٠) بحث الاستاذ الدكتور ضياء موسايفيج بونياتوف ، رئيس قسم العلوم التاريخية في اكاديمية العلوم الاذربيجانية في باكو ، الموسوم «احتلال المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ م في المصادر الارمنية» المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد ـ ١٩٧٣ (النبذة ، طبع بطرسبورج ١٨٧١ م ص ٩٠٢٧ .
(٤١) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤
(٤٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦) ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .
(٤٣) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩١٩) ص ١٦٧ .
(٤٤) د . السيد الباز العريني ، المغول ص ٢٤٥ (في مقابل ان يوافق بوهمند على ان يحل البطريرك اليوناني بوثيميوس في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٦)
(٤٥) هارولد لامب ، المصدر السابق ص ٥٦٧
(٤٦) رنسيمان ، المصدر السابق ص ٥٢٨
(٤٧) هارولد لامب ، المصدر السابق ص ٥٦٣
(٤٨) د . السيد الباز العريني ، المغول ص ٢٤٨ .
(٤٩) الروض الزاهر ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
(٥٠) م . ن . ص ١٩٦
(٥١) م . ن . ص ١٩٧
(٥٢) وتركت المفاوضات ايضا في مسألة اخرى هي حصول هولاكو على سيدة من اسرة الامبراطورية البيزنطية بالقسطنطينية ليضمها الى زوجاته العديدات ، فأختار الامبراطور ميخائيل بالبولوغوس ابنته غير الشرعية «ماريا» وقد رافقها الى تبريز البطريريك بوثيميوس الذي كان قد لجأ الى القسطنطينية ، ولكن هولاكو مات قبل وصول هذه الاميرة فتزوجها ابنه «آبقا» وهي التي تسمى عند المغول باسم Despina ومعناه في اليونانية الاميرة (رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٤٨) .
(٥٣) د . مصطفى طه بدر ، مغول ايران ص ٧٢
(٥٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٢٧
(٥٥) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٦٨
(٥٦) محيي الدين بن عبدالظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٢٧
(٥٧) رنسيمان ، المصدر السابق ص ٥٧٠ .

(٥٨) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٧ .

(٥٩) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

(٦٠) د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٠٣

(٦١) كتاب النهج السديد ص ١٩٢ ـ ١٩٥

(٦٢) د . محمد صالح القزاز ، المصدر السابق ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨

(٦٣) د . عبدالقادر يوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٣

(٦٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٢

(٦٥) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٦٧٥ هـ

(٦٦) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ط ١ ق ٦٣٣

(٦٧) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ص ٦٣ ـ ٧٠

(٦٨) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ط ١ ص ٥٨٤

(٦٩) م . ن . ص ٥٨٥

(٧٠) م . ن . ص ٦٠٠

(٧١) د . السيد الباز العريني ، المغول ص ٢٥٠

(٧٢) قدري قلعجي ، صلاح الدين الايوبي ص ٥٧٠

(٧٣) المختصر في اخبار البشر جـ ٤ ص ١٥

(٧٤) م . ن . ص ١٢١

(٧٥) تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٦٦١

(٧٦) م . ن . ص ٦٦٣

(٧٧) الذي خلف ابقا في الحكم ، اعتنق الاسلام وتسمى باسم احمد واتخذ لنفسه لقب سلطان ولكنه لم يبق في الحكم طويلا ، اذ ثار ضده بعض قواده وقتلوه ، واحلو محله ابن اخيه «ارغون» .

(٧٨) Grousset, History des Groisades et du Royaume Franc de Jerusalem (Paris, 1943) 111. P.727.

(٧٩) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٦٧٣

(٨٠) د . مصطفى طه بدر ، مغول ايران ص ٧ ـ ٩

(٨١) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٤ .

(٨٢) د . مصطفى طه بدر ، المصدر السابق ص ٦٥ .

(٨٣) ويسميه رنسيمان بوسكارد (تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٦٧٧)

(٨٤) م . ن . ص ٦٧٧

(٨٥) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٥ .

(٨٦) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٦ .

(٨٧) د . مصطفى طه بدر ، مغول ايران ص ٦٧

(٨٨) براون ، تاريخ الادب في ايران (ترجمة د . ابراهيم امين الشواربي مطبعة السعادة مصر ـ ١٩٥٤) ص ٥٦٢ .

(٨٩) د . مصطفى طه بدر ، مغول ايران ص ٦٨

(٩٠) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٩

* * *

الحملة الصليبية الثامنة على تونس

د. أحمد الطويلي

كلية الآداب والعلوم الانسانية / القيروان

قلما تناولت الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية الحملة الصليبية الثامنة التي كان مسرحها شواطىء قرطاج ، وكانت ترمي الى احتلال تونس العاصمة الحفصية ، وكان يقودها لويز التاسع المشهور بالقديس لويز ، ومنيت بالفشل الذريع لما وجدته من مقاومة شعبية عنيفة مستمرة ، وللحصار المضروب حول الصليبيين ، حتى أصيبوا بالمجاعة والعطش والاوبئة . وتنتهي جل المراجع العربية الخاصة بالحروب الصليبية ، بالغزوة الصليبية السابعة على مصر والتي قادها نفس الملك لويز التاسع فمني أيضاً بشر هزيمة ، اذ اعتقل وافتدى نفسه ونفوس من معه بغرامة مالية فادحة ، وسلم دمياط بلا قيد ولا شرط وذلك سنة ١٢٥٠ .

وقاوم المسلمون سواء في الحملة الصليبية السابعة على مصر ، او الثامنة على تونس ، مقاومة شديدة رائعة كتبوا بها صفحات ناصعة مجيدة في تاريخ مصر وتونس في العصر الوسيط .

وتحتل الحملة الصليبية الثامنة على تونس مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية اذ أنها كانت الاخيرة المرقمة ، تلقى فيها الصليبيون درسا لاينسى ، اذ فقدوا فيها ملكهم وأعيانا كثيرين منهم ، ومنوا بأقسى العذاب تصفه لنا بعض المصادر الغربية خاصة كتاب « تاريخ القديس لويز ملك فرنسا » بقلم دو بوري[1]

أما المصادر العربية القديمة ، فلم يبق لنا كتاب مما ألفه المؤرخون التونسيون في القديم عن وقائع هذه الحملة الا كتاب ابن قنفذ وعنوانه « المتوكلي »[2] وهو كتاب كبير ، وكتاب الاديب جمعة الذي استقى منه أبو عبدالله محمد الابي (ت ٨٢٨) بعض الأخبار في كتابه « اكمال المعلم في شرح صحيح المسلم »[3] ونجد من المؤرخين القدامى الذين ارخوا لها أمثال ابن خلدون في تاريخه[4] وابن الشماع في « الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية »[5] وابن قنفذ في « الفارسية»[6] . أما المتأخرون فنذكر ابن أبي دينار في « المؤنس في أخبار افريقية وتونس »[7] وأحمد بن أبي الضياف في الجزء الأول من كتابه « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »[8] والباجي المسعودي في « الخلاصة النقية في أمراء افريقية »[9] وحسن حسني عبدالوهاب في « خلاصة تاريخ تونس »[10] . فهم قد لخصوا في سطور قليلة أخبار هذه الحملة معتمدين على المؤرخين السابقين ، ولم يضيفوا شيئا جديدا . أما المعاصرون فنذكر منهم الاستاذ روبار برنشفيغ في اطروحته عن بلاد البربر في العهد الحفصي[11] فقد استعرض أهم أحداث هذه الحملة الصليبية معتمدا على بعض الوثائق الغربية . ونذكر من التونسيين محمد العروسي المطوي الذي خص هذه الحملة بفصل في كتابه عن الحروب الصليبية[12] ثم بفصل آخر في كتابه المنشور

حديثا عن « السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب العربي »[١٣] .

دام الاعداد للحملة الصليبية الثامنة سنوات قبل أن يغادر الملك لويز التاسع أرض فرنسا ، فقد راسل البابا كليمون الرابع ملوك انكلترا واسبانيا وبولونيا والمانيا والقسطنطينية وأرمينيا ، يعلمهم بهذه الحملة ويحثهم على المشاركة فيها ، وخصص عشر مداخيل الكنيسة لمدى أربع سنوات لتجهيز هذه الحروب ، وفرض آداءات مختلفة على أعيان المدن والقرى لنفس هذا الغرض . وابتدأت التحضيرات الفعلية اوائل سنة ١٢٧٠ ، ولم تغادر السفن المقلة للجنود مرفأ « ايق مورت » — Aigues Mortes ، وهو يبعد حوالي ٧٠٠ كلم جنوبي باريس ، الا في تموز ١٢٧٠ ، من نفس المكان وبعين الطريقة التي غادرت بها السفن هذه البلدة في الحملة الصليبية السابقة للتوجه صوب مصر ، الا أن البابا كليمون الرابع لم يشهد انطلاق الاسطول القاصد تونس اذ توفي قبل سنتين في تشرين الثاني ١٢٦٨ ، وشغر بعده منصب البابا حوالي ثلاث سنوات الى أن انتخب « قريقوار العاشر » مكانه سنة ١٢٧١ بعد فشل الحملة على تونس .

وقد تجمع الغزاة في مرفأ « ايق مورت » ، محدثين اضطرابات ، جاؤوا اليه من كل فج عميق خاصة من فرنسا وكاتلانيا ، وكان من المنتظر أن تفد عليهم مراكب من جنوة تحملهم الى المشرق فتأخرت عليهم طويلا ، وقد مات من الخصومات والمعارك بين هذا الخليط الغريب من الاجناس أكثر من مائة شخص[١٤] ، أما عدد المشاركين في هذه الحملة فيقدر بحوالي أربعين ألف رجل ، يذكر ابن خلدون أنهم زهاء ثلاثين ألفا من الرجالة وستة آلاف فارس موزعين في ثلاثمائة سفينة بين كبيرة وصغيرة ، تحت أمرة سبعة يعاسيب[١٥] .

وتهول المصادر التونسية خبر عدد أفراد هذه الحملة ، يقول صاحب « الفارسية » : « وكانت في أيام المستنصر حوادث عظام منها في سنة ٦٦٨ نزول الفرنج بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العدد والعدد والخيل والأخبية وذلك في صلاة الظهر من يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة »[١٦] .

وقال صاحب « الادلة البينة » : « وكان نزوله على تونس في يوم الخميس السادس والعشرين لذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة بجموع وافرة فرساناً ورجالاً ورماة . ومددهم متصل كل يوم بالرجال والأقوات والعدة »[١٧] .

أما المشاركون فيها فهم بالاضافة الى لويز التاسع أبناؤه الثلاثة فيليب وبيار وجان تريستان ، وأخوة الفونس كونت دي بواتيي وتولوز ، وابنته ايزابلا وصهره تيبو ملك نافار وكونت دي شمبانيا والكردينال سفير البابا رودولف البانو ، وعدد من كونتات بريطانيا والاو وفلاندر واللوكسمبور[١٨] وعدد من النبلاء الفرنسيين ورجال الكنيسة . ولم تصحبهم زوجة لويز التاسع على عكس ما ذهب اليه ابن خلدون[١٩] . ولم يكن المشاركون يعلمون أن البلد المقصود هو تونس اذ كانوا يعتقدون أن وجهتهم ليست سوى فلسطين أو مصر لاعادة الكرة عليها .

وقبل أن يصل الاسطول الى كاقلياري بجزيرة ساردانيا تعرض الى عاصفتين كادتا تودیان بمعظم السفن . وفي يومي ١٢ و١٣ تموز ١٢٧٠ عقد لويز التاسع مجلسا في مركبه وعرض على أهم رفقائه قصده وهو التوجه اولا الى تونس وطلب موافقتهم فاندهشوا لذلك (٢٠) ولم يوافق الكثير منهم (٢١) وعارضوه معارضة شديدة ، الا أنهم في النهاية اقتنعوا بأفكاره ، وأقلعت السفن قاصدة تونس ووصلت الى قرطاج بعد ستة أيام في ١٧ تموز ١٢٧٠ . فما الذي أسره لويز التاسع الى رفقائه وبماذا أقنعهم للتوجه صوب تونس ؟

اختلف المؤرخون لهذه الغزوة حول سبب تغيير الملك الفرنسي وجهته من فلسطين أو مصر الى تونس . ولكن يبدو أن السبب الجلي أن لويز التاسع ، كان يروم القضاء على أزهر مدينة اسلامية في تلك الفترة ، صارت عاصمة لخلافة جديدة هي الخلافة الحفصية ، وتحولت الانظار اليها بعد سقوط بغداد في أيدي التتر سنة ٦٥٦ هـ وانقراض دولة بني العباس بقتل الخليفة العباسي ، وتولية أبي عبدالله محمد بن أبي زكرياء الحفصي الحكم بتونس وعمره لا يتجاوز ٢٢ سنة وتسميته بأمير المؤمنين إثر قدوم

البيعة بذلك من مكة وتلقبه بالمستنصر بالله عندما وصلته بيعات الشام والأندلس[٢٢] . كان لويز التاسع يرمي الى مهاجمة المسلمين في مركز قوتهم وقلب عظمتهم ، مثلما فعل في غزوته السابقة[٢٣] . كانت تونس قد وصلت الى أوجها الحضاري ، فازدهر العمران بها وحفل بالقصور والمدارس والجوامع ونضدت البساتين حول العاصمة تغني بها النواعير (وتألقت) الحياة الفكرية والأدبية خاصة بمن أقام فيها من الشعراء والأدباء الأعلام الأندلسيين والمغاربة ، منهم محمد بن الأبار وأبو بكر بن سيد الناس وأحمد بن الغماز وعلي بن عصفور ومحمد بن أبي الحسين وعلي بن سعيد الأندلسي وأبو جعفر اللبلي وأبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج البياسي[٢٤] .

وكان المستنصر نفسه شخصية لامعة ، أحاط نفسه بالعلماء والأدباء والشعراء من أفارقة وأندلسيين ومغاربة ، وكان يقرض الشعر ، وقد وصف ابن خلدون عهده والتألق الحضاري فيه وما أنشأه من رياض وقصور في فصل أدبي شيق في تاريخه[٢٥] ، قال : « وكثر ترف ساكنها وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والأبنية فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها الى أن بلغت غايتها » . ويختم فصله عن المستنصر بقوله : « كان شأن هذا المستنصر في ملوك آل حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ عالم نحرير وملك أورع وشجاع أهيش متفيئين ظل ملكة . . »[٢٦]

وكان للمستنصر علاقات مع ملوك الفرنج لا سيما لويز التاسع نفسه ، وقد وصف برنشفيغ في أطروحته مدى تطور العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين تونس والنرفاج وأراقون وبيزا وصقلية[٢٧] . ويلاحظ برنشفيغ أن المستنصر قد أرسل رسلا الى باريس في أكتوبر ١٢٦٩ لمعالجة بعض المسائل المالية كانت بين بعض التونسيين وبين تجار افرنج[٢٨] . ويذهب ابن خلدون الى أن من أسباب هذه الحملة الصليبية على تونس أن بعض التجار الافرنج ادعوا « أنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون اليه فغضبوا لذلك واشتكوا الى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس (. . . . .) فارسل الى ملوك اوربا يستنفرهم الى غزوها »[٢٩] .

الا أن هذا السبب يبدو مستبعدا لعدم ذكره في الاتفاقية التي تمت بين المستنصر والصليبيين .

وقد لاحظ أحد المؤرخين الفرنسيين للحروب الصليبية ، أن لويز التاسع قد ارتكب خطأ تاريخيا فادحا بهجومه على تونس وبمحاربته ملكا لامعا نابغا ومتفتحا[٣٠] ، كانت تصله به علاقات طيبة ولا سيما أنه كان يقيم بتونس كثير من الفرنجيين وعدد من الأمراء المسيحيين[٣١] ، وكانت تونس مركزا تجارياً مهما مفتوحا لكل الأديان في حوض البحر المتوسط[٣٢] خاصة وأنها مدينة جد محصنة ومنيعة[٣٣] .

ولعل تأثير شخصيتين في نفس لويز التاسع كان عاملاً قوياً وحاسماً في اتخاذه قرار تحويل الوجهة من المشرق الى تونس . أما الشخصية الأولى فهي الراهب رايمون مارتين أستاذ العربية والعبرية في الدير الدومينيكي بتونس ، وكان مرتبطا بعلاقة مع المستنصر ، ويبدو أنه هو الذي أوحى لقائد الحملة الصليبية على تونس أن السلطان الحفصي مستعد للتنصر[٣٤] . ويرى المؤرخ بريهي أن سبب هذه الحملة على تونس كان نتيجة لنشاط المبشرين بعد أن أقيم بالعاصمة الحفصية دير للدومينيكيين وانتصب فيه هذا الراهب مدرساً وواعظاً[٣٥] . فذهب في ذهن لويز التاسع أن المستنصر ينتظر الفرصة للاعلان عن دينه الجديد وسيكون هو كفيله[٣٦] ! الا أن قائد الحملة قد ارتطمت نفسه على صخرة الحقيقة على شاطىء قرطاج وأدرك أنه ذهب ضحية لأوهامه وخيالاته حين رأى بأم عينيه مدى استنفار المستنصر للجيوش وتنظيمه المقاومة الرسمية والشعبية ونضاله المستميت ضد الغزاة .

كما أن سيرة المستنصر بالله لا تدل على أي تهاون بالدين وهو الخليفة الجديد للمسلمين وكان أملاً للموحدين ببلاد المغرب يتغنى الشعراء من مادحيه بأنه حامي ساحة الاسلام وناصره على الأعداء[٣٧] . فلعل هذا السبب اختلقه الملك لويز التاسع نفسه حيلة منه لاقناع مشاركيه للتوجه نحو تونس ربوءا بنفسه من النزول ثانية بمصر بعد انهزامه هناك وأسره ووضع القيود في يديه ورجليه ، وما زالت الذكريات الأليمة تحز في نفسه ولا ينسى ما

قاساه من فظاظة الطواشي صبيح في دار القاضي فخرالدين بن لقمان حتى أنه قال للأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة : « سألتك بدينك الا ما قتلتموني ورحمتموني من حس هذا الخادم ونظره فانه أصعب علي من كل ما أنا فيه »[٣٨] .

وقد هدده أمير مصر حينما علم أن الحملة الثامنة ستقصد مصر فأرسل له رسولاً ينشد بين يديه قصيدة للصاحب بن مطروح يحيي بن عيسى جمال الدين (٥٩٣ ـ ٦٤٩ هـ ـ ١١٩٦ ـ ١٢٥١ م)[٣٩] يحذره من الرجوع الى مصر ويلوح له أن دار ابن لقمان على حالها وأن صبيح سيحرسه من جديد . ولا ندري في أي مكان استقبل لويز التاسع السفير المصري ، هل في قاقلياري أم في تونس[٤٠] . الا أن هذه القصيدة قد راجت في تونس واتخذها المجاهدون التونسيون نشيدهم الحماسي مع بيتين للشاعر التونسي أحمد بن اسماعيل الزيات علق بهما على قصيدة ابن مطروح[٤١] . والقصيدة هي :

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ماجرى
من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها
تحسب ان الرمز بالطبل ريح
فساقك احي الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك اودعتهم
بسوء تدبيرك بطن الضريح
سبعون الفا لايرى منهم
الا قتيل أو أسير جريح
الهمك الله الى مثلها
لعل عيسى منكم يستريح
ان يكن البابا بذا راضيا
فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً انه
انصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم ان أزمعوا عودة
لأخذ ثأرٍ أو لفعلٍ قبيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح

أما (بيتا) الشاعر التونسي فهما :

يافرنسيس هذه أخت مثر
فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا
وطواشيك منكر ونكير[٤٢]

ويميل صاحب « المؤنس » الى نفس الرأي ، وهو أن لويز التاسع قد « ذلت نفسه على العودة الى مصر وأراد أن يأخذ ثأره من تونس فدمره الله تعالى »[٤٣]. ناهيك أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس حينما بلغه خبر غزو تونس كتب الى المستنصر « بوصول العساكر اليه نجدة له على الفرنج وكتب الى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير الى نجدته وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات برسم العساكر وشرع في تجريد العساكر »[٤٤] الا أن موت لويز التاسع ورحيل الصليبيين عن قرطاج حالا دون وصول النجدة المصرية الى تونس .

أما الشخصية الثانية التي أثرت في اتخاذ قرار تحويل الوجهة الى تونس ، فهو شارل دانجو ملك صقلية منذ سنة ١٢٦٨ وأخو لويز التاسع ، فقد شاهد هو نفسه الأسر بمصر مع أخيه وأراد أن ينتقم من المستنصر الذي لم يعترف به واحتفى بأعدائه وتدخل في شؤون صقلية الداخلية اذ استقبل منذ سنة ١٢٦٠ أميرين مسيحيين هما هنري وفريدرك دي قشتيلية وساعدهما على تنظيم غزوة ضد صقلية في أوائل اوت ١٢٦٧[٤٥] ، وكادا ينتصران ، لولا أن تراجع الأمر أخيرا لفائدة شارل دانجو ، فأسرع هذا بطلب اداء سنوي كان يدفعه قديما والد المستنصر أبو زكرياء الحفصي

لحاكم صقلية فريدريك الثاني وتخلى المستنصر عن دفعه حينها ولي شارل دانجو[٤٦] . وهكذا اتصل بأخيه لويز التاسع وحرضه على الهجوم على تونس كي تدخل في حوزته ، ووعده بأن يلتحق به بقرطاج في أسطول جرار . فيكون لشارل دانجو دور كبير في التأثير على أخيه لتحويل الأشرعة نحو تونس[٤٧] .

الصليبيون بقرطاج :

أ) استعداد المستنصر :

بلغ المستنصر بالله خبر الحملة الصليبية المتوجهة نحو تونس فأعد العدة للمواجهة الحاسمة ، ولم تكن هذه غزوته الأولى بعد ان انتصب في الخلافة ، فقد شن حروبا عديدة ولاقى ثورات كثيرة تغلب عليها ابتداء من ثورة عمه عليه سنة ٦٤٨ ، ثم أخيه سنة ٦٥١ ، الى ثورات قبائل عديدة عليه خاصة قبيلة رياح التي كان انتصاره عليها حدثاً كبيراً هنأته به الشعراء[٤٨] وحينها تأدى اليه خبر الهجوم الصليبي المزمع بادر بتحصين عاصمته باصلاح الأسوار[٤٩] ونادى بالاستعداد للعدو واستنفر الناس للجهاد كاتبا لهم قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »[٥٠] ، فاستجاب الناس حتى قال بعض المؤرخين « انه اجتمع في تلك الحرب من الخلق ما لم يجتمع في حرب منذ خلق الله سبحانه آدم عليه السلام »[٥١] .

وعقد المستنصر مجلس الشورى ، وهو يتكون من وجهاء الأندلسيين المهاجرين الى تونس والموحدين أصيلي المغرب الأقصى ، وعرض عليهم أن يدع الصليبيين ينزلون الى البر وهنالك تتم محاربتهم ومحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم حتى ينهزموا أو يصدهم عن النزول بقرطاج حتى تنفد ذخيرتهم من الزاد ويقلعون . وفي هذه الحال يخشى أن يولوا وجهتهم نحو احدى المدن الساحلية فيملكوها ويستبيحوها ويعسر ردهم (عنها)[٥٢] وقد استقر الرأى أن يتركوهم ينزلون فيطوقهم المسلمون من جميع النواحي . وقد حاول الخليفة الحفصي المهادنة لكن لويز التاسع امتنع « وغلظ للرسول وعرفه أنه متوجه اليه »[٥٣] . ويعلمنا ابن خلدون أن المستنصر أوفد رسله الى لويز التاسع « لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاتمام شروطهم فيما زعموا فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه الى أرضهم ، فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه »[٥٤] . ولم يكن هذا الموقف من المستنصر غريبا اذ جنح في الأول الى عرض المسالمة لكنه حين جوبه بالرفض لم يجد بدا من المواجهة فبدأ بتنظيم جيشه وتعبئته . وكان هذا الجيش محل عناية خاصة ، كان متنوعا ، وافر العدد ، عتيدا ، قويا « ضرورة أنه كان مكلفا بالسهر على أمن الأمير ومنوطا بعهدته السهر على أمن البلاد »[٥٥] . ويتكون من قسمين : « جند ملكي وهو حرس خاص بالأمير ، يتركب من فرقة للفرسان عناصرها مسيحيون ، ومن فرقة للمشاة تنوعت عناصرها وتغيرت فكانت من السود من سكان العاصمة ومن مهاجرين أندلسيين ومن أتراك وجميعهم مأجورون ، وكانت لهم خطوة خاصة في البلاط ويرتدون زيا خاصاً »[٥٦] .

وقد ذكر ابن الشماع هؤلاء الأتراك حينما أورد أن المستنصر أشار اليهم وكانوا بين يديه قائلاً عن لويز التاسع : « هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه »[٥٧] . وذلك « احتقارا لأمره فبلغ الفرنسيس مقالته فحقدها عليه وحشد أهل ملته واستعان بملوكهم »[٥٨] كما أن المقريزي أشار في « السلوك لمعرفة أحوال الملوك » الى الافرنج الذين كان يستخدمهم المستنصر وعابه الظاهر بيبرس باستعمالهم[٥٩] ، ويذكر ابن الشماع أن المستنصر كان يلازم بابه « ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب غدر الى ان رحل الصليبيون عن تونس »[٦٠] .

أما القسم الثاني من الجيش فهو الجند النظامي ،

ويتركب من مشاة وفرسان ، [illegible] قادته من الحفصيين الموحدين ، وعناصره من رجال القبائل ، يجندون بواسطة قبائلهم مقابل اعفائها من بعض الضرائب أو بعنوان مساهمة مجانية في المحافظة على أمن البلاد أو مقابل أجور معينة أو بعنوان ولائها للدولة ، ولم يكن عدده قارا ، بل تغير حسب الظروف ، وكثيرا ما انخرط في سلكه متطوعون عندما يداهم البلاد خطر أجنبي ، وكثيرا ما وقعت الاستعانة بالبدو الرحل عند الحاجة »[٦١]

وقد حلل الأستاذ برنشفيغ في الفصل التاسع من أطروحته ، نظام هذا الجيش وعناصره المختلفة ونقاط قوته وضعفه ، وأنواع أسلحته ، وطرق التحصين وكيفية قتاله[٦٢] ، ونص أن التونسيين كانوا لا يجهلون المجانيق[٦٣] ، استعملوها خاصة في الهجوم ، واستخدمت عند حصار المهدية سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ، لاعتصام أحد الثائرين ، بها ، « اذ كانت كل واحدة منها ترمي قذائف من الحجارة والكور الحديدية فتسقط وسط المدينة »[٦٤] . ولوحظ في الحملة الصليبية الثامنة استعمال المسلمين لآلات تقذف الرمال الرقيقة المحرقة في الوجوه فيقاسي منها الغزاة الويلات الشديدة[٦٥] .

ب) تنظيم المواجهة :

حينما استنفر المستنصر الناس ودعاهم الى الجهاد اجتمع له منهم عدد عظيم ، ووافته الأمداد من كل ناحية خاصة من الأندلسيين المهاجرين الى تونس ، وقد تسنى لهم أن يواصلوا جهادهم ، وكان مكان تجمعهم رادس ، الضاحية الجنوبية لتونس ، وعددهم زهاء أربعة آلاف فارس وكان يقودهم محمد بن أبي الحسين الأندلسي رئيس الدولة[٦٦] ، « وكان أحد رجالات الدنيا دهاء ورأيا وذكاء ومعرفة » حسب تعبير ابن قنفذ[٦٧] .

وعقد المستنصر لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمتطوعة ، مقابل الجيوش السبعة الصليبية التي يقودها سبعة من ملوك الفرنج حسب تصور المسلمين لجيش العدو . وكانت لهؤلاء الموحدين قيادة ثنائية يقوم بها يحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر[٦٨] . ويفيدنا ابن خلدون أن أبا هلال صاحب بجاية قد وصل الى تونس كما وصلت الجموع من قبائل وسدويكش وولهاصة وهوارة وزناتة وبني توجين[٦٩] .

وقدم المتطوعون من داخل افريقية خاصة من القيروان ونواحيها وضربوا خيامهم بأريانة ، وكانوا يهجمون كل يوم منها على قرطاج ، يقودهم الصلحاء والفقهاء والمرابطون[٧٠] .

ولنا نص ثمين ورد في « معالم الايمان في معرفة أهل القيروان » لابن ناجي يرسم فيه صفحة من هذا الجهاد المثير[٧١] . جاء في هذا النص :

« لما نزل الافرانسي وشرون[٧٢] بتونس وذلك عام ٦٦٨ بجيوش الصليبيين دمرهم الله وخاض حال الناس واشتد الأمر على المسلمين وفزع الناس من كل بلد توجه الشيخان المذكوران (أبو علي سالم القديدي وأبو علي عمار المعروفي) في جمع كثير من الناس فلما وصلوا الى قرب تونس نزلوا بأريانة وضربوا خيامهم فكانوا يمشون منها كل يوم للجهاد الى ان انقضت المقاتلة بين المسلمين والنصارى لصلح وقع بينهم وبين أمير المؤمنين المستنصر بالله ثم حدث بالشيخ أبي علي عمار مرض استرسال ببطنه فأقام الشيخ أبو علي سالم بسببه هناك أياما الى أن مات فدفنه بها وقبره هناك معروف مشهور يزار ويتبرك به » .

وكانت معنويات المقاتلين المسلمين جد مرتفعة ، كانوا مؤمنين بالنصر والغلبة ، كانوا يرددون أبيات ابن مطروح المصري وأحمد الزيات التونسي ، الا أن الجواسيس كانوا ينشرون دعايات مغرضة في صفوفهم منها أن السلطان يحدث نفسه بالانتقال الى قسنطينة[٧٣] أو الى القيروان[٧٤] .

ج) المعـــارك :

وصل الغزاة الصليبيون الى مياه قرطاج يوم ١٧ تموز ١٢٧٠ ، وحالما وصلوا ، أرسل لويز التاسع طلائعه في البر للاستكشاف ، فوجدوا المكان خاليا فأعلموا سلطانهم وأشاروا عليه بالنزول لكنه خشي خدعة حربية بالليل فجمع المجلس الحربي واستشار أعضاءه في النزول ، واختلفت الآراء وأخيرا أجلوه الى صباح الغد حيث نزلوا بقرطاج ولم يجدوا أي مقاومة[٧٥] . وقد انبهروا بسحر المكان ، أودية وغابات وكل ما تصبو اليه النفوس مما يمتعها ويحقق رغباتها[٧٦] ، ولمحوا قصرا فخما سرعان ما احتلوه . لقد « أنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة ، وكانت ماثلة الجدران ، اضطرم المعسكر بداخلها ووصلوا الى ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتهم وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا »[٧٧] . الا أنهم لم يجدوا ماء وكادوا يموتون عطشاً ، ولمحوا آبارا من بعيد حاولوا احتلال مواقعها لكن رُدّ المهاجمون عنها وقتلوا[٧٨] وأرسل الخليفة الحفصي الى لويز التاسع رسولا يطلب منه الرحيل والا فانه سيجر له جيشا يعد مائة ألف شخص[٧٩] ، لكن الصليبيين أصروا على الحرب ، وسرعان ما أدركوا أنه من العسير جدا عليهم احتلال تونس ، فهي مدينة جد محصنة ، يدافع عنها جيش عرمرم ، لذلك أحسوا بخيبة مرة وتخلوا عن نية الهجوم عليها واكتفوا بالدفاع عن موقعهم بقرطاج[٨٠] ، وقد بدأ المسلمون يناوشونهم من كل مكان في مجموعات تعتمد طريقة الكر والفر وتنال منهم كثيرا ، وكانت الهجومات عليهم لا تكف كل آن[٨١] . ولقي الصليبيون من أمرهم عنتا ، وشعروا بالوبال والندامة فبالاضافة الى القيظ الشديد الذي لم يتعودوا عليه ، كانوا يعانون من الرمال المحرقة التي يذروها التونسيون بآلات في وجوههم ، فتأخذها الرياح الساحلية الى الأنوف والأفواه « فهي تدخل الأجسام عن طريق التنفس وتجفف الرئات كما أن انعدام الماء الصالح للشرب وشرب المياه الآسنة والمتعفنة وأكل الأغذية الفاسدة جعلهم يحسون بأنهم مسجونون ، مطوقون من جميع الجهات »[٨٢] حتى انتشرت الحمى في صفوفهم وأصيب عدد كبير منهم بالاسهال وقضوا نحبهم ، من بينهم كونتات وأعيان عديدون منهم خاصة جان كونت دي نوفار المعروف بترستيان ابن لويز التاسع وكان أثيرا عنده ، وسرعان ما لحق به والده في ٢٥ أوت ١٢٧٠ في سن السادسة والخمسين بعد أن تولى الملك أربعا واربعين سنة[٨٣] . وقد فزع الصليبيون لموته . وخلفه عليهم ابنه فيليب الجسور (لوهاردي) .

وفي اليوم نفسه وبعد ساعات قليلة من موت لويز التاسع ، أطلت مراكب شارل دانجو محملة بالغزاة والأغذية . وكم كانت خيبة هذا الامير عظيمة حينما رأى الوضع المتردي بقرطاج وشعر بالمأزق الذي وقع فيه . ولا سيما وأن أخبار المعارك لم تكن مشجعة ، وقد تسرب في جيش الصليبيين عيون المستنصر على أنهم يرغبون في التنصر ولقوا أحسن استقبال[٨٤] ، وكان المسلمون يهجمون عليهم من جميع النواحي خاصة عبر البحيرة وهي موقع استراتيجي حاول شارل دانجو احتلاله بدون جدوى[٨٥] . ويذكر ابن خلدون بعض الوقائع الحربية التي أصاب فيها المسلمون (ثغرة) في العدو فظفروا وغنموا حينما سلكوا طريقا في البحيرة[٨٦] . ويذكر لقاء منتصف محرم من سنة ٦٦٩ بالمنصف حيث تقابل الفريقان في العشاء ليلاً ، وتكبدا خسائر باهضة في الأرواح وقتل من (الصليبيين) زهاء خمسمائة[٨٧] .

ويبدو أن المجاعة والعطش والوباء واليأس من الانتصار على هذه الجموع الغفيرة من المقاومين وقرب حلول فصل الشتاء ، عوامل دفعت الصليبيين الى طلب الصلح . وقد وقع هذا الطلب في نفس المستنصر الموقع الحسن اذ بدأ يضيق بالأمر بعد أربعة أشهر من القتال العنيف منذ حلوا بقرطاج في ١٧ تموز ١٢٧٠ . كما أن الوباء قد أخذ ينتشر في

صفوفهم لذلك رضي بالصلح[88] .

د) اتفاقية الصلح :

اشتملت اتفاقية الصلح على تسعة عشر بندا ، نصت على ضمان الأمن للمسلمين من رعايا المستنصر في بلاد الافرنج وكذلك الأمن لرعايا الممضين من المسيحيين في بلاد افريقية .

والممضون من الجانبين هم فيليب الجسور وشارل دانجو وتيبو ملك نافار والمستنصر وأبو زيان محمد بن عبد القوى أمير بني توجين الذي انعقد على يديه الصلح والعلماء عبدالحميد بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي (٦٠٦ - ٦٨٤) قاضي الجماعة والفقيه الشاعر[89] ، وعلي بن ابراهيم بن أبي عمر التميمي وهو كاتب بديوان الانشاء وأبو القاسم بن أبي بكر بن زيتون اليمني (٦٢٠ - ٦٩١) المدرس الشهير والعالم الكبير[90] .

كما أن الاتفاقية تضمن حرية التجارة بين الجانبين خاصة التردد والاقامة في بلادهما وعدم مساعدة الأعداء من الطرفين وطرد المهاجرين المعارضين وذلك لمدى خمس عشرة سنة بالاضافة الى تبادل الأسرى . ولئن كان هذا العقد يشجع تجار تونس على الأتجار في الشواطيء الأوربية فانه يحتوي على بنود أخرى غير مبررة وخاصة البند الثالث عشر والثامن عشر[91] .

فالبند السابع يقضي بأن يكون رهبان النصارى وقسوسهم ، سكانا في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين (هكذا) يعظون ويصلّون جهراً في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم » .

أما البند الثالث عشر فيقضي بأن يعطي المستنصر مائتي ألف أوقية ذهبا وعشرة آلاف أوقية من الفضة نصفها معجل والنصف الثاني مقسط في عامين .

والبند الثامن عشر أضيف أخيرا الى العقد ويقضي بأن يؤدي المستنصر لشارل دانجو أتاوة سنوية زيادة على اتاوة السنوات الخمس الماضية . وما زال المؤرخون التونسيون يتساءلون عن سبب قبول المستنصر لهذه الشروط علماً أنه كان في موقع قويّ . وقد أغرم الرعايا ما أعطاه من مال للعدو ، فدفعته عن طواعية[92] وطيب نفس[93] .

وبعد توقيع الاتفاقية دخل الصليبيون الى تونس كما دخل المسلمون معسكرهم وباعوا معهم واشتروا[94] . وبعد يومين أقلع الصليبيون بأساطيلهم يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٢٧٠ .

وفي رجوعهم الى صقلية أصابهم عاصف من الريح أغرق كثيرا من سفنهم وأهلك العديد منهم[95] .

وكان من نتائج هذه الحملة أن أمر السلطان الحفصي بتخريب قرطاج وتهديم سورها وما تبقى من بنيانها خشية من أن يعود الافرنج الى هذا المكان من جديد ويتحصنوا به[96] .

وقد حرص المستنصر أن يدعم ملكه ، ولم تثن هذه الحملة عزمه على التفتح نحو الامارات الغربية فما لبثت العلاقات أن عادت بين افريقية وصقلية وازدهرت التجارة بين التونسيين والاوربيين[97] . وقد فشلت هذه الحملة في ضرب قلب الاسلام الذي كانت تمثله تونس انذاك واستمرت افريقية في ذلك العصر موطن أمن وسلام وسط بلاد الأسلام الممزقة المغلوبة على أمرها[98] .

الهوامش

١ . De Bury , Histoire de Saint Louis Roi de France , Tours , 1896

٢ . الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفذ تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١٣٢ .

٣ . طبع بمصر في سبعة اجزاء سنة ١٣٢٨ ، انظر ج ٥ ، ص ٢٦٤ .

٤ . ج ٦ ، ص ٢٩٠ - ٢٩٥ ، ط بولاق .

٥ . تحقيق عثمان الكعاك ، مطبعة العرب ، تونس ١٩٣٦ ، ص ٦٥ - ٦٨ .

٦ . ص ١٣١ - ١٣٢ .

٧ . ط . تونس . ١٣٥٠ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

٨ . تونس ١٩٦٣ ، ص ١٦٢ .

٩ . تونس ١٢٨٣ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

١٠ . الدار التونسية للنشر د . ص ١٣٠ - ١٣١ .

١١ . Robert Brunschvig , LaoBerberie Orientale sous les Hafsides des origines a la fin de XVe . siecll , 2 t ., Paris , 1982 .

١٢ . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٥٤ ، ص ٩٦ - ١٠٧ .

١٣ . دار الغرب الاسلامي ، بيروت ١٩٨٦ ، وقد نشر هذا الفصل سابقا في مجلة « الحياة الثقافية » ، عدد ١٥ - ١٦ ، السنة ١٩٨١ . وذيل هذا الفصل باتفاقية الصلح بين المستنصر والصليبيين ولم يعد نشرها في الكتاب .

١٤ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 123 .

١٥ . ابن خلدون : تاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٢ ، يورد هذه الأخبار عن أبيه عن أبيه ، واليعسوب : هو رئيس القوم وكبيرهم .

١٦ . الفارسية : ص ١٣١ .

١٧ . الأدلة البينية : ص ٦٧ .

١٨ . R . Brunschig , La Berberie Orientale Orientale sous les Hafsides , t . 1 , P . 55 .

١٩ . التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٣ ، وانظر :
De Bury , Histoire de Saint Louis

٢٠ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 125 .

٢١ . R . Brunschvig , La Berberie Orientale , t . 1 , P . 61 .

٢٢ . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

٢٣ . Rene Grousset , l'epopee des Groisades , Plon ed ., 1939 , P . 349 .

٢٤ . انظر اطروحتنا عن الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي (تحت الطبع) ، وقد عرفنا بهؤلاء وبغيرهم وبينا دورهم في الحياة الأدبية بتونس أوائل العهد الحفصي .

٢٥ . ج ٦ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

٢٦ . نفسه : ص ٢٩٦ .

٢٧ . R . Brunschvig , La Berberie Orientale , t . 1 , P . 50—55 .

٢٨ . نفسه : ص ٥٦ .

٢٩ . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٢٩١ .

٣٠ . Rene Grousset , Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem , Paris , 1936 , t . 3 . P . 651 .

٣١ . منهم أخو ملك اشبيلية الذي أكرمه المستنصر وبذل له الأموال . انظر : الفارسية : ص ١٢٣ . وأميران صقليان انظر اسفله ملاحظة عدد ٤٥ .

٣٢ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 126.

٣٣ . نفسه .

٣٤ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 214 .

53 ¾ Louis Brehier , Les Croisades , Paris 1928 , P . 214 .

63 ¾ De Bury , Histoire de Saint , P . 126 .

٣٧ . انظر خاصة ديوان ابن الأبار ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٥ ، وديوان حازم القرطاجي ، تحقيق عثمان الكعاك ، بيروت ١٩٦٤ ، فهما يعجان بمدائح المستنصر .

٣٨ . انظر فصل لويز التاسع أسير المنصورة للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، مجلة « العربي » العدد ٣٤٠ ، مارس ١٩٨٧ ، ص ٦٠ .

٣٩ . شاعر مصري ولد بأسيوط وتوفي بالقاهرة خدم الملك الصالح أيوب ، كان ناظرا على الخزانة بمصر ثم نقل الى دمشق وعاد الى مصر بعد وفاة الملك الصالح وله ديوان شعر ، (الاعلام للزركلي : ج ٨ ، ص ١٦٢) .

٤٠ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩١ ، ولعل اللقاء كان بتونس كما يفهم من هذا المصدر .

٤١ . القصيدة في « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي ، ج ١ ، ص ٣٦٤ ، طبعة مصر ، وفي تاريخ ابن خلدون باختلاف ، ج ٦ ، ص ٢٩٢ ، وفي « الأدلة البينة » : ص ٦٦ .

٤٢ . نفس المرجع الا أن ابن خلدون لم يذكرهما وذكرهما صاحب « المؤنس » : ص ١٢١ . يقول الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور في فصله المذكور أن دار ابن لقمان قائمة بالمنصورة بجوار جامع سيدي عبدالله الموافي وهي مشيدة باللبن وكان لويز التاسع مسجونا بالطابق الارضي .

٤٣ . ص ١٢٢ .

٤٤ . السلوك ج ١ ، ص ٥٩٠ .

٤٥ . R . Brunschvig , La Berberie Orientale , t . 1 , P . 54 .

٤٦ . نفسه .

٤٧ . عرف امبراطور صقلية السابق فريدريك الثاني من عائلة الهوهنشتوفن بحسن علاقاته بالمسلمين المقيمين بصقلية من بقايا عرب الفتح وتسامحه معهم ومحبته للثقافة الاسلامية ، وحينما توفي لحقت مسلمي صقلية وجنوب ايطاليا اضطهادات ومعاملات سيئة . انظر : محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية : ص ٩٩ .

٤٨ . الفارسية : ص ١١٧ ، ١٢٩ - ١٣٠ .

٤٩ . Ch . Andre Julien , Histoire de l'Afrique du Nord , Payot , Paris , 1931 , P . 422 .

٥٠ . الأبي : اكمال اكمال المعلم : ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، والآية عدد ٤١ من سورة التوبة .

٥١ . نفسه .

٥٢ . ابن خلدون التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٢ .

٥٣ . الأدلة البينة : ص ٦٦ .

٥٤ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩١ .

٥٥ . أحمد بن عامر : الدولة الحفصية ، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٧٤ ، ص ٣٧ .

٥٦ . نفسه : ص ٣٨ - ٣٩ .

٥٧ . الأدلة البينه : ص ٦٥ .
٥٨ . نفسه : ص ٦٦ .
٥٩ . ج ١ ، ص ٦٠١ .
٦٠ . الأدلة البينة : ص ٦٨ .
٦١ . أحمد بن عامر : الدول الحفصية : ص ٣٩ .
٦٢ . ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ٩٨ .
٦٣ . نفسه : ص ٨٥ .
٦٤ ـ الدولة الحفصية : ص ٣٨ .
٦٥ ـ De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 130 .
٦٦ ـ عرفنا به في الجزء الاول من اطروحتنا .
٦٧ . الفارسية : ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
٦٨ ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٣ .
٦٩ . نفسه .
٧٠ . نفسه .
٧١ . ج ٤ ، ص ٢٢ ، نسخة مخطوطة بمكتبتنا . والكتاب مطبوع .
٧٢ . يعني شارل دانجو .
٧٣ . الفارسية : ص ١٣٢ .
٧٤ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٤ .
٧٥ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 127 .
٧٦ . نفسه .
٧٧ . **ابن خلدون** نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
٧٨ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 127 .
٧٩ . نفسه : ص ١٢٨ .
٨٠ . نفسه : ص ١٣٠ .
٨١ . نفسه : ص ١٣٠ .
٨٢ . نفسه ص ١٣٠ .
٨٣ . غلي جسمه في الخمر الممزوج بالماء ، وأخذ اللحم والأمعاء الى دير مونريال قرب بالرم بصقلية ، وأخذ القلب والعظام الى دير القديس دونيس بباريس (انظر : ص ١٣٥ من كتاب تاريخ القديس لويز) .
٨٤ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 129 .
٨٥ . نفسه : ص ١٣٦ .
٨٦ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٣ .
٨٧ . نفسه .
٨٨ . نفسه : ص ٢٩٤ .
٨٩ . و٩٠ عرفنا به في اطروحتنا .
٩١ . نشر نص الاتفاقية بالفرنسية عن العربية، وكذلك بالعربية مرات كثيرة ، انظر ملاحظة عدد ١ ، ص ٦٢ من اطروحة الاستاذ برنشفيغ ، ج ١ ، (بالفرنسية) .
وآخرها في مجلة « الحياة الثقافية » عدد ١٥ ـ ١٦ ، السنة ١٩٨١ ، بعناية الاستاذ محمد العروسي المطوي .
٩٢ . ابن خلدون : المصدر المذكور : ص ٢٩٤ .
٩٣ . الخلاصة النقية : ص ٦٣ .
٩٤ . الأدلة البينة : ص ٦٧ وتاريخ القديس لويز (بالفرنسية) : ص ١٣٩ .
٩٥ . ابن خلدون : المصدر المذكور : ص ٢٩٤ ، وتاريخ القديس لويز : ص ١٣٩ .
٩٦ . ابن خلدون : المصدر المذكور : ص ٢٩٤ .
٩٧ . محمد الهادي الشريفة تاريخ تونس : دار سراس للنشر ، تونس ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .
٩٨ . نفسه : ص ٥٣ .

* * *

رسالتان لصلاح الدين الأيوبي

بعث بهما الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله حول تحرير القدس سنة ٥٨٣ هـ وما سبق ذلك من انتصارات

« دراسة وتحقيق »

د. أحمد الحسو
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

د. عبد الواحد الرمضاني
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

« القسم الأول »

تعتبر رسائل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي/التي بعث بها الى خلفاء بني العباس وامراء المسلمين من جهة ، والى امراء الفرنج ممن كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام وفلسطين من جهة اخرى ، ذات أهمية تاريخية كبيرة ، لأنها تعكس نظرة هذا القائد الكبير تجاه أحداث عصر ، كان له هو شخصياً دور كبير في صنعها وتوجيهها .

وليس من شك ان بناء جانب كبير من تصوراتنا عن هذه المرحلة ، يعتمد على مدى جدية الجهود التوثيقية المنصبة على الرسائل المشار اليها ، وبمعنى آخر ، فان توفر وثائق مدروسة دراسة علمية رصينة عن هذه المرحلة ، يعني تهيئة لبنات سليمة تمكن المؤرخين ، والمنظرين منهم بشكل خاص ، من ان يبنوا تصوراً تاريخياً سليماً ، كما ان غياب هذه الدراسات التوثيقية يعني ان تاريخنا يبنى بلبنات غير سليمة ، وقد ينجم عنه ـ تبعاً لذلك ـ تصور مخطوء ، لذا فان ثمة ضرورة لوقفة نقدية ، أمام الأعمال التوثيقية المنصبة على هذه الرسائل ، وهو ما تحاول هذه الدراسة ان تفعله . ان دراسة مجموع الأعمال التوثيقية الخاصة بالرسائل المشار اليها ، هو ما يتطلع اليه الباحثان إلا انهما أمام مثل هذا الهدف ، وفي حدود ما يبغيان عرضه قاما باختيار رسالتين اثنتين من رسائل صلاح الدين الأيوبي ليكونا النموذج الذي تنصب عليه الدراسة . وقد جاء اختيارهما هذا نظرا لأن الرسالتين وردتا في الاصول الأولية المعاصرة لصلاح الدين ، أو في اصول تالية اعتمدت اصولا معاصرة ، ثم انهما كانتا موضع اهتمام عدد من المحققين وهو ما سنشير اليه أدناه .

الاصول التي وردت فيها الرسالتان :

حرر الرسالة الاولى[1] باسم صلاح الدين الأيوبي كاتبه عماد الدين الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ)[2] المعروف بالعماد الكاتب وهي موجهة الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره فيها بالانتصارات التي حققتها حروب التحرير في المرحلة التي مهدت لتحرير القدس ويشرح له انجازاته في تحرير طبرية ، وعكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفوطة ، السطور ، الشقيف وغيرها من القلاع اضافة الى حصن تبنين ومضائق صور .

لم تصل الينا هذه الرسالة عبر الآثار التي تركها لنا العماد الأصفهاني ، اذ ان كتابه « الفتح القسّي في الفتح القدسي » لم يتطرق الى الفترة السابقة لتحرير القدس ، في حين ان الرسالة تتعلق[3] بهذه الفترة ، كما ان الأجزاء الموجودة من كتابه الثاني ـ ونعني بها البرق الشامي ـ والتي ما تزال مخطوطة تحتفظ بها مكتبة المتحف البريطاني بانكلترة لم تتضمن نص الرسالة لأنه يقع ضمن الأجزاء المفقودة منه[4] .

أما فيما يخص الرسالة الثانية[5] التي حررها القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) ، والـذي كان بمثـابة مستشار او وزير بل ونائب عن صلاح الدين أحيانا[6] ، فقد تضمنت نقل البشرى للخليفة بتحرير القدس والانتصار على الفرنج سنة ٥٨٣ هـ . وصلت الينا هذه الرسالة عبر خطيات عديـدة للقاضي الفـاضل مما تحتفظ به مكتبات عديدة كمكتبة الأزهر ودار الكتب المصرية وغيرها[7] ، كما وردت الرسالتان كلتاهما كلاً او جزءاً في عدد من المصادر القريبة نسبياً من عصر صلاح الدين أبرزها كتاب : الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)[8] وكتاب مفرج الكروب لابن واصل (ت ٦٩٧ هـ)[9] ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)[10] ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ)[11] كما تضمنتها مصادر متأخرة ككتاب صبح الأعشى[12] .

الأعمال التوثيقية للرسالتين :

اهتم عدد من الباحثين بتحقيق وتوثيق الرسالتين موضـوعي البحث او احداهمـا في اطار تحقيقهم للمخطوطات التي تضمنتها كالدكتور المرحوم جمال الدين الشيال في تحقيقه لكتاب مفرج الكروب ، ومحمد محيي الدين عبدالحميد في تحقيقه لكتاب وفيات الأعيان ثم الدكتور احسان عباس الذي قام بتحقيق هذا الكتاب تحقيقا جديدا ومحمد عبدالرسول ابراهيم في تحقيقه لكتاب صبح الأعشى ، وعبدالستار أحمد فراج في تحقيقه لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي ، كما وردت الرسالتان ضمن النصوص التي احتواها كتاب الوثائق السياسية والادارية في جزئه الخاص بالحروب الصليبية والغزو المغولي للدكتور محمد مـاهر حمادة[13] معتمدا في ذلك على كتاب مفرج الكروب والروضتين . . . المشار اليهما آنفا ، كما ان الدكتور أحمد

أحمد بدوي الذي توفرت له خطيات القاضي الفاضل قام بتحقيق الرسالة الثانية[١٤] التي تناولها بالاهتمام كذلك الدكتور ناظم رشيد في تحقيقه لكتاب : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب للحنبلي .

نظرة نقدية :

ليس من شك ان أي جهد يبذل لنشر تراثنا العربي الاسلامي يعتبر خطوة تستحق التقدير الكبير وان ما قام بنشره وتحقيقه الباحثون المشار اليهم ـ وبينهم أساتذة عرفوا بمكانة علمية كبيرة ـ لا يشك بأهميته وفائدته للباحثين واذا كنا قد أخذنا أعمالهم ـ وبقدر تعلق الأمر بالرسالتين المشار اليهما ـ لتكونا موضع هذه الدراسة النقدية ، فليس المقصود بذلك التقليل من جهودهم ، بل القاء الضوء على مدى توفر الأسباب الموضوعية لتقديم أعمال توثيقية متكاملة وغير مجتزأة .

لتحقيق هذا الهدف قمنا بمقارنة النص الخاص بالرسالتين ، بين اصوله الاولى بعضها للبعض الآخر من جهة ، وبين هذه الاصول وبين المراجع الحديثة التي تولت تحقيقها من جهة اخرى ، وقد خلصت هذه المقارنة الى تقديم نص جديد للرسالتين لا ندعي انه يمثل أقرب صورة للشكل الذي كتبتا به من قبل محرريها ، ولكنه ـ في أقل تقدير ـ نص يستند الى اصوله الأولية ، ونعني بذلك كتاب الروضتين لأبي شامة ، ومفرج الكروب لابن واصل ، بالنسبة للرسالة التي حررها العماد الكاتب (الرسالة الاولى) ، أما الرسالة التي حررها القاضي الفاضل (الرسالة الثانية) ، فاننا لم نتمكن من الحصول على نصها المخطوط ضمن رسائل كاتبها المحفوظة في المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، ومكتبة الفاتيكان ، والمكتبة الوطنية بباريس وغيرها ، وان كنا قد أخذنا في المقارنة من النص الذي أخذ عن الرسائل المحفوظة بمصر ، مما تضمنه كتاب الدكتور أحمد أحمد بدوي الموسوم : « القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج » ، اضافة الى اننا أخذنا بنظر الاعتبار في تثبيت النص مقارنته بالمصادر والمراجع الاخرى التي تعرضت له . مما أشرنا الى تفصيلاته في الهوامش (انظر القسم الثاني من هذه الدراسة) .

ولقد أفرزت هذه المقارنة ، ودراسة الأعمال التوثيقية السابقة التي انصبت على هاتين الرسالتين النتائج التالية :

١ ـ يتضح من الجدول التالي ، وفي ضوء المقارنة بين مجموع الهوامش التوثيقية التي اعتبرناها ضرورية لسلامة النص المرفق بهذه الدراسة ، وبين هوامش الدراسات التي سبقتها ، ان نسبة كبيرة من الحالات التي لا تتفق النصوص فيها مع بعضها البعض الآخر ، لم يشر اليها في التحقيق الذي قام به محمد عبدالرسول في تحقيقه لكتاب صبح الأعشى ، ومحمد محيي الدين في تحقيقه لكتاب وفيات الأعيان ، والدكتور احسان عباس في تحقيقه للكتاب ذاته ، وعبدالستار أحمد فراج في تحقيقه لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة .

جدول يبين عدد الهوامش الخاصة
بالرسالتين الاولى والثانية

اسم المحقق	عدد هوامش الرسالة الاولى	عدد هوامش الرسالة الثانية	الملحوظات	المصدر
محمد عبدالرسول	١	٧	-	صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٥١٧ فما بعدها
محمد محيي الدين عبدالحميد	لم ترد الرسالة	٤	-	وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٩ - ١٨٦
عبدالستار أحمد فراج	٢٤	لم ترد الرسالة	بلغ عدد الاختلافات في النص الذي أورده القلقشندي في صبح الأعشى والانافة (٦ حالات)اي ان محقق الانافة لم يشر الى (٢٩ حالة) منها	مآثر الانافة ج ٣ ص ٣٠١ - ٣٠٨
د. احسان عباس	لم ترد الرسالة	٢٣	-	وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٨٠ - ١٨٦
محمد ماهر حمادة	٦	٢	قدم أكثر من نص للرسالة الواحدة مما يساعد على المقارنة	وثائق الحروب الصليبية ج ٥ ص١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، رقم ٤٧ ، مكرر ٤٩ و٥٠
د. أحمد أحمد بدوي	لم ترد الرسالة	لم يذكر أية هوامش تتعلق بصلب النص	اهتم بالجانب اللغوي فقدم (١٥٥) هامشا تتضمن شروحا لغوية	القاضي الفاضل/دراسة ونماذج ، مصر ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م ص٨٨-١٠٣
الحسو/الرمضاني	٩٧	١٦٣	-	انظر القسم الثاني من هذه الدراسة

٢ ـ رغم ان الدكتور أحمد أحمد بدوي ، هو من الرواد الذين اهتموا بدراسة القاضي الفاضل ، وتحقيق ونشر أدبياته ، ومع توفر الخطيات الخاصة به بين يديه كما يفهم من قائمة مصادره التي رجع اليها في كتابه الموسوم : القاضي الفاضل[١٥] ، فانه لم يشأ ان يقدم لنا الرسالة الثانية التي ضمنها كتابه المشار اليه ؛ مقارنة بتلك الاصول الخطية ، بل اكتفى بالتأكيد على الجانب اللغوي ، في حين انه أشار الى (١٥٥) حالة اقتضت شرحا لغويا او تعقيبا موضحا ، ولم يشر الى حالة واحدة من حالات التباين بين هذا النص وغيره[١٦] .

٣ ـ أما الدكتور محمد ماهر حمادة الذي كان له فضل جمع عدد كبير من الوثائق في سلسلة (وثائق

الاسلام) ووضعها في متناول أيدي الباحثين ، فقد أورد نص الرسالتين موضوعتي البحث في الجزء الخامس من السلسلة المشار اليهاتحت عنوان « وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي . . . » ، بيد انه لم يقدم دراسة نقدية توثيقية للنص . ولعل كون الدكتور حمادة متخصصا في علم المكتبات ، وليس في علم تحقيق النصوص دفعه الى الاكتفاء بمجرد الاشارات غير الوافية كقوله في ما يخص الرسالة الاولى : « ذكر أبو شامة في كتاب الروضتين نصا يكاد يكون مطابقا لنصنا أعلاه »[١٧] . او كقوله في ما يخص الرسالة الثانية : « ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر ، فالقلقشندي نفسه يعيد نص هذه الرسالة مع شيء من الخلاف في صبح الأعشى ج ٢/٢٨٢ ـ ٢٨٩ ، كما وان أبا شامة في كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧ . يأتي بنص مختصر بهذه الرسالة وكذلك يفعل ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٧٠ ـ ١٨٠ ، وابن واصل في مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٨ ، وياقوت في معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٠ ـ ٢٢)[١٨] ومهما حاولنا ان نبرر منهج الدكتور حمادة فان حقيقة ان المتخصصين في علم المكتبات ليسوا في الواقع إلا رجال توثيق وتحقيق يجعلنا نتوقع شيئا أكثر مما قدمه الدكتور حمادة ، وإلا فماذا يضيف أحدنا اذا هو قدم وثائق غير موثقة ؟

٤ ـ في تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي الذي يتضمن توثيق الرسالة الاولى ، يلاحظ ان الرسالة رغم ورودها في كتاب آخر لهذا المؤلف وهو صبح الأعشى فان المحقق لم يقم بمقارنة النصين إلا في حدود ضيقة جدا ، حيث أشار الى (١٧) حالة من حالات التباين من مجموع (٤٦) حالة ، اي انه لم يأخذ بنظر الاعتبار أكثر من ٦٠٪ من مجموع حالات التباين[١٩] . كما انه لم يرجع في تحقيقه الى الاصول الاولى التي ورد فيها النص ، ونعني بذلك كتاب الروضتين وكتاب مفرج الكروب (آنفي الذكر) . ولعل من البديهي القول ان مثل هذا التجاهل للمصادر الأولية والاكتفاء بالنزر اليسير من الهوامش والتعقيبات على حساب غيرها ، مسألة مرفوضة في أي عمل توثيقي .

٥ ـ رغم ان الدكتور احسان عباس والدكتور ناظم رشيد في تحقيقهما لكتاب وفيات الاعيان وكتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب رجعا الى الاصول الأولية والاصول التالية ، خلافا لما فعله غيرهم كعبدالستار أحمد فراج ، إلا ان الجميع يتفقون في عدم مقارنة نص الرسالتين او احداهما مع الأصل الأول لهما ، ونعني بذلك رسائل القاضي الفاضل ورسائل العماد الأصفهاني ، بيد ان عذرهم في هذا واضح لأن معظم هذه الرسائل ما يزال مخطوطا والحصول عليها ليس مسألة ميسرة مما اضطرهم في جهدهم التوثيقي هذا الى التحدد بالمصادر المطبوعة ، قدر تعلق الأمر بالرسالتين موضوعتي البحث .

ان الاضطرار الى عدم الأخذ بالاصول الاولى التي ما تزال مخطوطة ، مهما كانت مبرراته يضعنا أمام اشكالية كبيرة لا تنحصر بالوثائق الخاصة بعصر صلاح الدين الأيوبي التي تناولنا جانبا منها في هذه الدراسة بل تتعداها الى كل حالة مماثلة في ما يتعلق بتراثنا العربي الاسلامي .

ان هذه الاشكالية في نظرنا ترجع الى الأسباب التالية :

١ ـ ان الجهود التوثيقية المنصبة على تراثنا العربي في اطاره العام تمثل جهودا فردية تعوزها كثير من الامكانيات ، وتحكمها ظروف خاصة ، وبالتالي فانها ترتفع او تنخفض في مستواها ، كلما كانت الظروف ملائمة او كانت على عكس ذلك ، كما ان اطراد هذه الجهود او تناقصها مسألة مرتبطة بمدى تشجيع نشر الأعمال التوثيقية والمردود الذي يوازي ما يرافقها من عمل مضنٍ ومتعب .

٢ ـ غياب المنهج التوثيقي الموحد من جهة ، وغياب الموقف الواضح من التراث الذي يترتب في ضوئه تحديد الاولويات في ما يجب ان يحقق أولا انسجاما مع مناهجنا ، وفلسفتنا التربوية ونضال امتنا .

٣ ـ تركيز الجهود على تجميع الوثائق والمخطوطات ـ وهو عمل ضروري ـ دون ان يرافق ذلك حملة موازية لهذا النشاط في اتخاذ تلك الوسائل التي تؤمن وضع هذا الحشد الهائل من المخطوطات والوثائق بين أيدي الباحثين مع الأخذ بنظر الاعتبار ما توفره التقنيات المعاصرة .

٤ ـ قلة المؤسسات والكوادر التوثيقية :

وبعد ، ألا يبرز هذا الواقع الحاجة الماسة الى حملة تميط اللثام عن وثائقنا بما يشبه حملة محو الامية ؟

أترانا من دون حملة كهذه سنتمكن من اعادة كتابة تاريخ امتنا العربية ؟

أليس من حق مؤرخينا ان يقف الى جانبهم جيل من الموثقين الذين تنصب جهودهم على العناية بتحقيق ونشر تراث امتنا مما هو موزع في مكتبات العالم ، شرقه وغربه ؟

أليس من حق مؤرخينا حين يقومون بمهمة وطنية وقومية وهم يعيدون كتابة التاريخ ان تكون بين أيديهم أعمال توثيقية تتجاوز اطار التوثيق الكلاسيكي الى المفهوم الموسع للتوثيق ، فتقدم اليهم الوثيقة محققة ومفهرسة بصيغ تختصر لهم الزمن ونعني بذلك :

التحليل البيبليوغرافي للوثيقة بأشكاله المختلفة . . .

اختزان هذه المعلومات على الآلة الحاسبة . .

استخدام وسائل التصوير الألكتروني على الأقراص البصرية المبتكرة حديثا ، والتي يمكنها ان توفر للمؤرخ مئات المخطوطات وآلاف الصفحات الى جواره ، وفي مكتب بيته .

تلكم تساؤلات لم يغب عن فكر القيادة جوهرها ، فهي في كل ما طرحته تلتقي مع ما دعا اليه السيد الرئيس القائد حين قال :

« يجب ان نهتم بالوثائق التاريخية في المكتبات المركزية ، وأماكن التوثيق الاخرى . علينا ان نجمع في مكتباتنا وفي مراكز التوثيق شتى الوسائل والتفسيرات التي يحتاجها الباحثون ، وعموم الاختصاصيين بما في ذلك المتعلقة بتاريخنا العربي ، على ان يكون النمط المتداول من وثائق التاريخ على نطاق واسع شعبيا هو النمط الذي يعزز وجهة نظرنا لأغراض النضال والصمود ، وقدرة الامة في التقدم الى أمام » .

من هنا ، فاننا ـ مؤرخين وموثقين بحاجة الى وقفة وثائقية نقدية نتعرف فيها على النقطة التي نقف عندها فعلا ، والنقطة التي يفترض ان نتحرك نحوها ضرورية، ومن عرف موقعه ، وعرف متجهه ، أمكنه ان يصير الى ما يريد .

الهوامش

(١) انظر نص هذه الرسالة في القسم الثاني من هذه الدراسة .

(٢) عن العماد الكاتب ، انظر ياقوت الحموي : معجم الادباء ، دار المستشرق ، بيروت ج ١٩ رقم ٤ ص ١١ ـ ٢٨ .

(٣) انظر مقدمة الفتح القسي في الفتح القدسي ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٥ .

(٤) تتوفر نسخة مصورة لهذين الجزءين لدى الدكتور ناظم رشيد ، وقد تفضل مشكورا باعارتها لنا لغرض هذه الدراسة .

(٥) انظر نص هذه الرسالة في القسم الثاني من هذه الدراسة .

(٦) انظر عنه د. احمد احمد بدوي ، القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٣٧٨ هـ/١٩٧٩ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٧ ـ ٦١ .

(٨) ابو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، طبعة دار الجيل بيروت ج ٢ ص ٨٩ ، ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ج ٢ ص ١٨٨ .

(١٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ١ مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م ، ج ٦ ص ١٧٩ ـ ١٨٦ ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت بلا تاريخ ، ج ٧ ص ١٨٠ ـ ١٨٦ .

(١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ط ١ : حيدر آباد الدكن ، ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ ج ٨ (حوادث ٤٩٥ هـ ـ ٥٨٩ هـ) .

(١٢) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية ، بتصويبات واستدراكات الشيخ محمد عبدالرسول عليها ، القاهرة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م ج ٦ ص ٤٩٦ ـ ٥٠٤ ، ٥١٧ فما بعدها .

(١٣) د. محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي (٤٨٩ ـ ١٢٠٦ هـ/١٠٩٦ ـ ١٤٠٤ م) ، دراسة ونصوص ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ ج ٥ ص ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٥ « رقم ٤٧ مكرر ، ٤٩ ، ٥٠ » .

(١٤) د. أحمد أحمد بدوي ، المصدر السابق ص ٨٨ ـ ١٠٣ .

(١٥) د. أحمد أحمد بدوي ، المصدر السابق ص ٨٨ ـ ١٠٣ .

(١٦) المصدر نفسه : ص ١٦٩ فما بعدها .

(١٧) د. محمد ماهر حمادة ، المصدر السابق ص ١٣٦ هامش (١) .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٤٤ هامش (١) .

(١٩) قارن الهوامش التي أوردها في تحقيقه النص في الانافة (المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠١ ـ ٣١٥) بما تضمنه تحقيقا للنص مقارنا بصبح الأعشى ، الهوامش ٦ ، ٧ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ /٣٦ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ـ ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ـ ٨٣ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ .

الرسالة الاولى

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي
الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله
يبشره فيها بالفتوح التي سبقت
تحرير القدس[1]
من انشاء العماد الأصفهاني

﴿ ولقد كتبْنا في الزَّبور من بعدِ الذِّكْر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون ﴾[2] .

(الحمد لله على ما أُنجز من هذا الوعد)[3] ، وعلى[4] نُصْرَتِه لهذا[5] الدين الحنيف من قبل ومن بعد) ، (وعلى أن اجرى هذه الحسنة التي ما اشْتَمَلَ على شِبْهِها كرام[6] الصَّحائِف ، ولم يُجادَلْ عن مثلها في المواقف في الأيام الامامية الناصرية زادها الله غُرَراً وأوضاحا ، ووالىٰ البشائر فيها[7] بالفتوح غُدُوّاً ورواحا ، ومكن سُيوفَها في كل مأزِق ، من كل مارق ، ولا أخلاها من سيرة سَرِيَّة تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيـدي أوليائهـا لتحمِيَ بالحقيقة حِمىٰ الحقائق ، وأنجزها الحقَّ وقذف به على الباطل الزاهق ، وملَّكها هوادِيَ المغارب ومرامِيَ المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفُها للبلاد مفاتح ، وأطرافُ أسِنَّتها لدماء الأعداء نوازح . والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيّده ، وأظفر جُنْدَه الغالب وأنجده ، وجَلا به جلابيبَ الظلماءِ وجدَّد جُدُدَه)[8] ، وجعل من[9] بعد عسر يسرا ، (وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهوَّن الأمر)[10] الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب الدين بقوله : (ولقد مَنَنَّا عليك مرة اخرى)[11] فالاولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم[12] والصحابة (والاخرى هذه التي عَتَقَ فيها[13] من رِقِّ[14] الكآبة . فهو[15] قد أصبح حرا[16] فالزمان[17] كهيئته استدار)[18] ، والحق ببهجته[19] قد استنـار[20] ، والمروق قد[21] رَدَّ ما كان عنده من المتاع[22] المستعار ، وغُسِلَ ثوبُ الفكر بما فجَّر الفجر من أنهار النهار ، وشفى الله غليـلَ صدورِ المؤمنـين برقـراق ماء الـمَـوْردات البوارد[23] . أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تَخْفَ عن القلوب الحافظة ، عزت سِيما الاسلام بِمُسَوَّمِها[24] ، وترادَفَ نصرُه بمُرْدَفِها[25] ، وأُخِذَتْ القرى وهي ظالمة فترى مُتْرَفيها كأن

لم تؤوَ فيها[٢٦] ، فكم أقدم بها حَيْزوم ، وركض فأتبَعَه سحاب عجاجٍ مركوم ، وضرب فإذا ضَرْبه كتاب جراح مرقوم ، وإلا فان الحروب انما عقدت سِجالا ، وانما جمعت رجالا ، وانما دعت خِفافاً وثقالا ، فإمّا سيوف تقاتل سيوفاً ، أو زحوف تقاتل زحوفا ، فيكون حد الحديد بيد مذكرا وبيد[٢٧] مؤنثا ، ويكون[٢٨] السيف في اليد الموحدة يغنى بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يغنى بالضرب مثلثا ، وذلك انه في فئتين التقتا ، وعَدُوَّتَيْنِ لغير مودة اعتنقتا . وان هـذه النُّصرة ان زويت[٢٩] عن ملائكة الله فما[٣٠] جحدت كراماتُهم ، وان زُويت[٣١] عن البشر فقد عُرفت قبلها مقاماتهم ، فما كان سيف يتيقظ[٣٢] من جفنه قبل ان ينبهه[٣٣] الصريخ ، ولا كان ضرب يُطير الهام قبل ضربٍ يراه الناظر ويسمعه[٣٤] المصيخ ، فكم قرية[٣٥] كأنها هجرت الموت وبها التاريخ ، وكم طعنة تَخِرُّ لها هضاب الحديد ولها[٣٦] شماريخ[٣٧] .

والحمد لله[٣٨] الذي أعاد الاسلام جديداً ثوبُه ، بعد ان كان[٣٩] جديداً حبلُه ، مبيضاً نصرُه ، مُخْضراً نَصله ، متسعاً فضلُه ، مجتمعاً شملُه . والخادم يشرح من نبأ[٤٠] هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، (ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر[٤١] البشرى بما أنعم الله به - من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر[٤٢] ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخه[٤٣] - وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيام حسوماً سخرها الله عليهم (فترىٰ القومَ فيها صَرعىٰ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية)[٤٤] (وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ البلاد على عروشها خالية)[٤٥] ، ورايتَها الى الاسلام ضاحكة كما كانت[٤٦] من الفرنج باكيـة)[٤٧] فيوم الخميس الأول فتحت طبرية (وفاض ريّ النصر من بُحَيْرتها ، وقضت[٤٨] على جَسْرها الفرنج فقضت نحبَها بِحَيْرتِها[٤٩] ، وفي[٥٠] يوم الجمعة والسبت كُسر الفرنج الكسـرة[٥١] التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذَ القرىٰ وهي ظالمة . وفي يوم الخميس الثاني سلخ الشهر[٥٢] فتحت عكا بالأمان ، ورفعت[٥٣] بها[٥٤] أعلام الايمان ، وهي ام البلاد ، واخت إرم ذات العماد ، (وقد[٥٥]) أصبحت كأن لم تَغْنَ بالمروق وكأن لم[٥٦] لم تفتقرْ من الاسلام)[٥٧] .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلبُ ملك الفرنج الأسير جيشه[٥٨] المكسور مكسور ، والحديد . . . الذي كان في يدهم [٥٩] يضربُ وجهَ الاسلام ، قد صار حديداً مسلماً يُفرِّق[٦٠] خطواتهم . . عن الاقدام ، وأنصارُ الصليب[٦١] وكِبارُه ، وكل من المعمودية عمدته والديْرُ دارُه ، قد أحاطتْ به يد القبضة ، وأُخِذَ رهناً[٦٢] فلا تقبل[٦٣] فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلامُ الاسلام عليها ، ونَكَصَتْ من عكا مِلّتهم على عَقِبَيْها وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يَوْمَيْها ، (بل ليس من ايامهم يومٌ

فيه خير وقد غسل عن بلاد الاسلام بدمائهم ما كان يَتخللها فلا ضَرَرَ ولا ضَيْر)[٦٤] ، وقد صارت البيع مساجد يعمرها[٦٥] من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح[٦٦] مواقفَ لخطباءِ المنابر واهتزت أرضُها لوقوفِ المسلمين[٦٧] فيها وطالما ارتجت لمواقف[٦٨] الفرنج ، (والبأس الأمامي الناصري قد أمضىٰ فتكاته[٦٩] على يد الخادم حتى[٧٠] . . . في الكنائس ، وان عَزَّ أول الاسلام بِحَطِّ تاجِ فارسٍ ، فكم حطت سيوفُه في هذا اليوم من تاجِ فارس)[٧١] .

فأمّا القتلىٰ والأسرىٰ[٧٢] فانها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الداوية[٧٣] والاسبتارية[٧٤] فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم[٧٥] سيوف[٧٦] نار الجحيم ورحل[٧٧] الراحل منهم الى الشقا المقيم ، وقتل الابرنس[٧٨] كافر الكفار (ونشيدة النار[٧٩] من يَدُهُ في الاسلام كما كانت يد الكليم) ، (وافترَّت النُّصرة عن ثغر عكا بحمد الله الذي يَسَّر فتحها وتسلّمتها الملّة الاسلامية بالأمان وعرفت في هذه الصفقة ربحها . وأما طبرية فافترتها[٨٠] يد الحرب فأنْهَرَت الحرب جُرحها فالحمد لله حمداً لا تُضْرَبُ عليه الحدود ، ولا تُزَكّىٰ بأزكىٰ منه العقود ، وكأنه بيت المقدس وقد دنا بالبيت الأقصى من أقصاه ، وبَلَّغَ الله فيه الأمل الذي علم أن لَنْ[٨١] يحصيَهُ وأحاطَ بأجله وأقصاه ، لكلِّ أجلٍ كتاب ، وأجل العدو هذه الكتائبُ الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدى لطاعته[٨٢] جناتُ نعيمهِ الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جَدِّ[٨٣] الاسلام وهَبَّ .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيد الدين[٨٤] دام تأييدُه في إهداء هذه البشرى نيابةً عن الخادم ووصفِ ما يسره الله لأوليائه من العزائم)[٨٥] والبلاد والمعاقل التي فتحت هي[٨٦] : (طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا الفولة[٨٧] ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة[٨٨] والولد[٨٩] المظفر تقي الدين (ظفره الله مضائق)[٩٠] بصور وحصن تبنين ، والأخ[٩١] العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من[٩٢] العساكر فينزل[٩٣] في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الاسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير[٩٤] بها الى ثغر[٩٥] عكا (المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعُددها)[٩٦] (وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه)[٩٧] .

هوامش وتعليقات الرسالة الاولى

١ - ورد في صبح الأعشى (ج ٦ ص ٥١٧) للقلقشندي : (في القدس) وهو خطأ صوبه القلقشندي نفسه في كتابه : الانافة (ج ٣ ص ٣٠١) كما ان هذا التصويب يتفق مع ما ورد في الروضتين

(ج ٢ ص ٨٩) لأبي شامة وما ورد في مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (ج ٢ ص ٢٠٤) لابن واصل ومع ما جاء في الرسالة نفسها حيث انها تشير الى ان الفتوح التي تطرق اليها النص هي تمهيد لفتح القدس .

٢ - سورة الأنبياء ، ١٠٥ .

٣ - مرآة الزمان : (والحمد لله على انجاز هذا الوعد) .

٤ - في صبح الأعشى الواو محذوفة وقد ثبتناها ، لأنها تنسجم مع السياق ولورودها في الروضتين ومفرج الكروب .

٥ - في مرآة الزمان والانافة : نصرة هذا .

٦ - في الانافة : (مثلها كرائم) بدلا من (شبهها كرائم) .

٧ - في الانافة : (اليها) بدلا من (فيها) .

٨ - العبارة بين القوسين من : (وعلى ان اجرى . . . وجدد جدده) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .

٩ - اضافة من مفرج الكروب ومن مرآة الزمان .

١٠ - في مرآة الزمان فأحدث من بعد أمر أمرا وهون هذا الأمر .

١١ - سورة طه ٣٧ .

١٢ - عبارة (صلى الله عليه وسلم) محذوفة في الانافة وفي مفرج الكروب .

١٣ - في مفرج الكروب : (بها) عوضا عن (فيها) .

١٤ - في مفرج الكروب : (ذل) عوضا عن (رق) .

١٥ - في مفرج الكروب : (وهو) بدلا من (فهو) .

١٦ - ورد في الروضتين وفي مفرج الكروب بعد كلمة (حرا) عبارة : (ريان الكبد الحرا) .

١٧ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (والزمان) .

١٨ - العبارة التي اعتمدناها بين القوسين هي عبارة مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، أما عبارة صبح الأعشى فهي (والاخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة فهو قد أصبح حرا فالزمان كهيئته استدار) .

١٩ - في صبح الأعشى (بمهجته) وقد ثبتنا في النص عبارة الروضتين وعبارة مرآة الزمان والانافة لانسجامها مع السياق .

٢٠ - عبارة : (والحق . . استنار) محذوفة في مفرج الكروب .

٢١ - كلمة : (وقد) محذوفة في الانافة .

٢٢ - وردت العبارة بين القوسين في مرآة الزمان : (رد ما عنده من الشعار) ويلاحظ اننا أضفنا الى مادة صبح الأعشى كلمة (المتاع) من الروضتين .

٢٣ - عبارة : (ماء الموردات البوارد) وردت في الانافة : (الموارد ذات البوارد) .

٢٤ ـ عبارة : (عزت سيا الاسلام بسومها) وردت في الانافة : (عزت غزاة الاسلام بسوميها) .

٢٥ ـ في الانافة : (بمردفيها) بدلا (بمردفها) .

٢٦ ـ في الانافة : (لم تر) بدلا من (لم تؤو) .

٢٧ ـ في الانافة : (ويد) بدلا من (وبيد) .

٢٨ ـ في الانافة : وردت عبارة (وهو ان) بدلا من (ويكون) .

٢٩ ـ في الانافة : وردت كلمة (زويت) بالراء .

٣٠ ـ كلمة : (فيا) اضيفت من (الانافة) .

٣١ ـ في الانافة : وردت كلمة (زويت) بالراء .

٣٢ ـ في الانافة : وردت كلمة (يتقيظ) بدلا من (يتيقظ) .

٣٣ ـ في الانافة : وردت كلمة (ينبه) بدلا من (ينبهه) .

٣٤ ـ في الانافة : وردت كلمة (ويسمع) بدلا من (ويسمعه) .

٣٥ ـ في الانافة : وردت كلمة (خربة) بدلا من (قرية) .

٣٦ ـ في الانافة : وردت كلمة (وهي) بدلا من (وها) .

٣٧ ـ العبارة بين القوسين من (وغسل ثوب الليل . . . ولها شماريخ) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .

٣٨ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : (فالحمد) بدلا من (والحمد) .

٣٩ ـ عبارة (بعد ان كان) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .

٤٠ ـ كلمة (نبأ) محذوفة في مرآة الزمان .

٤١ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : (ويورد) بدلا من (ويكرر) .

٤٢ ـ كلمة (شهر) مضافة من الانافة .

٤٣ ـ في مفرج الكروب وردت كلمة (سلخه) بدلا من (منسلخه) .

٤٤ ـ الحاقة الآية ٧ .

٤٥ ـ العبارة بين قوسين من (واذا رأيت . . . خالية) اضافة من الروضتين ومفرج الكروب مع الاشارة الى ان كلمة (خالية) وردت في المصدر الأخير (خاوية) ويفهم مما ذكره المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال (مفرج الكروب . . ج ٢ ص ٢٠٣ رقم ٢) انها وردت (خالية) في نسخة باريس من مفرج الكروب (رقم ١٧٠٢ ورقة ١٤ ب) .

٤٦ ـ في مفرج الكروب : (وكانت) بدلا من (كانت) .

٤٧ ـ العبارة بين القوسين المعقوفين وردت في مرآة الزمان بصيغة مختلفة

٤٨ ـ في الانافة : (وقعت) بدلا من (وقضت) .

٤٩ ـ في الانافة : (يقلقها وحيرتها) بدلا من : (فقضت نحبها بحيرتها) .

٥٠ ـ العبارة بين القوسين من (وفاض . . . فقضت نحبها بحيرتها وفي) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .

٥١ ـ في الروضتين ومفرج الكروب وردت عبارة : (نوزل الفرنج فكسروا) عوضا عن : (كسر الفرنج) .

٥٢ ـ في صبح الأعشى : (منسلخ الشهر) وقد ثبتنا في المتن عبارة مفرج الكروب لانسجامها مع السياق .

٥٣ ـ في الانافة : (واقيمت) بدلا من (ورفعت) .

٥٤ ـ في مفرج الكروب : (وبها) محذوفة .

٥٥ ـ كلمة : (قد) محذوفة في الانافة .

٥٦ ـ في الانافة : (كأن) بدلا من (وكأن) .

٥٧ ـ العبارة بين القوسين من (وقد . . . الاسلام) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب وقد ورد بعد العبارة المشار اليها في الانافة عبارة : (اذ بلغ المسلمون من أعدائهم المراد) .

٥٨ ـ في الروضتين ومفرج الكروب : (بجيشه) بدلا من (جيشه) .

٥٩ ـ كلمة : (يد) مضافة من الانافة ومفرج الكروب والروضتين .

٦٠ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب (يعوق) بدلا من (مفرق) .

٦١ ـ في الانافة (الصلبوت) بدلا من (الصليب) .

٦٢ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب وردت عبارة : (وغلق رهنه) بدلا من (وأخذ رهنا) .

٦٣ ـ في مفرج الكروب (يقبل) بدلا من (تقبل) .

٦٤ ـ العبارة بين القوسين من (بل ليس . . ولا ضير) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .

٦٥ ـ عبارة (مساجد يعمرها) مضافة من الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها دون عبارة صبح الأعشى وهي : (مساجدهم بها) ودون عبارة الانافة وهي : (مساجد بها) لانسجامها مع السياق .

٦٦ ـ كلمة : (المذابح) واردة في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها في المتن بدلا من كلمة (المناحر) الواردة في صبح الأعشى والانافة .

٦٧ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : (المسلم) بدلا من (المسلمين) .

٦٨ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : (موقف) بدلا من (المواقف) أما في الانافة فقد وردت : (الموقف) .

٦٩ ـ كلمة : (فتكاته) واردة في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من (مشكاته) الواردة في صبح الأعشى لانسجامها مع السياق .

٧٠ ـ الكلمـــة وردت في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من الكلمة الواردة في صبح

الأعشى لانسجامها مع السياق .

٧١ ـ العبارة بين القوسين من (والبأس الامامي . . . تاج فارس) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .

٧٢ ـ كلمة (الأسرى) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها دون صيغة الجمع التي وردت في صبح الأعشى وهي : (الاسارى) .

٧٣ ـ كلمة (الداوية) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وفي الانافة وقد اعتمدناها دون كلمة (الديوية) الواردة في صبح الأعشى .

٧٤ ـ كلمة (الاسبتارية) وردت في الروضتين وفي مفرج الكروب وقد اعتمدناها دون كلمة (الاستبارية) الواردة في صبح الأعشى وفي الانافة لصحتها كما هو وارد في المصادر التاريخية المعاصرة وتعني هذه الكلمة تعريب لكلمة (Hospitelliers) وهم طائفة من الفرسان الدينيين الذين كان لهم دور خلال الحروب الصليبية .

أما الداوية فهي منظمة دينية عسكرية كان هدفها حماية طريق الحجاج المسيحيين وتعرف باسم جمعية فرسان المعبد . انظر هامش الدكتور مصطفى زيادة رقم ٣ ص ٦٨ من كتاب السلوك للمقريزي ط ٢ منقحة القاهرة ١٩٥٦ .

٧٥ ـ في مفرج الكروب : (وقطعتهم) بدلا من (وقطع بهم) .

٧٦ ـ في الروضتين : (سوق) بدلا من (سيوف) .

٧٧ ـ كلمة (رحل) وردت في الروضتين وقد اعتمدناها دون كلمة (وصّل) الواردة في صبح الأعشى وفي الانافة ويلاحظ ان العبارة في مفرج الكروب وردت بالشكل التالي : (ودخل الداخل منهم الى الشقاء المقيم) .

٧٨ ـ عبارة : (وقتل الأبرنس) وردت في مفرج الكروب وقد اعتمدناها على الصيغ الواردة في الاصول الاخرى وهي : صبح الأعشى (وفتك بافرنس) الانافة : (وقتل بابرنس) ، والروضتين : (وقتل البرنس) والمقصود بذلك : أمير الكرك ارناط (Reynald of chatillon) انظر عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٢ هامش (٦) ، كذلك ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ١٩٧ ـ ١٩٨ .

٧٩ ـ كلمة (نشيده) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها على صيغة صبح الأعشى : (ومشيد) ويلاحظ ان العبارة (ومشيد . . . يد الكليم) محذوفة في الانافة . ويلاحظ كذلك انه قد اضيف العبارة التالية في الانافة : (وعجل بجسده الى السيف وبروحه الخبيثة الى النار) .

٨٠ ـ في الانافة : (ففافتسرتها) بدلا من (فافترتها) .

٨١ ـ كلمة : (لن) اضافة من الانافة .

٨٢ ـ في الانافة (جُزِيَ) بدلا من (هدى) .

٨٣ ـ كلمة (حد) وردت في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من (جدًّ) الواردة في صبح الأعشى .
٨٤ ـ الأمير رشيد الدين : يعرف بالرشيد بن البوشنجي .
٨٥ ـ العبارة بين القوسين من (وافترت النصرة . . . من العزائم) محذوفة في الروضتين كما ان هذه العبارة مضافا اليها كلمة (والبلاد) محذوفة كذلك في مفرج الكروب .
٨٦ ـ كلمة : (وهي) محذوفة في مفرج الكروب .
٨٧ ـ وردت في صبح الأعشى (القزلة) وقد اعتمدنا صيغة الروضتين ومفرج الكروب وقد رسمت فيهما : الفولة وهي قلعة حصينة كان الداوية قد اتخذوها حصنا لهم . انظر عنها : العماد الأصفهاني الفتح القسي من الفتح القدسي ، مطبعة الموسوعات القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٢٧ .
٨٨ ـ في الروضتين ومفرج الكروب : (كبيره) بدلا من (كثيره) . وانظر عن هذه القلاع العماد الأصفهاني ص ٢٥ فما بعدها .
٨٩ ـ في الروضتين ومفرج الكروب : (الملك) بدلا من (الولد) .
٩٠ ـ عبارة (ظفره الله مضايق) محذوفة في صبح الأعشى ، والانافة وقد أضفناها الى المتن من الروضتين ومفرج الكروب .
٩١ ـ في مفرج الكروب (الملك العادل) بدلا من : (العادل) .
٩٢ ـ عبارة : (قد كوتب بالوصول بمن عنده من) وردت في صبح الأعشى مضطربة وقد وردت بالصيغة التالية (قد اركب بالوصول من عنده) في الانافة ، وهي غير سليمة ، كما يتضح من السياق ، لذا فقد ثبتنا في المتن عبارة الروضتين ومفرج الكروب لاتساقها مع ملاحظة وجود فارق شكلي في العبارة المعتمدة حيث وردت كلمة (فيمن) في مفرج الكروب بدلا من كلمة (بمن) في الروضتين .
٩٣ ـ في مفرج الكروب : (وينزل) بدلا من (فينزل) .
٩٤ ـ عبارة (ويكثر عددها ويسير بها) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب ويلاحظ في الانافة ورود العبارة بالصيغة التالية : (فيكثر عددها ويسيرها) .
٩٥ ـ كلمة (ثغر) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .
٩٦ ـ عبارة (المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها) غير واردة في الروضتين ومفرج الكروب .
٩٧ ـ عبارة : (وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه) ثبتت في المتن من الروضتين ومفرج الكروب ، لانسجامها مع السياق مقارنة بعبارة صبح الأعشى والانافة التي جاءت بالصيغة التالية (والنهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يستقر فيه الهدى مشكور الاحسان ان شاء الله تعالى) ويلاحظ التقارب بين عبارة الروضتين وعبارة مفرج الكروب باستثناء ورود كلمة : (فهذا) بدلا من : (وهذا) وكلمة (الظلام) بدلا من : (الضلال) في المصدر الأخير .

الرسالة الثانية
رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي
الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي
يبشره فيها بتحرير القدس[1]
من انشاء القاضي الفاضل

« [1] أدام الله أيامَ الديوان العزيز النبوي الناصريّ ، ولا زال مظفر الجَدِّ بكلّ جاحد ، غنياً بالتوفيق[2] عن رأيِ كل رائد ، موقوفَ المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظَ البصر[3] والسيف في جَفْنه راقد ، وارد الجود والسحابُ على الأرض غير وارد ، متعددَ مساعي الفضل وان كان لا يُلقي إلا بشكر واحد (ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد)[4] ولا زالت غيوث فضله (الى الأولياء)[5] أنواءً الى المرابع[6] وأنواراً الى المساجد ، وبُعوث رعبهِ الى الأعداء خيلاً الى المراقب وخيالاً الى المراقد .

كتب[7] الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة[8] والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للأقلام فيه سَبْحٌ طويل ولطف لحمل الشكر[9] فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحِها مآرب ويسرى للأسرار في اظهارها مسارب ، ولله تعالى[10] في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضىٰ ، وقد[11] صارت امور الاسلام الى أحسن مصايرها ، واستتبت[12] عقائد أهله على أبين[13] بصائرها[14] وتقلص ظل رجاء[15] المارق[16] المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع[17] المشروط [وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه والفوز معروضا فقد بُذِلَت الأنفس في ثمنه ، وأُمِرَ أمْرُ الحق وكان مستضعفا وأُهِلَ رَبْعُهُ وكان قد قدِ عيف حين عفا[18] (وجاء أمر الله وانوف المارقين راغمة)[19] فأدلجت[20] السيوفُ الى الآجال[21] وهي نائمة (وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوارٌ أبانت ان الصباح عندها حِيانُ الحين[22])][23] واستردّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي[24] طارقا[25] واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت

على الصخرة قبلهم وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى[٢٦] بالماء غللهم[٢٧] ، (ولما قدم الدين[٢٨] عليها عرف منها سويداء قلبه وهنّأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من المارق بحربه)[٢٩] وكان الخادم لا يسعىٰ سعيه إلا لهذه المنقبة[٣٠] العظمى ولا يقاسي تلك البؤسىٰ إلا رجاء هذه النعمىٰ (ولا؟يناجز من استمطله في حربه ،ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه)[٣١] ، إلا لتكونَ الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعها مرفوعة[٣٢] ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، فكانت الألسنة ربما سلقته[٣٣] فأنضج قلوبها بالاحتقار[٣٤] ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فـأطفأهـا بالاحتمـال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر[٣٥] ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر[٣٦] ، [وإلاَّ فانَّ القعود يلين[٣٧] تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضُّها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد[٣٨] ، ولا يوفى به واجب التقليد الذي تَطَوَّقَهُ الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، (وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم يسألون لا جرم انهم أورثوا سرورهم وسريرهم خَلَفَهم الأطهر ، ونجلهم الأكثر وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفةِ فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة)[٣٩] ، فما غابوا لما حضر ، (ولا غضوا)[٤٠] لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت[٤١] به جنوبها (والى الصفائح ما عبقت به جيوبها][٤٢] وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشرق يهتدي بأنواره ، بل ان أبدى نورا[٤٣] من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف.

وكتاب الخادم هذا وقد أظفره الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا[٤٤] وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت[٤٥] حملاتُه وكانت (قدرة الله تصرف فيه العنان بالعَيان عقوبة)[٤٦] من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفا ، وغُضَّت[٤٧] عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة[٤٨] ، ونام جَفْنُ سيفه وكانت يقظته تريقُ نطف الكرى من الجفون ، وجدعت انوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى او راعفة بالمنون ، وأضحت[٤٩] الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامثَ ، والرب المعبود الواحد[٥٠] وكان عندهم الثالث ، فبيوت المؤمنين[٥١] مهدومة ، ونوبهم مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد[٥٢] الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل

المطامع[٥٣] الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عُصْرَة ، ولا في فناء الأفنية لهم نُصرة[٥٤] ، وقد ضربت عليهم الذلة[٥٥] والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة الى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد[٥٦] كان الخادم لَقِيَهم اللقاة الاولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صَرْعَةً لا يعيش معها[٥٧] بمشيئة الله نَفْـر ، وأُسر منهم من أُسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت[٥٨] به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح (وهم عن أنصاف محيل[٥٩] فانه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثار)[٦٠] فكم أهلة سيوف تقارضن الضـراب[٦١] بها حتى أعادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسيةٍ ركض عليها فارسها السهم الى أجل فاختلسَه ، وفَغَرَت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القِرْنَ على بعد المسافة فافترسه][٦٢] وكان اليوم مشهودا ، وكانت المـلائكة شهـودا[٦٣] ، (وكان المروق مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوعَ المارقين لنار جهنم وقودا)[٦٤] ، واسـر الملك وبيده اوثق وثائقه ، وأكد وصله[٦٥] بالدين وعلائقه : وهو صليب الصلبوت ، وقـائد أهـل الجبروت[٦٦] وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين (دهمائهم يبسط لهم باعه ويحرضهم)[٦٧] . وكان مد مدين في هذه الدفعة وداعه : لا جرم انهم يتهافت على)[٦٨] نارهم فراشهم ، وتجمع[٦٩] في ظل ظلامة خشاشهم ، فيقاتلون[٧٠] تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد[٧١] وأوثقه ويعدونه سوراً[٧٢] لا تَحْفِرُ حوافرُ[٧٣] الخيل خندقه .

(وفي هذا اليوم اسرت سراتهم ، وذهبت دهاتهم)[٧٤] ولم يفلت منهم[٧٥] معروف إلا القومص[٧٦] وكان لعنه الله ملياً[٧٧] يوم الظفر بالقتال ، ويوم الخذلان[٧٨] بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفاً من ان يلحقه مَنْسَر الرمح وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيـام بيده وأهلكه لموعده فكان[٧٩] لعدتهم فذالك ، وانتقل من ملك الموت الى مالك)[٨٠] .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر[٨١] عليها من الراية العباسية[٨٢] السوداء صِبغـاً ، البيضاءِ صنعـاً[٨٣] ، الخافقـة هي وقلوب أعدائهـا ، الغـالبـة[٨٤] هي ، (وعـزائم أوليائها)[٨٥] (المستضاء[٨٦] بأنوارها اذا فتح عينها البِشْر[٨٧] ، وأشارت بأنامل العَذَباتِ الى وجه النصر ، فافتتح بلد[٨٨] كذا وكذا وهذه[٨٩] أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن ، وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامع ومنائر[٩٠] وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد ان يُحْرِزَها ، ويتركها وراءه بعد ان ينتهزها ، ويحصد منها زيغا ويزرع

ايمانا ، ويحط من منائر جوامعها صلبانا[٩١] ويـرفع أذانـا ، ويبدل المذابح منـابر والكنـائس مساجد ، ويبوِّىء بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب[٩٢] عن دين الله مقاعد ، ويقر عينه وعيون[٩٣] أهل الاسلام ان تعلق[٩٤] النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور ، وان ظفر[٩٥] بكل سور ما كان يخاف زلزاله ولا زياله[٩٦] الى يوم النفخ في الصور . ولما لم يبق إلا القـدس وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها[٩٧] كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وان كنيستها الى الله شافعتهم ، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وان تموت بغصته فزاول البلد العصا[٩٨] من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قـد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار فعدل الى جهة اخرى كان للمطامع[٩٩] عليها مُعْرَج ، وللخيل فيها متولج فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منهـا ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها[١٠٠] ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها[١٠١] فاذا هم لا يصبـرون[١٠٢] على عبـودية الجـد عن عتق الصفح[١٠٣] فراسلوه ببذل قطيعة الى مده ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم[١٠٤] في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم[١٠٥] المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب[١٠٦] ولا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصـالها ، فصافحت السور بأكتافه[١٠٧] فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد اخلاده الى الأرض ويعلو علوه الى السماك ، فشج مرادع[١٠٨] أبراجها ، واسمع صوت عجيجها ورفع مثار عجاجها ، فأخلىٰ السور من السيارة[١٠٩] ، والحرب من النظارة فأمكن[١١٠] النقاب ، ان يسفر للحرب النقاب ، وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب فتقدم الى الصخر فمضغ سرده ، بأنياب معوله ، وحل عقده ، بضربه الأخرق[١١١] الدال على لطافـة أنمله ، وأسمع الصخرةَ الشـريفةَ حنينـه[١١٢] واستغاثتـه الى ان كادت تـرق لمقبله[١١٣] ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبح الأرض ، وفُتِحَ في السور باب سد[١١٤] من نجاتهم أبواباً وأخذ ينقب[١١٥] في حجره قال عنده يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئسوا من أصحاب الدور كما يئسوا من أصحاب القبور وجاء أمـر الله وغرهم بـالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغيتهـــــم وزمام أمـرهم ابن بارزان[١١٦] سـائلا ان يـوخذ البلد

بالسلم[١١٧] لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده الى التهلكة ، وعلاه ذل المَلْكَة[١١٨] بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب[١١٩] وكان حيناً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح اليه طرف آمل طامح[١٢٠] ، وقال : هاهنا اسارى مؤمنون[١٢١] يتجاوزون الالوف وقد تعاقد الفرنج على انهم ان هجمت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فعجلوا ، وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل[١٢٢] خصم إلا بعد ان ينتصف ولم يسل[١٢٣] سيف من يد إلا بعد ان تنقطع[١٢٤] او ينقصف ، وأشار[١٢٥] الامراء بالأخذ بالميسور[١٢٦] من البلد الماسور[١٢٧] ، فانه إن أخذ[١٢٨] حرباً فلا بد ان تقتحم[١٢٩] الرجال الأنجاد ، (وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد)[١٣٠] وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقر لفتكات ، واعتاق الحركات[١٣١] ، فقبل منهم المبذول عن يدٍ وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون)[١٣٢] ، (وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان)، فخدمها المرو، الى ان صارت روضة جنان ، لا جرم ان الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم[١٣٣] ، (فانهم - خذلهم الله - حموها بالأسل والصفاح (وبنوها بالعمد والصفاح)[١٣٤] واودعوا الكنائس بها بيوت الديوية[١٣٥] والاسبتارية[١٣٦] منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه[١٣٧] ، ولا يطرد[١٣٨] لألاؤه ، قد[١٣٩] لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه ، الا ان صار الحديد ؛ الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد (للرياض[١٤٠] لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق)][١٤١] .

[وأوعز[١٤٢] الخادم برد الأقصى الى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود واقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع[١٤٣] شهر شعبان فكادت السموات[١٤٤] يتفطرن للسجوم لا للوجوم[١٤٥] ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم[١٤٦] ، ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها[١٤٧] مسدودة وظهرت[١٤٨] قبور الأنبياء وكانت بينهم[١٤٩] مكدودة ، واقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها (وجهرت الألسن[١٥٠] بالله أكبر وكان سحر الزيغ يعقدها)[١٥١] وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب[١٥٢] من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه في حفافيه ، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه][١٥٣] .

(وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور ، فان قوى العساكر قد استنفدت مواردها وأيام الشتاء[١٥٤] قد مردت مواردها ،

والبلاد المأخوذة المشار اليها قد جاست العساكر خلالها ونهبت ذخائرها واكلت غلالها ، فهي بلاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفد ، وينفق عليها ولا ينفق منها وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرابط لبرها[155] ، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها وكل مشقة فهي[156] بالاضافة الى نعمة الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج[157] فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة فلن يدعوا[158] دعوة يرجو الخادم من الله انها لا تسمع ، ولن تزول[159] أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص[160] . فلذلك نفذنا[161] لسانا شارحا ، ومبشرا صادحا ينشر الخبر[162] على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته الى ساقته)[163] .

هوامش وتعليقات الرسالة الثانية

١ - الفقرات التي تبتدىء بمطلع الرسالة : (أدام الله الديوان العزيز (النبوي الناصري) وحتى عبارة : (واستتبت عقائد أهله على بصائرها) لم يوردها صاحبا الروضتين ومفرج الكروب على سبيل الاختصار كما ان كلمة (الناصري) لم ترد في وفيات الأعيان ، وفي شفاء القلوب .

٢ - وردت العبارة في صبح الأعشى (ص ٤٩٦) : غنيّ التوفيق ، وقد ذكر ان كلمة (غني) بيضت في الاصول الخاصة بصبح الأعشى (انظر الهامش) رقم (١) وان هذه الكلمة اضيفت للنص اعتمادا على رسائل القاضي الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤/أدب وقد اعتمدنا في النص عبارة (غنيا بالتوفيق) استنادا الى ما جاء في نص الرسالة التي أوردها الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه عن (القاضي الفاضل) لاتساقها مع النص ، ولتوفر عدد من الخطيات لديه عن القاضي المشار اليه كما أشرنا الى ذلك في القسم الأول من الدراسة (انظر هامش ١٤) اضافة لورودها بهذه الصيغة في وفيات الاعيان وفي شفاء القلوب .

٣ - بدوي : (مستيقظ النصر والنّصل) بدلا من (مستيقظ النصر والسيف) ويلاحظ اننا اعتمدنا كلمة (البصر) الواردة في نص شفاء القلوب من تحقيق الدكتور ناظم رشيد لانسجامها مع السياق خلافا لكلمة (النصر) الواردة في نص وفيات الأعيان لابن خلكان من تحقيق الدكتور احسان عباس وكذلك في النص الوارد في صبح الأعشى .

٤ - عبارة (ماضي حكم . . . الى راشد) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

٥ - عبارة (الى الأولياء) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل

المشار اليها .

٦ ـ في شفاء القلوب ووفيات الأعيان : (المراقع) .

٧ ـ بدوى : (وقد كتب) بدلاً من (كتب) .

٨ ـ بدوي : (لصبح هذه العزمة) بدلا من : (يصبح هذه الخدمة) ، كما ورد في شفاء القلوب ووفيات الأعيان كلمة (عزمة) بدلا من (الخدمة) .

٩ ـ ثبتنا المتن عبارة المصدرين السابقين لانسجامها مع السياق قياسا على عبارة صبح الأعشى وهي (ولطف الحق للشكر) أما العبارة التي اعتمدناها فانها قريبة من النص الذي أورده الدكتور بدوي .

١٠ ـ كلمة (تعالى) اضافة من النص الذي أورده الدكتور بدوي ويلاحظ ان كلمة (مسارب) السابقة للفظ الجلالة وردت في شفاء القلوب (مشارب) .

١١ ـ بدوي : (ولقد) بدلا من (وقد) .

١٢ ـ في شفاء القلوب ، ووفيات الأعيان (وقد استتبت) .

١٣ ـ سقطت كلمة (أبين) من صبح الأعشى ، (وقد اضيفت الكلمة من النص الذي أورده الدكتور بدوي) .

١٤ ـ (الواو) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .

١٥ ـ كلمة (رجاء) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .

١٦ ـ في مفرج الكروب . . . اختلاف يسير .

١٧ ـ اعتمدنا في المتن ما جاء في وفيات الأعيان والروضتين ومفرج الكروب وشفاء القلوب خلافا لعبارة صبح الأعشى وهي : فلما وقع الشرط حصل المشروط .

١٨ ـ العبارة بين القوسين (وكان الدين غريبا . . . وكان قد عيف حين عفا) محذوفة في الروضتين .

١٩ ـ عبارة (وجاء أمر الله . . . راغمة) مضافة من الروضتين ومن قبل ناشر صبح الأعشى كذلك استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

٢٠ ـ في وفيات الأعيان والروضتين وشفاء القلوب : (وادلجت) بدلا من : (فأدلجت) .

٢١ ـ في الروضتين : (والآجال) بدلا من : (الى الآجال وهي) .

٢٢ ـ العبارة بين القوسين (وصدق وعد الله . . . حيان الحين) محذوفة في الروضتين وقد وردت عبارة : عندها حيان الحين في وفيات الأعيان بصيغة مختلفة وهي : عندها حنان الجنين ، كما وردت في شفاء القلوب بصيغة : حنان الحين .

٢٣ ـ العبارة بين القوسين المعقوفين (وكان الدين غريبا . . . حيان الحين) لم يوردها صاحب مفرج الكروب على سبيل الاختصار .

٢٤ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : كلمة (النائم) بدلا من (النأى) ويتفق ما أورده

القلقشندي مع نص الدكتور بدوي .

٢٥ ـ في الروضتين (ثم) بدلا من (الواو) .

٢٦ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب (يشفى) بدلا من (تشفى) وقد اضيف في نص وفيات الأعيان كلمة (قلوبهم) قبل عبارة : تشفى بالماء غللهم .

٢٧ ـ العبارة من : (واستقرت على الأعلى . . . تشفى بالماء غللهم) . تتسق مع عبارة مفرج الكروب إلا ان تسلسلها من الرسالة جاء فيه مختلفا (انظرج ٢ ص ٢٣٩) ويبدو ان صاحب مفرج الكروب حين اختار مقاطع من الرسالتين لم يأخذ بنظر الاعتبار التسلسل المشار اليه في أكثر من حالة مما سنشير الى صفحاته عند وروده في هوامشنا تسهيلا لمهمة الباحث اذا ما أراد المقارنة .

٢٨ ـ وردت العبارة في شفاء القلوب (ولما قدم صلاح الدين عليها . .) ولا تتفق هذه العبارة مع النصوص المتوفرة كافة . لذا فقد آثرنا الاشارة اليها هنا فحسب .

٢٩ ـ العبارة بين القوسين : (ولما قدم الدين . . . بحربه) غير واردة في الروضتين ومفرج الكروب .

٣٠ ـ كلمة (المنقبة) مضافة من الروضتين ومفرج الكروب ومن نص الدكتور بدوي .

٣١ ـ ورد المقطع الأول من العبارة بين القوسين : (ولا يناجز من استمطله في حربه . . .) بصيغة مختلفة في الروضتين وفي مفرج الكروب وهي (ولا يحارب من يستظلمه) أما بقية العبارة وهي : (ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه) فهي غير واردة في المصدرين المشار اليهما أما في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب فقد وردت : ولا يفاخر من يستمطله وقد وردت كلمة (يتمادى) بدلا من (تمادى) في المصدرين الأخيرين .

٣٢ ـ العبارة بين قوسين : (والدعوة الى سامعها مرفوعة) محذوفة في وفيات الأعيان والروضتين ومفرج الكروب وفي شفاء القلوب .

٣٣ ـ في مفرج الكروب : (صلقته) بدلا من (سلقته) .

٣٤ ـ العبارة بين القوسين : (فأنضج قلوبها في الاحتقار . وردت في الروضتين (فأصح قلوبها بالاكتفاء والاقتصار) .

٣٥ ـ في الروضتين ومفرج الكروب : (رائجة جاسر) بدلا من (رابحة تجاسر) كما وردت فيها كلمة (تجاسر) بدلا من (جاسر) وكذلك في وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

٣٦ ـ العبارة ما بين القوسين المعقوفين (وكان الخادم . . . غمرة غامر) مطابقة لما وردت في مفرج الكروب باستثناء ما أشرنا اليه في الهوامش وانظر موضعها في النص الوارد في مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٠ .

٣٧ ـ في شفاء القلوب : العقود تلين .

٣٨ ـ عبارة : (مهر القوائم فتقضها . . كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ولا يرعى به حق الله في العباد) وردت في شفاء القلوب : (مهز بالزاي ـ القوائم فيفضها . . . كون القعود به فرض الجهاد) أما في وفيات الأعيان فوردت بصيغة (مهر القوائم . . كون القعود لا يقضي به فرض في الجهاد ولا يرعى به حقه في العباد) .

٣٩ ـ لم يرد لفظا الجلالة الواردان في العبارة بين القوسين ، وكذلك كلمة (الأطهر) في شفاء القلوب . كما ورد فيه وفي وفيات الأعيان عبارة (سرهم سريرهم) بدلا من (سرورهم وسريرهم) ويلاحظ ان كلمة (عنوان) وردت في صبح الأعشى : (علوان) وهو خطأ مطبعي ، كما ان كلمتي (سواد العلم) وردتا في وفيات الأعيان وشفاء القلوب بصيغة (سواد القلب) .

٤٠ ـ عبارة : (ولا غضوا) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

٤١ ـ في وفيات الأعيان : (فاطمأنت) بدلا من (مع اطمأنت) .

٤٢ ـ عبارة (والى الصفائح جيوبها) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها . وقد ورد في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (ما غنيت) بدلا من (ما عبقت) .

٤٣ ـ في المصدرين الأخيرين : (ان بدا نور) بدلا من (ان أبدى نورا) .

٤٤ ـ في نص صبح الأعشى (شفقا) والتصويب من : وفيات الأعيان .

٤٥ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (وكلت) بدلا من (فكلت) .

٤٦ ـ العبارة بين القوسين وردت في المصدرين الأخيرين (قدرا يضرب فيه العنان بالعنان وعقوبه) .

٤٧ ـ في شفاء القلوب : (وغصت) .

٤٨ ـ في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (دونها كثيفة) .

٤٩ ـ بدوي : (وأصبحت) بدلا من (وأضحت) .

٥٠ ـ في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب : (الفرد) بدلا من (المعبود) .

٥١ ـ وردت العبارة في المصدرين السابقين بصيغة لاتختلف عن هذا النص

٥٢ ـ في المصدرين السابقين : (القلاع) بدلا من (البلاد) .

٥٣ ـ في المصدرين السابقين وردت العبارة بالصيغة التالية (مذعنة لبذل القطائع) .

٥٤ ـ وردت العبارة في وفيات الأعيان بصيغة : (ولا في نار الأنفة لهم نصرة) أما في شفاء القلوب فوردت بصيغة : (ولا في نار الأكفة لهم نصرة) .

٥٥ ـ بدوي : (عليه) بدلا من (عليهم) .

٥٦ ـ بدوي : كلمة (قد) محذوفة .

٥٧ ـ بدوي : كلمة (بعدها) بدلا من (معها) ويلاحظ ان العبارة قبلها وردت في وفيات الأعيان

وفي شفاء القلوب بالصيغة التالية : (لا ينتعش بعدها) بدلا من (لا يعيش معها) .

٥٨ ـ وفيات الأعيان : قتلت .

٥٩ ـ وردت العبارة وفي وفيات الأعيان بالصيغة التالية : (وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم) وقد أشار المحقق الدكتور احسان عباس ان هذه هي قراءة احدى النسخ التي اعتمدها في التحقيق وان العبارة وردت مضطربة في سائر النسخ الاخرى ، وقال : وربما قرئت : (وعن انصاف) وجاءت العبارة في شفاء القلوب بصيغة مختلفة ، وهي (وعن المصاف يخيل بأنه قتلهم) .

٦٠ ـ عبارة (ونالوه ايضاً بثأر) وماقبلها مضافه من قبل ناشر صبح الاعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها

٦١ ـ بدوي : (الصراب ـ بالصاد ـ بدلا من (الضراب) بالضاد .

٦٢ ـ الفقرات بين القوسين المعقوفين (وإلا فان القعود يلين تحت . . فافترسه) (هامش٣٦ ـ ٦٢ من هذا النص) لم يوردها صاحب الروضتين ومفرج الكروب .

٦٣ ـ في الروضتين ، ولدى الدكتور بدوي : (وله شهودا) بدلا من (شهودا) .

٦٤ ـ العبارة بين القوسين

وردت بصيغة اخرى في الروضتين : (وكان الضلال صارخا ، وكان الاسلام مولودا) والعبارة هذه تطابق ما ورد في مفرج الكروب عدا كلمة (الصليب) فقد ورد بدلا عنها كلمة (الضلال) . كما انها تطابق ما ورد في نص الدكتور بدوي ، وجاءت عبارة وفيات الأعيان وشفاء القلوب مقاربة لها .

٦٥ ـ في مفرج الكروب : (وصلته) بدلا من (وصله) ويلاحظ ان كلمة (بالدين) بعدها وردت في شفاء القلوب مسبوقة باللام لابالباء . .

٦٦ ـ في مفرج الكروب ، وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (الواو) محذوفة .

٦٧ ـ العبارة بين القوسين (دهمائهم يبسط لهم باعه ويحرضهم) وردت في الروضتين وفي مفرج الكروب بالصيغة التالية (دهمائهم يحرضهم ، يبسط لهم باعه) كما ان كلمة (يحرضهم) سقطت في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب .

٦٨ ـ في صبح الأعشى : تهافت على نارهم . والتصويب من الروضتين ومفرج الكروب ، والانافة ونص الدكتور بدوي . اما في شفاء القلوب فوردت : تتهافت . . .

٦٩ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب ونص الدكتور بدوي : (ويجتمع) بدلا من (وتجمع) وقد وردت العبارة في وفيات الأعيان بصيغة : (ويجتمع على ضلاله حشاشهم) .

٧٠ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان : (ويقاتلون) بدلا من (فيقاتلون) .

٧١ ـ في وفيات الأعيان : (أشد عند) وفي شفاء القلوب (اشهد عقد) .

٧٢ ـ كلمة (لا) مضافة من مفرج الكروب .

٧٣ ـ كلمة (حوافر) ساقطة في مفرج الكروب .

٧٤ ـ العبارة بين القوسين : (وفي هذا اليوم . . . وذهبت دهاتهم) محذوفة في الروضتين . وفي وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (ودهيت) بدلا من (وذهبت) .

٧٥ ـ كلمة (منهم) مضافة من الروضتين ومن نص الدكتور بدوي ومن شفاء القلوب .

٧٦ ـ في الروضتين : (القمص) بدلا من (القومص) .

٧٧ ـ كلمة (مليا) وردت في صبح الأعشى ولدى الدكتور بدوي وقد اعتمدناها في المتن دون عبارة (جليا) الواردة في الروضتين اذ يبدو من رسم الكلمتين ان الثانية تصحيف للاولى .

٧٨ ـ في الروضتين : (ومليئا يوم) بدلا من : (ويوم) وواضح ان ما في الروضتين هو خطأ مطبعي فالمقصود (مليا) كما ان هذه الكلمة تتفق مع السياق ومع وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

٧٩ ـ في الروضتين : (وكان) بدلا من (فكان) .

٨٠ ـ العبارة بين القوسين : (وفي هذا اليوم . . . الى مالك) غير واردة في مفرج الكروب .

٨١ ـ في الروضتين : (يسر) بدلا من (نشر) .

٨٢ ـ في الروضتين ومفرج الكروب كلمة (العباسية) محذوفة .

٨٣ ـ في الروضتين (لبيضاء صنعائها) بدلا من (البيضاء صنعا) .

٨٤ ـ في الروضتين ومفرج الكروب : (العالية) بدلا من (الغالبة) .

٨٥ ـ (وعزائم أوليائها) اضافة من الروضتين ومفرج الكروب كما أشار ناشر صبح الأعشى إلا ان العبارة هذه وردت في رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

٨٦ ـ اعتبارا من مطلع العبارة التالية (المستضاء بأنوارها) وحتى عبارة (ورفع مثار عجاجها) لم يرد له ذكر في الروضتين وفي مفرج الكروب وقد وضعنا ذلك بين قوسين .

٨٧ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (عينها النشر) بدلا من (عنها البشر) .

٨٨ ـ في وفيات الأعيان (بلاد) بدلا من (بلد) .

٨٩ ـ في شفاء القلوب (وهذه كلها) بدلا من (وهذه) .

٩٠ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (منابر) بدلا من (منائر) .

٩١ ـ في وفيات الأعيان وردت العبارة بصيغة (وتحط من جوامعها صلبا ويرفع أذانا) أما في شفاء القلوب فوردت بصيغة : (ويحط من منائر جوامعها) .

٩٢ ـ العبارة (ويبوىء . . . للذب عن دين الله) ، متقاربة مع نص عبارة وفيات الأعيان وشفاء القلوب عدا كلمة (للذب) حيث ورد فيهما : (للقتال) .

٩٣ ـ في المصدربن السابقين : (عينه وعينه) بدلا من (عينه وعيون) .

٩٤ ـ في المصدرين السابقين : (ان يعلق) بدلا من (ان تعلق) .

٩٥ ـ في المصدرين السابقين : (وان يظفر) بدلا من (وان ظفر) .

٩٦ ـ كلمة : (لا) مضافة من نص الدكتور بدوي .

٩٧ ـ في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب : بمنعته .

٩٨ ـ كلمة (العصا) مضافة من نص الدكتور بدوي .

٩٩ ـ في وفيات الأعيان : (كان للطالع) وفي شفاء القلوب (للمطالع) .

١٠٠ ـ في المصدرين السابقين (فضمها) بدلا من (وضمها) .

١٠١ ـ في المصدرين السابقين (جمعها) بدلا من (اهلها) .

١٠٢ ـ في شفاء القلوب : لا يبصرون .

١٠٣ ـ في وفيات الأعيان : (عنق) بدلا من (عتق) .

١٠٤ ـ في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب اضافة كلمة (الخادم) بعد كلمة (فعرفهم) .

١٠٥ ـ بدوي : (فقدم) بدلا من (وقدم) .

١٠٦ ـ في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (ترمي) بدلا من (تضرب) ولم ترد عبارة (فلا تفارقها سهامها) في المصدر الأخير ، أما في وفيات الأعيان فوردت كلمة (ولا) بالفاء لا بالواو .

١٠٧ ـ وردت هذه الكلمة بالنون لا بالتاء في صبح الأعشى وقد اعتمدنا في المتن ما جاء في نص الدكتور بدوي . وقد سقطت في وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

١٠٨ ـ بدوي (مرادغ) بدلا من (مرادع) .

١٠٩ ـ ذكر المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال ان كلمة (السيارة) وردت بصيغة (الستارة) في الاصول التي اعتمدها في تحقيقه لمفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٩ هامش (١) .

١١٠ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (وامكن) بدلا من (فأمكن) .

١١١ ـ في الروضتين وفي مفرج الكروب : (الاحراق) بدلا من (الاخراق) .

١١٢ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (أنينه) بدلا من (حنينه) .

١١٣ ـ في المصدرين السابقين وفي الروضتين ومفرج الكروب : (لمقتله) بدلا من (لمقبله) .

١١٤ ـ بدوي : (من) بدلا من (في) كما وردت العبارة في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (وفتح في السرر بابا) بدلا من (وفتح في السور باب) .

١١٥ ـ في صبح الأعشى : (وأخذ نقب) والتصويب من وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

١١٦ ـ هو باليان ابن بارزان ، وقد أرسل ابان تحرير القدس الى صلاح الدين الأيوبي يطلب الأمان لنفسه انظر التفاصيل في ابن واصل : (مفرج الكروب ج ٢ في ٤١٣ فما بعدها) .

١١٧ ـ في شفاء القلوب : بالسلام .

١١٨ ـ في وفيات الأعيان : ذل الهلكة .
١١٩ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : وردت العبارة بالصيغة التالية : (طرح جنبيه في الأرض) عوضا من (طرح جبينه في التراب) .
١٢٠ ـ في المصدرين السابقين وردت العبارة بصيغة (لا يطمح اليها أمل طامح) بدلا من (لا يطمح اليه طرف أمل طامح) .
١٢١ ـ في المصدرين السابقين : (المسلمون) بدلا من (المؤمنون) .
١٢٢ ـ في المصدرين السابقين (ولا يقتل) بدلا من (فلم يقتل) .
١٢٣ ـ في وفيات الأعيان (ولا يغل) وفي شفاء القلوب (ولا يفك) بدلا من (ولم يُسَلّ) .
١٢٤ ـ في المصدرين السابقين : (تقطع) بدلا من (تنقطع) .
١٢٥ ـ في المصدرين السابقين : (فأشار) بدلا من (وأشار) .
١٢٦ ـ في المصدرين السابقين (الميسور) بدلا من (بالميسور) .
١٢٧ ـ بدوي (المأثور) بدلا من (المأسور) .
١٢٨ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (فانه لو اخذ) بدلا من (فانه ان اخذ) .
١٢٩ ـ في وفيات الأعيان (يتقحم) وفي شفاء القلوب (يقتحم) بدلا من (تقتحم) .
١٣٠ ـ في المصدرين السابقين : وردت العبارة بين القوسين بالصيغة التالية : (ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد) .
١٣١ ـ في المصدرين السابقين (وأثقل الحركات) .
١٣٢ ـ العبارة بين القوسين (وفتح في السور وهم ظاهرون) لم ترد في مفرج الكروب والروضتين .
١٣٣ ـ العبارة بين القوسين (وملك الاسلام . . . وأسخطهم) مطابقة لما ورد في مفرج الكروب انظر تسلسلها في النص ج ٢ ص ٢٣٩ ونلاحظ ان عبارة (فنيلوا بثأر) وردت في شفاء القلوب . . (قتلوا بثأر) .
١٣٤ ـ عبارة (وبنوها بالعمد والصفاح) اضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .
١٣٥ ـ عن (الداوية) و (الاسبتارية) انظر هامش رقم (٧٤) في الرسالة الاولى .
١٣٦ ـ وردت هذه الكلمة في صبح الأعشى : (الاسبتارية) ، ويبدو انه خطأ مطبعي ، وقد أشرنا الى ذلك في الهامش رقم (٧٣ ، ٧٤) من الرسالة الاولى .
١٣٧ ـ في شفاء القلوب : [الذي (لا) يطرد ماؤه] .
١٣٨ ـ في شفاء القلوب ووفيات الأعيان (ولا ينطرد) بدلا من (ولا يطرد) .
١٣٩ ـ في المصدرين السابقين : (وقد) بدلا من (قد) .

١٤٠ ـ في المصدرين السابقين : (كالرياض) بدلا من (للرياض) .

١٤١ ـ عبارة (للرياض . . . أوراق) أضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار اليها . ويلاحظ كذلك ان العبارة الواردة بين القوسين المعقوفين (فانهم خذلهم الله ، حموها بالأسل والصفاح . . . أوراق) غير واردة في مفرج الكروب .

١٤٢ ـ صبح الأعشى . . (واوزع) والتصويب من نص الدكتور بدوي .

١٤٣ ـ كلمة (شهر) محذوفة في مفرج الكروب .

١٤٤ ـ اضيف في مفرج الكروب بعد عبارة (فكادت السماوات) كلمة (النجوم) .

١٤٥ ـ عبارة (للسجوم لا للوجوم) محذوفة في مفرج الكروب وقد سقطت كلمة (الكواكب) في نص الدكتور بدوي .

١٤٦ ـ في مفرج الكروب وردت العبارة التالية (والكواكب فيها للطرب ينتثرن) بدلا من عبارة صبح الأعشى المثبتة في المتن وهي (والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم) .

١٤٧ ـ في مفرج الكروب ووفيات الأعيان وشفاء القلوب (طريقها) بدلا من (طرائقها) .

١٤٨ ـ في مفرج الكروب ولدى الدكتور بدوي (وطهرت) بدلا من (وظهرت) .

١٤٩ـ كلمة (بينهم) محذوفة في مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

١٥٠ ـ في مفرج الكروب (الألسنة) بدلا من (الألسن) .

١٥١ ـ عبارة (وجهرت الألسن .. يعقدها) أضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

١٥٢ ـ في مفرج الكروب ولدى الدكتور بدوي وردت عبارة (في وطنه الأشرف) بدلا من (في قطبه الأقرب) .

١٥٣ ـ العبارة الواردة بين قوسين معقوفين (واوزع الخادم ... بجناحيه) مطابقة لما ورد في مفرج الكروب باستثناء ما أشرنا اليه في الهوامش انظر تسلسل هذه العبارة فيه ج ٢ ص ٢٣٩ وقد جاء الجزء الأخير منها في وفيات الأعيان وشفاء القلوب بصيغة (فلو طار سرورا) بدلا من (فلو طار به سرورا) .

١٥٤ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (أيام الشقاء) بدلا من (أيام الشتاء) .

١٥٥ ـ في المصدرين السابقين (بساحلها) بدلا من (لبرها) .

١٥٦ ـ في وفيات الأعيان كلمة (فهي) محذوفة .

١٥٧ ـ في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : كلمة (فيا) محذوفة .

١٥٨ ـ في المصدرين السابقين : (فان يدعوا) بدلا من (فلن يدعوا) .

١٥٩ ـ في المصدرين السابقين : (ولن يكفوا) بدلا من (ولن تزول أيديهم) .

١٦٠ ـ في المصدرين السابقين : (تتخلص) بدلا من (تتلخص) .

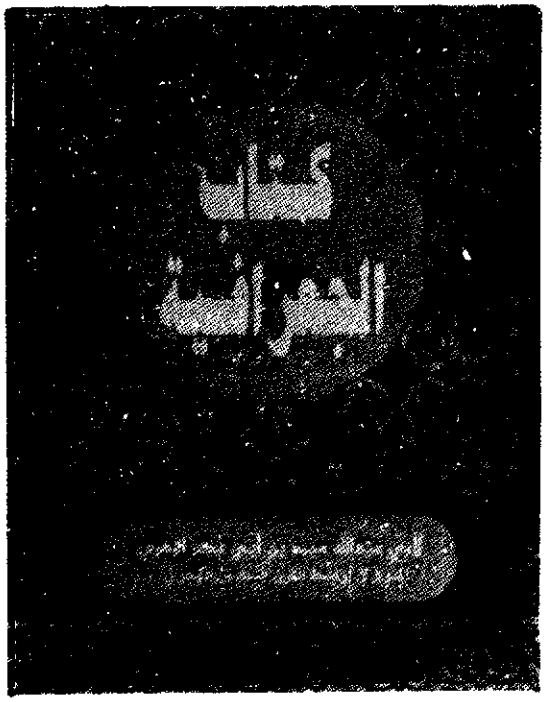
١٦١ ـ في صبح الأعشى : (نفذنا) والتصويب من نص الدكتور بدوي ووردت في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (نفذ الخادم) .

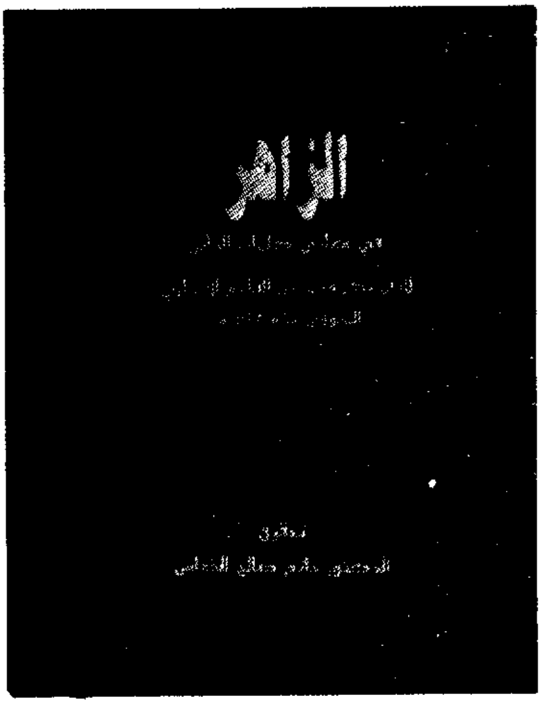
١٦٢ ـ بدوي : (مطالع الخبر) بدلا من (ينشر الخبر) ، وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (يطالع الخبر) .

١٦٣ ـ العبارة الواردة بين قوسين (وكتاب الخادم ، وهـو مجد .. ويعـرض جيش المسرة من طليعته الى ساقته) غير واردة في مفرج الكروب والروضتين .

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية





مصادر دراسة الحروب الصليبية

كوركيس عواد

عضو المجمع العلمي العراقي

١ ـ تمهيد :

ينطوي هذا البحث ، على « ثَبَتٍ » مستفيض بما أُلِّفَ عن « الحروب الصليبية » قديماً وحديثاً ، سواء أكان منها مكتوباً باللغة العربية أم بغيرها من اللغات . ويدخل في ذلك : « الكتب » و« الرسائل » و« الفصول » و« المقالات » و« النبذ » التي عني فيها مؤلفوها ، بتدوين أخبار تلك الحروب التي دامت زهاء قرنين من الزمان ، فقد نشبت عام ١٠٩٦ م ، واستمرت حتى عام ١٢٩١م .

رتبنا مواد هذا الثَّبَت ، على صنفين اساسيين :

الاول : ماكان مؤلفاً باللغة العربية ، أو ببعض اللغات الشرقية التي تتخذ الحروف العربية في ما تكتبه . وقد أدرجناها على حسب السياقة الهجائية لعناوينها .

الثاني : ماكان موضوعاً باللغات الغربية التي تتخذ الحروف اللاتينية وسيلة للكتابة . أما مايكتب منها بغير تلك الحروف ، كالروسية ونظائرها ، فقد حولناها الى الحروف اللاتينية ، تيسيراً لطبعتها في مطابعنا ورتبناها جميعاً وفق السياقة الهجائية لأسماء كاتبيها ، أو قُلْ حسب الشهرة التي عرفوا بها .

ولقد اتخذنا في تضاعيف هذا البحث ، الرموز الآتية ، التماساً للإختصار ، هي :

ت	توفي ، المتوفى سنة
جـ	جزء
ح	حاشية
خ	خارطة
د	دكتور
د ت	دون تاريخ ، أي ان المرجع لم تذكر فيه سنة طبعه
ص	صفحة
ط	طبعة (ط١ = طبعة أولى . ط٢= طبعة ثانية . الخ)
ط ر	طُبع بالرونيو
ظ	أنظرْ
ع	عدد
ق	قَرْن
ل	لوح ، لوحة
م	سنة ميلادية
مط	مطبعة
المط	المطبعة
هـ	سنة هجرية

إنه ليسرنا أن نضع اليوم هذا « الثبت » ، بين أيدي المؤرخين والباحثين ، من عرب وشرقيين ومستشرقين .

ولا بد من القول ، إننا لسنا ندعي بأن هذا الثبت قد أوفى على الغاية من حيث الاستيعاب والاكتمال . فلعل هنالك مراجع قديمة وحديثة قد شذت عنا في هذا السبيل ، ففاتنا التنويه بها . ومن ثمة ، فانّ مَن يستدرك على هذا التَثبت ، سيؤدي خدمةً مشكورة للتاريخ والتراث .

* * *

٢ ـ المراجع العربية :

١ ـ أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام .
(طُبع في القاهرة) .

٢ ـ أثر الحروب الصليبية في نشاط القوافل التجارية واعتدائهم عليها عبر سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٨١ ـ١٨٨) .

٣ ـ أثر الحروب الصليبية والمغولية (في عهد المماليك بمصر) .
بقلم : أحمد صادق الجمال .
(ضمن كتابه « الأدب العامّي في العصر المملوكي » . القاهرة ١٩٦٦ ؛ ص ٤١ فما بعدها) .

٤ ـ اجتماع الفرنج بعَكّا ، وإغارتهم على بلاد المسلمين ، وخروج الملك العادل الى الطُور لمحاربة الفرنج (سنة ٦٠٠ هـ) .
لابن الفُرات (محمد بن عبدالرحيم ، ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥م .
(تاريخ ابن الفرات » . تحقيق : د . حسن محمد الشمّاع ٥ [البصرة ١٩٧٠] جـ١ ؛ ص ١٣) .

٥ ـ اجتماع فِرَنج قبرص وعكّا وطرابلس وأنطاكية . . ، وعسكر ابن لاون وقصدهم بلاد المسلمين ، وما اتّفق من الصلح (سنة ٦١١ هـ) . لابن الفرات .
(« تاريخ ابن الفرات » ٥[١٩٧٠] جـ١ ؛ ص ١٥٣) .

٦ ـ احتيال الملوك الأيوبيين في رشوة النساء الفرنجيات لتجسس الصليبيين .
بقلم : حبيب زيّات ، ت ١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م .
(مجلة « المشرق » ٣٦ [بيروت ١٩٣٨] ص ٥٣ ـ ٥٦) .
و « الخزانة الشرقية » ٣ [بيروت ١٩٤٦] ص ٣٦ ـ ٥٩) .

٧ ـ الأخبار السنيّة في الحروب الصليبية .
تأليف : سيد علي الحريري .
(ط١ : القاهرة ١٣١٧ هـ = ١٨٩٩م ، ٢٩٣ص .
ط٢ : القاهرة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م ؛ ٤١٠ص) .

٧ أ ـ أدب الحروب الصليبية .
تأليف عبد اللطيف حمزة .
(القاهرة ١٩٤٩) .

٨ ـ أدوار الحركة الصليبية ومَدَاها الزمني .
للمقدّم الركن سالم أحمد زيتو .
(« المجلة العسكرية »٤٢ [بغداد ١٩٦٥] العدد الثاني) .

٩ ـ الأردن في أيام الحروب الصليبية .
بقلم : محمد صبري عابدين .
« مجلة الازهر » ٢٥ [القاهرة ١٩٥٣] ص ٥٩ ـ ٦٢

١٠ ـ أُسامة بن منقذ : بطل الحروب الصليبية .
بقلم : جمال الدين الآلوسي .
(مجلة « الرسالة الإسلامية » ١[بغداد ١٩٦٨]ع١ ؛ ص ٩١) .

١١ ـ أسامة بن منقذ : بطل الحروب الصليبية .
تأليف جمال الدين الآلوسي .
(بغداد ١٩٦٨ ؛ ٣٨٠ص) .

١٢ ـ أُسامة بن منقذ : صفحة من تاريخ الحروب الصليبية .
تأليف : محمد أحمد حسين .
(القاهرة ١٩٤٦ ؛ ٨ + ١٣٩ص) .

١٣ ـ الاسبان وفُرْسان القديس يوحنا في طرابلس .
(طرابلس ١٩٥٢ ؛ ١٤٥ ص) .

١٤ ـ استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين .
كتاب يُعدّه : عبد الله سعيد الغامدي ، من السعودية .

نـوّهت به نشـرة « أخبار التـراث العربي » ١٠ [القـاهرة ١٩٨٠/٨/١] ع ١٤٢ ؛ ص ٢ ـ ٣) . ولم نعلم « هل صدر ام لا

١٥ ـ استيلاء الفرنج على دمياط (سنة ٦١٣ هـ) وعَوْدُها الى المسلمين (سنة ٦١٨ هـ) .

لأبي الفداء (اسماعيل بن علي) ، ت ٧٣٢هـ = ١٣٣١م .

(تاريخ أبي الفداء ، وعنوانه : « المختصر في أخبار البشر » ٣ : ١٢٢ ، ١٢٩ ـ ١٣٠) .

١٦ ـ أسرة بني عمّار في طرابلس وعلاقاتها بالسلاجقة والفاطميين والصليبيين في القرن ٥ هـ = ١١م .

بقلم د . عبد السلام تدمري

(مجلة « تاريخ العرب والعالم » ٣[بيروت » نيسان ١٩٨١] ع ٣٠ ؛ص ٣ ـ ١٠ ؛ ع٣١[أيار ١٩٨١] ص ٣ ـ ١٠) .

١٧ ـ أسماء أُمراء الصليبيين في طرابلس .

بقلم : لويس شيخو ، ت ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م .

(مجلة « المشرق » ١١[بيروت ١٩٠٨]ص ٨٠٢ .

١٨ ـ أصل كلمة الداويّة .

بقلم : أوغسطين مرمرجي ، ت ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣م .

(« المشرق » ٢٩ [بيروت ١٩٣١]ص ٢٤١ ـ ٢٤٩) .

الداوية TEMPLIERS رهبنة عسكرية أنشئت في فلسطين أيام الحروب الصليبية .

١٩ ـ اضطراب العساكر على الملك الكامل ، وتأخره عن منزلته التي كان بها في مقابلة الفرنج ، ونهب الفرنج أثقال المسلمين (سنة ٦١٥ هـ) . لابن الفرات .

(« تاريخ ابن الفرات » ٥[البصرة ١٩٧٠ [جـ١ ؛ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩) .

٢٠ ـ أضواء جديدة على الحروب الصليبية .

تـأليف : د . سعيد عبد الفتاح عـاشـور . (القـاهـرة ١٩٦٤) . سلسلة « المكتبة الثقافية » .

٢١ ـ الاعتبار .

تأليف : أُسامة بن مُنقذ ، ت ٥٨٤ هـ = ١١٨٨م . طُبع هذا الكتاب غيرَ مرّةً

١ ـ نشره المستشرق الفرنسي ديرنبرث H. DERENBOURG في مجلدين : أحدهما للنص العربي ، والآخر للترجمة الفرنسية (باريس ١٨٨٩ ـ ١٨٩٥) .

٢ ـ حقّقه ونشـره : د . فيليب حِتِّيّ ت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٨م (برنستن ١٩٣٠ ؛ ٢٤٠ ص) .

راجع في شأن هذه الطبعة ، مجلة « الهلال » (القاهرة ١٩٣٠ [ص ٢٩٧ ـ٢٩٨ .

٣ ـ وقد أعادت مكتبة المثنّى ببغداد طبعة فيليب حتي هذه بالاوفست وطُبعت هذه الترجمة في الولايات المتحدة .

يـدور معظم هـذا الكتاب ، حـول أختبارات المؤلف في الحرب والفروسية أيام الحروب الصليبية .

٢٢ ـ الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين . وهو كتاب في تاريخ الحروب الصليبية .

تأليف : أحمد بن علي ابن المغربي أحمد بن الحريري ، ألف سنة ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م . منه نسخة خطية . في :

١ ـ المكتبة الوطنية بباريس : في ٣٠ ورقة .

٢ ـ المكتبة : التيمورية في دار الكتب المصرية برقم ٢٢٨٦ .

٣ ـ وعن هـذه الثانية ، نسخة مصـورة في معهد المخطوطات العربية (ف ٥٩٢) .

٢٣ ـ أعمال الفرنجة وحُجّاج بيت المقدس (الجستا) .

وهي مذكرات عن الحملة الصليبية الأُولى .

نقلها الى اللغة العربية ، وقدم لها ، وعلّق عليها : د . حسن حبشي . (القاهرة ١٩٥٨ ؛ ١٣٤ص) .

٢٤ ـ إغارة فرنج طرابلس الشام على جبلة (قلعة بساحل الشام) واللاذقية (سنة ٦٠١هـ) .

(« تـاريخ ابن الفرات » ٥[البصـرة ١٩٧٠] جـ١ ؛ ص٣٠ ـ ٣١)

٢٥ ـ إغارة الفرنج على حماة وحمص (سنة ٦٠١هـ) .

(« تـاريخ ابن الفـرات ٥[البصـرة ١٩٧٠ [جـ١ ؛ ص ٢ ـ ٣) .

٢٦ ـ الألقاب المتعلّقة بالحروب الصليبية .

بقلم د . حسن الباشا .

(ضمن كتابه : « الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار » ص ١١٤) .
٢٧ ـ إمارة الرُّهَا الصليبية .
تأليف : الدكتورة علية عبد السميع الجنزوري .
(القاهرة ١٩٧٥ ؛ ٤١٦ص) .
٢٨ ـ الأمير مودود والحروب الصليبية ٥٠٢ ـ ٥٠٧ هجرية .
بقلم : د . رشيد الجُمَيلي .
(« مجلة كلية الآداب » ـ جامعة بغداد ١٤ [بغداد ١٩٧١] ص ٤٦١ ـ ٤٧٠) .
٢٩ ـ انكماش النفوذ الصليبي في بلاد الشام في عصر المماليك وأثر ذلك في إحياء طُرُق التجارة عبر سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ١٩٤ ـ ٢٠٥) .
٣٠ ـ أهمية الطرق عبر سيناء في الحروب الصليبية .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ٧٠ ـ ٨٨) .
٣١ ـ الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية .
تأليف : بسّام العسلي .
(بيروت ١٩٧٨ ؛ ص ٣٨٠ص) .
٣٢ ـ بحث خاص عن دار ابن لُقمان بالمنصورة التي سُجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا في الحروب الصليبية .
تأليف : علي حسن الهاكع .
(المنصورة : مصر ١٩٤٩ ؛ ٢٢ص) .
٣٣ ـ بَحْرية صلاح الدين الأيوبي في البحر الأبيض المتوسط إبّان الحروب الصليبية .
بقلم : عبد الجبار محمود السامرائي .
(مجلة « آفاق جامعية » . ع ٤ [١٩٧٩] ص ١٨ ـ ٢٣) .
٣٤ ـ البركيس والشَلَندي [من السفن الحربية في أيام الحروب الصليبية . ج : البراكيس والشَلَنْدِيّات] .
بقلم : د . محمد مندور ، ت١٣٨٥هـ = ١٩٦٥ م .
(مجلة « الثقافة » ٦[القاهرة ١٩٤٤] ع٢٨٠ ؛ ص٤٥٤ ـ ٤٥٥) . ضمن نقده لكتاب « قوانين الدواوين » لابن مَمّاتي ، بتحقيق : د . عزيز سوريال عطية .
٣٥ ـ بواعث الحركة الصليبية .
للرئيس الركن سالم أحمد زيتو .
(« المجلة العسكرية » ٤١ [بغداد ١٩٦٤] ع٣) .
٣٦ ـ بين المسلمين والصليبيين .
بقلم : مزهر عبد السوداني .
ضمن كتابه : « الشعر العراقي في القرن السادس الهجري » . (بيروت ١٩٨٠ ؛ ص ١٦١ ـ ١٦٩) .
٣٧ ـ تأثير الحروب الصليبية والإتّصالات في المشرق .
للمستشرق ألدوميلي (ALDO MIELO)
(ضمن كتابه : « العلم عند العرب وأثره في تطوّر العلم العالمي » . نقله الى العربية : د . عبد الحليم النجّار ، د . محمد يوسف موسى . راجعة على الاصل الفرنسي : د . حسين فوزي .
القاهرة ١٩٦٢ ؛ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٠) .
٣٨ ـ تاريخ الحروب الصليبية .
تأليف : رفيق التميمي ، ت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م .
(ظ : « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة ٤[دمشق ١٩٥٧] ص ١٧٠) .
٣٩ ـ تاريخ الحروب الصليبية .
تأليف : ستيفن رانسيمان .
ترجمة : . السيد الباز العريني .
جـ١ : الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس . (دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ ؛ ٥٥٧ص) .
جـ٢ : مملكة بيت المقدس . (٩٣٢ ص) .
جـ٣ : مملكة عكا والحملات الصليبية (٩٥٢ص) .
٤٠ ـ تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، المدعوّة حرب الصليب .

تأليف : مكسيموس مونرو .
نقله الى العربية : البطريرك مكسيموس مظلوم ، ت ١٢٧٢هـ = ١٨٥٥م .
(جزآن : أورشليم [القُدس] ١٨٦٥ ؛ ٥٨٧ص) .

٤١ ـ تأمّلات في الإحتلالين الصليبي والصهيوني .
د . أنيس قاسم .
(منشورات الدار العربية للكتاب : ليبيا ـ تونس) .

٤٢ ـ تحول طريق الحجّ الى عيذاب وقُوص بسبب الخطر الصليبي في سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتاب : « شبة جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ، ص١٨٩ ـ ١٩٣) .

٤٣ ـ التزامُن بين الحروب الصليبية وألف ليلة وليلة .
تأليف : عبد الغني الملّاح .
بغداد ١٩٨٠ ؛ ٨٠ص) . سلسلة « الموسوعة الصغيرة » ـ ٧٣ .

٤٤ ـ التنافُس بين نور الدين محمود والصليبيين على مصر .
تأليف : علي سعود عطية محمود .
(رسالة ماجستير : الجامعة الامريكية ـ بيروت . ط د : بيروت ١٩٧٠ ؛ ٨٢ ورقة) .

٤٥ ـ ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية .
تأليف : د . نظير حسّان سعداوي .
(القاهرة ١٩٥٧ ؛ ٢٤ص) .

٤٦ ـ جيش مصر في أيام صلاح الدين ،
تأليف : د . نظير حسّان سعداوي .
(القاهرة ١٩٥٦ ؛ ١٢١ ص) .

٤٧ ـ الجيوش الصليبية والترية .
بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م .
(ضمن كتابه : « خِطَط الشام » ٥[دمشق ١٣٤٧هـ] ص ٢١ ـ ٢٢) .

٤٨ ـ حالات التحوّل الى الاسلام بين الصليبيين .
بقلم : توماس آرنولد ، ت ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .
(ضمن كتابه : « الدعوة الى الاسلام » . ترجمة : حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ؛ اسماعيل النحراوي . ص١٠٨ ـ ١١٧) .

٤٩ ـ الحرب الصليبية الأولى . [مذيلة بالترجمة العربية للحوليات الفرنجية GESTA FRANCORUM]
تأليف : د . حسن حبشي ،
(ط١ : القاهرة ١٩٤٧ ؛ ١٨٣ ص . ط٢ : القاهرة ١٩٥٨ ؛ ٢٣١ص) .

٥٠ ـ الحرب الصليبية الرابعة في مذكرات فيل هاردوان VILLE-HARDOUIN نقلها الى العربية عن الترجمة الانكليزية : محمد عبد الله عنان ، نشرها في كتابه : « مصر الاسلامية وتاريخ الخِطَط المصرية » .
(ط٢ : القاهرة ١٩٦٩ ؛ ص ١٤١ ـ ١٤٨) .

٥١ ـ الحرب والسلام زمن العُدْوَان الصليبي
تأليف : د . نظير حسّان سعداوي .
(القاهرة ١٩٦١ ؛ ٢١٢ ص) .

٥٢ ـ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى . تأليف : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
(١ ـ٢ : القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧ . ط٣ : ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ ؛ ١٣٢٧ص)
ترقيم صفحات المجلدين متسلسل .

٥٣ ـ الحروب الصليبية .
بقلم : أحمد تيمور ، ت ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م .
(« التذكرة التيمورية » . القاهرة ١٩٥٣ ؛ ص ١٤٥) .

٥٣أ ـ الحروب الصليبية .
تأليف : انتوني ويست .
ترجمة : العميد الركن شكري محمود نديم .
(بغداد ١٩٦٧) .

٥٤ ـ الحروب الصليبية .
للمستشرق الايطالي : أومبرتو ريزّيتانو (UMBERTO RIZZITANO) (ضمن دراسته : « الباحثون الايطاليون ودراسة التاريخ العربي » . ترجمة : د . عيسى الناعوري) .
وقد نُشرت هذه الترجمة في « مجلة مجمع اللغة العربية الاردني » (٢[عَمّان ١٩٧٩] ع٥ ـ ٦ ، ص

١٦٧ ـ ٢٠٥ ، المراجعة : ص ١٩٢ ـ ١٩٣) .
٥٥ ـ الحروب الصليبية .
بقلم : الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري .
ضمن كتابه : « الحرب عبر التاريخ » .
ترجمة العميد فتحي عبد الله النمر .
(القاهرة ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ؛ ص٢٥٣ ـ ٢٦٠)
٥٦ ـ الحروب الصليبية .
(مجلة « المقتطف » ٣٨ [القاهرة ١٩١١] ص ٥١٠ ـ ٥١١) .
٥٧ ـ الحروب الصليبية .
(ضمن كتاب : « الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب » . أصدرته : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية ، بإشراف : د . محمد كامل حسين ، القاهرة ، ص ٣١ ـ ٣٢) .
٥٨ ـ الحروب الصليبية : زمن الحرب الصليبية والصناعة السورية .
بقلم : ص . ي .
(مجلة « المقتطف » ٣٣ [١٩٠٨] ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦) .
٥٨أ ـ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب .
تأليف : محمد العَرُوسي المطوي .
(دار الكتب الشرقية ـ تونس ١٩٥٤ ؛ ٢٢٤ص)
٥٨ب ـ الحروب الصليبية وأثرهافي الأدب العربي .
تأليف : محمد سيد كيلاني .
(القاهرة ١٩٤٩)
٥٩ ـ الحروب الصليبية وأثرها في الشِعر العربي .
تأليف : محمد علي الهرفي .
(الرياض ١٩٨٠ ؛ ١٠٣) .
٥٩أ ـ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية .
تأليف : شاكر أحمد أبو بدر .
(بيروت ١٩٧٢ ؛
٦٠ ـ الحروب الصليبية وظاهرة شعر الجهاد .
بقلم : طراد الكبيسي .
(مجلة « حُرّاس الوطن » ٢٦[بغداد : نيسان ١٩٨١] ع٤ ؛ ص ٥٠ ـ ٥١) .
٦١ ـ الحملات الصليبية .
بقلم : نجيب العقيقي .
(ضمْن كتابة : « المستشرقون » ١[ط٣ : القاهرة ١٩٦٤]ص ١٣٧ ـ ١٤٠) .
٦٢ ـ حملة بطرس الفاسك الصليبية في ضوء كتابات آنا كومنينا .
بقلم : د . محمد محمد مرسي الشيخ .
(«مجلة كلية العلوم الاجتماعية » جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية ، ٢ [الرياض ١٩٧٨] ص ٢٩٥ ـ ٣٢٠) .
٦٣ ـ الحملة الصليبية الأولى .
بقلم : د . نبيه عاقل .
(ضمن كتابه : الامبراطورية البيزنطية » . دمشق ١٩٦٩ ؛ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٩) .
٦٤ ـ الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضدّ القسطنطينية .
تأليف : اسمت غُنيم .
(دار المجمع العلمي جدّة ١٩٧٨ ؛ ١٢٧ ص) .
٦٥ ـ حملة صليبية من فرنسة وجنوة على المهدية .
بقلم : محمد بن ابراهيم الزركشي ، كان حياً سنة ٩٣٢ هـ = ١٥٢٦م . (ضمن كتابه : « تاريخ المُوَحِدية والحفصية » تحقيق : محمد ماضور . ط٢ : تونس ١٩٦٦ ؛ ص ١١٢ ـ ١١٤) .
٦٦ ـ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .
تأليف د . محمد مصطفى زيادة .
(القاهرة ١٩٦١ ؛ ك + ٣٥٦ص) .
٦٧ ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
تأليف : أحمد أحمد بدوي .
(القاهرة ١٩٥٤ ؛ ٥٨٧ ص).
٦٨ ـ حياة الصليبيين في الشام ونُظُمهم السياسية

والإجتماعية والدينية .
بقلم : المقدّم الركن سالم أحمد زيتو .
(« المجلة العسكرية » ٤٢ [بغداد ١٩٦٥] ص ١٥٧ - ١٧٣) .
٦٩ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
تأليف : د . أحمد أحمد بدوي .
(القاهرة ، دت ، ٢٠٢ص) .
٧٠ - الحياة في بيروت في عهد الصليبيين .
بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧م .
(مجلة « المشرق » ٣١ [بيروت ١٩٣٣] ص ٧٢١ - ٧٢٩ ، ٨٥٢ - ٨٦٠ ، ٩٢١ - ٩٣٠) .
٧١ - دار ابن لُقمان في المنصورة : تاريخها وتخطيطها .
بقلم : أحمد تيمور ، ت ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م .
(مجلة « الزهراء » ٢[القاهرة ١٩٢٥]ص٢ - ١٨) .
هذه الدار في مدينة المنصورة بمصر ، وقد سُجن فيها لويس التاسع ، ملك فرنسة ، في إحدى الحروب الصليبية ، سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠م .
٧٢ - دار ابن لقمان ولويز التاسع ملك فرنسا .
قصيدة سينية ، لأحمد زكي أبي شادي ، ت١٣٧٤هـ =١٩٥٥م .
(مجلة « الزهراء » ٢[القاهرة ١٣٤٤هـ] ص ٩٤ - ٩٦) .
٧٣ - الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية .
بقلم : د . جوزيف نسيم يوسف .
(« مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية » ١٦ [الاسكندرية ١٩٦٣] ص ١٨٣ - ٢١١) .
٧٤ - دراسة لرحلة برتراندون دي لابروكييه الى فلسطين ولبنان وسورية [سنة ١٤٣٢م] وهي آخر محاولة برغندية للقيام بحرب صليبية ورحلة بروكية .
بقلم د : محمود زايد .
(مجلة « المؤرخ العربي » ع ١٤ [بغداد ١٩٨٠] ص ٢٣ - ٤٣) .
٧٥ - دفع الخطر الصليبي والمغولي (في عهد المماليك بمصر) .
بقلم : احمد صادق الجمّال .
(ضمن كتابه : « الأدب العامّي في مصر في العصر المملوكي » . ص ١٠ - ١١) .
٧٦ - دِمْياط في العصر الأيوبي [خلال الحروب الصليبية] .
بقلم : د . جمال الدين الشيّال ، ت ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م .
(ضمن كتابه : « مُجمل تاريخ دمياط » . الإسكندرية ١٩٤٩ ؛ ص ١٧ - ٣٩) .
٧٧ - الرحّالون الأوربيون في زمن الصليبيين .
بقلم : د . نقولا زيادة .
(ضمن كتابه : « رُوّاد الشرق العربي في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٤٣ ؛ ص ٨١ - ٩٤) .
٧٨ - الزحف الصليبي على بلاد الشام وموقف الفاطميين منه .
بقلم : د . محمد جمال الدين سرور .
(ضمن كتابه : « سياسة الفاطميين الخارجية » . القاهرة ١٩٦٧ ؛ ص ١٥٦ - ١٥٩) .
٧٩ - زيارة رسولين من الصليبيين للبلاط الفاطمي ليعقدا تحالُفاً مع الخليفة .
بقلم : د . زكي محمد حسن ، ت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م .
(في تعليقاته على كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور . ص ١٦٧) .
٨٠ - سوريا في زمن الصليبيين .
بق : د . نقولا زيادة .
(مجلة « المقتطف » ٨٧ [القاهرة ١٩٣٥] ص ١٦ - ٢٢ ، ١٩٣ - ٢٠٠) .
٨١ - سياسة مصر إزاء الصليبيين .

بقلم : د . محمد جمال الدين سرور .
(ضمن كتابه « دولة بني قلاوون في مصر » . القاهرة ١٩٤٧ ؛ ص ٢٣٢ - ٢٥٨) .

٨٢ - سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام .
بقلم : دُرَيد عبد القادر نوري .
(مجلة « آداب الرافدين » ٩[الموصل ١٩٧٨] ص ٤١ -٦٩) .

٨٣ - سيناء في جغرافية الحروب الصليبية .
بقلم : د . عبد الرحمن زكي ، ت ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م
(مجلة« المُشَاة » . ع٣٩ ، القاهرة ١٩٥٧) .

٨٤ - الشام تحت حكم الفرنجة [الصليبيين] .
بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م .
(« دائرة المعارف الاسلامية » : الترجمة العربية ١٣ [القاهرة] ص ٨٨ - ٩٢ ، ١٠٣ - ١٠٤) . وقد نقل هذه المادة الى العربية : ابراهيم زكي خورشيد .

٨٥ - شعر الجهاد في الحروب الصليبية .
تأليف : محمد بن علي الهرفي .
(القاهرة ١٩٧٩ ؛ ٤٠٧ص) .

٨٦ - الشرق الأدنى إبّان الحوب الصليبية .
بقلم : د . جمال الدين الشيّال ، ت١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م
(ضمن كتابه : « التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة » . بيروت ١٩٦٩ ؛ ص ٦٥ - ٧٦) .

٨٧ - الشرق الأدنى بعد الحروب الصليبية .
بقلم : د . جمال الدين الشيّال .
(ضمن كتابه : « التاريخ الاسلامي وأثره . . . » ص ٧٧ - ١١٣) .

٨٨ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١٠٥٠ - ١١٩٣م) .
تأليف : د . السيد الباز العريني .
(القاهرة ١٩٦٣) .

٨٩ - الشرق العربي بين شِقَّي الرحى : حملة القديس لويس التاسع على مصر والشام .
تأليف : د . حسن حبشي .
(القاهرة ١٩٤٨ ؛ ١٢٩ص) .

٩٠ - الشِعر والحروب الصليبية .
بقلم : د . محمد كامل حسين .
(ضمن كتابه : « في أدب مصر الفاطمية » . القاهرة ١٩٧٠ ؛ ص ٢٦٤ - ٢٧٥) .

٩١ - شُعلة الإسلام : قصة الحروب الصليبية .
تأليف : هارولد لامب .
ترجمة : محمود عبد الله يعقوب .
مراجعة : د . جمال الدين الشيّال .
(بغداد ١٩٦٧ ؛ ٦٦١ص) .

٩٢ - شهود العيان على فتح الصليبيين أنطاكية .
بقلم : أنور حاتم .
(مجلة « المشرق » ٣٢ [بيروت ١٩٣٤] ص ١٧٩ - ٢٠٠) .

٩٣ - شَيْزَر [وقلعتها في أثناء الحروب الصليبية] .
للمستشرق هونكمان E. HONIGMANN
(« دائرة المعارف الاسلامية » . الترجمة العربية ١٤ : ٤١ - ٤٦) وقد نقل هذه المادة الى العربية : ابراهيم زكي خورشيد .

٩٤ - الصِدَام بين الصليبيين وبين الأيوبيين في شبه جزيرة سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبة جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص١٠٨ - ١٣٤) .

٩٥ - الصراع بين الصليبيين والمماليك حول قبرص ورودس .
بقلم : د . علي حُسني الخربوطلي .
(ضمن كتابه : « الإسلام في حوض البحر المتوسط » ص ١٦١ - ١٦٢) .

٩٦ ـ صلاح الدين الأيوبي .
تأليف : أحمد عبد الجواد الدومي .
(القاهرة ١٩٦٦ ، ١٩٢ ص) .
مما في هذا الكتاب : أعمال صلاح الدين العسكرية ، وتاريخ الحروب الصليبية .

٩٧ ـ صلاح الدين الأيوبي ؛ قصة الحروب الصليبية في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد .
تأليف : قدري قلعجي .
(بيروت ١٩٤٧) .

٩٨ ـ صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية : حوار مع قدري قلعجي مؤلف هذا الكتاب .
بقلم : وليم الخازن ونبيه أليان .
(ضمن كتابهما : « كتب وأدباء » . صيدا ـ بيروت ١٩٧٠ ؛ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٧) .

٩٩ ـ صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد .
رواية . تأليف : جورج جرداق .
(ط٢ : بيروت ١٩٧٤ ؛ ٤٧١ص) .

١٠٠ ـ الصليبية أو الصليبيون .
بقلم : نجيب ، وأمين ، وسليمان : البستاني .
(« دائرة المعارف » ١١ [القاهرة ١٩٠٠] ص ١٣ ـ ٢٢) .

١٠١ ـ الصليبيون .
تأليف : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
(طُبع في القاهرة) .

١٠٢ ـ الصليبيون والتتر .
بقلم : عون الشريف قاسم .
(مجلة « العربي » ع ٢٥٥ ، الكويت : شباط ١٩٨٠ ؛ ص ١٥ ـ ١٦)
ضمن بحثه : « العرب وعبرة التاريخ » .

١٠٣ ـ الصليبيون ولغاتهم .
بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م .
(ضمن كتابه : « خِطَط الشام » ١[١٣٤٣هـ] ص ٨١) .

١٠٤ ـ الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام .
بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م .
(مجلة « المشرق » ٢٠[بيروت ١٩٢٢]ص ١٠٧ ـ ١١) .

١٠٥ ـ الصليبيون ومؤرخو السريان .
(مجلة المشرق) ٢٧ [١٩٢٩] ص ٩٣٧ ـ ٩٣٨ .
زمن الحروب الصليبية

١٠٦ ـ الصناعة السورية
زمن الحروب الصليبية
نشرت بتوقيع : ص . ي .
(« المقتطف » ٣٣ [١٩٠٨] ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦) .

١٠٧ ـ صورة المقاتل الصليبي في المصادر التاريخية العربية : دراسة عن فترة الحملات الثلاث الأولى (١٠٩٧ـ ١١٩٢م) .
بقلم : د . قاسم عبده قاسم .
(مجلة « قضايا عربية » ٥[بيروت ١٩٧٨]ع٤ ؛ ص ٣٩ ـ ٤٩) .

١٠٨ ـ طبيعة الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠هـ = ١٠٩٧م .
بقلم : د . خاشع المعاضيدي .
(« مجلة الجامعة المستنصرية » ٤[بغداد ١٩٧٤] ص ٢٨٠ ـ ٢٩٢) .

١٠٩ ـ العالم الإسلامي بين الصليبيين والمغول .
بقلم : د . ابراهيم أحمد العدوي .
(ضمن كتابه : « التاريخ الإسلامي : آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية » . ص ٣٦٠ ـ ٣٨٤) .

١١٠ ـ العُدْوان الصليبي على بلاد الشام : هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة .
تأليف : د . جوزيف نسيم لويس .
(ط٣ : الإسكندرية ١٩٧١) .

١١١ ـ العُدْوان الصليبي على مصر : هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور .

تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ ٤١٥ ص) .

١١٢ ـ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى .
تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(ط ١ : ١٩٦٣ . ط٢ : الاسكندرية ١٩٦٧ ؛ ٤٠٥ص) .

١١٣ ـ العلاقات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية .
تأليف : د . زكي النقاش .
(بيروت ١٩٥٣) .

١١٤ ـ علاقات الأيوبيين مع الصليبيين في شمال الشام .
بقلم : محمود ياسين أحمد التكريتي .
(ضمن كتابه : « الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة » . بيروت ١٩٨١ ؛ ص ٢٣١ ـ ٢٨٤) . مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية .

١١٥ ـ علاقات عربية بين الشرق والغرب : الحروب الصليبية .
بقلم : د . فيليب حِتّي ، ت١٣٩٩ هـ = ١٩٧٨م .
(ضمن كتباه : « تأريخ العرب : مطوّل » . الترجمة العربية . ط٣ : بيروت ١٩٥٣ ؛ ص٧٤٩ ـ ٧٧٩ .

١١٦ ـ العلاقات المملوكية الأراغونية في ختام الحروب الصليبية .
بقلم : د . حياة ناصر الحجي .
(ضمن كتابها : « العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري = الرابع عشر والخامس عشر الميلادي » . الكويت ١٩٨٠ ؛ ص١٧ ـ ٦٣) .

١١٧ ـ علاقات [الوزراء في العصر الفاطمي] مع الصليبيين .
بقلم : د . محمد حمدي المناوي .
(ضمن كتابه : « الوزارة في العصر الفاطمي » . القاهرة ١٩٧٠ ؛ ص ٢٢٥ ـ ٢٣٤) .

١١٨ ـ العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين .
بقلم : د . عبد الرحمن زكي ، ت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .
(« مجلة الجمعية التاريخية المصرية » ٧[القاهرة ١٩٥٨] ص ١٠٦ ـ ١٣٣) . وقد أُقرّ في رسالة .

١١٩ ـ عن « الحروب الصليبية وعِبَرها في كفاحنا ضد الصهاينة » .
بقلم : هاشم عثمان .
(مجلة « آفاق عربية » ٥[بغداد : شباط ١٩٨٠] ع٦ ؛ ص ١٥٦) .

١٢٠ ـ الغرب والشرق من الحروب الصليبية الى حرب السويس .
تأليف : محمد علي الغتيت .
(القاهرة ١٩٦٣ ؛ ٢٩٠) .

١٢١ ـ غَزّة في أيام الصليبيين .
بقلم : عارف العارف ، ت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م .
(ضمن كتابه : « تأريخ غَـزّة » القدس ١٩٤٣ ؛ ص ١٢٨ ـ ١٣٤) .

١٢٢ ـ الغزو الصليبي للمجتمع العربي .
بقلم : د . خاشع المعاضيدي .
(مجلة « الاستاذ » . المجلد ١ ، ع٣[بغداد ١٩٨٠] ص ٤٥٣ ـ ٤٦٠) . ضمن بحثه : « وحدة المجتمع العربي عبر التاريخ » ، المنشور في هذه المجلة ، ص ٤١٩ ـ ٤٩٢) .

١٢٣ ـ الغزو الصليبي والعالم الاسلامي .
تأليف : علي عبد الحليم محمود .
(جدّة ١٩٧٩ ؛ ٤٣٩ص) .

١٢٤ ـ الفتح الصليبي وصلاح الدين .
بقلم : عارف العارف ، ت ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م .

(ضمن كتابه : « تاريخ القُدس » . القاهرة ١٩٥١؛ ص ٦٩ ـ ١٠٠) .
١٢٥ ـ فتح القسطنطينية على يد الصليبيين .
تأليف : روبرت كلاري .
ترجمة : د . حسن حبشي .
(القاهرة ١٩٦٤ ؛ ١٥٩ص) .
١٢٦ ـ فكرة الحروب الصليبية .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت ١٣٩٨هـ =١٩٧٨م .
(مجلة « الهلال » ٣٤ [القاهرة ١٩٢٦] ص ٧٠٩ ـ ٧١٤) .
١٢٧ ـ فكرة الحروب الصليبية .
بقلم : محمد عبد الله عنان .
(ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام » . ط . ٤ [القاهرة ١٩٦٢]ص١١٣ ـ ١٢٣) .
١٢٨ ـ قُبرس والحروب الصليبية .
تأليف : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
(القاهرة ١٩٥٧ ؛ ٢٠١ص) .
١٢٩ ـ قلاع الصليبيين والمسلمين في سورية ولبنان .
(مجلة « الهلال » ٤٢ [١٩٣٤] ص ٥٤٩ ـ ٥٥٦) .
١٣٠ ـ قلعة صليبية .
(مجلة « المقتطف » ٦[القاهرة ١٨٨١] ص ٥٩) .
١٣١ ـ كربوغا صاحب الموصل ودَورُهُ في مقاومة الصليبيين .
بقلم : ابراهيم خليل .
(مجلة « المؤرخ العربي » ع٥ ؛ ص ٩٥ ـ ١١٩) .
١٣٢ ـ كربوغا صاحبُ الموصل والصليبيون .
بقلم : د . رشيد الجُمَيلي .
(« المجلة التاريخية » ٢[بغداد ١٩٧٢] تُصدرها الجمعية العراقية للتاريخ والآثار) .

١٣٣ ـ كفاح الموصل وحلب ضد الصليبيين في عصر نور الدين محمود .
بقلم : رشيد الجُمَيلي .
(« المجلة التاريخية ٣[بغداد ١٩٧٤] صس١٢٨ ـ ١٣٥) .
١٣٤ ـ لبنان في الحروب الصليبية .
بقلم : يوسف السودا ، ت ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .
(جريدة « الراية » . بيروت ١٠ رجب ١٣٤٥ هـ) . ونقلتها عنها ، مجلة « الزهراء » (٣[القاهرة ١٣٤٥هـ] ص ٤٧٨) .
١٣٥ ـ لويس التاسع في دمياط [في أثناء الحروب الصليبية] .
بقلم : كارل بروكلمان ، ت ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م .
(ضمن كتابه : « تاريخ الشعوب الاسلامية » . ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥) .
١٣٦ ـ لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ م : قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية .
تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(ط١ : القاهرة ١٩٥٦ ؛ ج +٤١١ص + ١خ) .
(ط٢ : القاهرة ١٩٥٩) .
١٣٦ أ ـ المآصر في بلاد الروم والإسلام .
تأليف : ميخائيل عواد .
(مط المعارف ـ بغداد ١٩٤٨ ؛ ٩٢ص) .
بحثٌ في : الأسطول الاسلامي ، والحروب الصليبية ، والفتوحات الإسلامية .
١٣٧ ـ مجلة كاثوليكية تقارن بين إسرائيل ومملكة الصليبيين .
بقلم : ف . س . أندرسون .
(مجلة « المسلمون » . ع١ [١٣٧٧ هـ] ص ٦١ ـ ٦٤) .

١٣٨ ـ تحاولات بلدوين الأول [من الأمراء الصليبيين] للسيطرة على شبه جزيرة سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . [القاهرة ١٩٧٧] ص ٦١ ـ ٦٩)
١٣٩ ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية تأليف : د . سهيل زكار .
(بيروت ١٩٧٢ ؛ ٣٩٠ص) .
في شأن هذا الكتاب ، راجع ماكتبه : د . شاكر مصطفى («مجلة كلية الآداب والتربية » ـ جامعة الكويت . ع ١١ [حزيران ١٩٧٢] ص ٢٠١ ـ ٢٠٥ .
١٤٠ ـ المدينة البيزنطية والحروب الصليبية .
تأليف : ستيفن رانسيمان .
ترجمة وتقديم : د . صالح أحمد العلي .
(قسمان في مجلد واحد . بغداد ١٩٥٦ ؛ ٢٧٠ ص) .
١٤١ ـ مذكرات دي جوانفيل عن الحملة الصليبية السابعة .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م .
(ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » . ط٤ [القاهرة ص ١٥٢ ـ ١٥٩ .
١٤٢ ـ المسلمون في حوض البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية .
بقلم : د . حسين مؤنس .
(« المجلة التاريخية المصرية » ٤ [القاهرة : مايو ١٩٥١] ع١ ؛ ص ٤٥ ـ ١٧٥) .
١٤٣ ـ المسلمون والغربيون في الحروب الصليبية .
بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م .
(ضمن كتابه : « الاسلام والحضارة العربية » ١ [ط ٣ : القاهرة ١٩٦٨] ص ٢٩٢ ـ ٣١٧) .
١٤٤ ـ مشاركة الموصل في القتال ضدّ الصليبيين (٥٠٩هـ = ١١١٥م) .
بقلم : رشيد الجُمَيلي .
(مجلة « آداب الرافدين » . ع٥[الموصل : حزيران ١٩٧٤] ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦) .
ضمن بحثه الموسوم : « ولاية جيوش بك علي ، على الموصل ») .
١٤٥ ـ المشطوب الهكاري : سيرة مجاهد . صفحة مُشْرقة من حياة أحد القادة الكُرد في الحروب الصليبية .
بقلم : د . محسن محمد حسين .
(« مجلة المجتمع العلمي العراقي : الهيئة الكردية » ٨[بغداد ١٩٨١] ص ٣٠١ ـ ٣٢٥) .
١٤٦ ـ مضمار الحقائق وسرّ الخلائق .
تأليف؟ : الملك المنصور محمد بن الملك المظفرّ عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة ، ت ٦١٧ هـ = ١٢٢٠م .
جزءُ من نسخة خطية في المكتبة الأحمدية بتونس ، الرقم ٤٩٣٨ . فيه حوادث السنوات ٥٧٥ ـ٥٨٢هـ، يتضمن أخبار صلاح الدين الأيوبي وفتوحاته وحروبه مع الصليبيين . وعنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية . راجع : فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة (٢[٢] : ٢٧٩ ـ٢٨٠ ، الرقم ١٢٣٠) .
١٤٧ ـ معارك ١٢١٨ ـ ١٢٢١م ، إبّان الحملة الصليبية الخامسة .
(« الموسوعة العسكرية » ٢ : ٤٥٤ ـ ٤٥٧) .
١٤٨ ـ مُعاصر أول غزوة صليبية : أُسامة بن منقذ .
بقلم : المستشرق إغناطيوس كراتشكوفسكي ، ت ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م .
(ضمن كتابه : « مع المخطوطات العربية » . موسكو ١٩٦٣ ؛ ص ١٦٣ ـ ١٧٣) .
١٤٩ ـ معركة ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠م إبان الحملة الصليبية السابعة .
(« الموسوعة العسكرية » ٢ : ٤٥٧ ـ ٤٥٨) .

١٥٠ ـ معركة حِطين .
(« المجلة العسكرية » ٣٢ [بغداد ١٩٥٥] ص ١٦٥ ـ ١٨٢)
للمقدّم الركن طه أحمد .

١٥١ ـ معركة حطّين .
لوحة كبيرة ، رسمها الفنان العراقي عطا صبري ، وأهداها الى السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة [هو اليوم رئيس الجمهورية] القائد المناضل صدام حسين : ذكرت ذلك جريدة « الجمهورية » في عددها الصادر ببغداد في ١٩٧٩/٦/٤ ؛ ص ٨) .

١٥٢ ـ معركة حِطِّين (١١٨٧م) .
(« الموسوعة العسكرية » . رئيس تحريرها : المقدَّم هيثم الأيوبي ؛ ١[بيروت ١٩٧٧] ص ٨٢١ ـ ٨٢٢) .

١٥٣ ـ معركة حِطِّين ووحدة الصفّ العربي .
تأليف : عطية القُوصي .
(القعهرة ١٩٦٢ ؛ ١٣٢ص) .

١٥٤ ـ معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .
تأليف : د . عبد الرحمن زكي ، ت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .
(القاهرة ١٩٦٠) .

١٥٥ ـ مقدمات العُدْوان الصليبي : الإمبراطور يوحنا تزيمكس وسياسته الشرقية .
تأليف : عمر كمال توفيق .
(الاسكندرية ١٩٦٦)

١٥٦ ـ مكتبة الحروب الصليبية .
مجموعة نصوص عربية واسعة ، تحوي الكثير مما كتبه المؤرخون العرب القدماء عن الحروب الصليبية .
جمع موادها ، وحققها ، ونشرها مع ترجمة فرنسية في خمسة مجلدات كبار المستشرقان الفرنسيان : رينو J. T. ReinauD ، والبارون دي سلان BARON MAC— GUCKIN DE SLANE (باريس ١٨٧٢ ـ ١٨٨٤) .
عنوان هذه المجموعة باللغة الفرنسية :
RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES: HISTORIENS ORIENTAUX. (5 VOLS., PARIS, 1872 —1884).
تشتمل هذه المجلدات الخمسة ، على :
١ ـ مقتطفات من تاريخ أبي الفداء .
٢ ـ مقتطفات من الكامل في التاريخ : لابن الأثير .
٣ ـ تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل : لابن الأثير .
٤ ـ مقتطفات من سير صلاح الدين الأيوبي : لابن شدّاد .
٥ ـ سيرة صلاح الدين الأيوبي : من وفيات الاعيان لابن خلكان .
٦ ـ مقتطفات من كتاب الإفادة والإعتبار : لبعد اللطيف البغدادي .
٧ ـ من رحلة ابن جُبَير .
٨ ـ من أخبار مصر : لابن تغري بردي .
٩ ـ من النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي .
١٠ ـ من مرآة الزمان : لسبط ابن الجوزي .
١١ ـ من بُغية الطالب في تاريخ حلب : لابن العديم .
هذه المجموعة ، تُعَدّ اليوم ، من نوادر المطبوعات العربية . ومنها نسخة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد .
وراجع في شأن هذه المجموعة ، « معجم المطبوعات العربية والمعَّربة » ليوسف أليان سركيس ، ت ١٣٥١هـ = ١٩٣٢ . (٢ [القاهرة ١٩٢٣] ص ١٧٨٤) .

١٥٧ ـ مملكة بيت المقدِس الصليبية .
تأليف : عمر كمال توفيق .
(الاسكندرية ١٩٥٨ ؛ ٢٢١ص) .

١٥٨ ـ منالحروب الصليبية الى حرب السُوَيس .
تأليف : محمد علي انعتيت .
(القاهرة ١٩٦٢ ؛ ٤٣٦ ص) .

١٥٩ ـ من شعر المقاومة العربية ضدّ الصليبيين .
(مجلة « آفاق جامعية » ٤[جامعة السليمانية ١٩٨٠]ع٥ ؛ ص ٦ ـ ٧ ، ١٥) .

١٦٠ ـ المنصورة الظافرة [في أثنار الحروب الصليبية] .
إصدار العلاقات العامة بمحافظة الدقهلية بمصر .
(المنصورة ١٩٦١ ؛ ٣٢ ص) .

١٦١ ـ المنصورة : قصة البطولة العربية وهزيمة لويس التاسع .
تأليف : محمد مصطفى هدارة .
(القاهرة ١٩٦٢ ؛ ٢١٦ص) .

١٦٢ ـ مؤرخو الحروب الصليبية .
تأليف : د . السيد الباز العريني .
(القاهرة ١٩٦٢ ؛ ٣١٦ص) .

١٦٣ ـ موقعة حِطِّين واسترداد بيت المقدس ٥٨٣هـ = ١١٨٧م .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨ م .
(؟ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » . ط ٤ [القاهرة ١٩٦٢]ص ١٣٠ ـ ١٤١) .

١٦٤ ـ موقف أتابكية دمشق من الغزو الصليبي لبلاد الشام ٤٩٧ ـ ٥٤٩هـ = ١١٠٣ ـ ١١٥٤م .
بقلم : دُرَيد عبد القادر نوري .
(مجلة « آداب الرافدين » ١١[الموصل ١٩٧٩] ص ١١١ ـ ١٤٦) .

١٦٥ ـ موقف الإمبراطورية البيزنطية أثناء الحروب الصليبية .
بقلم : نورمان بينز NORMAN H. BAYNES
ضمن كتابه : « الإمبراطورية البيزنطية » . ترجمة : د . حسين مؤنس ، ومحمود يوسف زايد .
(القاهرة ١٩٥٠ ؛ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧)

١٦٦ ـ موقف الدعوة الصليبية من العلاقات الدولية ، الأوربية مع سلطنة المماليك .
للدكتورة حياة ناصر الحجي .
(ضمن كتابها : « العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري ـ الرابع عشر والخامس عشر الميلادي » . الكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٤) .

١٦٧ ـ موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين .
بقلم : د . أحمد رمضان احمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ٩١ ـ ٩٨) .

١٦٨ ـ ميمية الأبيوردي في الغزو الصليبي . وهو أبو المظفر محمد بن أحمد الأموي الآبيوردي ، ت٥٠٧هـ ، ١١١٣م
(ضمن كتابه : « الأبيوردي : حياته ، دراسة في شعره القومي » . بغداد ١٩٨٠ ؛ ص ١٠٨ ـ ١١٧) .

١٦٩ ـ النساء الفرنجيات في أنطاكية وعزاز ، في عهد الصليبيين .
بقلم : حبيب زيّات ، ت ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م .
(مجلة « المشرق » ٢٧[١٩٢٩] ص ٥٧١ ـ ٥٧٤) .

١٧٠ ـ النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين .
بقلم : حبيب زيات .
(« المشرق » ٤٣ [١٩٤٩] ص ١ ـ ٦) .

١٧١ ـ نشرة عن الحروب الصليبية .
(صدرت في القاهرة . ورد ذكرها في : « دليل الكتاب المصري ١٩٧٣ » ص ١٢؟، الرقم ٣٥) .

١٧٢ ـ نشرة بمراجع عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ومعركة المنصورة .
اصدرتها : دار الكتب المصرية .
(القاهرة ١٩٦٠ ؛ ١٥ + ١٧ص) .

١٧٣ ـ النضال بين المسلمين والنصارى في الغرب : الثغور والعواصم ـ حروب الصليبيين .
بقلم : نجيب الأرمنازي ، ت

١٣٨٥هـ - ١٩٦٨م .
(ضمن كتابه : « الشرع الدولي في الاسلام » . ص ٢٩ - ٤٣) .

١٧٤ - نور الدين والصليبيون : حركة الإفاقة والتجمّع الاسلامي في القرن السادس الهجري .
تأليف : د . حسن حبشي .
تصدير : د . محمد مصطفى زيادة .
(القاهرة ١٩٤٨ ؛ ١٧١ص) .

١٧٥ - هزيمة الفرنج [في المنصورة بمصر] وأسر ملكهم سنة ٦٤٨ هـ .
(« تاريخ أبي الفداء » ٣ : ١٨١) .

١٧٦ - هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل .
تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(القاهرة ١٩٦٠ ؛ ١٢٧ص) .
صفحة من تاريخ الحروب الصليبية في منتصف القرن السابع للهجرة .

١٧٧ - وثائق دير صهيون بالقدس الشريف [من عصر الحروب الصليبية] . تأليف : د . أحمد دراج .
(القاهرة ١٩٦٨ ؛ ١٨٤ص) .

١٧٨ - الوحدة وحركات اليقظة العربية إبّان العُدْوان الصليبي . تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(الاسكندرية ١٩٦٧ ؛ ٩٣ص) .

١٧٩ - وصف شاهد عيان لموقعة عكّا بين الصليبيين وجيوش السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاون سنة ٦٩٠هـ - ١٢٩٠م .
منقولة من كتاب : « زبدة الفكرة » تأليف : بيبرس المنصوري . (جـ٩ ، ص ١٦٨ب - ١٧٢أ) .
نشره : د . محمد مصطفى زيادة ، في الملحق رقم ١٠ بكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي .
(١ [ط٢ : القاهرة ١٩٧٠] ص ١٠٠٢ - ١٠٠٥) .

١٨٠ - وصول الصليبيين الى الشام في أواخر القرن الحادي عشر [للميلاد] واستقرارهم في فلسطين .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ٣١ - ٤٠) .

١٨١ - وصول الفرنج الصليبيين الى انطاكية وغيرها من بلاد حلب .
بقلم : كامل الغزّي ، ت ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣م .
(ضمن كتابه : « نهر الذهب في تاريخ حلب » ٣[حلب ١٩٢٦] ص ٧٩ - ٨١)

١٨٢ - يوم حِطِين : اليوم الفاصل بين المسلمين والصليبيين .
بقلم : د . محمد مصطفى زيادة .
(مجلة « العربي » . ع ٥٩ [الكويت : تشرين الأول ١٩٦٣] ص ٣٦ - ٤٦) .

٣ - فهرس اسماء الاشخاص المذكورة في القسم العربيمن هذا البحث

* * *

ملاحظة :

يلي هذا ، فهرس المراجع الإفرنجية ، وقوامها ٢٤٠ مادة . وقد رتّبناها على السياقة الهجائية لـ « شُهرة » كاتبيها . وبذلك ، استغنينا عن صُنع « فهرس أسماء الأشخاص » الواردة في المواد الأجنبية .
الأجنبية .

1 — ALLINGTON (CYRIL),
THE LOST CRUSADE. (OXFORD, 1940; 30P.).

2 — ALPHANDERY (PAUL),
LA CHRETIENTE ET L' IDEE DE CROISADE.
COMPLETED AND EDITED BY A. DUPRONT. (2VOLS., PARIS, 1954 — 1959).

3 — AMBROISE,
L'ESTOIRE DE LA GUERRE SAINT.
كان « امبرواز » شاعراً نورماني الأصل . رافق الملك ريكا ردوس قلب الأسد في حملتِهِ الى الشرق ، فدوّن أحداث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٩٠ـ ١١٩٣ م) في شعرٍ منظوم باللغة الفرنسية القديمة . ووصف مشاهداته الشخصية للمعسكرين الإسلامي والمسيحي في أرض عكّا ويافا وغيرهما .

——————: THE CRUSADE OF RICHARD LION-HEART. TRANSLATED FROM THE old french bu m.j.hubert. (new york, 1941).

5 - ANDREA (A.J.), MOTSIFF(1 .),
POPE INNOCENT III AND THE DIVERSION OF THE FOURTH CRUSADE ARMY TO ZARA. (BYZANTION- SLAVICA, XXXIII, 1972; PP. 6-25).

6 — ARCHER (T.A.), KINGSFORD (C.),
THE CRUSADES. THE STORY OF THE LATIN KINGDOM OF JERUSALEM.
(London, 1894; xxx — 467p. NEW EDITION, 1970).

7 — ATIYA (AZIZ SURIAL).

CRUSADE, COMERCE AND CULTURE. (BLOOMINGTON, U.S.A., 1962; 274P.).

8 — ————————, THE CRUSADE HISTORIOGRAPHY AND BIBLIOGRAPHY. (INDANA UNIVERSITY PRESS, BLOOMINGTON, U.S.A., 1962; 17OP.).

9 — ———————— THE CRUSADE IN THE LATER MIDDLE AGES. (LONDON, 1938; XVI, 604 P., 10 PLS., 3 MAPS.).

10 — ———————— THE CRUSADE OF NICOPOLIS. (LONDON., 1934; XII— 234P.).

11 — ————————, THE CRUSADE: OLD LDEAS AND NEW CONCEPTIONS. (JOURNAL OF WORLD HISTORY, VOL. II, 1954-1955; PP. 469 - 475).

12 — BAHGET (ALY),

LA PRISSE DE DAMIETE OU LA SIXIEME CROISADE. (BULLETIN DE L'LINSTITUT EGYPTIEIN . TOME VT, 1912; PP.73 - 82).

13 — BAIRD (A.),

THE CRUSADING D'AUBIGNES AND BELVOIR CASTLE. (TRANSACTIONS OF THE GLASGOW UNIVERSITY ORIENTIAL SOCIETY, VOL. VI, 1929 - 1933; P.3).

14 — BARGER (EVERT).

IN THE TRACK OF THE CRUSADES. (LONDON, 1932; 232P., 16PLS.).

15— BARKER (ERNEST),

THE CRUSADES. (LONDON, 1939).

16 — BAROIS(J.),

NOTE SUR UN DESSIN DE KARL GIRARDET PUBLIE EN 1844 PAR LE MAGASIN PITTTORESQUE ET REPRESANTANT LA PRISON DE SAINT LOUIS A MANSOURAH. (BULLETIN DE L'LNSTITUT EGYPTIEN, VOL. I, 1919; PP. 7 -11).

17 — BAUTIER (R.H.).

LA COLLECTION DE CHARTES DE CROISADE DITE COLLECTION COURTOIS.) COMPTES RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES LETTRES 1956; PP. 382-386).

18 — BEDDIE (J.S.).

SOME NOTICES OF BOOKS IN THE EAST IN THE PERIOD OF THE CRUSADES. (SPECULUM, VOL VIII, 1933; PP. 240-242).

19 — BEDIER (J.),

SUR DEUX CHANSONS DE CROISADE.(ROMANIA, VOL. XXXV, 1906; PP. 379- 393).

20 — BEEBE (B.),

THE ENGLISH BARONAGE AND THE CRUSADE OF 1270. (BULLETIN OF THE INSTITUTE OF HISTORICAL RESEARH, XLVIII, 1975; PP. 127-148).

21 — VELLOG (HILAIRE),

THE CRUSADE THE WORLD'S DEBATE. (LONDON, 1937; IX — 324P.).

22 — BREHIER (L.),

L'EGLISE E L'ORIEN AU MOYEN AGE, L'ORIENT AU MAYEN AGE: LES CROISADES. (PARIS, 1928).

23 — BERCOVICI (KONRAD),

THE CRUSADES. (NEW YORK, 1929; 314., 7, PLS.),

24 — BEYER (G),

DIE KREUZFAHRERGEBIETE AKKA UND GALILAA, (ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA VEREINS VOL LXVLL, 1944— 1945; PP. 183—260).

25 — ————————, DAS GEBIET DER KREUZFAHRERHERSCHAFT CAESAREA IN PALASTINA SIEDLUNS — UND TERRITORIALGE SCHICHTLICS UNTERSUCHT. (ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA — VEREINS, VOL. LVI, 1936; PP. 1 — 91).

(HISTORISCHES JAURBHCH, VOL. LXXXI, 1962; PP. 223 — 237).

26 — ————, DIE KREUZFAHRERGEBIETE SUDWESTPALASTINA (BEITRAGE XUR BIBLISCHE LANDES — UND ALTERTUMSKUNDE (ZDPV), VOL. LXVIII, 1951; PP. 148 — 192, 249 — 281).

27 — ————, DIE KREUXFAHRERGEBIETE VON JERUSALEM IND S. ABRAHAM (HERON). (ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA — VEREINS. VOL. LXV, 1942, PP. 165 — 211).

28 — ————, NEAPOLIS (NABLUS) UND SEIN GEBIET IN DER KREUZFAHRERXZIT, EINE TOPOGRAPHISCHE UND HISTORISCHGEOGRAPHISCHE STUDIE.
(ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA — VEREINS. VOL1 LXIII, 1940; PP. 155 — 209).

29 — BRIGGS (M.S.),
THE ARCHITECTURE OF SALADIN AND THE INFLUENCE OF THE CRUSADES (A. D. 1171 — 1250).
(BURLINGTON MAGAZINE, VOL. XXXVIII, 1921; PP. 10 — 20).

30 — BLACK (R .),
LA STORIA DELLA PRIMA E LA DIPLOMAZIA BENEDETTO ACCOLTI ELADIPLOMAWIA FIORENTIINA RISPETTO ALL ORIENTE.
ARCHIVIO STORICO ITALIANO, CXXXI, 1973; PP. 3 — 25).

31 — BOEHM (L.),
GESTA DEI PER FRANCOS — ODER GESTA FRANCORUM?
DIE KREUZZUGE ALS HISTORIOGRAPHISCHES PROBLEM. (SAECULLM, VOL VIII, 1957; PP. 43 — 81).

32 — DIE KREUZZUGE IN BIBLIOGRAPHISCHER UND HISTORIOGRAPHISCHER SICHT.
(GEDANKEN UM DREI NEUERSCHEINUNGEN).

33 — BRAND (C. M .),
THE BYZANTINES AND SALADIN, 1185 — 1192: OPPONENTS OF THE THIRD CRUSADE. (SPECULUM, VOL, XXXVII, 1962; PP. 167 — 181).

34 — BREDERO (A.).
STUDIEN ZU DEN KREUZZUGBRIEEEN BERNHARDS VON CLAIRVAUX UND SEINER REISE NACH DEUTSCHLAND JAHRE 1146.
(MITTEILUNGEN DES OSTERREICHISCHEN INSTITUTS FUR GESCHICH — SFORSCHUNG, VOL LXVI, 1958; PP. 331 — 343).

35 — BRUNDAGE (J.A.),
THE ARMY OF THE FIRST CRUSADE; SOME REFLECTION ON A RECENT BOOK.
(MEDIAEVAL STUDIES, XXXIII, 1971; PP. 334 — 343).

36 — BRUNDAGE (J.A).
THE CRUSADE OF RICHAPD I; TWO CANONICAL QUESTIONS.
)SPECULUM, VOL. XXXVIII, 1963; PP. 443 — 452).

37 — ————:
AN ERRANT CRUSADE: STEPHEN OF BLOIS,). (TRADITIO, VOL. XVT, 1960; PP. 380 — 395).

38 — ————: MEDIEVAL CANON LAW AND THE CRUSADER. (LONDON, 1969).

39 — BURNS (R.1.),
THE CRUSADERS USE OF MUSLIMS AS SETTLERS IN THIRTEENTH CENTURY SPAIN.
(AMERICAN HISTORICAL REVIEW, LXXX, 1975; PP. 21 — 42).

40 — ————: ISLAM UNDER CRUSADERS. COL-

(BULL. FAC. LETTRES STRASSBOWRG, VOL. XXVIII, 1950; PP. 320 — 337).

49 — ——————: LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CORISADES ET LA PRINCIPAUTE FRANQUE D'ANTIOCHE, (PARIS, 1940; 768 P.).

50 — CALTHROP (M. M. C),
THE CRUSADES.
(LONDON, N. D., V — 92P.).

51 — CAMPBELL (G.A.),
THE CARUSADES.
(LONDON, 1955; 480P.).

52 — CARDINI (C.),
LA STORIA ET L'IDEA DI CROCIATA NEGLI STUDI ODIERNI (1945 — 1967).
(ANUARIO DE ESTUDIOS MEDIE VALES, V, 1958; PP. 641 — 662).

53 — CHA' ADON (F.),
HISTOIRE DE LA PREMIERE CROISADE. (PARIS, 1925).

54 — CHABOT (J.B.),
ECHOS DES CROISADES.
(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES (COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1938; PP, 448 — 461).

55 — ——————: EDESSE PENDANT LA PREMIERE CROISADE. (COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1918; PP. 431 — 442).

56 — ——————: UN EPISODE DE L'HISTOIRE DES CROISADES. (MELANGES OFFERTS A M. GUSTAVE SCHLUMBERGER A L'OCCASION DU AUATRE — VInG-TIEME ANNIVERSAIRE DE SA NA ISSANCE: 17 OCTOBRE

ONIAL SURVIVAL IN THE 13 TH CENTURY KINGDOM OF VALENCIA. (PRINCETON, 1973; 507P.).

41 — ——————: MOORS AND CRUSADERS IN MEDITERANEAN SPAIN. (LONDON, 1978; 318P.)

42 — CAHEN (CLAUDE)
UNE CHRONIQUE CHIITE AU TEMPS DES CROISADES. (COMPTE RENDUS DES SEANCES DE L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, PARIS, 1935; PP. 258 — 269).

43 — ——————:INDIGENES ET CROISES. QUELQUES MOTS A PROPOS D'UN MEDICIN D'AMAURY ET DE (SALADIN SYRIA, VOL. XV, 1934; PP. 351 — 360).

44 — ——————: AN INTRODUCTION TO THE FIRST CRUSADE. (PAST AND PRESENT, VOL. VT , 1954; PP. 6 — 30).

45 — ——————: L'ISLAM ET LE CROISADE.
(REL. X CONG. INT. SCI. STOR., 1955; VOL. III, PP. 625 — 635).

46 — ——————: NOTES SUR L'HISTORE DES CROISADES ET DE. L'ORIENT LATIN.
(REL. XCONG. INT. SCL. STOR. 1955; VOL. III, PP. 625 — 635).

46 — ——————: NOTES SUR L'HISTOIRE DES CROISADES ET DE L 'ORIENT LATIN.
(BULLETIN FAC. LETTRES STRASSBOURG, VOL. XXIX, 1951; PP. 118 — 125 , 125,286— 318, 328—416).

47 — ——————: LE PREMIER CYCLE DE LA CROISADE, (MOYEN AGE, VOL. LXIII, 1957; PP. 311 — 328).

48 — ——————: UN SOURCE POUR L'HISTOIRE DE CROISADES, LES MEMOIRES DE SA'D AD— DIN HAMMAWIYA JUWAYNI.

65 — CONSTABLE (B.).

THE SECOND CRUSADE AS SEEN BY CONTEMPORARIES. (TRADITIO, VOL. IX. 1953; PP. 213 — 279).

66 — COSACK (H.KONRADS III),

ENTSCHLUSS ZUM KREUZZUG.

MITTEILUNGEN DES INSTITUTS FUR OSTERREICH — ISCHE GESCHICHTSFORSCHUNG, VOL, XXXV, 1914; PP. 278 — 296).

67 — COX (GEORGE W.),

THE CRUSADES.

(8 TH ED., LONDON, 1889: XX — 220P., I MAP).

68 — CUTLER (A.), THE FIRST CRUSADE AND THE IDER OF CONVERSION.

(MUSLIM WORLD , VOL LVIII. 1968; PP. 57 — 71 , 155 — 164).

69 — DALY (W.A.),

CHRISTIAN FRATERNITY: THE CRUSADERS, AND THE SECURIRY OF CONSTANTINOPLE. 1097 — 1204: THE PRECARIOUS SURVIVAL OF AN IDEAL.

MEDIAEVAL STUDIES. VOL XXII, 1960; PP. 43 — 91).

70 — DANIEL (E.R.),

APOCALYPTIC CONVERSION: THE JOACHITE ALTERNATIVE TO THE CRUSADES. (

(TRADITIO. VOL. XXV, 1964; PP. 127 — 154).

71 — DARBISHIR (R.S.),

THE MOSLEM ANTAGOWIST (ACCORDING TO THE LATIN CHRONICLES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES).

(MUSLIM WORLD. VOL. XXVIII, 1938; PP. 258 — 271).

72 — DARESSY (G).

LA PRETEIVDUE MAISON DE SAINT LOUIS A MANSOURAH.

(BULLETIN DE L'INSTITUT D'EGYPTE ol. i,⅛!⅛!; PP. 27 — 33,135 — 149).

73 — DAVIES (E.J.).

1924. PARIS, 1924, PP. 169 — 179).

57 — ————: UN EPISODE INEDIT DE L'HISTOIRE DES CROISADES (LE SIEGE DI BIRTA 1145).

(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE. DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1917; PP. 77 — 84).

58 — CHALANDON (F.),

HISTOIRE DE LA PREMIERE CROISADE.

(PARIS, 1925).

59 — CHAIR (SOMERSET),

THE FIRST CRUSADE, THE DEEDS OF THE FRANKS AND THE JERUSALEMITES, ENGRAVING BY CLIFFORD WEBB. (LONDON, 1945; 92P.).

60 — CHARANIS (P.),

BYXANTUM, THE WEST AND THE ORIGIN OF THE FIRST CRUSADE.

(BYZANTION, VOL. XIX, 1949; PP. 17 — 36).

61 — CHEHAB (M.H.)

TYR A L'EPOQUE DES CROISADES.

(2 VOLS. IN 3 PART. PARIS 1975 — ; 614, 755P.),

62 — CHEIKHO (LOUIS),

UN DERNIER ECHO DES CROIS ADES. (MELANGES DE LA FACULTE QRIENTALE DE L'UNIVERSITE ST. JOSEPH DE BEYROUTH, VOL. I, 1906; PP.303 — 375).

63 — CHOISEUL — DALLIECOURT,

DE L'INFLUENCE DES CROISADES SUR L'ETAT DES PEUPLES EN EUROPE. (PARIS, 1810).

64 — COMBE (E.),

LES PRESAGES ANNOCENT LA CROISADE DE PIERRE DE LUSIGNAN ET LES CAUSES DE CETTE ATTAQUE. (BULL. SOC. ROY. ARCH. ALEXANDRIE, 1948: PP. 58 — 70).

THE INVASION OF EGYPT IN A.D. 1529BY LOUIS IX OF FRANCE.
(LONDON, 1897; VI — 152.,1 MAP).

74 — DE JOINVILE,
MEMOIRS OF THE CRUSADES. (ENGLISH TRANSLATION, BY SIR F. MARZIALS).

75 — DESCHAMPS (PAUL).
LES CHATEAUX DES CROISES EN TERRE SAINTE.
(2 VOLS. PARIS, 143 — 1939, UN 3E SOUS PARESS).

76 — ————, COMBATS DE CAVALERIE ET EPISODES DES CROISADES DANS LES PEINTURES MULARES DU XIIE ET DU XIIIE SIECLE.
(ORIENTALIA CHRISTIANA PERIODICA. VOL. XIII, 1947; PP. 454 — 474).

77 — ————, DEUX POSITIONS STRATIGEQUES DES CROISES A L'EST DU JOURDAIN: AHAMANT ET EL HABIS. (REVUE HISTORIQUE, VOL. CLXXII 1932; PP. 42 — 57).

78 — DESCHARD (A.),
LES CROISADES ET LE ROLE QU'Y JOUA MARINE. (REVUE DES ETUDES HISTORIQUES' , VOL. CIII, 1936; PP. 131 — 138).

79 — DIEULAFOY (MARCEL),
LE MAROC ET LES CROISSADES.
(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES LETTRES, 1918; PP. 23 — 32),

80 — DONOVAN (JOSEPH),
PELAGUIS AND THE FIFTH CRUSADE.
(PHILADELPHIA, 1950; 124 P.).

81 —— Dubois (pierre, 1250 —1321),
DE RECUPERATIONE TERRAE SANCTAE.
وهو كتاب ألفة باللاتينية عن الحروب الصليبية ، فيه استعادة الاراضي المقدسة .

82 — DUNCALF (F.),
THE POPE'S PLA FOR THE FIRST CRUSADE.
(THE CRUSADES AND OTHER HISTORICAL ESSAYS' PRESENTED TO D.C.MUNRO, 1928. REPR. 1968; PP. 44— 56).

83 — EIDELBERRG (S.,TRANSL.), THE JEWS AND THE CRUSADERS. THE HEBREW CHRONICLES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES.
(MADISON AND LONDAN, 1977; 198P.).

84 — ————: THE SOLOMON CHRONICLE AS A SOURCE OF THE HISTORY OF THE FIRST CRUSADE. (JEWISH QUARTERLY REVIEW, VOL. XLIX, 1959; PP. 282 — 287).

85 — ELISSEEFF (NIKITA),
NUR — AD — DIN UN GRAND PRINCE MUSULMAN DE SYRIE AU TEMPSSDES CROISADES (511 — 569 H 1118 — 1174 .S.),
(3COLA., WR CARTE. DAMAS, 1967; 1183P.).

86 — ERBSTOSSER (M.),
DIEKREUZUGE. EINE KULTWRGESCHICHE.
(LEIPZIG, 1977; 212P.).

87 — ERDMANN (CARL),
DIE ENTSCHUNG DES KREUZZUGEDANKENS (STUTTGART, 1935).

88 — ————: DER KREUXXUGEDANDE IN PORTUGAL.
(HISTORISCHE XEITSCHRIFT, VOL. CXLI, 1939 — 1940; PP. 23 — 53).

89 — ————: THE ORIGIN OF THE IDEA OF CRUSADE
(TRANSLATED FROM THE GERMAN, BY: M.W. BALDWIN AND W. GOFFAR. PRINCETON, 1977; 482P.).

90 — FARIS (NABIH AMIN),
HOLY WAR. (FIFTEENTH CENTURY MS. IN PRINCETON ON HOLY WAR AND THE PLACE OF ARCHERY THEREIN.
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY CHRON., VOL. IV, 1942, PP. 62 — 85).

91 — FAZY (R.)
LA CHRONIQUE DE DAMAS ET LES SOURCES CHRETIENNES DE LA IRE CROISADE. (JOURNAL ASIATIQUE, VOL. CCXXVIII, 1936; PP. 281 — 298).

92 — FEDDEN (ROBIN),

CRUSADER CASTLES.

(LONDON, 1950; 96P.)

93 — FINK (H.S.),

THE ROLE OF DAMASCUS IN THE HISTORY OF THE CRUSADES.

(MUSLIM WORLD, VOL. XLIX, 1959; PP. 41 — 53).

94 — FOLDA (J.),

THE FOURTH CRUSADE, 1201 — 1203. SOME RECONSIDERATIONS.

(B YZANION SLAVICA, VOL. XXVI, 1955; PP. 277— 290).

95 — FOTHERINGHAM (J.K.),

GENOA AND THE FOURTH CRUSADE.

(ENGLISH HISTORICAL REVIEW, VOL. XXV, 1910; PP. 26 —57).

96 — FRANCE (J.),

THE CRISIS OF THE FIRST CRUSADE: FROM THE DEFAT OF KERBOGHA TO THE DEPATURE FROM ARQA. (BIZANTION, XI, 1970; PP. 276 — 308).

97 — ———: THE DEPARTURE OF TATIKIOS FROM THE CRUSADER ARM.

(BULLETIN OF THE LNSTITUTE OF HISTORICAL RESEARCH, XLIV (110:1971)pp. 137 — 147).

98 — FROLOW (A.),

LA DEVIATION DE LA 4E CROISADE VER CONSTANTINOPLE PROLEMES D'HISTOIRE ET DE DOCTRINE.

(REVUE DE L'HISTOIRE DES RELIGONS, VOL. CXLV, 1954, PP. 168 — 187. CXLVI, 1954; PP. 76 - 89,194 - 219. CXLVII, 1955; PP. 50 - -61).

99 — GAPRIELI (FRANCESCO),

THE ARABIC HISTORIOGRAPHY OF THE CRUSADES.

(HISTORIANS OF THE MIDDLE EAST, ED. BY :B. LEWIS AND P. M. HJOLT, 1962; PP. 98—107).

100 — ———: CHONIQUES ARABES DES CROIS ADES. TEXTES RECUEILLES, TRADUIT DE L'LTALIEN, PAR V. PAQUES, (PARIS, 1977; 405P.).

101 — ———: INTRODUCTION AUX HISTORIENS ARABES DES CROISADES.

(CAHIERS DE CIVILISATION MEDIEAVALE, VOL. XIII, 1970; N° 3,PP. 221 — 228)

102 — ——— :

ألفَ بالايطالية كتاباً عن « فُرْسان القديس يوحنا لدى : مؤرخي الحروب الصليبية العرب » . وقد ورد ذكره في « مجلة مجمع اللغة العربية الأردني » ٢[عمان ١٩٧٩] ع٥ - ٦ ؛ ص ١٩٢) .

103 — GARRIGOU GRAND - CHAMP,

DOCUMENTS DIVERS RELATIFS A LA CROISADE DE SAINT LOUIS CONTRE TUNIS.

(TUNIS, 1912).

104 — GIBB (H. A R.),

THE DAMASCUS CHRONICLE OT THE CRUSADES. (LONDON, 1932; 368P.).

وهو صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، تتضمن حوادث السنوات ١٠٩٧ - ١١٥٩م ، نقلاً هن كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي . راجع في شأنه ، مجلة « الهلال » ٤٠[القاهرة ١٩٣٢] ص ٩٠٤) .

105 — ———, AND TRITTON (A.S.),

THE FIRST AND SECOND CRUSADE FEOM AN ANONEMOUS SYRIAC CHRONICLE.

(JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY, 1033; PP. 69 — 101, 273 — 305).

106 — ———: NOTES ON THE ARABIC MATERIALS FOR THE HISTORY OF THE EARLY CRUSADES.

(BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES, VOL. VII, 1933— 1935; pp. 739 — 754).

107 — GIESZTOR(A.),

THE GENESIS OF THE CRUSADES: THE ENCYCLICAL OF SERGIUS IV (1009 — 1012).

(MEDIEVALIA ET HUMANISTICA, VOL. V, 1948, PP.3 — 23).

108 — GOERGENS (E.P.),

ARABISCH QUELLEBITRAGE ZUR GESCHICHTE DER KREUZ-ZUGE, UVER SETST. I: ZUR GESCHICHTE SALAH AD — DIN'S.

(BERLIN, 1879, NEUDRUCK; 1975; 23 — 295P.),

109 — GOETZ (H.),

DER ORIEN DER KREUZZUGE IN WOLFRAM'S RAZIVAL.

(ARCHIV FUR KULTURGESCHICHTE, VOL. XLIX, 1967; PP. 1— 42).

110 — GOITEIN (S.D.),

CONTEMPORARY LETTERS ON THE CAPTURE OF JERUSALEM BY THE CRUSADERS.

(JOURNAL OF JEWISH STUDIES, VOL. III, 1952; PP. 162 — 177).

111 ————, TYRE— TRIPOLI— ARQA GENIZA DOCUMENTS FROM THE BEGINNING OF THE CRUSADESR PERIOD.

(JEWISH QUARTERLY REVIEW, VOL. LXVI, 1975; PP.5 — 88).

112 — GOTTSCHALK (H.L.),

DIE FRIEDESANGEBOTE AL — KAMILS VON EGYPTEN AN DIE KREUZFARER.

(WIENER ZEITSCHRIFT FUR DIE KUNDE DES MORGENL ANDES, , VOL. LI , 1948 — 1952; PP. 64 — 82).

113 — GRAOIS (ANYEH),

LA CITE DE BANIYAS ET LE CHATEAU SUBEIBEH PENDANT LES CROISADES.

(CAHIERS DE CIVILISATION MEDIEVALE, XIII, 1970; I; PP. 43 — 62).

114 — GREGOIRE (H.),

THE QUESTION OF THE DIVERSION OF THE FOURTH CRU-SADE, OR, AN OLD CONTROVERSY SOLVED BY A LATIN ADVERB,

(BYZANTION, VOL. XV, 1940—1941,PP.158—166).

115 — GROUSSET (RENE),

LES CROISADES.

(COLLECTION QUE SAIS — JE, N.° 157, PRESSES UNIVERSI-TAIRES, PARIS).

116 ————: L'EPOPEE DES CROISADES.

(PARIS, 1939;385P.).

117 ————: HISTOIRE DES CROISADES ET DU ROYAUME FRANC DE JERUSALEM.

(3 VOLS., PARIS, 1934 — 1936).

نقد وتعريف به ، في :

GIBB(H.A.R.), IN: BULLETIN OF THE SCHOOL OF QRIENTAL STU-DIES, VOL. VIII. LONDON 1935; PP. 243 — 249).

118 — GRUMEL (V.),

AU SEUIL DE LA II^E CROISADE: DEUX LETTRES DE MANUEL COMNENE AU POPE.

(ETUDES BYZANTINES, VOL. 3, 1945; PP. 143 — 167).

119 — GUGBELMO ARCIUESCOUL DI TIRO,

HISTORIA DELLA GUERA SACRA DI GIERUSALEMME, TRADOT-TA IN LINGUA ITALIANA DE M. GIOSEPPE HOROLOGGI.

(VENETIA, VALGRISI, 1620; 702P.)

120 — GUILLAUME DE TYR, HISTORIA RERUM IN PARTIBUS TRANSMARINIS GESTARUM.

وهو حوليات كبيرة للحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٥ الى عام ١١٨٤م . كتبها وليم الصُوْري ، وتقع مخطوطاتها في ثلاثة وعشرين جزءاً صغيراً ، آخرها ناقص . بدأ وليم في تدوين هذا التأليف عام ١١٦٩ ـ ١١٧٠م ، وانتهى عام ١١٧٣م ، ومنه اربعه نسخ خطية في المكتبة الوطنية بباريس ، أرقامها : ٢٩٧٠ ، ٨٣١٥ ، ٨٤٠٤ ، ٨٣١٤ .

نُشرت هذه الحوليات أولاً في المجلد الأول من « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية » باريس ١٨٤٤ ـ ١٨٧٩م) . يولن باريز ، الحوليات كلها في جزئين طُبعا في باريس سنة ١٨٧٩ ، بعنوان .

GUILLAUME DE TYR ET DES CONTINUATUR.

121 — HAAS (A.),
ASPEKTE DER KREUZZUGE IN GESCHICHTE UND GEISTES-LEBEN DES MITTELATERLICHE DEUZSCHLANDES. (ARCHIV FUR KULTURG ESCHIHTE, VOL. XLVI, 1964; PP. 185 — 202).

122 — HABSCHI (DR. HASAN),
A FIFTEENTH CENTURY CRUSADE ATTEMPW AGAINST EGYPT. (1958).

123 — HATEM (A.),
LES POEMS EPIQUES DES CROISADES.
(PARIS, 1932).

124 — HEEREN (A.H.L.),
ESSAI SUR L'INFLUENCE DES CROISADES.
(PARIS, 1808; XXII, 518P.),

125 — HITTI (PHILIP K.),
AN ARAB SYRIAN GENTLEMAN AND WARRIOR IN THE PERIOD OF THE CRUSADES. (NEW YORK, 1929).

وهو ترجمة انكليزية لكتاب « الاعتبار » لأسامة بن مُنقذ . راجع مادة : « الإعتبار » في المصادر العربية من هذا البحث ، (الرقم ٢١) .

ارجع نقداً تعريفاً به :

GIBB (H. A. R.), IN: BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES, LONDON. VOL. VT, 1932; PP. 1003 — 1011).

126 — ————: THE IMPACT OF THE CRUSADE ON EASTERN CHRISTIANITY.
(MEDIEVAL AND MIDDLE EASTERN STUDIES...
A. S. ATIYA, 1972; PP. 211 — 217).

127 — HOLBACH (MAUDE M.),
IN THE FOOTSTEPS OF RICHARD COEUR DE LION.
(LONDON, 1912; XII — 357P. 31 PLS., 2 MAPS).

128 — HUSSEIN (MOHAMMED H.),
THE IMPERIALISTIC ELEMENTS OF THE CRUSADES.
(TRUDUI ZZV, ZEZHDUNARODNOGO KNOG. VOSTOKOVEDOV, 1960, VOL.I, 1962; PP. 487 — 493).

129 — IGLESIAS (A.A).
NOTAS SOBRE EL IDEAL DE CRUZADA EN DON ENRIQUE (EAVEGANTA).
(CPNG. INT. HIST. DESCOBRIMENTOS.) ACTAS TV, 1961; PP257 — 274).

130 — IORGA (N.),
DEUX OUVRAGES SUR LES CROISADES.
(REV. HIST. DU SUD — EST — EUROPEEN, VOL. XVIII, 1941; PP. 26 — 30).

131 — ————: HISTOIRE DES CROISADES.
(PARIS, 1924).

132 — ————: LE ROUMAINS ET L'LDEE DE LA CROISADE AU COMMENCEMENT DU XVII[E] SIECLE.
(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XVI, 1939; P. 114).

133 — ISSAWI (C.),
CRUSADES AND CURRENT CRISIS IN THE NEAR EAST.
(INTERNATIONAL AFFAIRS, VOL. XXXIII, 1957, PP. 269 — 279).

134 — JOHN (E.),
A NOTE ON THE PRELIMINARIES OF THE FOURTH CRUSADE.
(BYZANTION, VOL. XXIII, 1958, PP. 95 — 103).

135 — JOHNS (C.N.),
PALESTINE OF THE CRUSADES.

يُراجَع في شأنه :

GIBB (H.A.R.), IN: JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY, 1939; P. 273.

136 — KENNAH (E.).
INNOCENT III AND THE FIRST POLITICAL CRUSADE: A COMMENT OF THE LIMITATIONS OF PAPAL POWER.
(TRADITIO, XXVII, 1971; PP. 231 — 249).

137 — KERR (ANTHONY J.C.),
THE CRUSADES.
(LONDON, 1760. RERINTED 1966),
138 — KETTLER (P. VON),
DIE GESTALTUING DE, GEOGRAPHISCHE WELTBILDES UNTER DE EINFLUSS DEM KREUZZUGE.
(MITTEILUNGEN DES INSTITUTS FUR OSTERREICHISCHE GESCHICHTSFORSCHUNG, VOL. LXX, 1962; PP. 294 — 322),
139 — KRAEMER (JOERG),
DER STURZ DES KOENIGERICHS JERUSALEM (583 — 1187) IN DER DARSTELLUNG DES IMAD ADDIN AL — KATIB AL — ISFAHANI.
(WIESBADEN, 1952; 71P., I MAP).
يتناول سقوط مملكة الصليبيين في القدس ، عام ٥٨٣هـ = ١١٨٧م ، نقلاً عن عماد الدين الكاتب الإصبهاني .
140 — KREY (A.C.),
BIBLIOGRAPHY OF A. C. MUNRO'S WRITINGS ON THE CRUSADES.
(AN APPENDX IN : THE KINGDOM OF THE CRUSADES BY D. C. MUNRO. NEW YORK, 1935; P; 205 FF.).
141 — KREY (A.C.),
THE FIRST CRUSADE.
(RINCETON, 1958).
142 — LABIB (SUBHI),
DIE KREUZZUGBEWEGUNG AUS ARABISCH — ISLAMISCHER SICHT. INTERACTION ODER CHALLENGE.
(MEDIEVAL AND MIDDLE EASTERN STUDIES... A.S. ATIYA, 1972; PP. 240 — 267).
143 — LABROUSSE (H.),
RENAUD DE CHATILLON, HEROS DE LEGENE ET LA CONQUETE DE LA MER ROUGE PAR LES CROISES (1183).
(POUNT, IX, 1971; PP. 31 — 45).
144 — LAMB (HAROLD),
THE CRUSADES: IRON MEN AND SAINTS.
(LONDON, 1933; 2 VOLS., NEW YLORK, 1942).
145 — LA MONTE (J.R.),
CRUSADE AND JIHAD.
(IN: ARAB HERITAGE, ED. BY: Nbih AMIN FARIS. PRINCETON, N. J., 1944 PP. 159 — 198).
146 — ———, THE RISE AND DECLINE OF A FRANKISH SEIGNEURY IN SYRIA IN THE TIME OF THE CRUSADES.
(REV. HIST. DE SUD — EST EUROPEEN, VOL. XV, 1938; PP. 301 — 320).
147 — LA MONTE (J .R.),
SOME PROBLEMS IN CRUSADING HISTORIOGRIOGRAPHY.
(SPECULUM, VOL. XV, 1940; PP. 57 — 75).
148 — LAURENT (V.),
LA CROISADE ET LA QUESTION D'ORIENT SOUS LE PONTIFICAT DE GREGOIRE X (1272 — 1279).
(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XXII, 1945; PP. 105 — 137).
149 — ———: L'LDEE DU GUERRE SAINTE ET LA TRADITION BYZANTINE.
(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN), VOL. XXIII, 1946; PP. 71 — 98).
150 — LEFEVRE (R.),
LA CROCIATA DE 1270 A TUNISI NELLA DOCUMENTAZIONE DELL' ARCHIVIO DI STORIA DI NAPOLI,
(AFRICA (ROME), XXVII, 1972; PP. 439 — 462),
151 — LEMEN (A.),
L'ORIGINE DE L'IDEE DE LA CROISADE.
(HESPERIS), VOL.XXIV, 1937; PP. 205 — 215).
152 — LEMERLE (P.),
BYZANCE ET LA CROISADE.

(REL. X. CONG. INT. SCI. STOR. 1955, VOL. III, PP. 595 — 620).

153 — LERMOT (BARON),

SOUS LES TOMARISQUES OU LE GENIE DES CROISADES.

(BALE, KRUSI, 186 P.).

154 — LIEBESCHUTZ (H.),

THE CRUSADING MOVEMENT IN ITS BEARING ON THE CHRISTIAN ATTITUDE TOWARDS JEWRY.

(JOURNAL OF JEWISH STUDIES, VOL.X, 1959, PP. 97 — 111).

155 — LORGA (N.),

BREVE HISTOIRE DES CROISADES ET DE LEURS FONDATIONS EN TERRE SAINTE.

(PARIS, 1924; XIX — 194P.).

156 — ———: QUELQUES OBSERVATIONS SUR LES RAPPORTS ENTRE LE MONDE ORIENTAL ET LES CROISES.

(MELANGE F. LOT, 1925; PP.259 — 274).

157 — MAILLY,

L'ESPRIT DES CROISADES.

(PARIS, 1780).

158 — MAIMBOURG,

THE HISTORY OF THE CRUSADE; OR, THE EXPEDITIONS OF THE CHRISTIAN PRINCES FOR THE CONQUEST OF THE HOLY LAND, WRITTEN ORIGINALLY IN FRENCH BY THE FM'D MONSIEUR MAIM BOURG, ENGLISE BY JOHN NALSON.

(LONDON, 1685; 410P.).

159 — MARINESCO (C.),

PHILIPP LE BON, DUC DE BORGOGNE, ET LA CROISADE.

(ACTES VT CONG, ET. BYZ.) I, 1950; PP. 147 — 168).

160 — MARTIN (J.),

LE SAINT — SIEGE ET LA QUESTION D'ORIENT AU SEIZIEME SIECLE — PROJETS DE CROISADE SOUS LE REGNE DE LEON X .

(REVUE D'HISTOIRE DIPLOMATIQUES, VOL. XXX, 1916: PP. 35 — 36).

161 — MARY (H.E.),

THE CRUSADES.

TRAHSLATED BY JOHN GILLINGHEM.

(OXFOR, 1972).

162 — MASTERMAIN (E.W.G.),

A CRUSADER'S FORTRESS IN PALESTINE.

(PALESTINE EXPLORATION FUND: QUARTERLY STATEMENT, 1928; PP. 91 — 96).

163 — MAYER (HANS EBERHARD),

BIBLIOGRAPHIE ZUR GESCHICHTE DER KREUZZUGE,

MUNICH, 1960. HANNOVER, 1965; 304P.).

164 — ———, URSACHEN UND WIRKUNGEN DER KREUSZZUGE,

(ISLAM UND ABENDLAND: GESCHICHTE UND GEGEWART,) HERAUSGEGEBEN VON ANDRE MERCIER. (BERN UND FRANKFURT/M, 1976; PP. 87 — 110).

165 — MICHAUD (JOSEPH FRANCOIS),

BIBLIOGRAPHIE DES CROISADES.

(4 VOLS., PARIS, 1929. REIMPRESSION, 1978; 2062P.).

166 — ———: HISTOIRE DES CROISADES.

(5 VOLS., PARIS, 1817 — 1822).

167 — ———: MICHA UD'S HISTORY OF THE CRUSADES, TRANSLATED FROM THE FRENCH BY W.ROBSON. (3 VOLS., LONDON, 1852).

168 — MILLS (CHARLES),

THE HISTORY OF THE CRUSADES FOR THE RECOVERY AND POSSESSION OF THE HOLY LAND.

(2 VOLS., LONDON, 1820).

169 — MOHRING (H.),

SALADIN UND DER DRITTE KREUZZUG. AIYUBISCHE STRATEGIE UND DIPLOMATIE IM VERGLEICH VORNEHMLICH DER ARABISCHEN MIT DEN LATINISCHEN QUELLEN.

(WIESBADEN, 1987; 261P.).

170 — MOLLAT (M.),

LE PASSAGE DE SAINT LOUIS A TUNIS. SA PLACE DANS L'HISTOIRE DES CROISADES.

(REVUE D'HISTOIRE ECONOMIQUE ET SOCIALE, L, 1972; PP. 289 — 303).

171 — ———: PROBLEMES NAVALS DE L'HISTOIRE DES CROISADES.

(CAHIRES DE CIVILISATION MEDIEVALE, VOL .X, 1967; PP. 345 — 359).

172 — MUNRO (D.C.).

A CRUSADER.

(SPECULUM, VOL. VII, 1932; PP. 321 — 335).

173 — ———, THE KINGDOM OF THE CRUSADERS.

(NEW YORK, 1935).

174 — ———, THE POPE AND THE CRUSADES.

(PROCEEDINGS OF THE AMERICAN PHILOSOPHICAL SOCIETY, VOL.. LV, 1916; PP. 348 — 356).

175 — ———, THE WESTERN ATTIDUDE TOWARDS LSLAM DURING THE PERIOD OF THE CRUSADERS.

(SPECULUM, VOL. VT, 1931; PP. 329 — 343).

176 — NEWHALL (RICHARD A.),

THE CRUSADES.

(NEW YORK, 1927; X — 114P.).

177 — NICHOLON (R. L.),

JOSCELYN III, AND THE FALL OF THE CRUSADER STATES, 1134 — 1199.

(LEIDEN, 1973;240P.).

178 — OLDENBORN (Z.),

THE CRUSADES.

TRANSLATED B: F.A. CARTER.

(NEW YORK, 1965).

179 — PAETOW (I.J.),

THE CRUSADES AND OTHER HISTORICAL ESSAYS.

(NEW YORK, 1928).

180 — PALL (F.),

LES CROISDE EN ORIENT AU BAS MOYEN AGE. OBSERVATIONS CRITIQUES SUR L'OUVRAGE DE M. ATIYA.

(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XIX, 1942; PP. 527 — 583).

181 — (PAULIN),

LES HISTORIENS DES CROISDES.

(PARIS, 1858; P. 23P.)

182 — PEARSON (J.D.),

CRUSADES

(INDEX ISLAMICUS: 1906 — 1955. LONDON, 1972, PP. 512 — 514).

FIRST SUPPLEMENT: 1956 — 1965, PP. 154 — 155.

SECOND SUPPLEMENT : 1961 — 1956, P. 159.

THIRD SUPPLEMENT, 1966 — 1970; PP. 207 — 208),

183 — PERMOND (R.

IN THE STEPS OF THE CRUSADERS.

(TRANSLATED FOROM FRENCH. HASTINGS, 1960).

184 — PETIT (MGR.),

LA VILLE DE TULPA AU TEMPS DES CROISADES.

(COMPTES RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLE — LETTRES, 1922, PP. 189 — 193).

185 — PONTIERI (E.),

I NORMANNI DELL' — ITALIA MERIDIONALE E LA PRIMA CROCIATA.

(ARCHIVIO STORICO ITALIAN, VOL. CXIV, 1955; PP. 547 — 563).

186 — PORGES (W.),

THE CLERGY, THE POOR AND THE NON — COMBATANTS ON THE FIRST CRUSADE.

(SPECULUM, VOL. XXVI, 1946; PP. 1 — 23).

187 — PRUTZ,

KULTURGESCHICHTE DER KREUZZUGE.

(BERLIN, 1883).

188 — QUELLER (D.E.), COMPTON (T.k.), CAMPBELL (D.A.), THE FOURTH CRUSADE: THE NEGLECTED MINORITY.

(SPECULUM, VOL. XLIX, 1974; PP. 441 — 463),

198 — RADI (IBTIHAJ OMAR),

ARABLMPACT ON THE WEST THROUGH THE CRUSADES

(IRAQ TODAY, VOL. V, NO III, APRIL 16 —30, 1980; PP. 20 — 23 , 25),

190 — RASHID,

NOTE SUR LA PRISON DE LOUIS IX A MANSOURAH.

(BULLETIN DE L'INSTITUT EGYPTIEN. 2 EME SERIE: NO 7, ANNEE 1886; PP. 78 — 89).

191 — REINAUD (J. T.),

EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES RELATIFS AUX GUERRES DES CROISADES.

(PARIS, 1829; XL VIII — 582 P.),

192 — RIANT (PAUL),

INVENTAIRE CRITIQUE DES LETTRES HISTORIQUES DES CROISADES.

(ARCHIVES DE L'ORIENT, VOL. I, PARIS, 1881; PP. 1 — 224).

193 — RISTELHUEBER (P.),

LA CROISES AU LIBAN.

(REVUE D'HISTORE DIPLOMATIQUE , VOL XXXI — XXXI, 1917; PP. 97 — 124).

194 — ROUSSET (P.),

L'IDEE DE CROISADE CHEZ LES CHRONIQUEURS D'OCCIDENT.

(REC. X, CONG. INT. SCI. STOR. 1955, VOL. III, PP. 547 — 563).

195 — ROY (E.),

LES POEMES FRANCAIS RELATIFS A LA PREMIERE CROISADE: POEME DE 1356 ET SES SOURCES.

(ROMANIA . VOL XXXV, 1929; PP. 411 — 468).

196 — RUEDA URETA (A. DE),

HISTORIA DE LAS CRUZADAS.(ARCHIVOS DEL INSTITUTO DE ESTUDIOS AFFRICANOS. VOL. XIX, NOM. 74, 1965; PP. 54 —70).

197 — RUNCIMAN (STEVEN),

THE BYZANTINE PROVINCIAL PEOPLES AND THE CRUSADE.

(REC. X, CONG. INT. STOR. 1955, VOL. III, PP. 621 — 624)..

198 — ————, THE CRUSADES OF 1101.

(JHB. OSTERREICH. BIZANT. GES., VOL. I, 1951; PP. 1 —12).

199 — ————, THE DECLINE OF THE CRUSADING IDEA (REO X, CON. INT. SCI., STOR., 1955, VOL. III, PP. 652) .

200 — ————, THE FIRST CRUSADE.

(CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS. CAMBRIDGE, 1980; 240P.).

201 — ————, THE FIRST RUSADER S' JOURNEY ACROSS THE BALKAN PENINSULA.

(BYZANTION, VOL. XIX, 1949; PP. 207 — 221).

202 — ————; GESCHICHTE DER KREUZZUGE UBERSEXT VON P.DE MENDELSSOHN.

(MUNCHEN, 1975; 1340P.).

203 — ————: HISTORU OF THE CRUSADE.

(3 VOLS., CAMBRIDGE UNIVERSEITY PRESS, 1951 — 1954). CRE - ISSUE. CAMBRIDGE 1968 — 1975 . VOL. I: XIV — 278P., VOL. II: XXII — 524P., VOL. III: XII — 530P.).

204 — ————: THE LEGACY OF THE CRUSADES.

(JOURNAL OF THE PAKISTAN HISTORICAL SOCIETY, XIII, 1965; PP. 293 — 305).

205 — SALMON (F.J),

A MAP OF PALESTINE OF THE CRUSADES

(PALESTINE EXPLORATION QUARTERLY, 1939; PP. 144 — 151).

206 — SANCHEZ CANDEIRA (A.),

LAS CRUZADES E LA HISTORIOGRPHIA ESPANOLO DE LA EPOCA.

TRADUCCION CASTELLANA DE UNA READCCION DESCONOCI-

DA DE LOS ANALES DE TIERRA SANTA. (HISPANIA), VOL. XX, 1960, PP. 325 — 367).

207 — SANDOLI (S. DE),
CORPLUS INSCRIPIONEN CRUCESICG NATORUM TERRAE SANCTAE (1099 — 1121)..
(JERUSALEM, 1974; 414P.)

208 — SANUTO (MARINO),
LIBER SECRETORUM FIDELIUM CRUCIS SUPER TERRAE SANCTAE RECUPERATIONE ET CONSERVATIONE.
(PUBLISHED IN BOUGARS GESTA DEI PER FRANCOS. HANOVER, 1611. REPRINT WITH A FOREWARD BY: J. PRAWER: 1972, 331P.),

209 — SCHAEDER (H.H.),
DAS ZEITALTER DES KALIFATS UND DER KREUZZUGE.
(FORSCHUNGEN UND FORTISCHRITTE, VOL. XIII, 1937; PP. 110 — 111).

210 — SCHLUMBERGER (GUSTAVE),
BIZANCE ET CROISSADES.
(PARIS, 1927).

211 — SCHWINGS (R. CH.),
KREUZZUGS IDEOLOGIE UND TOLERANZ IM DENKEN WILHELMS VON TYRUS.
(SAECuLUM, XXV, 1974; PP. 367 — 385).

212 — SETTON (KENNETH M.), AND BALDWIN (W.),
A HISTORY OF THE CRUSADES.
(2 VOLS., UNIVERSITY OF PENNSYLVANIA PRESS, PHILADEL PHIA, 1955 — 1958. 2 ND ED. 1969; 788P.).

213 — SIVAN (EMANUEL),
L'LSLAM ET LA CROISADE. IDEOLOGIE ET PROPAGANDE DANS LES REACTIONS MUSULMANES AUX CROISADES.
(PARIS, 1968; 222P.)

214 — ————: MODERN ARAB HISTORIO GRAPHY OF THE CRUSADES. (ASIAN AND AFRICAN STUDIES , VIII, 1972; PP. 109 — 149).

215 — SMALL (R..),
THE CRUSADERS IN SYRIA AND THE HOLY LAND. (LONDON, 1973; 232).

216 ———— : CRUSADING WAR ARE , 1097 — 1193 . (CAMBRIDGE, 1956).

217 — SPULER (B.),
THE ARAB EXPANSION AND THE CRUSADES.
(JOURNAL OF THE PAKISTAN HISTORICAL SOCIETY, VOL. XI, 1963; PP.1 — 14).

218 — STERNFELD (R.),
ABIRRUNGEN UND ABLENKUNGEN DER KREUZZUGE.
(HISTORISCHE ZEITSCHRIFT, VOL.. CVI, 1917; PP. 295 — 324).

219 — STEVENSON (W.R.),
THE CRUSADERS IN THE EAST.
(CAMBRIDE UNIVERSITY PRESS, 1907; XI — 387P. — 1 MAP).

220 — SUMBERG (L.A.M.),
THE TARFURS AND THE FIRST CRUSADE.
(MEDIAEVAL STUDIES, VOL. XXI, 1959; PP. 204 — 246),

221 — TOUBERT (P.),
LES DEVIATIONS ET LA CROISADE AU MILIEU DU XIII^E SIECLE: ALEXANDRE IV CONTRE MANFRED.
(MOYAN AGE, VOL. LXIX, 4 SER, 18 , 1963; PP. 39 — 399),

222 — TREECE (HENRY), THE CRUSADES. (NEW YORK, 1962).

223 — TSCHWDI (R.),
VON ISLAM ZUR ZEIT DER KREUZZUGE.
(ASIA MAJOR, VOL. IX, 1933; PP. 441 — 454).

224 — USAMAB. MUNQID, EIN LEBEN IM KAMPF GEGEN KREUZRITTERHEERE. AUS DEM ARABISCHEN UBERTRAGEN UND BEARBEITET VON G. POTTER.
(TUBINGEN, 1978; 260P.).

225 — VILLE — HARDOUIN,

LA CONQUETE DE CONSTANTINOPLE.

وهي مذكرات ڤيل هاردوان عن الحرب الصليبية الرابعة . وقد نقلها الى الفرنسية الحديثة : المسيوبوشيه . راجع : محمد عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ط٢ : القاهرة ؛ ص ١٤٨) .

226 — VILLE — HARDOUIN,

MEMOIRS OF THE CRUSADES.

وهي مذكرات ڤيل هاردوان عن الحرب الصليبية الرابعة . وقد نقلها الى الانكليزية : السر مارزيالس . (راجع : محمد عبد الله عنان . مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ط٢ : القاهرة ١٩٦٩ ؛ ص ١٤٨) .

227 — VILLEY (M.),

L'LDEE DE LA CROISADE CHEZ LES JURISTES DU MOYEN — AGE.

(REC. X CONG. INT. SCi. STOR. 1955, VOL. III, PP. 565 — 594) ,

228 — VON SYBEL.

GESCHICHTE DES ERSTEN KREUZZUGE,

229 — ————: HISTORY AND LITERATURE OF THE CRUSADES.

(EO. LADY DUFF GORDON).

230 — WAAS (A.),

RELIGION, POLITIK UND KULTUR IN DER GESCHICHTE DER KREUZZUGE.

(WELT ALS GESCHICHTE, VOL. XI, 1951; PP. 225 — 248).

231 — WEITZMANN (K.).

THIRTENENTH CENTURY CRUSADER ICONS ON MOUNT SIANAi.

(ART BULLETIN, VOL. XLV, 1963; PP. 179 — 203).

232 — WENZLAFF — EGGEBERT (F.W.),

KREUZZUGSIDEE UND MITTELALTERLISCHES WELTBILD.

KREUZZUGSIDEE UND MITTELALTERLISCHES WELTBILD.

(DEUTSCHE VIERTELJARSSCHRIFT FUR LITTERATURWIS. UND GEISTE — GESCH. , VOL. XXX, 1966, PP. 71 — 88).

233 — WEST (ANTHONY),

THE CRUSADES.

(NEW YORK, 1954).

234 — WHITE (LYNN),

THE CRUSADES AND THE TECHNOLOGICAL THRUUST OF THE WEST.

(IN: PARRY ° YAPP : WAR, TECHNOLOGY AND SOCIETY IN THE MIDDLE EAST, OXFORD, 1975; PP. 97 — 112).

235 — WOLF (R..L.), AND HAZARD (H.W.),

THE LATER CRUSADES, 1189 — 1311.

(2 NED., 1969; 894P.).

236 — YOUSSEF (JOSEPH NSSIM),

THE CRUSADE OF LOUIS IX ON SYRIA.

(BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS, ALEXANDRIA VOL. XVII, 1963; PP. 57 — 69).

مباحث غفل من اسماء كاتبيها

237 — THE CRUSADES AN OTHER HISTORICAL ESSAYS, PRESENTED TO D. C. MUNRO.

(1928, REPR. 1968.

238 — GESTA FRANCORUM

(ED. ET TRAD. PAR BREHIER).

وهي الحروب الفرنجية عن الحرب الصليبية الاولى .

239 — RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:

HISTORIENS OCCIDENTAUX

(4 VOLS., PARIS).

240 — RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:

HISTORIENS ORIENTAUX.

(5 VOLS., PARIS, 1872 — 1884).

وراجع مادة : « مكتبة الحروب الصليبية في المصادر العربية من بحثنا هذا الرقم ١٥٦ .

* * *

المحتوى

● سعر المجلة

العراق	٧٥٠	فلس
الاردن	٧٥٠	فلس
مصر	٧٥٠	مليم
السودان	٧٥٠	مليم
المغرب	١٠	دراهم
تونس	١	دينار تونسي
السعودية	١٠	ريالات
الامارات	١٠	دراهم
الكويت	٧٥٠	فلس
البحرين	١	دينار بحريني
قطر	١٠	ريالات
اليونان	١٠٠	دراخما
انجلترا	٢	جنيه استرليني

الاشتراكات

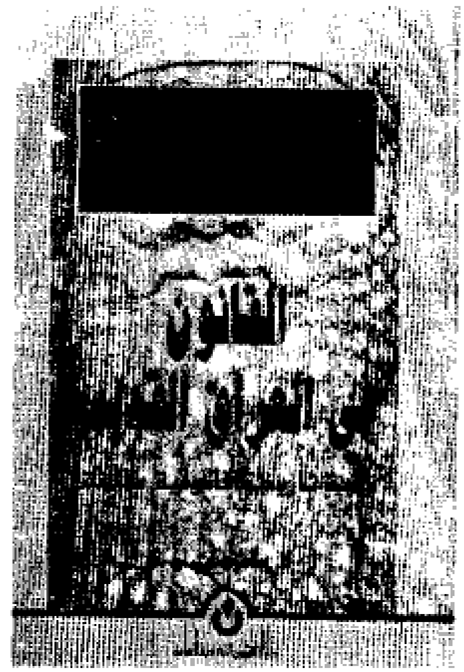
داخل العراق	٥	دنانير
في الوطن العربي	٤٠	دولارا
في الدول الاوربية	٤٥	دولارا
في امريكا والاتحاد السوفياتي	٥٥	دولارا

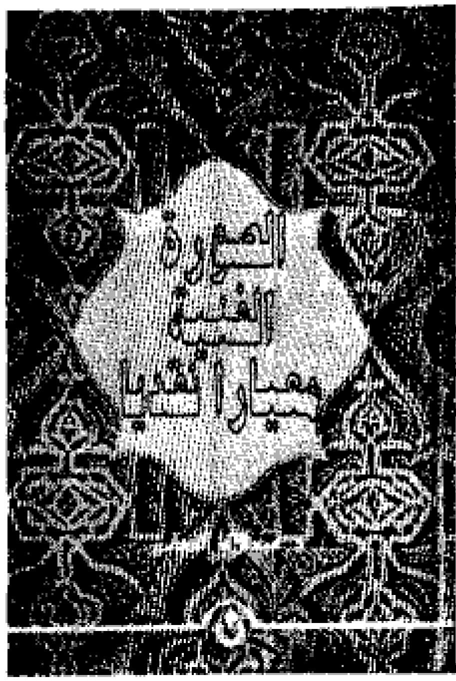
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٠٠) لسنة ١٩٨٧

دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد

صدر عن

دار الشؤون الثقافيـــة العامة :



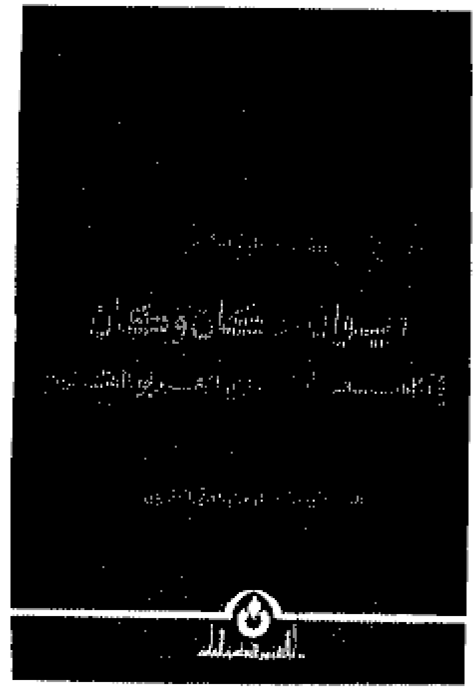


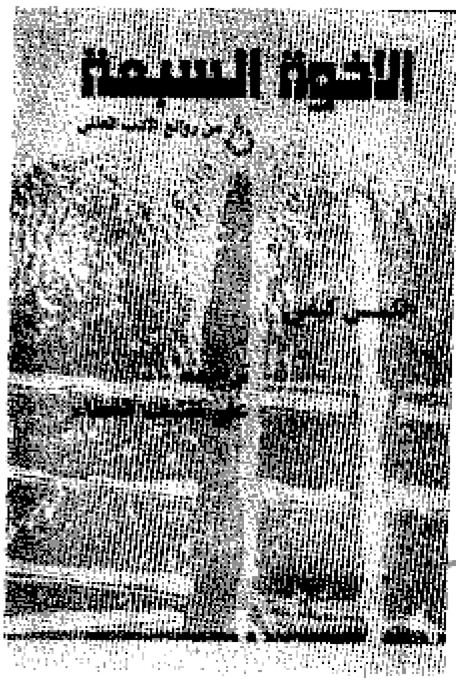


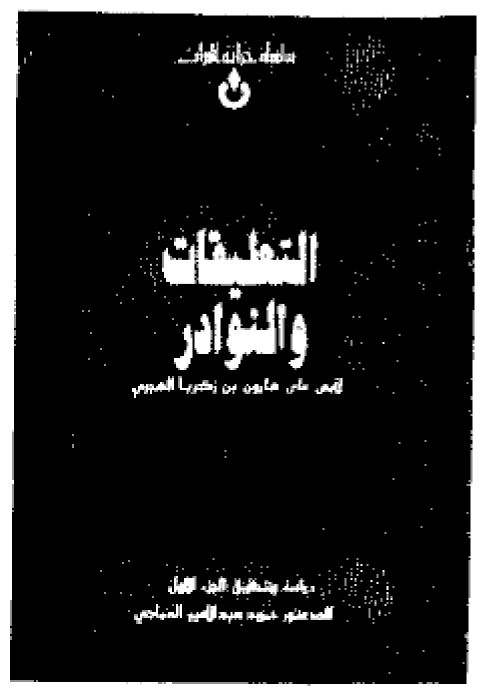


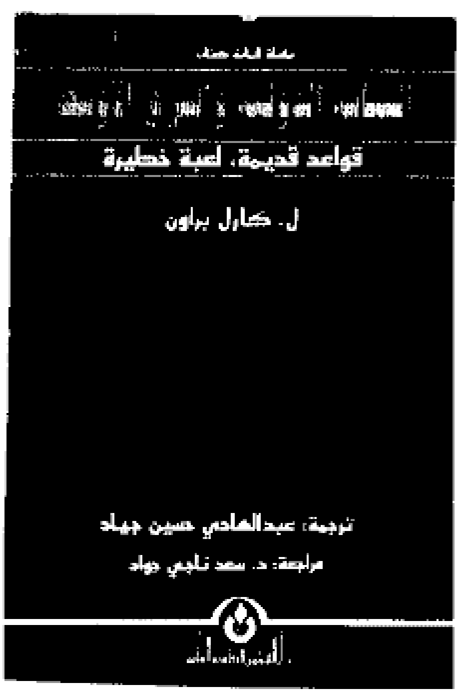
صدر عن

دار الشؤون الثقافيــة العامة :





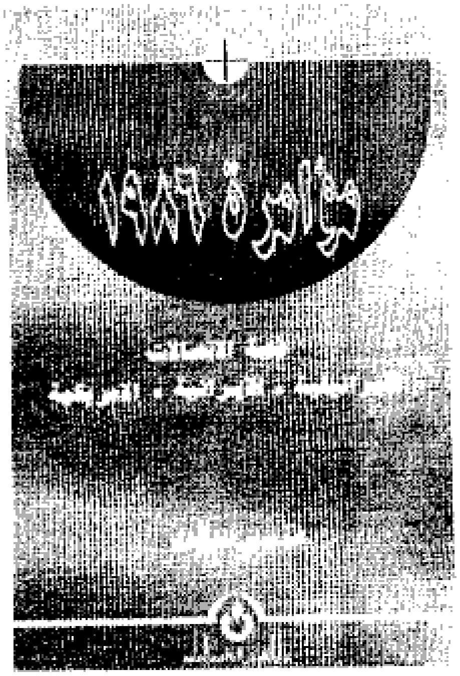




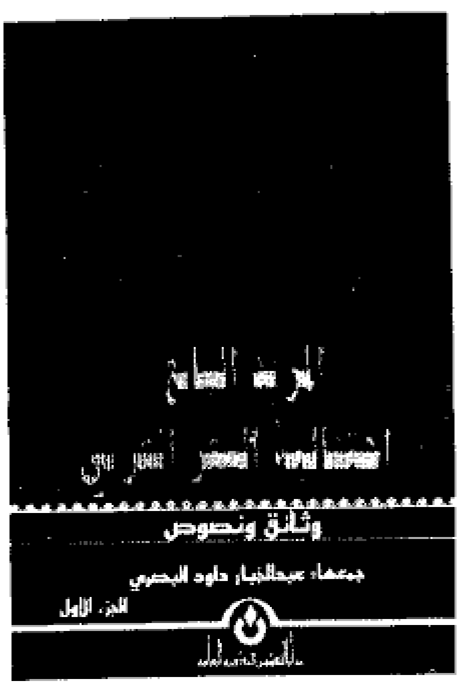
٢٥٤٠ صدر عن

دار الشؤون الثقافيـة العامة :









AL_MAWRID

A QUARTERLY JOURNAL OF CULTURE AND HERITAGE

ISSUED BY THE MINISTRY OF CULTURE AND INFORMATION

BAGHDAD REPUBLIC OF IRAQ

Volume 16 Number 4, 1987

السعر ٧٥٠ فلساً

٦٠٠ مليم في جمهورية مصر العربية
١٠ دراهم في المغرب

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية

الغلاف رياض عبد الكريم